

باتريك جيه. بوكانن

موت الغرب

أثر شيخوخة السكان وموتهم
وغزوات المهاجرين على الغرب

نقله إلى العربية
محمد محمود التوبة

راجعه
محمد بن حامد الأحمري



مكتبة العبيكان

باتريك جيه. بوكانن

موت الغرب

أثر شيخوخة السكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب

نقله إلى العربية

محمد محمود التوبة

راجعه

محمد بن حامد الأحمري

مكتبة العبيكان

Original Title:

The Death of The west

How Dying Populations And Immigrant Invasions Imperil our Country and Civilization

by:

Patrick J.Buchanan

ISBN 0 - 312 - 30259 - 2

printed by: Tomas Dunne Books, St.Martin's Griffin, NewYork, U.S.A

الرياض 11595، المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص. ب. 62807

Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى 1426هـ ـ 2005م

ISBN 7 - 699 - 40 - 9960

ح مكتبة العبيكان، 1426هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بوكونان، باتريك جيه

موت الغرب. / باتريك جيه بوكونان؛ محمد محمود التوبة. - الرياض 1426هـ.

530 ص؛ 14 × 21 سم

ردمك: 7 - 699- 40 - 9960

1 ـ الحضارة الغربية أ. التوبة، محمد محمود (مترجم)

ب. العنوان

ديوي: 940 1426 / 609

رقم الإيداع: 609 / 1426

ردمك: 7 - 699- 40 - 9960



هذه هي الطريقة التي ينتهي بها العالم

هذه هي الطريقة التي ينتهي بها العالم

هذه هي الطريقة التي ينتهي بها العالم

بلا ضجيج بل بالأنين والنشيج

– ت. س. إليوت

"الرجال الجوف"

واختلج عرق ذاو في دماغها اختلاجا خفيفا، ورقت بكلامها، وابتسمت، وقصت عليه عن جدها الذي كان وصيفا في تتويج الملكة فكتوريا قال: "كان ذلك عالماً آخر."

فصححت له: "بل كانت حضارة أخرى، وهي الحضارة التي ولدتُ فيها. لقد ماتت. أقول ماتت، ولا أقول تلاشت، لأنها كانت كائنا عضويا حيا، كانت حضارة تقوم على أساس الأسرة. وما حل محلها ليس كائنا حيا، إنه مجتمع متذرذر، بدون أمن، وبدون دفء، إنه فوضى من علاقات متشظية ميكانيكية. أوه، أنا أعرف، مثلما تعرف أنت أيضا، أن عالمي ذاك لم يكن كل شيء فيه على ما يرام، كان فيه جهل وفقر، ولكن الطريق الصحيح لم يكن في تمزيق ذلك العالم لاستبدال الفوضى به، كان ينبغي للأساس الأسري أن يوسع، وأن يصان، وأن يشجع.

– ستورم جاميسون، ١٩٦٦

مطلع حياة ستيفن هايند

المحتويات

المقدمة

يا سيد "بات، إننا نفقد البلد الذي نشأنا فيه."

مرة تلو الأخرى سمعت هذا الرثاء في الحملة الانتخابية الطويلة في العام ٢٠٠٠ من الرجال والنساء عبر ربوع أمريكا. ولكن ما الذي يعنونه بهذا القول؟

لماذا ينبغي للحزن أو للاكتئاب. وكأن والد المرء كان في نزع الموت وليس هناك من شيء يمكن عمله. أن يزحف إلى قلوب الأمريكيين في نهاية "القرن الأمريكي الثاني"؟ ألم تكن هذه الأوقات، كما ذكّرنا السيد كلينتون باستمرار، هي أفضل الأوقات في أمريكا، ففيها أخفض نسب البطالة والتضخم في غضون ثلاثين عاما، وفيها تنخفض معدلات الجريمة، وفيها ترتفع الدخول محلقة؟ ألسنا كما تقول مادلين أولبرايت ولم تتوقف عن التبجح "الأمة التي لا يستغنى عنها"؟ ألم يكن هذا هو زماننا، كما ينفخ السيد بوش في أبواقه، زمن "القوة العسكرية التي لا تنافس، والوعد الاقتصادي، والتأثير الثقافي"؟[1] لقد ربحنا الحرب الباردة. وأفكارنا كانت تربح في كل أرجاء العالم. عم يتحدثون؟ وما هي مشكلتهم؟

إن مشكلتهم هي هذه: إن أمريكا تعرضت لثورة ثقافية واجتماعية. ونحن لسنا البلاد نفسها التي كُنّاها في ١٩٧٠ أو حتى في ١٩٨٠. لسنا الشعب نفسه. بعد انتخابات ٢٠٠٠، قال وليام ماك إنترف، وهو مستطلع للرأي العام، في تصريح للواشنطون بوست: "عندنا قوتان ضخمتان تصطدمان. واحدة ريفية، مسيحية، محافظة دينيا. [والأخرى] متسامحة اجتماعيا، توافق على تخيير المرأة بين الحمل أو عدمه، علمانية، تعيش في نيو إنجلاند وعلى شاطئ المحيط الهادئ..."[٢]

قال دزرائيلي عن إنجلترا في العصر الفيكتوري إنها كانت "أمتين"، أغنياء وفقراء.[٣] وكتب الروائي جون دوس باسوس بعد محاكمة ساكو وفانزيتي، "حسنا، نحن أمتان."[٤] وعندما كنت أنصت إلى الخطاب الافتتاحي للرئيس بوش، علق في الذهن سطر منه. فقد بدا أن الرئيس بوش قد سمع ما سمعت، ووجد ما وجدت، فقال: "وأحيانا تنساب خلافاتنا عميقا، إلى الدرجة التي يبدو فيها أننا نتقاسم قارة، ولكنها ليست بلدا."[٥]

وفي الوقت الذي خلقت فيه أحداث ١١ سبتمبر المروعة وحدة وطنية لم نشهدها منذ بيرل هاربر. خلف الرئيس بوش وتصميمه على أن يعاقب مرتكبي المذبحة التي ارتكبت بحق ٥٠٠٠ أمريكي. فإن تلك الأحداث كشفت أيضا خط انقسام جديد. إن الصدع الذي

أصاب بلادنا ليس متعلقا بالدخل، أو بالإيديولوجية، أو بالعقيدة، ولكنه متعلق بالعرقية وبالولاء. فجأة، استفقنا على الإدراك بأن من بين ملايينا من الذين ولدوا أجانب ثلثاً يقيم إقامة غير قانونية، وبأن عشرات من الألوف موالون لأنظمة حكم يمكن أن نكون في حالة حرب معها، وبعض هؤلاء المقيمين مدربون ليكونوا إرهابيين أرسلوا هنا ليقتلوا الأمريكيين. ولأول مرة منذ أن دحر أندرو جاكسون البريطانيين إلى خارج لويزيانا في العام ١٨١٥، هناك عدو داخل الأبواب، والشعب الأمريكي معرض للخطر في بلده. في هذه الأيام بعد ١١سبتمبر، رأى الكثيرون فجأة كيف تغير وجه أمريكا في أثناء مدة حياتهم الخاصة.

عندما أقسم الرئيس نكسون اليمين في المنصب في العام ١٩٦٩، كان هناك تسعة ملايين نسمة ولدوا أجانب يعيشون في أمريكا. وعندما رفع الرئيس بوش يده للقسم كان العدد يقارب ثلاثين مليونا. ويدخل تقريبا مليون مهاجر في كل عام، ويدخل معهم نصف مليون من الغرباء بشكل غير قانوني. ويقدر الإحصاء المعدل لعام ٢٠٠٠ عدد المقيمين غير القانونين في الولايات المتحدة بتسعة ملايين. وتقدرهم الجامعة الشمالية الشرقية بأحد عشر مليونا، أي أن هناك من الغرباء غير القانونيين ما يساوي عدد الناس في ألاباما، ومسيسيبي، ولويزيانا.[٦] وفي كاليفورنيا، هناك من الذين

ولدوا أجانب ٨,٤ من الملايين، وهذا أكثر من الناس في نيو جرسي، وهناك من الذين ولدوا أجانب في ولاية نيويورك ما يفوق عدد الناس في كارولاينا الجنوبية. وحتى الموجة العظمى من الهجرة التي جاءت من العام ١٨٩٠ إلى العام ١٩٢٠ لم تكن شيئا مثل هذا.

كتب إسرائيل زانغويل، الكاتب المسرحي اليهودي الروسي، في مسرحيته المشهورة بوتقة الانصهار،[٧] في العام ١٩٠٨: "أمريكا هي بوتقة الله، هي بوتقة الانصهار العظيمة، وفيها تذوب كل أجناس أوروبا ويعاد تشكيلها." ولكن موجة الهجرة الهائلة، الآتية مثل موجة ضخمة في المحيط أحدثها زلزال أو بركان، والمتدحرجة فوق أمريكا ليست قادمة من "كل أجناس أوروبا." وأضخم رحيل للسكان في التاريخ يأتي من كل أجناس آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وهم لا "يذوبون ويعاد تشكيلهم."

في العام ١٩٦٠ كان هناك ستون مليون أمريكي فقط لا يرجعون بأجدادهم إلى أوروبا. أما اليوم فالعدد يبلغ ثمانين مليونا. وليس هناك من أمة سبق لها أن عانت تحولا بمثل هذه السرعة والجذرية. في ولاية بورتلاند في العام ١٩٩٨ تحدث السيد كلينتون بالثناء البالغ والحماسة إلى جمهور من الطلاب الهاتفين له عن يوم سيكون فيه الأمريكيون المنحدرون من أوروبا أقلية:

> اليوم، وبسبب الهجرة إلى حد كبير، ليس هناك جنس غالب في هاواي أو في هيوستون أو في مدينة نيويورك. وفي غضون خمس

سنوات لن يكون هناك جنس هو الأغلبيــة في أكـبـر ولاياتنا، كاليفورنيا. وفي أكثر قليلا من خمسين سنة لن يكون هناك جنس هو الأغلبية في الولايات المتحدة. وليس هناك من أمة أخرى في العالم خبرت التغيير السكاني في مثل هذه الضخامة وفي مثل هذا الوقت القصير.[8]

تصحيح: ليس هناك من أمة في التاريخ خبرت التغيير السكاني في مثل هذه الضخامة، وفي مثل هذا الوقت القصير، وبقيت هي الأمة نفسها . لقد أكد لنا السيد كلينتون بأنها ستكون أمريكا أفضل عندما نكون كلنا أقليات وندرك "التنوع" الحقيقي . حسنا، هؤلاء الطلاب سيكتشفون ذلك، لأنهم سوف يقضون سنواتهم الذهبية في أمريكا عالم ثالث.

الهجرة غير المسيطر عليها تهدد بتفكيك الأمة التي نشأنا فيها، وتحول أمريكا إلى شعوب ململمة بدون أي شيء مشترك بينها تقريبا . لا التاريخ، ولا الأبطال، ولا اللغة، ولا الثقافة، ولا العقيدة، ولا الأجداد . البلقنة تومئ. ويكتب جاك بارزن في تاريخه للغرب من الفجر إلى الانحطاط: "إن أقوى اتجاه في أواخر [القرن العشرين] كان هو الاتجاه نحو الانفصالية.. لقد أثرت في كل أشكال الوحدة.. إن مثال التعددية قد تفكك وأخذت الانفصالية مكانه. وكما قال أحد المتحزبين لهذا الهدف، "صحن السلطة أفضل

من بوتقة الانصهار".[9] (*) إن أمم أوروبا العظيمة بدأت تتجزأ. ويكتب بارزن:

> إذا ما مسح المرء الغرب.. فإنه يستطيع أن يرى أن أعظم إبداع سياسي للغرب، وهو الدولة ـ الأمة، قد ضرب. في بريطانيا العظمى حازت الممالك السابقة في سكوتلاندا وفي ويلز على برلمانات حكم ذاتي، وفي فرنسا صاح البريتون، والباسك، وسكان الألزاس يطالبون بالسلطة الإقليمية. وكورسيكا أرادت الاستقلال مع لغة خاصة بها. وإيطاليا تؤوي عصبية تعمل على فصل الشمال عن الجنوب، والبندقية أنتجت حزبا صغيرا يريد أن تكون مدينتهم ولاية منفصلة..[10]

وفي الوقت الذي يعيد الناس ولاءهم للبلاد التي جاؤوا منها، فإن النخب العابرة للقوميات تشدنا في الاتجاه المعاكس. ويُنادى الآن على المكشوف بالتسليم الأخير للسيادة القومية للحكومة العالمية. ومن وولتر كرونكايت إلى ستروب تالبوت، ومن الجمعية الفدرالية العالمية إلى قمة الألفية في الأمم المتحدة، يتنامى الكورس.

في ماسترخت في العام ١٩٩١، قررت خمس عشرة دولة أوروبية بما فيها فرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، وبريطانيا العظمى أن

(*) تعبير ألفه الأمريكان وهو يعني أن الفروق تذوب في أمريكا وتصبح الهوية أمريكية فقط دون معرفة أصله أما صحن السلطة فإن عناصره تبقى واضحة متميزة".

تبدأ بتحويل منطقتهم للتجارة الحرة إلى اتحاد سياسي ونقل سلطاتهم السيادية إلى دولة كبيرة اشتراكية فوق الدول. وفي العام ٢٠٠٠ جاء إلى هنا الرئيس المكسيكي المنتخب ليعرض اتحاداً لشمال أمريكا من كندا، والمكسيك، والولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن محو حدودنا سيعني نهاية أمتنا، فإن فاسنت فوكس قد استقبل وجرى الترحيب به في وسائل الإعلام الأمريكية بوصفه صاحب رؤية وبعد نظر، وعبر الرئيس كلينتون عن أسفه بأنه قد لا يكون موجودا ليرى هذا الاتحاد متحققا: وقال "أعتقد بأن بلدينا، على المدى البعيد، سيصيران أكثر اعتمادا إحدهما على الآخر.. ستكون هذه هي طريقة العالم.. ويؤسفني أنني لن أكون موجودا عند تنفيذ الكثير منها. ولكني أعتقد بأنها شيء جيد."[١١]

وليست أمريكا محصنة ضد القوى الانفصالية. والإحساس بأن أمريكا أيضا، تشد باتجاه التفكك على طول خطوط سلالات الجنس والعرق العنصري هو إحساس ينتشر. وزيادة على ما تقدم فإن أمريكا قد عانت ثورة ثقافية وهناك الآن نخبة جديدة تحتل المناصب العليا الحاكمة. وتقوم هذه النخبة من خلال إمساكها بالمؤسسات التي تشكل وتبث الأفكار، والآراء، والمعتقدات، والقيم. التلفاز، والفنون، والترفيه، والتربية والتعليم. تقوم هذه النخبة بخلق شعب جديد. فنحن لم نبق شعبا واحدا أو "أمة واحدة تحت رعاية

الله" لا من ناحية السلالات الجنسية والعرقية العنصرية فقط بل ومن الناحية الثقافية والأخلاقية أيضا.

لقد بدأ الملايين يشعرون بأنهم غرباء في أرضهم. إنهم يصدون عن ثقافة عامة مشبعة بالجنس الفج وتنفخ في البوق لقيم اللذات. إنهم يرون الأعياد القديمة تختفي ويرون الأبطال القدامى يحط من أقدارهم. إنهم يرون فن الماضي المجيد ومشغولاته اليدوية تُزال من متاحفهم ويوضع بدلا عنها ما يثير الكآبة، والقبيح، والمجرد، والمناوئ لأمريكا. إنهم يشاهدون الكتب التي أحبوها تختفي من المدارس التي درسوا فيها، كي تستبدل بمؤلفين وبعناوين لم يسمعوا بها من قبل أبدا. والنظام الأخلاقي الذي نُشّئوا ليعيشوا وفقه قد هدم. والثقافة التي ترعرعوا معها تموت داخل البلد الذي نشؤوا فيه.

في مدى نصف مدة العمر، رأى العديد من الأمريكيين أن إلههم قد أزيح عن عرشه، وأن أبطالهم قد انتقصت أقدارهم، وأن ثقافتهم قد لوثت، وأن قيمهم قد هوجمت، وأن بلادهم قد غزيت، وأنهم هم أنفسهم قد نظر إليهم بصفتهم شياطين متطرفين ومتعصبين لأنهم تمسكوا بمعتقدات تمسك بها الأمريكيون لأجيال. وكما قال بيرك " لكي تجعلنا نحب بلادنا يجب على بلادنا أن تكون حبيبة جميلة."[١٢٠] وفي العديد من النواحي لم تبق أمريكا حبيبة جميلة. وعلى الرغم من أنها تبقى بلدا عظيما، فإن العديدين

يتساءلون إن كانت أمريكا ما تزال بلدا طيبا جيدا. والبعض يشعر أنها لم تبق بلدهم. ويقولون: نحن لم نترك أمريكا بل إن أمريكا هي التي تركتنا. وكما كتب يوريبيديس* ليس هناك حزن على وجه الأرض أكبر من فقد الإنسان لأرضه الوطنية."[١٣]

عندما استسلم جيش كورنواليس وخرج من يوركتاون عزفت المزامير والطبول في فرقة موسيقية "انقلب العالم رأسا على عقب." والآن فإن عالمنا قد انقلب رأسا على عقب. ما كان حقا وصدقا بالأمس هو اليوم خاطئ وكاذب. وما كان غير أخلاقي ومخزيا . الزنا، والإجهاض، والانتحار، والقتل الرحيم. قد صار تقدميا ويستحق الثناء. وقد سمى نيتشه ذلك نقل التقييم لكل القيم. الفضائل القديمة تتحول إلى خطيئات، والخطيئات القديمة تتحول إلى فضائل.

في كل بضع سنوات، تنفجر عاصفة عندما تفلت من شخصية عامة كلمات تقول: "إن أمريكا أمة مسيحية !" لقد كانت في السابق، ومع ذلك فإن أكثرية من الناس ما تزال تسمي نفسها مسيحية. ولكن ثقافتنا السائدة ينبغي أن تسمى بدقة أكبر ثقافة ما بعد المسيحية، أو الثقافة المناوئة للمسيحية، لأن القيم التي تحتفي بها هي النقيض لما كان يعني أن تكون مسيحيا.

كانت أول توصية تلقاها موسى (عليه السلام) على جبل سيناء "أنا الله ربك، لا ينبغي لك أن تتخذ آلهة من دوني." ولكن الثقافة

الجديدة ترفض الله الذي جاء في العهد القديم وتحرق بخورها على مذبح الاقتصاد العولمي. إن "أرباب سوق الشاعر" كبلينغ قد نحّت رب الإنجيل جانبا. وغدا الجنس، والشهرة، والمال، والسلطة هي كل ما تدور حوله أمريكا.

إننا بلدان، وشعبان. أمريكا قديمة تموت، وأمريكا جديدة تنال ما تستحق. الأمريكيون الجدد الذين نشؤوا في الستينات من ١٩٦٠والسنوات التالية لها لم يحبوا أمريكا القديمة. حسبوها بلدا متعصبا رجعيا قمعيا مملا. ولذلك نفضوا الغبار عن أعقابهم وانطلقوا يبنون أمريكا جديدة، وقد نجحوا. وبالنسبة إلى شمامسة الثورة الثقافية كانت الثورة مجيدة. وبالنسبة للملايين فإن هؤلاء قد استبدلوا البلد الطيب الذي نشأنا فيه بأخر هو أرض اليباب الثقافي وأنابيب تصريف المجاري الأخلاقية التي لا تستحق أن يعيش المرء فيها ولا تستحق أن يقاتل في سبيلها. إنها بلدهم، وليست بلدنا.

في انتخابات ٢٠٠٠ كانت الخلافات السياسية بين أحزاب الطريق الدائري(*)غير ذات أهمية. السيد بوش أراد تخفيضا كبيرا في الضريبة أكثر مما أراد السيد غور لأن هذا الأخير يريد أن يصرف أكثر على الدواء الموصوف في وصفات طبية. لماذا إذن

(*) هو الخط الدائري المحيط بالعاصمة.

المرارة والحدة لإعادة عد الأصوات في فلوريدا؟ قال تيري تيتشاوت في تقييمه الذي كتبه بعد الانتخابات عن أمريكا المستقطبة: "إن الشدة في العداء التي تنازع بها معسكرا بوش وغور حول نتائج الانتخابات في العام ٢٠٠٠ عكست بوضوح كبير جدا ضخامة خلافاتهما الثقافية، وقد يكون أن لهجة أجواء ذلك النزاع سوف تميز السياسة الأمريكية طوال المستقبل المنظور."[١٤٠]

بالضبط. إن همجية سياستنا تعكس عمق الانقسام الأخلاقي الذي يفصلنا بصفتنا أمريكيين. مئات المرات في الحملة الانتخابية لعام ٢٠٠٠ كان يجئ ناخب أو ناخبة ويقول لي إنه صدّقني ووافق معي، ولكنه لا يستطيع أن يصوت لي. هؤلاء الناس كان عليهم أن يصوتوا لبوش، لأن بوش فقط كان يستطيع أن يبقي غور خارج البيت الأبيض، و "علينا أن نوقف غور !" لم يكن الأمر أنهم اختلفوا مع كلينتون وغور. لقد كرهوهما. إن الثورة الثقافية قد سممت السياسة الأمريكية، ولم نبدأ بعد برؤية الأسوأ في ذلك.

في الساعات التي تلت ذلك الصباح المرعب في ١١ سبتمبر، اجتمع الأمريكيون مرة ثانية . في الأسى والحزن على خسائرنا المروعة، وفي الإعجاب والاحترام للإطفائيين الأبطال الذين هرعوا إلى مركز التجارة العالمي حين كان آخرون يهرعون خارجين منه طلبا للسلامة، وفي غضبنا وتصميمنا على أن نطبق العدالة على

الذين فعلوا هذا لأبناء بلادنا. ولكن مع مجيء شهر أكتوبر، بدأت تلك الوحدة تتلاشى. ولن تعمر، بعد انتصاراتنا الأولى في الحرب ضد الإرهاب، أكثر مما عمر الدعم الذي وصلت نسبته ٩٠ بالمائة للرئيس بوش الأول بعد نصره في عاصفة الصحراء. وذلك لأن انقساماتنا متجذرة في أعمق معتقداتنا، وحول هذه المعتقدات ينقسم الأمريكيون تقريبا بقدر ما كنا منقسمين عندما أعطى الجنرال بوريغارد الأمر بإطلاق النار على فورت سمتر.

مرة أخرى ينفصل أحدنا عن الآخر، ولكنه في هذه المرة فقط، انفصال في القلوب.

في خطاب من أكثر الخطابات إثارة للنزاع العام في القرن العشرين قلت في العام ١٩٩٢ للمؤتمر الوطني الجمهوري المجتمع في هيوستن:

> أيها الأصدقاء، إن هذه الانتخابات تدور حول أكثر من مجرد من يحصل على ماذا. إنها تدور على من نكون نحن. إنها تدور حول ما نعتقد، إنها تدور حول ما الذي نعنيه ونمثله نحن بصفتنا أمريكيين. هناك حرب دينية تقوم في بلادنا من أجل روح أمريكا. إنها حرب ثقافية، وهي على الدرجة نفسها من الحسم بالنسبة إلى نوع الأمة التي سنكونها يوما ما مثلما كانت الحرب الباردة حاسمة بالنسبة إلينا. وفي ذلك الصراع من أجل روح أمريكا، فإن كلينتون وكلينتون

في الجانب الآخر، وجورج بوش في جانبنا. وبهذا فإن علينا أن نعود للبيت. ونقف إلى جانبه.[15]

أشعلت هذه الكلمات عاصفة نارية ظلت لاهبة طوال العام ١٩٩٢، ولم تخمد نارها حتى الآن. وقيل عن كلماتي إنها كانت مفرقة ومفعمة بالكراهية. كلماتي لم تكن كذلك.كانت مفرقة ومفعمة بالحقيقة. دع الآخرين يحكمون، بعد ثماني سنوات، هل كنت قد قلت الحقيقة أم لا عن بِلّ وهيلاري كلينتون .

ولكن السيد كلينتون أُنقذ من اتهام معين لأنه شَخْصنَ الجانب الآخر من تلك الحرب الثقافية، ولأن إزاحته كانت ستعرض مكاسب العقد للمخاطر. وما من ديمقراطي واحد صوت لإدانة السيد كلينتون وهذا الموقف يشهد بنجاح الثورة في الإطاحة بالنظام الأخلاقي القديم وبمعاييره الموضوعية للحقيقة، والأخلاقيات، والعدالة. وبالنسبة للنخبة الجديدة، فإن ما يقدم الثورة أخلاقي، وما يهددها لاأخلاقي. بين الشيوخ الديمقراطيين والمحلفين في قضية أو. جيه. هناك تعادل أخلاقي: انتصرت الحقيقة، والعدالة، والأخلاقيات في كلتا القضيتين لأن جانبنا ربح ورجلنا أفلت من العقوبة.

إن الثورة البلشفية التي بدأت باجتياح القصر الشتوي في العام١٩١٧ ماتت مع سقوط جدار برلين في العام ١٩٨٩. وكان حلم المؤمنين الحقيقيين بها هو خلق إنسان اشتراكي جديد. ولكن رعب

الشرطة، ومعسكرات الغولاغ، وسبعين عاما من إشراب الأطفال بكراهية الغرب وبتفوق ماركس ولينين لم تنجح. كانت الشيوعية هي الإله الذي فشل. وعندما انهار البناء القوي الذي بني على أساس من الأكاذيب قامت شعوب أوروبا الشرقية وروسيا برمي تماثيل ستالين ولينين وكتب ماركس وأنجلز إلى مزبلة التاريخ بدون الالتفات إلى الخلف.

ولكن الثورة التي انفجرت في الستينيات من ١٩٦٠في ساحات الجامعات نجحت حيث فشلت ثورة لينين. لقد مدت جذوراً في المجتمع، وخلقت أمريكا جديدة. ومع مجيء العام ٢٠٠٠ صارت الثقافة المناهضة في الستينات من ١٩٦٠ هي ثقافتنا المهيمنة، واعتُرِف بانتصارها، وإن بتردد، عندما رفعتْ القاعدةُ السياسية لمعسكر المحافظة العلم الأبيض في فيلادلفيا. وبالنسبة للقضايا الأخلاقية والاجتماعية ـ القتال من أجل قداسة الحياة الإنسانية وعودة الله إلى الميدان العام لهذه البلاد التي اعتدنا أن ندعوها "بلاد الله" ـ فإن الحزب الجمهوري رفع قفازاته وناشد، " لا مزيد"

في كتاب موت الغرب آمل أن أصف هذه الثورة ـ ماذا تعنيه، ومن أين جاءت، وكيف مضت تزيح إلهنا عن عرشه، وتدمر معابدنا، وتغير معتقداتنا، وتأسر النشء من الشباب، وبم ينذر انتصارها. وذلك لأن هذه الثورة ليست فريدة بالنسبة لنا، لقد أمسكت بكل أمم الغرب. إن حضارة، وثقافة، وإيمانا، ونظاما أخلاقيا متجذرا

في ذلك الإيمان كلها تزول وتموت ويستبدل بها حضارة جديدة، وثقافة جديدة، وإيمان جديد، ونظام أخلاقي جديد.

ولكن عنوان الكتاب هو موت الغرب. فعلى الرغم من أن حربنا الثقافية قد قسمتنا، والهجرة الضخمة تعرض أمريكا لخطر البلقنة، فإن هناك أزمة أخطر وأقرب تكاد تقع.

الغرب يموت. لقد توقفت أممه عن التكاثر، وتوقف سكانه عن النمو وبدؤوا بالانكماش. ولم يقم منذ الموت الأسود الذي حصد أرواح ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر تهديد أخطر لبقاء الحضارة الأوروبية من هذا الخطر الماثل. اليوم، هناك سبعة عشر بلداً أوروبياً فيها جنازات دفن أكثر من احتفالات الولادة، وهناك أكفان أكثر من المهود. والبلدان هي: بلجيكا، وبلغاريا، وكرواتيا، وجمهورية التشيك، والدانمارك، وإستونيا، وألمانيا، وهنغاريا، وإيطاليا، ولاتافيا، وليتوانيا، والبرتغال، ورومانيا، وسلوفاكيا، وسلوفينيا، وإسبانيا، وروسيا.[١٦] والكاثوليك، والبروتستانت، والأرثوذكس. أي جميع ملل الإيمان المسيحي ممثلون في المسيرة العظيمة لموت الغرب.

يبدو أن مبدأ اللذة الجديد غير قادر على إعطاء الناس سببا كافيا ليستمروا في الحياة. وثماره المبكرة تبدو سامة. فهل ستبرهن هذه الثقافة الجديدة "المحررة" التي احتضنها شبابنا بحماسة على

أنها عامل مسرطن أقتل منها كلها؟ وإذا كان الغرب في قبضة "ثقافة الموت" كما يجادل البابا وكما تبين الإحصاءات على ما يبدو، فهل توشك الحضارة الغربية أن تلحق بإمبراطورية لينين إلى النهاية المشينة نفسها؟

قبل قرن من الزمان كتب غوستاف لوبون في كتابه الكلاسيكي الجمهور:

> إن السبب الحقيقي للانقلابات الفجائية الضخمة التي تسبق تغييرات الحضارات، مثل سقوط الإمبراطورية الرومانية وظهور الإمبراطورية العربية، هو تعديل عميق في أفكار الناس.. إن أحداث التاريخ المشهودة هي الآثار المرئية للتغييرات غير المرئية للفكر الإنساني.. والعصر الحالي هو واحد من هذه اللحظات الحاسمة التي يتعرض فيها فكر الإنسانية لعملية تحول.[١٧]

كان لوبون يتحدث عن زمانه هو، في نهاية القرن التاسع عشر، ولكن ما كتبه يصح على زماننا أيضا.

لأن هذه الثورة الثقافية هي التي أدت بالضبط إلى مثل هذا "التعديل العميق في أفكار" الناس. وهذه الأفكار جعلت النخبة الغربية غير مبالية بموت حضارتهم. ويبدو أنهم لا يهتمون فيما إذا جاءت نهاية الغرب بزوال السكان، أو بتسليم القومية، أو بالغرق

بأمــواج من المهــاجــرين من العــالــم الثــالـث. والآن وقــد ذهبت الإمبــراطوريات الغـربيـة كلها، فإن الإنسـان الغـربي، وقد أعفي من واجبه نحو تمدين البشرية وتنصيرها، وهـو يستغـرق بالرفاهية في عصرنا المتصف بالإفراط بالمتع الشخصية، يبدو أنه قد فقد إرادته ليعيش وقبلت نفسـه موته الوشيك. هل نحن في وقت شفق الغروب في الغرب؟ هل موت الغرب لا رجعة عنه؟ دعنا نراجع تقرير علماء الأمراض.

الفصل الأول

الأنواع المعرضة للخطر

الأوروبيون أنواع تتلاشى-

تايمز اللندنية[1].

إن أهم حقيقة مفردة جديدة - ولو لم يكن ذلك إلا بسبب أنها حقيقة ليس لها سابقة في التاريخ كله - هي انهيار نسبة الولادات في العالم المتقدم كله.

بيتر أف. دركر[2].

مثلما كان تنامي عدد السكان طوال وقت مديد علامة على أن الأمم تتمتع بالصحة، فإن هبوط عدد السكان صار سمة للأمم وللحضارات التي تعيش حالة انحطاط. وإذا ما كان هذا صحيحا، فإن الحضارة الغربية تكون، مع وضع القوة والثروة جانبا، في حالة حرجة. وذلك لأن السكان في الغرب، مثل قطة شيشير،(*) قد بدؤوا بالتلاشي.

(*) قطة شيشير من شخصيات رواية أليس في بلاد العجائب للروائي البريطاني لويس كارول (١٨٣٢-٩٨).

وحتى وقت متأخر في ١٩٦٠، كان السكان الأوروبيون، ومعهم الأمريكيون، والأستراليون، والكنديون، يبلغون ٧٥٠ مليونا، أي، الربع من ٣ بلايين من البشر الأحياء. وكانت الأمم الأوروبية تعيش في زمن ازدهار ولادة الأطفال في ذلك القرن. وبعد أن انتُزِعت من هذه الأمم إمبراطورياتها، وشفيت جراح الحرب، بدت حية ذات حيوية. وفي الحقيقة كان المالتوسيون الجدد يصرخون محذرين من الانفجار السكاني، ويحذرون بشكل قاتم من أن موارد الكرة الأرضية، والأرض الصالحة كانت تنفد. وكانوا موضع ضحك السخرية. وأما مع مجيء العام ٢٠٠٠، فما بقي هناك من أحد يضحك.

وفي الوقت الذي تضاعف فيه عدد سكان العالم إلى ستة بلايين نسمة في غضون أربعين عاما، فقد توقفت الشعوب الأوروبية عن التكاثر. وبدأ عدد السكان بالتوقف، بل وفي العديد من البلدان، بدأ عدد السكان بالهبوط. ومن بين الأمم الأوروبية السبع والأربعين، هناك أمة واحدة فقط، وهي ألبانيا المسلمة، كانت ما تزال تحتفظ في العام ٢٠٠٠ بمعدل مواليد كاف ليبقيها حية إلى أجل غير محدد .أما بقية أوروبا فقد بدأت تموت.

التنبؤ بالحالة المحتملة للوضع متجهم. وبين العام ٢٠٠٠ والعام ٢٠٥٠ سوف ينمو عدد سكان العالم بأكثر من ثلاثة بلايين نسمة ليصل إلى ما يزيد عن تسعة بلايين نسمة، ولكن هذه الزيادة التي

تبلغ ٥٠٪ بالمائة من سكان المعمورة سوف تأتي بكاملها في آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، بينما سوف يتلاشى عن ظهر الأرض مائة مليون نسمة من الأصول الأوروبية.

في العام ١٩٦٠ كان السكان المنحدرون من أصول أوروبية يشكلون ربع سكان العالم، وفي العام ٢٠٠٠ كانوا يشكلون السدس، وأما في العام ٢٠٥٠ فسوف يشكلون عشر سكان العالم. هذه هي الإحصاءات عن جنس يتلاشى. وقد حرض الوعي المتنامي بما تعنيه هذه الحال من نذر مشؤومة إحساسا بتوجس الشر، بل بالذعر، في أوروبا.

أوروبا

في العام ٢٠٠٠ بلغ العدد الإجمالي لسكان أوروبا من آيسلاندا إلى روسيا ٧٢٨ مليون نسمة. ولكن، وفق معدلات الولادة الحالية، وبدون هجرة جديدة، سوف يهبط سكانها إلى ٦٠٠ مليون نسمة مع حلول العام ٢٠٥٠. هذه هي إسقاطات توقعات سكان العالم: النقاط الأساسية لمراجعة العام ٢٠٠٠، التي أصدرتها إدارة مختصة هي إدارة السكان في الأمم المتحدة في ٢٨ شباط فبراير/٢٠٠١. وترى دراسة أخرى أن عدد سكان أوروبا سيهبط إلى ٥٥٦ مليون نسمة مع

منتصف القرن.[3] آخر مرة أظهر فيها عدد سكان أوروبا هبوطا بمثل هذه الضخامة كانت في أثناء الموت الأسود من ١٣٤٧-١٣٥٢. وترى أستاذة الاقتصاد جاكلين كاسون من جامعة هامبولت الحكومية في كاليفورنيا ومؤلفة كتاب الحرب ضد السكان، ترى أن القحط الذي ضرب معدلات المواليد هو أزمة أخطر من الموت الأسود، وتقول:

> مع وباء مثل الموت الأسود (في القرن الرابع عشر) ربما مات ثلث أوروبا، ولكن الوباء حصد الشيوخ والشباب على حد سواء... أما هذا النزول الحاد في الخصوبة فلم يشمل إلا الشباب فقط. الزوجان ما يزال لهما حاليا آباء وأجداد ليعيلوهم إعالة مباشرة أو من خلال ضرائبهم. ونظرا لأن لدى الزوجين نسلا أقل أو أنهما بدون نسل ليشاركهما في ذلك العبء فإن ولادة الأطفال تبدو غير ممكنة الاحتمال على نحو أكبر. فكيف إذن تشق طريقك لتخرج من حفرة مثل عدد السكان المتناقص؟[4]

هذا سؤال ممتاز، وإذا لم تجد أوروبا الجواب له سريعا فإن أوروبا تموت. كم هي مظلمة الحالة؟ إن من أصل عشرين أمة هي صاحبة أخفض معدلات الولادة في العالم هناك ثماني عشرة أمة في أوروبا. وقد هبط معدل الخصوبة المتوسط عند المرأة الأوروبية إلى ١,٤ طفل، علما أن الحاجة تدعو إلى ٢,١ طفل لمجرد تعويض السكان الموجودين حاليا. ويقول كاتب الافتتاحية بن واتنبيرغ: هذا لا يعني صفر معدل نمو. هذا يعني صفر سكان.[5]

سيكون على الأمريكيين في حلف الناتو أن يدافعوا قريبا عن عالم فراغ واسع. وإذا بقيت معدلات الخصوبة الحالية سارية فإن سكان أوروبا سوف يتناقصون إلى ٢٠٧ مليون نسمة مع نهاية القرن الحادي والعشرين، وهم بذلك أقل بنسبة ٣٠٪ بالمائة مما هم عليه الآن. وسيكون مهد الحضارة الغربية قد صار قبرا لها.

لماذا يحدث هذا؟ الاشتراكية، التي كانت النشوة السعيدة للمثقفين الأوروبيين لأجيال خلت، هي السبب. ويحاجج الدكتور جون والاس من بولوجنا من جامعة جونز هوبكنز ويقول: " إذا كان لدى كل مواطن وعد بالحصول على تقاعد من الدولة فإن الأطفال لا يمثلون بعد ذلك تأمينا حيويا ضد العوز في الشيخوخة وتقدم العمر. " " وإذا كانت النساء قادرات على أن يكسبن أكثر من كفايتهن ليكن مستقلات ماليا فإن الزوج لا يبقى بعد ذلك أساسيا. وإذا كنت تستطيع أن تمارس الجنس أيضا وبدون أطفال. ويصدق هذا الآن، على ما يبدو، على إيطاليا الكاثوليكية مثلما يصدق على بريطانيا العلمانية. فلماذا إذن تتزوج"؟[٦]

وإذ استطاع الاشتراكيون الأوروبيون تحرير الأزواج، والزوجات، والأطفال من مسؤوليات الأسرة فإنهم بذلك قد اجتثوا الحاجة إلى الأسر. وبناء على ذلك بدأت الأسر تختفي. وعندما تذهب الأسر تذهب أوروبا معها. ولكن، في الوقت الذي تموت فيه أوروبا، فإن

العالم الثالث يضيف مائة مليون نسمة - أي يضيف مكسيكا واحدة جديدة - في كل خمسة عشر شهرا. ومع حلول العام ٢٠٥٠ يكون قد أضاف أربعين مكسيكا جديدة في العالم الثالث، هذا في الوقت الذي ستكون فيه أوروبا قد فقدت ما يعادل العدد الكلي لسكان بلجيكا، وهولندا، والدانمارك، والسويد، والنرويج - وألمانيا! ومع غياب التدخل الرباني، أو رغبة مفاجئة من النساء الغربيات ليبدأن بتكوين أسرهن بالحجم نفسه الذي كانت عليه أسر جداتهن، فإن المستقبل سيكون ملك العالم الثالث. وكما كتب ت.إس. إليوت في "الرجال الجوف": " هذه هي الطريقة التي ينتهي بها العالم / بلا ضجيج بل بالأنين والنشيج. "[٧]

انتقام كليمنصو(*)

تمتم جورج كليمنصو قائلا: " هناك عشرون مليون ألماني، كثير جدا! " وجورج كلمنصو هو " نمر فرنسا " والسياسي المسؤول أكثر من غيره عن معاهدة فرساي التي جردت ألمانيا من مستعمراتها، ومن عشر أرضها، ومن ثمن سكانها. [٨] وكراهية كليمنصو مفهومة.

(*) جورج كليمنصو (١٨٤١-١٩٢٩) سياسي فرنسي، كان رئيس الوزراء بين (١٩٠٦-١٩٠٩) وبين (١٩١٧-١٩٢٠).

فكما كتب أليستير هورن في تاريخه عن سقوط الجمهورية الثالثة، "كان كليمنصو واحدا من النواب الذين احتجوا ضد تسليم الألزاس واللورين في العام ١٨٧١، وهو الذي هرب ونجا بأعجوبة من الإعدام بدون محاكمة في الحرب الأهلية التي تلت الكومونة."[٩] وشهد خلع إمبراطوره عن العرش، ورأى قيصر ألمانيا يتوج في فرساي. وفي الحرب العظمى رأى فرنسا التي يحبها تدمر وتعيث فيها فسادا جيوش هندنبيرغ ولودندورف التي تركت خلفها جثث ١,٥ مليون ونصف من الفرنسيين عندما سارت راجعة لوطنها في الرايخ.

وفي غضون خمسين عاما سيكون النمر قد حقق انتقامه، وذلك لأن النساء الألمانيات يرفضن أن ينجبن أطفالا. وطوال عشر سنوات كان معدل الولادة في ألمانيا قد وقف عند ١,٣ طفل للمرأة الواحدة، وهو معدل أقل بكثير من معدل ٢,١ الضروري لتعويض السكان الموجودين حاليا. وفيما يلي المستقبل القاسي الآن على الأمة الألمانية، مع حلول العام ٢٠٥٠:

- سيكون ثلاثة وعشرون مليون ألماني قد اختفوا.
- عدد سكان ألمانيا الذي بلغ اثنين وثمانين مليون نسمة سوف يهبط إلى تسعة وخمسين مليون نسمة.
- عدد الأطفال الألمان تحت سن الخامسة عشرة سيكون قد نزل إلى ٧,٣ مليون نسمة.

- ثلث سكان ألمانيا سيكون فوق الخامسة والستين. وهؤلاء الشيوخ سيفوقون بعددهم الأطفال بنسبة أكبر من اثنين لواحد.
- مجمل سكان ألمانيا سيشكل ثلثي ١ بالمائة من سكان العالم، وسيكون هناك ألماني ١ فقط من كل ١٥٠ نسمة على الأرض. وسيكون الألمان من بين أكثر شعوب العالم شيخوخة على ظهر البسيطة.

وبناء على طلب المؤلف قام جوزيف شامي مدير قسم السكان في الأمم المتحدة بالتنبؤ وتوقع عدد السكان لعدة أمم أوروبية من الآن وحتى العام ٢١٠٠. فإذا استمر معدل المواليد الحالي في ألمانيا وكانت الهجرة صفرا، فإن عدد سكان ألمانيا سوف يهبط من ٨٢ مليون نسمة إلى ٣٨,٥ مليون نسمة مع حلول نهاية القرن، وهو نزول بنسبة ٥٣٪ بالمائة.[١٠]

وينظر إدموند ستويبر البافاري المحافظ والمستشار المحتمل إلى معدل المواليد في ألمانيا بوصفه "قنبلة زمنية موقوتة تدق."[١١] ويحض على مضاعفة علاوة الأطفال إلى ثلاثة أضعاف للسنوات الثلاث الأولى من العمر. واليوم تدفع ألمانيا ١٤٠ دولارا للطفل لأول طفلين، وتدفع أكثر من ذلك للطفل الثالث. إن فكرة ستويبر اليوم تدعى فكرة راديكالية، أما في الغد فلن تكون كذلك.

تقول إحداهن، غابرييلي ثانهيسر، وعمرها أربعة وثلاثون عاما، وتعمل في بنك في برلين، وتقضي إجازتها في روما مع

صديقها الذي تساكنه وتعاشره: " السبب الذي من أجله لا أنجب أطفالا هو أنني أحب أن أنام، وأحب أن أقرأ كثيرا، وأستطيع أن أنام طوال الليل. "[١٢] ويؤكد ذلك صديقها، أندرياس غيرهمان، وعمره سبعة وثلاثون عاما، ويقول: نحن اثنان "بدخل مزدوج من دون أطفال. "[١٣] وعلى المدى البعيد فإن الانغماس في الملذات على طريقة هذين الاثنين غيرهمان وثانهيسر "بدخل مزدوج من دون أطفال" . "قد يبرهن على أنه أشأم وأفتك بالشعب الألماني من الرايخ الثالث.

مع سقوط جدار برلين، سعى هيلموت كول مستشار ألمانيا الغربية أن يوحد البلاد بعد خمسة وأربعين عاما من الانقسام في أثناء الحرب الباردة. وسُمِعت في بريطانيا، وفي روسيا، وفي فرنسا، حتى في الولايات المتحدة الأمريكية صيحات ملتاعة تقول إن العالم لم يبق قادرا على أن يثق بألمانيا موحدة. واحتج المعترضون بأن ألمانيا حاولت مرتين أن تقهر أوروبا. ما هي الضمانة التي نملكها على أن ألمانيا الموحدة لن تزحف مرة ثانية على أوروبا؟

هذا قلق يستطيع الغرب أن يطرحه ليستريح. فمع شيخوخة وموت الشعب الألماني، ومع كون الأطفال الألمان المتوقعين أقل بخمسة ملايين في العام ٢٠٥٠ من عددهم في العام ٢٠٠٠ فإن

ألمانيا، مثل جندي شائخ في أغنية الجنرال ماك آرثر(*)، توشك "بالضبط أن تتلاشى ببطء."

إيطاليا، متنزّه ترفيه بموضوع مركزي واحد

التوقعات المستقبلية للعرق الإيطالي، وهو العرق الذي أعطانا روما وكل مجدها، وكنيسة القديس بطرس والكنيسة السيستينية، وأعطانا دانتي، وميكائيل أنجلو، وكولومبوس وغاليليو، هي توقعات أكثر إيلاما . لقد كان معدل المواليد في إيطاليا تحت مستويات معدلات الاستبدال طوال خمسة وعشرين عاما وهبط إلى ١,٢ طفل للمرأة الواحدة. عند هذا المعدل، سوف يهبط عدد سكان إيطاليا البالغ سبعة وخمسين مليون نسمة ليصير واحدا وأربعين مليون نسمة مع مجيء العام ٢٠٥٠. ويكتب الباحث السكاني نيقولاس إيبرستاد من معهد المشروع الأمريكي قائلا: "لا يكاد ٢٪ بالمائة من سكان إيطاليا يكونون تحت سن الخامسة في العام ٢٠٥٠، ولكن ٤٠٪ بالمائة منهم سيكونون في سن ٦٥ أو أكبر."[٢١] ويضيف غريغ إيستربروك من نيو ريببلك قائلا: إن معدل الولادة "في تلك البلاد

(*) غلاس ماك آرثر (١٨٨٠-١٩٦٤) جنرال أمريكي حارب في فرنسا في الحرب العالمية. وصار رئيس أركان الجيش (١٩٣٠-١٩٣٥). في الحرب العالمية الثانية.

التي تعد أكثر كاثوليكية وورومانسية بين الأمم، يعني أن إيطاليا سوف تكون متنزها بموضوع مركزي واحد في غضون أجيال قليلة."[15]

وقد وجد مسح حديث في مجلة نوا دون الشعبية "نصف النسوية " أن ٥٢٪ بالمائة من النساء الإيطاليات البالغات من العمر بين ستة عشر وأربعة وعشرين عاما لا يرغبن في إنجاب أطفال وقد وضعن الخطط لذلك.[16] وكان "المسار الوظيفي" هو سببهن الرئيس لعدم رغبتهن في الإنجاب. ويقول عالم السكان في جامعة روما أنتونيو غوليني إن الأمة تعتمد منذ مدة على المهاجرين ليحملوا عبء نظامها التقاعدي المدين بعمق. ولكن الثقافة الإيطالية الآن في خطر. ويعتقد غوليني: "إن إيطاليا لن تكون بعد الآن إيطالية ... ستكون نهاية المجتمع كما نعرفه. "[17]

وقد أطلق على غوليني اسم "إرهابي سكاني" منذ عشرين عاما، وذلك عندما حذر للمرة الأولى من الأزمة السكانية الوشيكة لإيطاليا.[18] ولكنه لم يبق يدعى بذلك الاسم الآن على الرغم من أن الدكتور غوليني ما زال باقيا على تشاؤمه العميق حول بلاده ويقول: "في سوق عمالة معولم على نحو متزايد يجب على إيطاليا أن تتنافس مع فرنسا، ومع الولايات المتحدة الأمريكية، ومع الهند. فكيف يمكن لنا أن ننافسهم بمجتمع مثل مجتمعنا الشائخ وبعدد قليل من الشباب على مثل هذا الحال."[19]

وقد حض الكاردينال جياكومو بيفي من بولونيا روما على أن تحدد الهجرة للكاثوليك لكي "تنقذ هوية الأمة،" وهو يرفع حاجبيه تعجبا بملاحظة أن المسلمين لهم: " طعام مختلف، ومهرجانات مختلفة، وأخلاقيات أسرية مختلفة."[٢٠] ولكن أين يقترح نيافة الكاردينال أن يجد مثل هؤلاء الكاثوليك؟

ليس في إسبانيا بالتأكيد، حيث كانت الأسر الكبيرة في أيام الديكتاتور العسكري الجنرال فرانسيسكو فرانكو مقدسة وتلقت أوسمة وهبات من الدولة. ومعدل المواليد الإسباني هو أخفض معدل في كل أوروبا، وهو أخفض من معدل إيطاليا، أو جمهورية التشيك، أو رومانيا، ومعدل الولادات في كل هذه البلدان قد انخفض إلى ١,٢ طفل لكل امرأة واحدة. ومعدل الولادة في إسبانيا قد انخفض إلى ١,٠٧ لكل امرأة واحدة، ويتوقع أن يهبط عدد السكان بنسبة ٢٥٪ بالمائة في غضون خمسين عاما، وذلك في الوقت الذي يرتفع فيه عدد الإسبان الذين تزيد أعمارهم عن خمسة وستين عاما بنسبة ١١٧٪ بالمائة. ويقول فيكتور بيريز دياز عالم الاجتماع في مدريد: " في جيل واحد انتقلنا من مجتمع كانت فيه الأسر التي تضم ثمانية أطفال أو حتى اثني عشر طفلا أمرا ليس غير عادي، إلى مجتمع صار فيه الزوجان اللذان يعيشان بلا أطفال أمرا شائعا، أو أن الناس يفكرون تفكيرا طويلا وصعبا حول

إنجاب طفل ثان.[٢١] وبحلول العام ٢٠٥٠ سيكون متوسط العمر في إيطاليا أربعة وخمسين عاما، وفي إسبانيا خمسة وخمسين عاما، وهذا المتوسط يزيد أربعة عشر عاما عن متوسط العمر في اليابان وهي أكثر الأمم شيخوخة اليوم على ظهر البسيطة.

ويقول الدكتور بييربولو دوناتي، وهو مفكر بارز كاثوليكي وأستاذ علم الاجتماع في جامعة بولونا: " إن يسر الرخاء قد خنقنا، ورفاهية الترف هي الآن الشيء الوحيد الذي يؤمن به أي إنسان. وصارت أخلاق التضحية من أجل الأسرة ـ وهي إحدى الأفكار الأساسية للمجتمع الإنساني ـ صارت فكرة تاريخية. إنه لأمر مذهل."[٢٢]

في العام ١٩٥٠ كان عدد سكان إسبانيا ثلاثة أضعاف عدد سكان مراكش عبر مضيق جبل طارق. ومع حلول العام ٢٠٥٠ سيكون عدد سكان مراكش أكثر بنسبة ٥٠٪ بالمائة من سكان إسبانيا . وإذا تزوج مائة شاب وشابة إسبانيون اليوم يُتوقع أن يكون لهم ثمانية وخمسون طفلا، وثلاثة وثلاثون حفيدا، ولكن لن يكون لهم إلاّ تسعة عشر حفيد حفيد فقط.

روسيا

وماذا عن موقع القيادة الأخير من امبراطورية الاتحاد السوفيتي الذي هز العالم طوال سبعين سنة؟ بمعدل ولادات يبلغ ١,٣٥ طفلا لكل امرأة واحدة سيهبط عدد سكان روسيا البالغ ١٤٧ مليون نسمة إلى ١١٤ مليون نسمة بحلول عام ٢٠٥٠، وهو فَقْد من السكان يزيد على ٣٠ مليون نسمة وهو عدد الأموات الذين ينسب موتهم إلى ستالين. وكذلك فإن عدد الأطفال في روسيا تحت سن الخامسة عشرة سيكون قد هبط من ٢٦ مليون إلى ١٦ مليون نسمة، بينما سينمو عدد كبار السن من السكان من ١٨ مليون نسمة كما هو الآن إلى ٢٨ مليون نسمة.

وفي كانون أول ديسمبر ٢٠٠٠ جاءت من روسيا أنباء أكثر تشاؤما. فمعدل الولادة في روسيا قد غاص وهبط إلى معدل ١,١٧ طفلا، أي أنه أخفض من معدل الولادة في إيطاليا. وهبط عدد السكان إلى ١٤٥ مليون نسمة، ويذهب تقدير آخر إلى أن العدد يتجه إلى ١٢٣ مليون نسمة بحلول العام ٢٠١٥. ويحذر الرئيس بوتن ويقول: " إذا صدقتم التنبؤات التي قدمها أناس جادون كرسوا كل حياتهم لدراسة هذه المسألة ففي غضون ١٥ سنة سيقل عدد

الروس بما يساوي ٢٢ مليون نسمة. فكروا فقط في هذا الرقم - إنه سبع عدد سكان روسيا. "[٢٣] إن فقدان ٢٢ مليون روسي في ١٥ عاما سيكون أكبر من كل ما فقده الاتحاد السوفيتي في حرب هتلر - ستالين. وذهب بوتين ليضيف متشائما، "إذا استمر الاتجاه الحالي فسوف يكون هناك تهديد لبقاء الأمة "

إن العمر المتوقع للرجال الروس هو الآن ٥٩ عاما، وحملان من كل ثلاث حبالى في روسيا ينهيان قبل الولادة. ومعدل الاجهاضات للنساء الروسيات هو ٢،٥ إلى ٤ لكل إمرأة، ومعدل الوفيات في روسيا هو الآن أعلى بنسبة ٧٠٪ من معدل الولادة.[٢٤] وحتى عودة ملايين الروس من الجمهوريات السوفيتية السابقة لا يستطيع أن يعدل ويوازن عدد الموتى. والأشد تشاؤما لأكبر أمة على سطح الأرض هو أن سكان سيبيريا الواسعة الفارغة هم في تناقص شديد في الوقت الذي يتضخم فيه عدد سكان الصين على نحو عنيد.

وعندما قام فلاديمير جينيروفسكي النائب المتحدث في مجلس الدوما أي مجلس النواب، وهو قومي متعصب، بتقديم أفكار من مثل تعدد الزوجات الذي يسمح لكل رجل روسي بالزواج من ٥ زوجات، مع حظر على الاجهاض لمدة ١٠ سنوات، ومنع النساء الروسيات من السفر إلى الخارج، جلبت عليه أفكاره هذه السخرية مثلما أن مشروعات القوانين السكانية التي طرحها لقيت الاستهزاء

وسقطت.[٢٥] ولكن أزمة الحياة في روسيا لا يمكن استبعادها ومضامينها الجيواستراتيجية بالنسبة لأمريكا مضامين متشائمة.

وقد تنبأ السيد شامي بما سيبلغه عدد بسكان روسيا، مع معدلات الولادة الحالية وصفر من الهجرة، حتى نهاية القرن الحادي والعشرين، فجاءت التقديرات بعدد يقل عن ٨٠ مليون روسي في العام ٢١٠٠ وهو تقريبا عدد سكان الولايات المتحدة عندما غادر ثيودور روزفلت منصبه في العام ١٩٠٩.[٢٦]

بريطانيا العظمى

وماذا يخبيء المستقبل لأبناء العمومة؟

بقول بول كريغ روبرت، وهو كاتب لعمود ينشر في عدة صحف: "حَسَبَ علماء السكان سيكون الشعب الإنجليزي أقلية في وطنه مع نهاية هذا القرن. إن الإنجليز لا ينجبون ما يكفي من الأطفال لإعادة إنتاج أنفسهم."[٢٧] وهذه هي المرة الأولى في التاريخ، كما تقول لندن أوبزيرفر، التي "يصير فيها سكان محليون رئيسيون، طواعية منهم، أقلية، من غير طريق الحرب أو المجاعة أو المرض."[٢٨]

إن لندن أوبزيرفر مخطئة. فإن شرف كونها أول أمة تُحوِّل طواعيةً منها سكانها المحليين الأكثرية إلى أقلية سيكون من نصيب الولايات المتحدة. لقد تنبأ الرئيس كلينتون أن هذا سيحدث مع حلول العام ٢٠٥٠ أي قبل بريطانيا العظمى بمدة نصف قرن. ولكن البريطانيين يتوجهون بوضوح في الاتجاه نفسه. إن الأقليات العرقية تشكل منذ مدة ٤٠٪ من سكان لندن، ويقرر لي جاسبر، مستشار العلاقات العرقية لعمدة لندن، ويقول: "إن علوم السكان تبين أن السكان البيض في لندن سيصيرون أقلية بحلول العام ٢٠١٠".[٢٩]

من بين الأسباب الداعية لذلك الهبوط المطّرد لمعدل الولادات بين البريطانيين المولودين من الأهالي المحليين. في العام ٢٠٠٠ كان هناك عدد أقل من الولادات في إنجلترا وويلز بما يبلغ ١٧٤٠٠ نسمة مما كان عليه في العام ١٩٩٩، وهو هبوط يعادل ٣٪ تقريبا، وهبط معدل الخصوبة إلى ١.٦٦ ولادة لكل امراة واحدة، وهي أخفض نسبة منذ أن بدأت الإحصاءات تحفظ في هذا الموضوع في العام ١٩٢٤.[٣٠]

اليابان

من بين الأمم الاثنتين والعشرين التي تتميز بأخفض معدلات الولادات هناك أمتان فقط خارج أوروبا - أرمينيا واليابان، وهذه الأخيرة هي أول أمة آسيوية تدخل العصر الحديث.

ولم تكسر اليابان عزلتها إلا في العام ١٨٦٨. ولكن هذه الأمة المتحركة كانت في غضون ثلاثين عاما منافسا للقوى الغربية. اليابان هزمت الصين، واستعمرت تايوان، وفي العام ١٩٠٠ أرسلت جنودها ليمشوا إلى جانب الأوربيين والأمريكيين لإنقاذ المفوضيات الدبلوماسية في بكين التي كان حاصرها المتمردون الصينيون المعروفون باسم "البوكسر."(*) وكانت الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤-١٩٠٥) هي أول حرب استطاع فيها شعب آسيوي أن يهزم قوة غربية كبيرة. وقد بدأت الحرب بهجوم مباغت على الفرقة البحرية الروسية في بورت آرثر، وانتهت في معركة هي أحسم المعارك في

(*) ثورة البوكسر (١٨٩٨ -١٩٠٠) حركة مضادة للأجانب في الصين. وفي يونيو ١٩٠٠ قام ١٤٠,٠٠٠ من الثوار باحتلال بكين ومحاصرة الغربيين والمسيحيين الصينيين هناك. وارتفع الحصار في أغسطس من العام نفسه بقوة دولية من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا واليابان. وفي ١٩٠١ أجبرت الصين على دفع غرامة بقيمة ٣٣٣ مليون دولار وعلى السماح بوجود قوات أجنبية في بكين.

التاريخ، وذلك بإغراق أسطول البلطيق القيصري في مضايق اتسوشيما في خلال ست وثلاثين ساعة على يد الأدميرال توغو.

وفي الحرب العالمية الأولى كانت اليابان قوة حليفة وقدر لإسهامها في جهود الحرب أن يجمع مستعمرات القيصر في الصين وفي المحيط الهادي، وأن يدافع عن الممتلكات الاستعمارية الأوروبية في آسيا، وأن يرافق قوات من استراليا ونيوزلندا إلى غاليبولي.(*) وأرسلت اليابان أيضا فرقة بحرية إلى البحر الأبيض المتوسط. ولكن عندما ضغط الرئيس هاردنغ ووزير الخارجية تشارلز إيفان هوغز على لندن لتفسخ حلفها الذي دام عشرين سنة مع اليابان وذلك في مؤتمر واشنطن البحري شعر اليابانيون أنهم تعرضوا للخيانة وللإذلال وللعزل. وهكذا اتخذ القرار الذي لا رجعة عنه. فبعد عشرين عاما جاءت بيرل هاربر والتدمير الكامل لليابان ولامبراطورية أنشئت طوال ستين عاما بتكلفة باهظة في الدماء والأموال.

(*) حملة غاليبولي، من أبريل ١٩١٥ إلى يناير ١٩١٦ وهي حملة قام بها الحلفاء في تركيا في الحرب العالمية الأولى. خطط لها ونستون تشرتشل وكان الغرض منها احتلال مضائق الدردنيل، والقسطنطينية، والوصول إلى التماس مع روسيا. ولكن سوء التنسيق بين الحلفاء والمقاومة التركية القوية أجبرت الحلفاء على إخلاء مواقعهم وحولت الحملة إلى كارثة لهم.

ولكن اليابان وبالمساعدة الأمريكية وبتقليد الطرق والأفكار الأمريكية صارت بعد الحرب أكثر الأمم حراكا على ظهر الأرض. ومع حلول العام ١٩٩٠ كان اقتصادها هو الاقتصاد الثاني الأضخم في العالم، ويعادل نصف حجم اقتصاد الولايات المتحدة، وذلك على الرغم من أن اليابان تشغل مساحة أصغر من مونتانا- وهذا إنجاز غير عادي لشعب غير عادي.

ولكن شيئا ما حدث لليابان، فهي أيضا بدأت تموت. إن معدل المواليد اليابانيين هو نصف ما كان عليه في العام ١٩٥٠. ويتوقع لعدد سكانها أن يبلغ الذروة قريبا عند عدد ١٢٧ مليون نسمة، ولكن عددهم سيهبط إلى ١٠٤ ملايين نسمة بحلول العام ٢٠٥٠، وعندها سيكون هناك عدد من الأطفال اليابانيين أقل من نصف عددهم الذي كان في العام ١٩٥٠ ولكن سيكون عدد كبار السن في اليابان ثمانية أضعاف ما كان عليه في العام ١٩٥٠. ستكون حراكية اليابان قد ماتت، ودورها الآسيوي قد تضاءل، وذلك لأنه سيكون هناك خمسة عشر صينيا في مقابل كل فرد ياباني. وحتى الفلبين التي لم تكن تحوي من السكان إلا ربع سكان اليابان في العام ١٩٥٠ سيكون لديها ٢٥ مليون نسمة أكثر من سكانها السابقين مع حلول العام ٢٠٥٠.

ما السبب في هذا العجز الياباني في الأطفال؟ إن أكثر من نصف جميع النساء اليابانيات الآن يبقين عزباوات مع وصولهن إلى

الثلاثين من العمر. ويعرفن باسم "العزباوات الطفيليات" ويعشن في البيت مع والديهن ويتابعن مساراتهن الوظيفية، والعديدات قد تركن أي فكرة للزواج وانجاب الأطفال[٣١] وشعارهن: "أعيش لنفسي واستمتع بالحياة." وبعد أن سجلت المدارس الابتدائية في اليابان في العام ٢٠٠٠ أصغر فصل دراسي في التاريخ قامت طوكيو برفع علاوة الأطفال إلى ٢٤٠٠ دولار في السنة لكل طفل لمدة ٦ سنوات. وبعض المحافظين يريدون مضاعفة ذلك عشرة أضعاف.

وفي مقابلة مع بيجي أورن اشتاين من *نيويورك تايمز* قالت متسوكو شيمومورا وهي صحفية يابانية طليعية في الستينيات من عمرها: إن اليابان تنال الآن ما تستحقه لأنها لم تمنح المساواة الكاملة للنساء:

> لست آسفة على الانهيار في معدل الولادة... وأعتقد انه أمر جيد والطفيليات قد خلقن بدون قصد منهن حركة مثيرة للاهتمام. وعلى السياسيين الآن أن يشحذوا النساء لينجبن أطفالا. ومالم ينشىء السياسيون مجتمعا تشعر فيه النساء بالراحة عند إنجاب الأطفال والعمل فإن اليابان سوف تدمر في غضون ٥٠ عاما أو مائة عام. وإعانات الأطفال لن تفيد. المساواة فقط هي التي تفيد.[٣٢]

هؤلاء النسوة يقررن مصير الأمة اليابانية ومستقبلها.

لقد سحقت الإمبراطورية الآسيوية لليابان في العام ١٩٤٥،

ولكن شيئا ما حدث في وقت أكثر قربا ليضعف حيوية اليابان وإرادتها في أن تحيا وتنمو وتتوسع وتغلب في الصناعة والتكنولوجيا والتجارة والمال. يسمي المراقبون هذا الحال بأنه فقدان "الروح المعنوية الحيوانية" كما وصفها الاقتصادي المشهور جيه. أم. كنز.

ولكن ربما كان هناك تفسير آخر وأبسط وهو: العمر. فمن بين ١٩٠ أمة على ظهر الأرض تعتبر اليابان هي الأمة الأكبر عمرا، بمتوسط للعمر يساوي واحدا واربعين عاما - وذلك لأن اليابان كانت أول أمة حديثة شرعت الاجهاض (١٩٤٨)، وانتهى ازدهار الأطفال عندها بعد ذلك مباشرة، ولكن قبل نهاية ازدهار الأطفال في الشعوب الغربية بوقت طويل.

هل هناك تواز بين موت النصرانية في الغرب وموت عقيدة اليابان قبل الحرب وفي وقت الحرب؟ عندما تفقد الأمم إحساسها بالمهمة الرسالة، وبتكليفها من السماء، وبإيمانها الذي جاء بها إلى هذا العالم بوصفها بلادا فريدة وثقافات فريدة فهل يكون ذلك هو الوقت الذي تموت فيه؟ هل هذا هو الوقت الذي تندثر فيه الحضارات؟ هكذا يبدو الأمر.

دعنا ننظر ثانية في توقعات السكان للعام ٢٠٥٠، ونحاول أن نتصور كيف سيبدو عالمنا.

في إفريقيا سيكون هناك ١,٥ بليون نسمة. ومن المغرب إلى الخليج الفارسي سيكون هناك بحر عربي تركي إسلامي من ٥٠٠ مليون نسمة. وفي جنوب شرق آسيا سيعيش ٧٠٠ مليون نسمة من الإيرانيين والأفغانيين والباكستانيين والبنجلاديشين ومعهم ١,٥ بليون نسمة من الهنود. وسيكون هناك ٣٠٠ مليون نسمة من الأندونيسين، وسوف تربض الصين على آسيا بسكانها البالغ عددهم ١,٥ بليون نسمة.

وروسيا، بعدد سكانها المتناقص المنكمش البالغ ١١٤ مليون نسمة فقط، ستكون قد اختفت إلى حد بعيد من آسيا. وسيكون كل الروس تقريبا غرب الأورال عائدين إلى أوروبا. والإنسان الغربي الذي هيمن على أفريقيا وآسيا في النصف الأول من القرن العشرين سيكون قد اختفى من أفريقيا وآسيا مع حلول أواسط القرن الحادي والعشرين ربما تستثنى صغيرة في جنوب أفريقيا وفي إسرائيل. وفي استراليا، وهي أمة يبلغ عددها ١٩مليون نسمة فقط، ومعدل الولادة للرجل الأبيض هو الآن تحت معدلات التعويض، فإن السكان الأوروبيين سيكونون قد بدؤوا في الاختفاء.

هناك أزمة مروعة تواجه أممم العالم الأول: فبحسب معدلات الولادة الحالية يجب على أوروبا أن تجلب إليها ١٦٩ مليون مهاجر

مع حلول العـام ٢٠٥٠ إذا كـانت ترغب في أن تحـافظ على عـدد سكانهـا الذين تتـراوح أعـمـارهم بين ١٥ عـامـا إلى ٦٤ عـامـا عند مستواه اليوم. ولكن إذا كانت أوروبا ترغب بالمحافظة على معدلهم الحالي وهو ٨,٤ من العمال (١٥-٦٤) لكل مسن فإن على أوروبا أن تجلب ١,٤ بليون مهاجر من أفريقيا والشرق الأوسط. ضعها بطريقة أخرى: إما أن ترفع أوروبا ضرائبها وتخفض جذريا رواتب التقاعد والفوائد الصحية للمسنين، أو أن تصبح أوروبا قارة من العالم الثالث. ليس هناك طريق ثالث.

إذا لم يرتفع معدل خصوبة أوروبا فإن عدد الأطفال الأوروبين تحت سن الخامسة عشر سوف يهبط بنسبة ٤٠٪ إلى ٨٧ مليون نسمة بحلول العام ٢٠٥٠، وهذا في الوقت الذي يرتفع فيه عدد المسنين بنسبة ٥٠٪ إلى ١٦٩ مليون نسمة. وسيكون العمر المتوسط للأوروبي ٥٠ عـامـا، وهو الأعلى في التاريخ، ويزيد ٩ سنوات عن العمر المتوسط الحالي في اليابان. وقد كتب عالم السكان الفرنسي الفريد سوفي عن أوروبا قائلا إنها توشك أن تصير قارة من "شعب مسن في بيوت قديمة وأفكار قديمة."[٣٢]

هل موت الغرب أمر لا مناص منه؟ أو، مثله مثل كل التنبؤات السابقة عن انحطاط الغرب وموته فإن هذا الكأس أيضا سوف

يبتعد ويمر ويكشف جميع الذين قالوا لابد لنا أن نشرب هذا الكأس بوصفهم حمقى؟

فبعد كل شيء تبين أن مالتوس كان مخطئا، وأن ماركس كان مخطئا، وأن الديمقراطية لم تمت في أثناء الكساد الكبير كما تنبأ الشيوعيون. وأن خروتشوف "لم يدفنا". ولكن نحن الذين دفناه. وثبت أن فلم على الشاطئ من إخراج نيفيل شوت كان خياليا مثل دكتور سترينج لف و سبعة أيام في مايو. والقنبلة السكانية لبول أهيرليتش لم تنفجر أبداً. وإنما أزت أزيزا. وانهيار ٧٩ أنتج رونالد ريغان وأنتج عصرا من المشاعر الطيبة. ومثل ذلك نادي روما فنحن لم ينفد منا الزيت. والعالم لم ينته عند نهاية الألفية الثانية كما تنبأ بعضهم وكما أمل الآخرون. من تنبأ باختفاء الإمبراطورية السوفيتية أو بتفكك الاتحاد السوفيتي؟ أليس من الممكن أن الأمم ذات الكثافة العليا في السكان اليوم - الصين، والهند، وأندونيسيا - يمكن أن تفتت إلى قطع كذلك؟ فلماذا لاتنتمي التنبؤات بموت الغرب إلى الرف القديم نفسه مثل التنبؤات عن "الشتاء النووي" و"الاحترار الكوني".

جواب: موت الغرب ليس تنبؤا بما سيحدث، إنه تصوير لما يحدث الآن. إن أمم العالم الأول تموت. وهي تواجه أزمة مميتة، لا بسبب شيء ما يحدث في العالم الثالث، بل بسبب ما لايحدث في الوطن وفي بيوت العالم الأول. مضى على معدلات الخصوبة

الغربية عقود وهي تهبط. وخارج ألبانيا المسلمة ليس هناك أمة واحدة أوروبية تنجب ما يكفي من الأطفال لتعوض النقص في سكانها. ومع مرور السنوات فإن معدل الولادة لايستقر إنه يهبط. وفيما يقارب ٢٠ بلدا فإن المسنين يموتون منذ مدة بأسرع مما يجري انجاب الشباب. ليس هناك أي اشارة للعودة عن ذلك. وقد بدأت الآن الأرقام المطلقة للأوروبين بالهبوط.

هذه ليست مسألة تنبؤ، بل هي مسألة رياضيات. وكلما كان الغوص أحدً وأطول كان الانسحاب أكثر صعوبة. على العالم الأول أن يعكس هذا الاتجاه حالا، وإلا فسيتم اكتساحه من العالم الثالث الذي هو أكثر سكانا بخمسة أضعاف، وسيكون أكثر سكانا بعشرة أضعاف في العام ٢٠٥٠. إن القدرة على الانسحاب من هذا الغوص تتضاءل كل عام. وليس هناك في مرمى النظر أي نهاية لهذا القحط في المواليد، وتبين كل المؤشرات الاجتماعية والثقافية أكثر فأكثر أن النساء الغربيات يتحولن إلى فكرة عدم انجاب الأطفال.

وزيادة على ما تقدم، هناك يقين حسابي بشأن بعض نواحي علم السكان. فإيطاليا لا تستطيع أن يكون لديها شابات بالغات بعمر الحمل في العام ٢٠٢٠ أكثر مما يكون لديها من المراهقات والأطفال والصغار والرضع اليوم. ولا يمكن اضافة أي مجموعة من السكان موجودة لهذا العدد إلا بالهجرة. ولا يمكن منع موت الغرب

إلا بالعودة الضخمة من النساء الغربيات إلى فكرة يبدو أنهن قد تخلين عنها وهي أن الحياة الجيدة تكمن في حمل الأطفال وتربيتهم وإرسالهم إلى العالم ليتابعوا استمرارية الأسرة والأمة.

لماذا تنجب النساء الغربيات أطفالا أقل عددا من أمهاتهن أو لماذا لا ينجبن مطلقا؟ لماذا تطوعت العديدات جدا فيما تسميه الأم تريزا "الحرب ضد الطفل"؟[٣٤] لقد كانت النساء الغربيات يملكن منذ مدة طويلة الوصول إلى طرق ووسائل السيطرة على الولادة ولكنهن لم يخترن استخدامها إلى المدى الذي يصلن إليه اليوم. وطوال ثلاثين عاما كانت النساء الأمريكيات يملكن الوصول السهل إلى الإجهاض، ولكنهن على خلاف النساء الصينيات، حرات أيضا في اختيار الحياة. ليس هناك أي قاضٍ اتحادي يجبر أي امرأة أن تجهض.

ومع ذلك فإن النساء الغربيات ينهين حملهن بمعدل يمثل الابادة الذاتية للشعوب المنحدرة من أوروبا ويمثل نهاية لأممهم. قال خوان غانز كوني: "إن رعاية الأطفال هي علامة على المجتمع المتحضر."[٣٥] فلماذا لم يبق الأطفال موضع رعاية كما كانوا مرة من قبل؟ وما الذي أحدث التغير الهائل في قلوب وفي عقول النساء الغربيات والرجال الغربيين؟ وهل هذا أمر يمكن الرجوع عنه؟ فإذا لم يكن من الممكن الرجوع عنه فإننا نستطيع أن نبدأ بكتابة الفصول الأخيرة من تاريخ حضارتنا وآخر وصية وشهادة من الغرب.

الفصل الثاني

"أين ذهب كل هؤلاء الأطفال؟"

"وسوف تتركون قلة في العدد، بينما كنتم كالنجوم في السماء كثرة، ذلك بأنكم لم تطيعوا صوت الله ربكم."

– سفر التثنية: ٢٨

الكتاب المقدس، نسخة الملك جيمس

لماذا توقفت أمم أوروبا وشعوبها عن إنجاب الأطفال وبدأت تقبل اختفاءها من هذه الأرض بمثل هذه اللامبالاة الظاهرة؟ هل جراح الحرب وفقدان الإمبراطورية قتلت فيهم إرادة الحياة؟ من البينات المتوفرة يبدو أن كلا الأمرين ليس هو المشكلة.

لقد تركت الحرب العظمى ألمانيا الإمبراطورية مهزومة ومقطعة الأوصال، وقد خسرت مليوني قتيل مع ملايين العجزة المقعدين. ومع ذلك فقد نما عدد السكان الألمان بشكل سريع بعد العام ١٩١٩ إلى درجة أصابت فرنسا، وهي من بين المنتصرين، بالذعر. وبعد الحرب العالمية الثانية انفجرت ازدهارات ولادات الأطفال بين اليابانيين والألمان المهزومين مثلما ازدهرت عند الأمريكيين المنتصرين. ومن

دراسة لوحات الولادة، نجد أن شيئا ما قد حدث في أواسط الستينات من ١٩٦٠، في وسط الرفاهية التي جاءت بعد الحرب، وهو شيء غيّر قلوب النساء الغربيات وعقولهن وقتل فيهن الرغبة في أن يعشن كما عاشت أمهاتهن. ولكن إذا كان السبب الذي توقفت من أجله النساء الغربيات عن إنجاب الأطفال موضع خلاف، فإن الكيفية التي فعلن بها ذلك ليست موضعَ خلاف. إن منع الحمل أوقف نمو السكان في الغرب، ومع منع الحمل الإجهاض بوصفه خط الدفاع الثاني ضد الطفل غير المرغوب بمجيئه.

أولا، قليل من التاريخ: في مرة واحدة فقط هبط معدل المواليد في الولايات المتحدة تحت مستوى تعويض السكان، وذلك في أثناء الكساد، عندما انكمش الاقتصاد إلى النصف، وكان ربع عمال أمريكا بدون عمل، وخرج الكثيرون منهم إلى الشوارع. والتشاؤم، وهو إحساس باليأس، وبأن الأيام الجميلة قد ولت ولن تعود ثانية أبدا، يمكن على ما يبدو أن يؤثر في الخصوبة القومية. وقد ولد الجيل الصامت في الثلاثينيات من ١٩٣٠، وهو مجموعة صغيرة نسبياً وهو الجيل الوحيد في القرن العشرين الذي لم يأت منه رئيس.

وبدأ ازدهار ولادة الأطفال الذي جاء بعد الحرب العالمية الثانية في العام ١٩٤٦، وبلغ الذروة في العام ١٩٥٧، ثم أُحبط في العام ١٩٦٤. ولكن، وبالضبط، عندما كان جيل الحرب العالمية الثانية قد

انتهى من إنجاب الأطفال، وفي الوقت الذي كان أطفال الازدهار في الولادات أنفسهم قد أوشكوا أن يبدؤوا بالانجاب، تم اكتشاف طريقة جديدة أكثر ملاءمة وراحة لمنع الحمل.

قد يأتي يوم يسمى فيه المؤرخون "حبة منع الحمل" باسم قرص انتحار الغرب. وقد بدأ الترخيص لها في العام ١٩٦٠. وبحلول العام ١٩٦٣ كان ٦٪ من النساء الأمريكيات المتزوجات يستعملن اختراع الدكتور روك، وبحلول العام ١٩٧٠ كانت ٤٣٪ من النساء يعتمدن "على الحبة."[١] وعندما قام الكاثوليك يناقشون بغضب شديد أخلاقية منع الحمل وعندما أصدر البابا بول السادس توجيهه الكنسي عن الحياة الإنسانية – وهو التوجيه الذي صرح بأن جميع منع الحمل الاصطناعي أمر لا أخلاقي بالنسبة للكاثوليك، بما في ذلك حبة منع الحمل– فجأة ظهرت قضية أخطر.

شري فينكباين الشخصية التي تظهر في تلفزيون أريزونا، وهي أم متزوجة ولها أربعة أطفال، وتناولت عقار ثاليدومايد، وهو العقار الذي سبب تشوهات للأطفال في أوروبا، علمت بأنها حامل. ولم تكن السيدة فينكباين ترغب في إنجاب طفل مشوه وأسرّت إلى أصدقائها بأنها كانت ترغب في إجهاض الجنين. وعندما تسربت الأخبار تعرضت السيدة فينكباين للتهديدات من بعضهم بينما عرض الآخرون أن يقوموا بتربية الطفل إن هي قامت بحمله إلى

مدة الولادة. ونظرا لأن الإجهاض كان ما يزال ضد القانون فقد نشأ نقاش قومي ملتهب. ولكن السيدة فينكباين طرحت القضية بأن طارت إلى السويد وأجهضت الطفل.

وعلى كل حال، فبحلول العام ١٩٦٦ كانت قضية فنكباين قد صارت تاريخا قديما، وذلك لأن ستة آلاف (٦٠٠٠) إجهاض كانت تجري في كل عام. وبحلول العام ١٩٧٠ قفز ذلك الرقم إلى مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠) إجهاض عندما وقع روكفلر حاكم ولاية نيويورك وريجان حاكم كاليفورنيا أكثر قوانين الإجهاض تحررا في أمريكا.[٢] وبحلول العام ١٩٧٣ كانت تتم ستمائة ألف (٦٠٠,٠٠٠) عملية إجهاض.[٣] وفي ذلك العام، صرحت المحكمة العليا، وفيها ثلاثة قضاة من أربعة سماهم الرئيس نيكسون وافقوا على ذلك، صرحت بأن حق المرأة في الإجهاض حق يحميه الدستور. وفي غضون عقد من الزمان حلق عدد الإجهاضات إلى مليون ونصف (١,٥) إجهاض في السنة، وحلت الإجهاضات محل عمليات استئصال اللوزتين بوصفها أشيع عملية جراحية في أمريكا. ومنذ قرار القاضي بلاكمون أجريت أربعون (٤٠) مليون عملية إجهاض في الولايات المتحدة. إن ثلاثين بالمائة من مجموع حالات الحمل الآن تنتهي على طاولة في مستوصف إجهاض.

في العام ٢٠٠٠ وافقت إدارة الأغذية والأدوية على عقار

الإجهاض آر يو - ٤٨٦، وهو عقار من نوع أجهضي نفسك بنفسك من أجل استخدامه في الأسابيع السبعة الأولى من الحمل. ونظرا لأن الشركات الأمريكية لا ترغب في أن يرتبط اسمها بعقار آر يو - ٤٨٦ فقد بدأت شركة تقيم في الصين بإنتاج هذا العقار بهدوء. وقد يصف المتشككون دور الصين في إنتاج العقار آر يو -٤٨٦ ليستهلك في أمريكا بوصفه عملا في المساعدة على الانتحار لإحدى الأمم التي تسد الطريق على بكين من أجل الهيمنة الآسيوية ولتكون قوة عالمية.

قضية رو. ضد. ويد. (*) (Roe v. Wade) وضعت مظلة دستورية فوق حق المرأة في الإجهاض. ومع ذلك فإن ذلك القرار بنفسه لا يفسر التغيير الهائل في مواقف النساء الأمريكيات والغربيات. ما الذي جعلهن معاديات إلى تلك الدرجة لفكرة الحمل والأمومة بحيث أنهن فضلن أن يجهضن، وهو فعل كانت جداتهن

(*) قضية رو ضد ويد، ومعها قضية دو ضد بولتون، نظرتا في العام ١٩٧٣ أمام المحكمة العليا الأمريكية برياسة القاضي بلاكمون . وقضت بأنه لا يحق للولايات أن تمنع الإجهاض في الشهور الستة الأولى من الحمل، وأن الجنين ليس " شخصا " محميا بالتعديل الرابع عشر من الدستور الأمريكي، وأن ذلك التعديل يحمي المرأة من تدخل الولاية في قرارها هل تحمل طفلا أم لا، ولكن القاضي بلاكمون أكد أن الحق بالإجهاض ليس مطلقا . فبعد أول ثلاثة شهور يحق للولاية أن تنظم هذا الحق لأسباب صحية، وبعد ستة شهور يحق للولاية أن تمنع الإجهاض إلا في الحالات التي تكون فيها صحة المرأة معرضة للخطر .

وأجدادهن ينظرون إليه بصفته فعلا شيطانيا معاديا لله وللإنسان؟ في الخمسينيات من ١٩٥٠ لم يكن الإجهاض جريمة فقط بل كان عملا مشينا أيضا. ولم يكن هناك أدنى ضجة لجعله عملا شرعيا. ومع ذلك، فبعد خمسة عشر عاما تلت، أعلن قرار المحكمة العليا الإجهاض حقا دستوريا وقوبل بالترحيب بصفته قرارا شكل علامة على الطريق في التقدم الاجتماعي. إن تحولا ثوريا قد وقع في معتقدات عشرات الملايين من الأمريكيين. أمر من أمرين حدث: إما أن تكون الستينيات من ١٩٦٠ قد دقت إسفينا أخلاقيا بيننا، وإما أن الستينيات من ١٩٦٠ كشفت كسرا أخلاقيا كان موجودا، ولكننا فشلنا في أن نراه ونتعرف إليه. أما أنا فاعتقد أن الأمر الأول هو الصحيح. ففي ذلك العقد المحوري من القرن العشرين الماضي تحولت شريحة ضخمة من شباب أمريكا إلى طريقة جديدة من التفكير، والاعتقاد، والمعيشة.

من العام ١٩٤٥ إلى ١٩٦٥ شهدت أمريكا ما يسميه علماء الاجتماع باسم " العصر الذهبي للزواج، " عندما هبط متوسط العمر للزواجات الأولى ليسجل انخفاضات لكلا الجنسين الرجال والنساء، ووصلت نسبة البالغين الذين تزوجوا نسبة فلكية وصلت ٩٥٪. إن أمريكا ايزنهاور وجون ف. كيندي كانت أمة نابضة

وحركية. ولكنها فقدت هذه الصفات، كما يقول ألن كارلسون، وهو رئيس مركز هوارد للأسرة والدين والمجتمع:

> جميع المؤشرات على ازدهار الأسرة انعكست فجأة في هذه البلاد [الأمم الغربية] في أثناء الفترة القصيرة من ١٩٦٣ - ١٩٦٥. واستأنفت الخصوبة هبوطها، نازلة إلى مستويات تحت النمو - الصفر، وبدأ تراجع ضخم عن الزواج، وبدت المجتمعات الغربية وهي تفقد كل إحساس بنظام الأسرة الموروث.[٤]

ويتتبع عالم السكان الهولندي ديرك فان دو كا الظاهرة ويعيدها إلى أربعة تحولات: (أ) انتقال من العصر الذهبي للزواج إلى فجر عصر جديد من التساكن. (ب) انتقال من زمن "الطفل - الملك" مع الأبويين إلى زمن الأبوين الملوك مع طفل واحد. (ج) انتقال من منع الحمل الوقائي، ليفيد الأطفال الأوائل، إلى منع الحمل لتحقيق الذات، ليفيد منه الوالدان. (د) انتقال من نظام أسرة موحد إلى نظام متعدد من الأسر والبيوت، بما في ذلك عائلات الوالد الواحد.[٥]

وبما أن هبوط معدل الولادات بدأ في منتصف الستينيات من ١٩٦٠ فإن هذا هو الموقع الذي ينبغي أن نحفر فيه لنكشف الأسباب الكامنة تحت هذا التحول العميق الشامل في موقف النساء الأمريكيات والغربيات بعيدا عن إنجاب الأطفال. ما هي

الأفكار التي جاء بها أطفال ازدهار الولادات عند نضجهم؟ وما هي الأفكار التي تشربوها في الكليات الجامعية؟

وصل أطفال ازدهار الولادات إلى الحرم الجامعي في خريف العام ١٩٦٤. وكانوا أول جيل أمريكي له الحرية في اختيار الكيفية التي يريد أن يعيش حياته بها. في الثلاثينيات من ١٩٣٠ كان الدخول إلى الكلية امتيازا لا يقدر عليه إلا قلة فقط. والقرارات العائلية كانت تفرضها الصعوبات العائلية. فلو أن رب الأسرة خسر وظيفته فإن على الأبناء والبنات أن ينسوا موضوع الدخول إلى الكلية، كان عليهم أن يغادروا المدرسة وأن يجدوا أعمالا لهم. كان عشرات الملايين مازالوا يعيشون في مدن صغيرة في أمريكا الريفية حيث كان الكساد قد ضرب المزارع منذ وقت طويل قبل انهيار ١٩٢٩ الذي ضرب وول ستريت. بعد بيرل هاربر كانت الحرب واقتصاد الحرب هي التي صنعت قرارات المسار الوظيفي لشباب أمريكا. والجيل الصامت من الخمسينيات من ١٩٥٠ نشأ مع الوالدين والمعلمين ورجال الدين الذين كانوا جميعا ما يزالون يشكلون شخصيات ذات سلطة . ولم يكتشف البروفسور غالبرايث حتى العام ١٩٥٧ أننا كنا نعيش في مجتمع اليسر.

ولكن الآباء الذين وقعوا تحت معاناة الكساد والحرب كانوا مصممين على تجنيب أبنائهم تلك المعاناة وكانوا يقولون "لن يصاب

ابني بها على درجة القسوة نفسها التي أصبت أنا بها." وهكذا فأطفال ازدهار الولادات ترعرعوا بشكل مختلف، وقضوا تقريبا أمام التلفاز عددا من الساعات يعادل ما قضوه في المدرسة. ومع حلول منتصف الخمسينات من ١٩٥٠ كان هناك منافس خطير للآباء على انتباه أطفالهم، وكان لدى الشباب حليف مسل وذكي، وهو ملاذ آمن مميز للتراجع إلى أحضانه في الصراع الطويل ضد الوالدين. والرسالة التي جاءت من التلفاز، خصوصا من الإعلانات، كانت تقدم إرضاء فوريا.

ومع حلول عام ١٩٦٤، وهو عام ماريو سافي(*) وحركة التعبيرالحر(**) عن الرأي في بيركلي، عندما وصلت أول موجة من أطفال ازدهار الولادات إلى الحرم الجامعي، من الذين لم يعرفوا الصعوبات أو الحرب، كانت موجة جاهزة لإحداث الهزة. وعلى

(*) من قادة الحركة الطلابية التي بدأت في صفوف طلاب جامعة كاليفورنيا . وبلغت الحركة ذروتها باحتلال الطلاب قاعة كبيرة، وقامت الشرطة بإنهاء الاحتلال في ٣ديسمبر بناء على أوامر حاكم الولاية إدموند براون، سحب أكثر من ثمانمائة (٨٠٠) طالب خارج القاعة، واعتقل نحو سبعمائة واثنين وثلاثين (٧٣٢) طالبا من المعتصمين الجالسين . وكان هذا أوسع اعتقال في التاريخ . ويؤرخ إخماد مظاهرة كاليفورنيا لبداية مدة طويلة من الاضطراب داخل ساحات الحرم الجامعي، وهو الاضطراب الذي سيتحول إلى حركة مناهضة للحرب .

(**) حركة التعبير الحر نادت بالحق في التعبير عن الرأي علانية أمام الجمهور بدون رقابة أو تحديد من قبل الدولة .

الرغم من أن أعمال الشغب والتمردات التي قام بها الطلاب قد ألقي فيها اللوم على الرئيسين ليندون جونسون ونيكسون وعلى أغينيو وفيتنام، فإن هذا التفسير لن يصلح. وذلك لأن تمردات الطلاب لم تقتصر على أمريكا. واندلعت عبر أوروبا بل وفي اليابان أيضا. وفي الوقت الذي مزقت فيه أيام الغضب من العام ١٩٦٨ الحزب الديمقراطي في شوارع شيكاغو، فإن الطلاب التشيكيين الذين صنعوا ربيع براغ كانوا يواجهون الدبابات الروسية، وكان يجري إطلاق النار على الطلاب المكسيكيين في شوارع العاصمة، وكان الطلاب الفرنسيون قد أوشكوا تقريبا أن يستولوا على باريس من الجنرال ديغول.

فالذي يملكه أطفال ازدهار الولادات بشكل مشترك مع معاصريهم في الخارج لم يكن هو فيتنام، بل هو أعدادهم، واليسر، والأمن، والحرية، والمثال المتلفز لأقرانهم في جميع أنحاء العالم. وفي طفولتهم كان لديهم جميعا راعية الأطفال نفسها، وهي التلفاز - وهي راعية أطفال أكثر تسلية من الوالدين. ورسالتها الإعلانية الدؤوب كانت هي ذاتها: "أيها الأطفال! أنتم تحتاجون إلى هذا- الآن!"

مع ملايين من الشابات "المتحررات" من سلطة الآباء والمعلمين والواعظين من رجال الدين، ومع توافر النقود لصرفها، ومع انهيار السلطة البديلة للوالدين المتمثلة في الأساتذة والعمداء، انساحت الثورات في كل ساحات الحرم الجامعي: الحركة المناوئة للحرب ("هيه، هيه، ال بي جيه (ليندون بينس جونسون) / كم طفلا قتلت اليوم؟" و"هو، هو، هوشي منه، / جبهة التحرير الوطني إن إل إف سوف تربح!") وثورة المخدرات ("خذ المخدر، وانسجم، وانسحب") والثورة الجنسية ("مارس الحب، وليس الحرب").

ثم جاءت حركة النساء، وكانت وفق نموذج حركة الحقوق المدنية، وكسبت أتباعا حتى في أمريكا الوسطى. ومثلما طالب السود بحقوق متساوية مع البيض فقد طالبت النساء بالحقوق نفسها مثل الرجال. ولا شيء أقل من المساواة التامة. وتساءلن إذا كان الشباب يستطيعون ممارسة الاستمتاع وسوء السلوك في الجمعيات الأخوية في الكلية وفي بارات العزاب مع علاقة جنسية لمرة واحدة بالمناسبة، فلماذا لا نستطيع نحن؟ ولكن بما أن الطبيعة لم تصمم الجنسين على تلك الطريقة، وكانت نتائج الغواية والعهر تحملها النساء على نحو غير متساو في شكل أطفال، لم يكن بد إذن من إيجاد الحلول. وقام سحر السوق بعمل الباقي. فإذا نسيتِ أن تأخذي الحبة أو أن مانع الحمل لم يعمل، فإن الاختصاصي المحلي للإجهاض لن يفشل.

وانهارت أحكام العقوبات القديمة ضد الزنا وتعديده. وتمت معالجة عقوبات الطبيعة – وهي الحمل غير المرغوب فيه والخوف من المرض- بحبة منع الحمل، وبالإجهاض المتوافر، وبعقاقير جديدة تفعل فعل المعجزة. لا حاجة للزواجات المفروضة فرضا. ورحلة واحدة بعين دامعة إلى مركز حقوق الإنجاب تقوم بالواجب وتنهي العمل. والخوف من وصمة العار الاجتماعية -خسارة السمعة- قد تم محوها بثقافة شعبية احتفت بالثورة الجنسية وصفقت للفتيات باسم "متخذات الأخدان رغم الزواج، Swingers" وكن يدعين في الأربعينات من ١٩٤٠ و الخمسينات من ١٩٥٠ بأسماء أقل جاذبية. والعقوبات الأخلاقية -الإحساس بالخجل والمعصية، وخرق قانون الله تعالى، وتعريض روح الإنسان الخالدة للخطر- كلها سُهلت بصنف جديد من الرهبان ورعاة الكنيسة الذين يعلّمون "هل أنت تركض معي أيها المسيح؟" والذين كسبوا شعبية كبيرة عن طريق القول بأنه هو (أو هي) لم يكن ذلك النوع من الإله "المصدِّر للأحكام" ثم إن "جهنم مجاز فقط!"

ولم تنهر العقوبات القديمة فقط، بل إن طريقة جديدة لقياس الأخلاقيات ظهرت لتبرر بل لتعطي قدسية لمقولة "أن يعمل المرء ما يخصه." وتحت القانون الجديد كانت الأخلاقيات الآن تتقرر لا بحسب من نام مع من أو من استنشق ماذا – وهي مسائل تافهة من الإيثارات الشخصية !- بل تتقرر الأخلاقيات وفق من ذهب إلى

الجنوب من أجل الحقوق المدنيـة، ومن احتج ضد التمييز العنصري، ومن قام بمسيرات ضد "الحرب القذرة اللا أخلاقية" في فيتنام. وكما كان صحيحا في الغالب في التاريخ فإن قانونا أخلاقيا جديدا قد صُنع ليبرر نمط الحياة الجديدة وهو النمط الذي كان قد تم تبنيه من قبل. وفي حين كان شباب اليعاقبة، الشباب اليساري المتطرف، ينغمس في الجنس، والمخدرات، وأعمال الشغب، ورقص الروك أند رول فإن هؤلاء الشباب كان لديهم من يطمئنهم بشأن انغماسهم هذا وكان الديوثون الكبار يقولون نعم، في الحقيقة، "هذا هو أروع جيل من الشباب سبق لنا أن أنجبناه." ألم يكن هذا الأمر دائما كذلك مع الثورات؟ لقد غمغم وردسورث العظيم في ثورة أكبر من هذه وانتهت نهاية سيئة نوعا ما وقال: "كانت سعادة للمرء أن يكون حيا يعيش في ذلك الفجر/ أما أن يكون فيه شابا فهو الفردوس بعينه!".

في الستينيات من ١٩٦٠ اجتاح جميع ساحات الحرم الجامعي أمران هما التمرد الطلابي والثورة الثقافية. وعندما تخرج المتمردون، وحصلوا على وظائف وأعمال، وتزوجوا، توقفوا عن أن يكون متمردين، وأخذوا مواقع آبائهم في البلاد وصوتوا لصالح رونالد ريجان، على الرغم من أن الأمر استغرق بالنسبة إلى بعضهم وقتا ربما كان أطول -رئيسنا يعود إلى الذهن مما استغرقه بالنسبة إلى الآخرين لكي "ينفصل."

ولكن متمردي الستينيات لم يكونوا هم الثوريين. المتحولون للثورة جاؤوا إلى الكلية وهم يفكرون ويعتقدون بطريقة معينة وتركوا الكلية وهم يفكرون ويعتقدون بطريقة مختلفة اختلافا كاملا غيرت حياتهم كاملة. إن هيلاري رودهام، فتاة غولد ووتر التي جاءت إلى بلدة ويلزلي في العام ١٩٦٥ وغادرتها وهي راديكالية اجتماعية في العام ١٩٦٩، وتحمل معها قيما جديدة ونظام أخلاق جديدا، وإرادة فولاذية على تغيير المجتمع الفاسد الذي ترعرعت ونشأت فيه، إن هيلاري هذه مثال جيد على الثوري مثلما أن السيد بوش هو المثال على المتمرد.

إن الثورة الثقافية التي اكتسحت كل ساحات الحرم الجامعي في أمريكا كانت ثورة حقيقية. ففي ثلث قرن رفضت الملايين النظام الأخلاقي اليهودي المسيحي الذي تحدته تلك الثورة. وإن العداء لأمريكا أوزي -و- هاربيت كان قد دخل في روع نخبنا الثقافية، ومن خلال هيمنتهم على رأينا وعلى مؤسسات تشكيل القيم عندنا - الفيلم، والتلفاز، والمسرح، والمجلات، والموسيقى- نشر هؤلاء المبشرون بالثورة إنجيلهم في كل أنحاء العالم وحولوا إليهم عشرات الملايين.

نحن أمريكيتان: الأم أنجليكا وموعظة يوم الأحد تتنافسان مع آلي مكبيل والجنس والمدينة. والرسالة التي تبعث بها الثقافة المسيطرة ليلا ونهارا تعطي رد فعل من الضحك الساخر المستهزئ بالفكرة القديمة التي ترى أن الحياة الطيبة للمرأة تعني زوجا وبيتا

مليئا بالأطفال. وهناك الآن قوى جديدة متضافرة قوية في المجتمع تجر النساء الأمريكيات أيضا بعيدا عن جناح الأمومة إلى الأبد.

(أ) **الاقتصاد الجديد.** في الاقتصاد الزراعي كان مكان العمل هو البيت حيث كان الزوج والزوجة يعملان معا ويعيشان معا. وفي الاقتصاد الصناعي غادر الرجل البيت للعمل في المصنع، بينما بقيت زوجته في البيت لتعتني بالأطفال. الاقتصاد الزراعي أعطانا الأسرة الممتدة، والاقتصاد الصناعي أعطانا الأسرة النووية. أما في الاقتصاد ما بعد الصناعي فإن الزوج والزوجة كليهما يعملان في المكتب، وليس هناك من يمكث في البيت مع الأطفال. وفي الحقيقة قد لا يكون هناك أي أطفال. وكما يكتب أستاذ العلوم السياسية جيمس كيرت من سوارثمور ويقول:

> كانت أعظم حركة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هي حركة الرجال من المزرعة إلى المصنع... وكانت أعظم حركة في النصف الثاني من القرن العشرين هي حركة النساء من البيت إلى المكتب ... [هذه] الحركة تفصل الوالدين عن الأطفال، وهي تمكن الزوجة كذلك أن تفصل نفسها عن زوجها. وبهذا الشق للأسرة النووية فإن الحركة تساعد على أن تجيء ببديل يستبدل بالأسرة النووية اللاأسرة.[٦]

وفي الوقت الذي لم تبق فيه وظائف الرجال في التصنيع، والتعدين، والزراعة، وصيد الأسماك مطلوبة، أو هي قد شحنت لما وراء البحار، فإن مهارات النساء ومواهبهن هي الآن مرغوبة أكثر. وهناك أيضا فرص في الحكومة، والتعليم، والمهن المفتوحة للنساء اليوم والتي لم تكن قطعيا مفتوحة لأمهاتهن وجداتهن. فالأعمال التجارية، الكبيرة منها والصغيرة تعرض عروضا متكاملة من الراتب والمنافع لاجتذاب النساء الموهوبات وإخراجهن من بيوتهن والاحتفاظ بهن بعيدا عن جناح الأمومة، حيث يصرن إن دخلن في هذا الجناح "غير صالحات للشركة."

وهذه الخطة تعمل بنجاح. فبعشرات الملايين غادرت النساء الأمريكيات بيوتهن إلى المكاتب ليعملن إلى جانب الرجال ولينافسوهم. وبعشرات الملايين أجّلت النساء خريجات الكليات الزواج، والعديدات منهن أجلنه إلى ا لأبد. ويقال للمرأة العصرية "يمكنك أن تحصلي على الاثنين معا كليهما!" -الطفل والمسار الوظيفي. ومع وجود مربيات الأطفال، والتلطف بالحدود المفتوحة، والراتب المتساوي مقابل العمل المتساوي، وإجازة الأمومة، والرعاية النهارية، والمجاملة من الحكومة والشركة، فإن الإغراء بتلك المقولة لا يبقى كذبة. إن الذي لا تستطيعين عمله هو أن يكون لديك عدد كبير من الأطفال في البيت في الوقت الذي تحافظين فيه على التنافس في المكتب.

أما وقد قسر النساء على الاختيار فقد اخترن المسار الوظيفي، أو المسار الوظيفي وسعادة الأمومة، لمرة واحدة. ويعمل الاقتصاد المعولم يدا بيد مع الاقتصاد الجديد، فهو ينقل وظائف التصنيع من الأمم الغربية عالية الأجور إلى الأمم المصنعة حديثا المنخفضة الأجور في آسيا وفي أمريكا اللاتينية. ويجعل طريق أمريكا من الطوب الأصفر(*) يصل إلى الطبقة الوسطى نزولا إلى مسار واحد، كان يتوجب على الزوجات أن يعملن ليحافظن على مستواهن مع آل جونزفي البيت الذي يلي. وهكذا فقد تأجل إنجاب الأطفال، وفي بعض الأحيان يكون هذا هو الأفضل. في العام ١٩٥٠ مكثت في البيت نسبة ٨٨٪ من النساء ذوات الأطفال تحت سن السادسة لأنهن كان لديهن في الغالب أطفال أكثر. واليوم فإن نسبة ٦٤٪ من النساء الأمريكيات ذوات الأطفال تحت سن السادسة هن في قوة العمل.[٧]

لقد قيل عن جنود الحرب العالمية الأولى الذين ذهبوا إلى أوروبا: "كيف ستحتفظ بهم في المزرعة بعد أن رأوا باريس؟" حسنا، ويمكن للمرء أن يسأل كيف ستحتفظ بهن في الضواحي بعد أن رأين مقاطعة كولومبيا «دي سي»؟ وذلك السؤال عن النساء الموهوبات اللواتي يعملن محاميات وصحافيات واختصاصيات

(*) طريق الطوب الأصفر: يشير إلى ما حدث في بلدة سيدان في كنساس. ففي عام ١٩٨٨م انهار اقتصاد البلدة فاستغلت قصة فلم جاء ذكر البلدة فيه. ورصفت شوارعها مثلما ظهرت في الفلم «طريق الطوب الأصفر» وهو الأمر الذي جذب السياحة وأنقذ الاقتصاد المتعثر.

علاقات عامة ومساعدات سياسيات بعد أن استمتعن باللعبة العظيمة في مدينة مثيرة.

وقد كتبت إلينور ميلز في صحيفة سبكتيتر، وميلز هذه صوت أصيل عن جيلها، فقالت: "الحقيقة أن البنات أمثالي -أي، من النساء اللواتي يتمتعن بالصحة، والحيوية، ومن الطبقة الوسطى وفي العشرينات من أعمارهن- لا ينجبن."[٨] ولماذا لا ينجبن؟ وتجيب ميلز لأن من سوء الحظ، أن "الشغل الشاغل لجيلي هو التوأمان: المظهر المادي الحسن، والمال."[٩] وتقتبس ميلز من واحدة من معاصراتها الكثيرات اللواتي يعشن بلا أطفال فتقول:

> قالت لي جين، وهي مديرة إعلانات، بتفكر "لو كان لي طفل ما كنت قادرة على أن أعمل نصف الأعمال التي اعتبرها مسلمة بديهية. ففي كل يوم سبت عند الساعة ١٠,٣٠ صباحا عندما أكون أنا وزوجي ما نزال في الفراش ينظر أحدنا إلى الآخر ونقول: « الحمد لله أننا لم نستيقظ في الساعة الخامسة صباحا لنعتني بطفل مدلل». إننا سنتمتع وحدنا بوقت عظيم، ومن يعلم أن حياتنا سوف تستمر على ما هي عليه لو أننا أدخلنا شخصا آخر إلى المعادلة؟"[١٠]

قال إف سكوت فيتزجرالد: "الأغنياء يختلفون عنك وعني." وقد أجاب همنغواي على هذا بقوله: " نعم، إنهم يملكون مالا أكثر." ولكن الأغنياء أيضا يملكون أطفالا أقل. وباستخدام قاعدة

أوكـام(*) التي تقـول إن - التـفـسيـر الأبسط هو عـادة التـفـسـيـر الصـحيح - فـقد يكون أفـضل تفـسيـر لهبوط مـعـدل الولادات في الغـرب هو أبسط تفسير. فعندما يدخل فقراء أمـريكا إلى الطبقة الوسطى، وعندمـا تصيـر الطبقـة الوسطى ميسـورة، وعندمـا تصـيـر الطبقة الميسورة غنية، فإن كل طبقـة من هذه الطبقات تتبنى نمط الطبـقـة التي دخلت إليهـا مؤخـرا. والجـمـيع يبـدؤون بتـقليل حـجـم أسـرهم، والجـمـيع يبـدأون بإنجـاب أطفـال أقل. ويتبع ذلـك استـنتـاج هو: أن أغنى الأمم تصيـر هي أقل الأمم أطفـالا، وتصيـر هي أسـرع الأمم في بدء الموت فـيـهـا. إن المجـتـمـعـات المنظمـة لتـضـمـن المتعـة القـصـوى، والحـرية، والسـعـادة لجـمـيـع أعـضـائهـا، هي في الوقت نفسـه، المجتمعات التي تقدم تاريخ تشـييع جنازاتهـا. وقـد يعـوض القدر شعوب الصين، والشعوب الإسلامية، والشـعوب اللاتينية عن مصـاعبهم وفقـرهم في هذا القرن بأن يمنحهم الهيمنة على الأرض في القرن التـالي. وفي الحقيقـة ألسنا نملك هذا القول في مرجعية عالية "مباركون هم المتواضعون ... فإنهم سيرثون الأرض؟"

(*) تنسب إلى وليام أف أوكام على رغم أنها استخدمت من قبل المفكرين المدرسيين. وينص هذا المبدأ على أنه لا ينبغي للشخص أن يزيد أكثر من الضروري في عدد العناصر اللازمة لتفسير اي شيء، أو أن على الشخص الا يتخذ من الافتراضات أكثر من الحد الأدنى اللازم. وكان يسمى هذا المبدأ في الغالب مبدأ البخل. ومنذ العصور الوسطى لعب دورا هاما في استبعاد العناصر الخرافية أو غير الضرورية للتفسيرات.

(ب) **نهاية "راتب الأسرة."** في الثلاثينيات من ١٨٣٠ عندما كانت الثورة الصناعية الأمريكية على وشك أن تبدأ، حذر اتحاد التجارة في فيلادلفيا أعضاءه بشأن الخطة الخبيثة لما سماه "رأس المال الجشع" فقال:

> عارضوا [استخدام نسائنا] بكل عقولكم وبكل قوتكم لأن استخدامهن سيبرهن على أن فيه خرابنا. يجب أن نكافح من أجل الحصول على أجور كافية في مقابل عملنا من أجل إبقاء زوجات شعبنا وبناته وأخواته في بيوتهن ... إن رأس المال الجشع سوف يجعل كل رجل وكل امرأة وكل طفل يكدح، ولكن دعونا نبذل الجهد مع أسرنا لكي تعارض مخططاته.[11]

وفي العام ١٨٤٨، وهو عام البيان الشيوعي لكارل ماركس، فإن مطبوعة العمل المطالبة بعشر ساعات كتبت في افتتاحيتها: "نأمل بألا يكون بعيدا اليوم الذي سيكون فيه الزوج قادرا على توفير العيش لزوجته وأسرته بدون إرسال [الزوجة] لتعاني من العمل الشاق في محالج القطن."[12]

هذه الرؤية عن العمل الأمريكي الحر كانت في حرب مع وجهة النظر التي كان يتبناها ماركس وحاميه والمتعاون معه فريدريك أنغلز الذي كتب في أصول الأسرة، والملكية الشخصية، والدولة، وقال: "أول شرط لتحرير الزوجة هو أن نحضر كل الجنس الأنثوي

إلى الصناعة العامة وهذا ... بدوره يتطلب إلغاء أسرة الزواج الآحادي بصفتها الوحدة الاقتصادية للمجتمع."[١٣] أليست مصادفة متطابقة عجيبة كيف أن وجهة النظر الرأسمالية العولمية عن النساء -بوصفهن وحدات انتاج، محررات من الأزواج، والبيت، والأسرة- تنسجم إلى هذا القدر من الدقة مع وجهة نظر آباء الشيوعية العولمية؟

وكذلك يكتب ألن كارلسون، الذي ينشر أيضا الأسرة في أمريكا، ويقول كان هناك إجماع في أمريكا، وليس من وقت طويل جدا، على أنه يتوجب على أرباب العمل أن يدفعوا للآباء "راتب أسرة" كافيا لدعم زوجاتهم وأطفالهم بكرامة بدون أن يكون على الزوجات والأطفال أن يغادروا البيت إلى العمل.[١٤] وكانت تلك الصفة تعتبر إحدى الصفات التي تحدد معالم المجتمع الجيد.

وقد احتفظ تعميم البابا ليو الثالث عشر الذي أصدره في العام ١٨٩١ بالقدسية لهذه الفكرة تحت عنوان التربية الجديدة. وفي كتب من مثل كتاب راتب معيشة دافع الناقد الاجتماعي الكاثوليكي الأب جون ريان عن الفكرة وشدد على الحاجة إلى أن نضفي الصبغة "الأخلاقية" على عقد الراتب لحماية البيت.وكتب الأب ريان "للدولة الحق وعليها الواجب معا أن تجبر أرباب العمل كلهم على أن يدفعوا راتب معيشة."[١٥]

وكانت هذه الفكرة مقبولة على نطاق واسع. ويلاحظ كارلسون أن "فجوة الراتب" بين الرجال والنساء اتسعت في الواقع بعد الحرب العالمية الثانية. في العام ١٩٣٩ كسبت النساء ٥٩,٣٪ من رواتب الرجال، ومع حلول العام ١٩٦٦ هبطت النسبة إلى ٥٣,٦٪.[١٦] في الأربعينيات من ١٩٤٠ وفي الخمسينيات من ١٩٥٠فصلت الثقافة، وبضمير طيب، بين الرجال والنساء في مكان العمل. وفي الصحف كانت الإعلانات التي تقول "مطلوب رجال" تعلن منفصلة عن الإعلانات التي تقول "مطلوب نساء". وفي النادر فقط كان بالإمكان أن توجد نساء عاملات خارج أعمال من مثل كاتبة طابعة آلة، أو أمينة سر، أو ممرضة، أو معلمة مدرسة أو فتاة مبيعات. ويكتب كارلسون:

> بالنسبة إلى مراقب من العام ٢٠٠٠، فإن أعجب شيء عن هذا النظام هو أنه كان مفهوما من متوسطي الناس وكان مدعوما شعبيا أيضا. وفي استطلاعات الرأي فإن أكثريات كبيرة من الأمريكين (٨٥ ٪ أو أكثر)، رجالاً ونساء وافقوا على أن الآباء استحقوا دخلا يساند زوجاتهم وأطفالهم في البيت وأن عمل الأمهات كان ثانويا أو متمما. وكان هذا الموقف يُرى على أنه عدالة بسيطة.[١٧]

في الستينيات من ١٩٦٠ تصدع هذا النظام عندما نجحت العاملات في الحركة النسوية في إضافة "الجنس" إلى التمييزات الممنوعة بموجب قانون الحقوق المدنية الكاسح في العام ١٩٦٤،

وهو القانون الذي سبق أن كتب لحماية حقوق الأمريكيين الأفريقيين. وهذا الأمر حوّل لجنة الفرصة المتساوية في التوظيف إلى مدفع حصار ضد راتب الأسرة. وصار ينظر إلى الإعلانات التي تقول "مطلوب رجال" على أنها إعلانات تمييزية ومخالفة للقانون. وحلت مساواة الجنس محل "العقد الأخلاقي." وأخذت حقوق الأفراد الأسبقية على متطلبات الأسرة. وحلّقت رواتب النساء عاليا، وفي الوقت الذي بدأت فيه النساء يدخلن إلى أعمال كانت في الماضي مقصورة إلى حد كبير على الرجال- الطب، والقانون، ووسائل الإعلام، والجامعات، والبيروقراطية العليا، والأعمال التجارية - بدأت الأسر تنهار.

ويكتب الدكتور كارلسون ويقول: بين العام ١٩٧٣ والعام ١٩٧٦، إن المتوسط "[الحقيقي] لدخل الرجال من عمر ١٥ فأعلى، ويعملون كامل الدوام، هبط ٢٤٪، من ٣٧,٢٠٠ دولار إلى ٣٠,٠٠٠ ألف دولار."[١٨] ومع السير تحت أعلام الحركة النسوية التي تقول - راتب متساوٍ من أجل عمل متساوٍ، راتب متساوٍ من أجل عمل مقارن- انتقلت النساء إلى المنافسة المباشرة مع الرجال. ونجحت ملايين النساء في إزاحة الرجال جانبا بأدائهن المتفوق. وارتفعت رواتبهن بثبات، وثبت أو هبط الراتب المطلق والنسبي للرجال المتزوجين. ومع وقوع عائلات الرجال تحت الضغط، بدأ الرجال

المتزوجون بالاستسلام لإصرار زوجاتهم على أن "يعدن للعمل." ووجد الشباب أنهم لم يبقوا يكسبون ما فيه الكفاية في أواخر العشرية الثانية من أعمارهم أو في مطالع العشرينيات ليبدؤوا بتكوين أسرة، ولو كان ذلك أملهم وحلمهم. أما وقد جُرِّد هؤلاء الشباب من واجبات الأبوة والأسرة، فقد انتهى بهم المطاف إلى الوقوع في مشكلات - بل إلى الدخول في السجن.

وجدت شابات أمريكا أنهن استطعن أن يحققن الاستقلال الخاص بهن. فلا يحتجن إلى أن يتزوجن، بالتأكيد ليس بعد. وأكثر فأكثر لم يبقين راغبات في أن يتزوجن. في العام ١٩٧٠ كانت نسبة ٣٦٪ فقط من النساء اللواتي تراوح أعمارهن بين العشرين والرابعة والعشرين غير متزوجات. وبحلول العام ١٩٩٥ كانت نسبة ٦٨٪ ضمن صنف "لم يتزوجن مطلقاً". وبين النساء اللواتي تتراوح أعمارهن بين الخامسة والعشرين والتاسعة والعشرين حلّقت عاليا نسبة اللواتي "لم يتزوجن مطلقاً" من ١٠٪ إلى ٣٥٪.[١٩]

إن الأسرة الشابة التي لديها عدد من الأطفال هي الآن جنس معرض إلى الخطر. إن الشباب الأغنياء فقط هم الذين يملكون القدرة على "أسلوب الحياة" ذلك، وهم غير مهتمين به. ومع كون الحزب الديمقراطي مديناً إلى حد كبير للحركة النسوية بحيث لا يستطيع ولو معارضة الإجهاضات الجزئية للولادة، ومع كون الحزب

الكبير القديم مستعبداً للإيديولوجية الليبرالية وتحت سيطرة مصالح الشركات الكبرى، فإن دعوة آلهة السوق التي تطلب المزيد من النساء العاملات تتغلب على أمر الله في سفر التكوين: كونوا مثمرين وتكاثروا، واملؤوا الأرض."

لقد استسلم العديد من المحافظين لبدعة مذهب الاقتصادية، وهو انعكاس الماركسية الذي يرى أن الإنسان حيوان اقتصادي، وأن التجارة الحرة والأسواق الحرة هي الطريق إلى السلام، والرفاهية، والسعادة، وأننا إذا ما استطعنا فقط أن نجعل هامش معدلات الضريبة صحيحا وأن نلغي الضريبة على أرباح رأس المال، فإن الجنة - مؤشر داو ٣٦٠٠٠ ألف! - تكون في متناول اليد. ولكن عندما كان معدل ضريبة الدخل لمن هم الأغنى قد وصل فوق ٩٠٪ في الخمسينيات من ١٩٥٠، كانت أمريكا، بكل مؤشر أخلاقي واجتماعي، بلدا أفضل.

لقد رأى أورِستيس براونسون وهو متبع مسيحي مصلح راديكالي أن هذا وثنية جديدة هي "عبادة الثروة" تظهر في أمريكا في القرن التاسع عشر وقال: "عبادة الثروة صارت دين مملكة السكسون، ولم يبق الله في كل أفكارنا. لقد فقدنا إيماننا بالنبيل، والجميل، والعادل."[٢٠] وبعد قرن كتب متبع آخر متحول عن إيمان مادي فاشل ليذكرنا ثانية. كتب ويتكر تشامبرز يقول: "الاقتصاد ليس هو المشكلة المركزية لعصرنا، إنه الإيمان."[٢١]

(ج) هستيريا "القنبلة السكانية". ثم كانت هناك الحركة المضادة للسكان في الستينيات من ١٩٦٠ وفي السبعينيات من ١٩٧٠، وهي رد الفعل العنيف للنخبة ضد ازدهار ولادات الأطفال، وكان معلم هذه الحركة عالم الأحياء بو ل إيرلخ من جامعة ستانفورد، وقد فعل كتابه الذي كان واحدا من الكتب الأفضل مبيعا وبعنوان القنبلة السكانية فعله في ضبط السكان مثلما كان كتاب راشيل كارسون الربيع الصامت قد فعله للبيئة. كان إيرلخ هو التجسيد في القرن العشرين لتوماس روبرت مالتوس، عالم السكان البريطاني الذي ثبت أن تنبؤه عن جوع العالم كان خاطئا على نحو هائل في القرن التاسع عشر. كتب مالتوس: "قد يكون من المأمون أن نؤكد ... أن السكان، إذا لم يضبطوا، فإنهم يزيدون وفق متوالية هندسية من طبيعتها أن تضاعف نفسها كل ٢٥ عاماً."[٢٢] وبما أن إنتاج الطعام في العالم لا يستطيع أن يضاعف نفسه كل ٢٥ عاما، كما قال ذلك القسيس المتشائم، فإن الجوع العام محتوم أمامنا لا محالة.

وقد ثبت أن مالتوس كان مخطئا بشأن إنتاج الطعام مثلما كان إيرلخ بشأن موارد العالم، وهي الموارد التي أكد لنا أنها كانت في طريقها إلى النفاد. واليوم فإن ستة بلايين نسمة على الأرض يعيشون في حرية ورفاهية أكبر بكثير مما عاشه ثلاثة بلايين نسمة في ١٩٦٠، أو بليونا نسمة في ١٩٢٧، أو بليون واحد في ١٨٣٠. إن

عدم الكفاية السياسية والإجرام، والأفكار الغبية والأيديولوجيات غير المتعقلة، هي أسباب الجوع والبؤس، وليس الناس.

وبعد أن نشر نادي سييرا كتاب إيرلخ صار هذا الكتاب قراءة مطلوبة في العديد من المدارس الثانوية. ومع حلول العام ١٩٧٧ كان وزير الدفاع السابق ورئيس البنك الدولي روبرت مكنمارا يلعب دور الفرخة هِنيّ بِنّي مع صوص إيرليخ،(*) ويحذر مكنمارا فيقول: «إن النمو المستمر للسكان سوف يتسبب في ؟الفقر، والجوع، والإجهاد، والازدحام، والإحباط» وهذا ما يهدد الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والعسكري."[٢٣٠]

في العام ١٩٧٨ أعلنت لجنة منتقاة من الكونجرس بشأن السكان أن "الأنظمة الحياتية الكبرى التي تعتمد عليها الإنسانية ... يجري إجهادها بالنمو السريع للسكان ... [و] في بعض الحالات فإن هذه الأنظمة ... تفقد قدرتها الإنتاجية."[٢٤٠] وكما تكتب جاكلين كاسون، مؤلفة كتاب الحرب ضد السكان، ففي حوالي هذا الوقت نفسه عمل معهد سميثسون "معرضا متجولا لأطفال المدارس

(*) الصوص الصغير حكاية فلكلورية فيها أنه كان في الغابة يلتقط الحب فوقع شيء على رأسه فصاح يا إلهي إن السماء ستقع ويجب أن أذهب لأخبر الملك بذلك. ومشى مستعجلا وفي الطريق قابلته الفرخة هني بني فأعلمها بقصته فذهبت معه ثم قابلوا الديك والبطة والوزة والديك الرومي وذهبوا على غير هدى حتى قابلهم الثعلب وقادهم إلى وكره ...الخ.

دُعي "السكان: المشكلة هي نحن." «وعرض [ذلك] المعرض صورة جرذ ميت في طبق لطعام الغداء كمثال على "موارد الطعام في المستقبل".»[٢٥]

ونتيجة لهذه الدعاية المضادة للسكان من نخبة معاهد السياسة والأفكار انفجر التمويل العام لضبط السكان هنا وفي الخارج. ولكن وعلى الرغم من أن الرسالة قد أُخذت بإخلاص إلى القلب من طرف العالم الأول الغني ومن الطبقة الوسطى، فقد أُهملت إلى حد كبير من قبل العالم الثالث الفقير، وهو العالم الذي استهدفته تلك الرسالة. ونستطيع اليوم أن نرى النتائج: قحط في المواليد بين الأمم الميسورة، وازدهارات في المواليد عبر العالم الثالث.

(د) **الحركة النسوية.** أن تكون المرأة "مع حق الاختيار" بشأن الإجهاض هي اليوم تقريبا العلامة المحددة "للمرأة العصرية." وبالنسبة إلى العديدات من عضوات الحركة النسوية فإن تعبير "تحرير النساء" يعني تحريرها من الأدوار التقليدية، وبرأيهن الأدوار الضيقة المحددة لها زوجة وأماً وربة منزل. ولكن لم يكن الأمر دائما كذلك بين الأمهات المؤسسات للحركة النسوية. وعندما كان كاتب الافتتاحية الكاثوليكي جوزيف كوليسون يكتب عن قرار المحكمة العليا بشأن قضية رو ضد ويد، في ذا نيو أوكسفورد رفيو، لاحظ وقال:

نساء الحركة النسوية الأوائل كن ضد الإجهاض بشدة. وقد سمت إليزابث كادي ستانتون، منظّمةُ أول مؤتمر لحقوق النساء في العام ١٨٤٨، سمت الإجهاض "جريمة مقززة مذلة."... وكتبت سوزان بي. أنطوني، وهي مقاتلة مبكرة من أجل تصويت النساء، تقول "لا يهم ما هو الدافع... فالمرأة التي ترتكب هذا الفعل مذنبة ذنباً هائلاً. إن هذا الفعل سوف يثقل بالعبء ضميرها في الحياة، وسوف يثقل بالعبء روحها في الممات." وفي الحقيقة لقد كانت النساء العاملات في الحركة النسوية في القرن التاسع عشر هن اللواتي خضن الحملة لسن قوانين تجرّم الإجهاض.[٢٦]

ويضيف كوليسون أن الإجهاض مر دون أن يذكر في الطبعات الأولى من السحر الأنثوي وهو العمل الأساسي لبيتي فريدان لم يكن الإجهاض قضية نسوية في مطالع الستينيات من ١٩٦٠.

فيما مضى قبل الحرب العالمية الثانية، عندما كتبت مارغريت سانغر، وهي الأم التي ولدت فكرة الأبوة المخططة، وقالت "إن أرحم شيء تستطيع أسرة كبيرة أن تعمله لأحد أعضائها المولودين حديثا هو أن تقتله." لقد كانت اشتراكية متطرفة بعيدة خارج التيار الأمريكي الرئيسي.[٢٧] ولكن عداوة سانغر ضد الأسر الكبيرة صارت منذ ذلك الوقت الصفة المركزية للحركة النسوية الأمريكية الجديدة التي صارت هي التيار الرئيسي في الستينيات من ١٩٦٠ والسبعينيات من ١٩٧٠. واليوم فإن التصور بأن الزواج هو ارتباط

إنساني قد صار هو العلامة التي تعبر عن النساء المحاربات في الحركة .

ويكتب أندريا دووركن في كتاب الأدب العاري: الرجال يملكون النساء، أن الزواج "مؤسسة تطورت من الاغتصاب بصفته ممارسة معتادة. وقد عُرف الاغتصاب أصلا بأنه خطف صار زواجا بواسطة الأسْر. وعنى الزواج بذلك أن يمتد أخذ المرأة في الزمان، وأن لا يكون الأخذ للاستعمال فقط بل لامتلاكها ملكية."[28] إنه ماركس الصرف. ويتبع ذلك استنتاج منطقي. إذ قالت ليندا غوردون الناشطة النسوية "يجب تدمير الأسرة النووية"، "إن الأسر قد ساندت الاضطهاد والجور عن طريق فصل الناس إلى وحدات صغيرة معزولة غير قادرة على الاتحاد معا للمحاربة في سبيل المصالح المشتركة."[29]

في العام ١٩٧٠ أطلقت روبن مورغان، وهي الآن مربية لما يعتبر طفل الحب لغلوريا شتاينم، أي، مجلة مز (Ms) أطلقت على الزواج القول بأنه "ممارسة تشبه العبودية. ونحن لا نستطيع أن ندمر عدم المساواة بين الرجال والنساء إلى أن ندمر الزواج."[30] وفي العام نفسه، نشرت مز مورغان كتاب الأخواتية قوة ويحتوي على مقالة بقلم فالري سولانيس، رئيسة جمعية مقاطعة الرجال. وكتبت مز سولانيس تقول "يمكن الآن من الناحية الفنية إنتاج النسل بدون

مساعدة الذكور ... وإنجاب الإناث فقط. يجب علينا أن نبدأ فورا بفعل ذلك. إن الذكر هو صدفة بيولوجية ... إن الذكر قد جعل العالم كوما من القاذورات."[٣١] ولم تكن مز سولانيس سيدة يعبث معها، فقد رسخت حسن نيتها بأن خرجت وأطلقت النار على آندي وورهول.

ومع أواخر عام ١٩٧٣ وزعت نانسي ليهمان وهيلين سولنجر بيانا جديدا للحركة بعنوان بيان الحركة النسوية، وقد أعيد نشر ذلك البيان على نطاق واسع ونال تقريظا واسعا وجاء فيه:

> لقد وجد الزواج لمنفعة الرجال، وكان طريقة أُقرت قانونيا للسيطرة على النساء ... يجب علينا أن نعمل على تدميره ... إن نهاية مؤسسة الزواج شرط ضروري لتحرير النساء. ولذلك فإن من المهم لنا أن نشجع النساء على ترك أزواجهن وأن لا يعشن منفردات مع رجال ... ويجب أن تعاد كتابة التاريخ كله من ناحية ظلم النساء. يجب أن نعود إلى أديان الأنثى القديمة مثل السحر.[٣٢]

وبين الناشطات في الحركة النسوية يتنافس تشبيه الزواج بالعبودية مع تشبيهه بشكل مجازي بالدعارة. وقد كتبت فيفيان غورنك، وهي أستاذة من بن ستيت ومؤلفة، كتبت في ١٩٨٠ تقول: "أن تكون المرأة زوجة في البيت هي مهنة غير قانونية. والخيار في أن تخدم وفي أن تحُمى وأن تخطط كي تكون عضوا في الأسرة

هو خيار لا ينبغي أن يكون. إن قلب الحركة النسوية الراديكالية هو أن تغير ذلك الوضع."[٣٣]

وقالت غلوريا شتاينم لمراسل نيوزويك في العام ١٩٨٤:[٣٤] "لا أستطيع أن أتزاوج في الأسْر." وتقتبس كريستينا سومرز من عالمة القانون كاثرين ماككنون في قطعة في العام ١٩٩١ في وول ستريت جورنال، وهي تقول: "تشدد الحركة النسوية على عدم إمكان التمييز بين الدعارة والزواج والتحرش الجنسي."[٣٥]

بالنسبة إلى المحاربة النسوية فإن الزواج هو البغاء، والأسرة في أحسن أحوالها مؤسسة فاشلة وفي أسوأ أحوالها هي سجن أو مقر عبودية. ومنذ عقد من الزمان قالت الروائية توني مورسون إلى التايم: "الأسرة النووية الصغيرة رؤية لا تعمل."[٣٦] وفي العام ١٩٩٤ اقتبست شيكاغو تريبيون من جوديث ستاسي قولها: "ربما يكون الاعتقاد بأن أُسَر الزوجين المتزوجين هي العليا هو أكثر الانحيازات انتشارا في العالم الغربي."[٣٧]. وفي جويش ورلد ريفيو في شباط فبراير ٢٠٠٠ وفي قطعة عنوانها "الآن: التمويل لصالح الأبوة غير دستوري." اقتُبس قول من شيلا كرونين تقول فيه: "بما أن الزواج يشكل عبودية للنساء، فإن من الواضح أن الواجب على الحركة النسائية أن تركز على مهاجمة هذه المؤسسة. إن الحرية للنساء لا يمكن أن تكسب بدون إلغاء الزواج."[٣٨]

إن معظم النساء الأمريكيات لا يضمرن الآن مثل هذا الرأي المرير والمعادي للزواج والأسرة. ولو كن يضمرن ذلك لكان عدد الأطفال أقل من عددهم الآن، ولكان موت الغرب صار وشيكا. ولكن الملايين متأثرون بأيديولوجية الحركة النسائية وبمعادلتها الزواج مع البغاء والعبودية، وتلك الأيديولوجية قد أقنعت العديدات بأن يؤجلن الزواج وأن لا ينجبن أطفالا. فإذا كان حفظ أصول أجداد الشعوب الأوروبية، وحفظ الحضارة الغربية التي صنعوها قد تركا بأيدي الحركة النسوية، فإن الرجل الغربي لن يكون له أي مستقبل.

الأفكار لها عواقب هو عنوان كتاب صغير مشهور للراحل المحافظ ريتشارد ويفر، ولقد كان لنجاح أفكار الحركة النسوية عواقب على بلدنا. ويمكن رؤية هذه العواقب في الزيادة التي بلغت ١٠٠٠٪ في أعداد الأخدان غير المتزوجين الذين يعيشون معا في الولايات المتحدة، وقد قفز عددهم من ٥٢٣٠٠٠ في العام ١٩٧٠ إلى ٥,٥ مليون اليوم.[٣٩] وتفيد أيضاً تقارير إحصاءات السكان في العام ٢٠٠٠، ولأول مرة في تاريخنا، أن الأسر النووية تمثل أقل من بيت واحد ١ من كل ٤ بيوت، بينما يُشكل العزاب الأمريكيون الذين يعيشون منفردين الآن نسبة ٢٦٪ من كل البيوت.[٤٠] الزواج لم يبق هو الأسلوب (الموضة).

ورجوعا إلى العام ١٩٩٠ نشرت كاترينا رانسكي، وهي مؤلفة أقل شهرة بكثير من ناشطات الحركة النسوية الأمريكية، نشرت

كتابا في بريطانيا بعنوان قلوب فارغة وبيوت فارغة، وعالجت فيه النتيجة الحتمية لكل هذه البلاغة المضادة للذكر والمضادة للزواج. وقالت: إن الحركة النسوية للمساواة بين الجنسين،

هي حليف دارويني أعمى. وبتعبير بيولوجي، ليس هناك من شيء يحدد نمطا عاجزا عن التكيف بمثل هذه السرعة مثل المستوى المتدني لاستبدال السكان عن طريق الإنجاب والتناسل، والعاقبة الفورية للحركة النسوية هي ما يظهر بأنه انهيار لا يقبل العودة في معدل المواليد. إن الأمم التي تتبع سياسات الحركة النسوية للمساواة تتبعها وهي تعرض نفسها للمخاطر."[41]

وباختصار، فإن صعود الحركة النسوية للتسوية ينذر بموت الأمة وبالنهاية للغرب. ومن الغريب أن أكثر الشعراء خطأ من الناحية السياسية، روديارد كبلنغ، رآها كلها قادمة في العام ١٩١٩:

على أول الحجارة الرملية النسوية وُعدنا بالحياة الكاملة (التي بدأت بحب جارنا، وانتهت بحب زوجته)

إلى أن لم يبق لنسائنا أي أطفال، وإلى أن فقد الرجال العقل والإيمان

وقالت الآلهة في عناوين كتب التقاليد إن: "أجور الخطيئة هي الموت."[42]

(هـ) **الثقافة الشعبية.** في ترتيبها للقيم تضع الثقافة الشعبية متع الجنس فوق سعادة الأمومة بكثير. وتحتفي المجلات النسائية، والمسلسلات التلفزيونية والإذاعية، والروايات الرومانسية، والبث التلفزيوني في الأوقات الرئيسية تحتفي كلها بالمسار الوظيفي، وبالجنس، وبالمرأة العزباء. "والقيام بالعناية بالطفل" هو عمل جدتي. والزواج، والزواج الآحادي هما تقريبا مثيران مثل ساندويتش بالبطاطا المهروسة. وذلك الثلاثي القديم "العالم، والجسد، والشيطان، " لم تبق يملك كل الأنغام الفضلى فقط، ولكنه يملك كل وكالات الإعلان الفضلى. كم تلفازا يعرض اليوم معلومات الأمومة؟ ومنذ متى خرج برنامج برادي بنش من الهواء؟ وأغنية بول أنكا الافتتاحية "إنك تحملين طفلي، " هي الآن "نحن نحمل طفلنا، " ولكن أغنية "أنا امرأة" ما تزال حولنا. إنها إشارة إلى أن الأوقات التي فيها أوزي وهارييت ليست خلف الأوقات وحسب. ومثل آموس "و" آندي صارت استعارة لما كان خطأ مع مرور الأوقات.

وكتب عالم الأنثروبولوجيا جيه. د. أنوين: "إن أي مجتمع إنساني حر في أن يختار بين أن يُظهر طاقة عظيمة وبين أن يستمتع بالحرية الجنسية. والبينات تثبت أن المجتمع لا يستطيع أن يفعل الأمرين أكثر من جيل واحد."[٤٣] وإن ما يدعى الآن أعظم جيل

كان هو الجيل الذي كبر في وقت الكساد وفي الحرب العالمية الثانية. وقد أظهر طاقة عظيمة وأعطى أمريكا موقعا بارزا لا ينافس. وأطفال ازدهار الولادات وأطفال الجيل أكس(*) عموما اختاروا "الحرية الجنسية." وقريبا سنرى ما إذا كان أنوين على حق. والعائدات المبكرة توحي بأنه كان محقا، وبأن الغرب لن يعيش بعد تجربته في التحرر الجنسي في شكل يمكن تمييزه. وكما لاحظ كاتب العمود المحافظ جنكن لويد جونز وقال: "إن الحضارات العظيمة والمعايير الحيوانية للسلوك لا تتعايش إلا لفترات قصيرة فقط."[٤٤]

(و) انهيار النظام الأخلاقي. ما يعتقده الناس حقيقة حول الصواب والخطأ يمكن أن يتحدد ويعرف من خلال الكيفية التي يعيشون بها حياتهم على نحو أفضل مما يتحدد ويعرف من خلال ما يقولونه باستطلاعات الرأي. فإذا كان الأمر كذلك، فإن النظام الأخلاقي القديم في حالة موت. وحتى وقت متأخر في الخمسينيات من ١٩٥٠ كان الطلاق فضيحة، وكان "العيش معا بلا زواج" يوصف بأنه الكيفية التي تعيش بها "القمامة البيضاء، »(**) وكان الإجهاض

(*) مواليد جيل السبعينات من ١٩٧٠.

(**) هذه كلمة شتم يعبر بها الأمريكان عن المجموعات المتفلتة وغير الأخلاقية من الجنس الأبيض.

مقززا، وكان اللواط هو "الحب الذي لا يجرؤ أحد على أن ينطق باسمه." أما اليوم، فإن نصف كل الزواجات تنتهي بالطلاق، "والعلاقات" هي ما تدور الحياة حولها، و " الحب الذي لا يجرؤ أحد على أن ينطق باسمه." لا يغلق فمه. ويقول عالم السكان البلجيكي رون لستايغي إن انهيار الزواج والخصوبة الزواجية يعود إلى "تحول في نظام تشكيل الأفكار الغربية" ابتعد على أمد طويل عن القيم التي أكدتها النصرانية - التضحية، والإيثار، وقدسية الالتزام - وتوجه نحو "فردية علمانية" محاربة تركزت على الذات.[٤٥]

وعندما أصدر البابا بول السادس في العام ١٩٦٨ تعميمه الكنسي ضد منع الحمل، الحياة الإنسانية، فإن العداوة الشاملة التي استقبل بها ذلك التعميم، حتى بين الكثيرين من الكاثوليك، أعطت شهادة على التغيير الهائل في المجتمع. ومع ذلك فإن البابا الراحل أثبت رؤية ثاقبة. وكما كتب رئيس الأساقفة تشارلز جيه. شابوت من دنفر يقول: في الحياة الإنسانية تنبأ البابا بول بأربع عواقب لتبني الإنسان موقفا عقليا ثابتا من منع الحمل:

١- الانتشار الواسع "للخيانة الزوجية والانخفاض العام للأخلاق."

٢- لم تبق المرأة هي "الرفيقة المحترمة المحبوبة" للرجل، ولكنها تخدم بصفتها "مجرد أداة للاستمتاع الأناني."

٣- إنه "وضع سلاحا خطرا في أيدي السلطات العامة التي لا تعير أدنى اهتمام للأزمات الأخلاقية."

٤- إن معاملة الرجال والنساء وكأنهم أشياء، ومعاملة الأطفال الذين لم يولدوا وكأنهم مرض ينبغي منعه، سوف تؤدي في النتيجة إلى نزع الصفات الإنسانية من النوع البشري.[٤٦]

مع هذا الزنا المتعدد غير المنضبط والطلاق على نطاق واسع، وانفجار الكتابة العارية وشيوع فلسفة بليبوي(*) في التيار العام، وقيام دافع الضرائب بتمويل الإجهاض، وفي يوم نستطيع فيه أن نقرأ في أمريكا عن فتيات في العشرية الثانية من أعمارهن يرمين مواليدهن الجدد في حاويات القمامة ويتركنهم في الثلج، فإن العالم الذي تنبأ به بول السادس قد أظلنا. وفي الحقيقة فإن العالم الجديد يكتسب مظهر العالم القديم لروما الوثنية، حين كان المواليد غير المرغوب فيهم يتركون على سفوح التل ليموتوا من التعرض للعوامل الطبيعية. ولم تبق الحياة محترمة مثلما كانت في زمن الجيل الأعظم الذي عاد إلى الوطن بعد أن رأى كيف أن الحياة كانت غير محترمة في عالم يخوض الحرب. وكما تنبأ البابا، فإن المنتفعين من منع الحمل والإجهاض تبين أنهم رجال أنانيون يستخدمون النساء ثم يقذفون بهن بعيدا كأنهن منديل ورقي من كلينكس.

(*) أي فلسفة الانحلال والعبث.

وما من ناحية يتجلى فيها الإطاحة بالنظام الأخلاقي القديم أكثر مما هو بَيِنٌ في الكيفية التي ينظر فيها إلى اللواط اليوم والأمس. في الحرب العالمية الثانية أُجبر وزير الخارجية سمنر ويلز الذي لبس "ربطة المدرسة القديمة" لفرانكلين ديلانو روزفلت، أجبر على الخروج من المنصب بسبب عرضه علاقة جنسية مع عامل في عربة نوم في القطارات. وخاف ليندون جونسون من أن القبض على المساعد وولتر جنكنز، الذي قبض عليه في عملية سرية للشرطة في غرفة الرجال في جمعية الشباب المسيحي، قد يكلفه ملايين الأصوات. وفقد النجم الصاعد للحزب الكبير القديم بوب بومان مقعده في مجلس النواب عندما قبض عليه وهو يغوي من هم في العشرية الثانية من أعمارهم من الفتيان في منطقة الرذيلة من مقاطعة كولومبيا (دي. سي.). ذلك كان سابقا، أما الآن فهو الآن.

وجاءت نقطة التحول عندما قام جيري ستدْس، وهو الذي أغوى غلاما داعرا تحت الطلب يبلغ السادسة عشرة من العمر، بتحدي عقوبات مجلس النواب وأعيد انتخابه في ماساشوسيتس، وهي ولاية كاثوليكية. وبقي بارني فرانك بسهولة برغم معاقبة مجلس النواب له بسبب ترتيبه تذاكر مداعبات لمحب ذكر يعيش معه، وكان يدير بيت دعارة كامل الخدمة من شقة بارني في البدروم، وفي عهد كلينتون، بدأ يحضر صديقه الغلام معه إلى

المناسبات الاجتماعية في البيت الأبيض. وفي عام ٢٠٠١ مزق الشيوخ السابقون زملاء جون آشكروفت جلده في أثناء جلسات الاستماع لتثبيته في المنصب وكان ذلك لأنه سبق أن عارض تسمية اللوطي جيمس هورمل ليكون سفيرا إلى اللوكسمبورغ. ورحب هورمل ضاحكا، وهو يذيع من سان فرانسيسكو استعراض افتخار اللواطيين، رحب بتبديل الملابس للجنس الآخر "أخوات الانغماس الأبدي، " وهو يهزأ بالبابا وبالراهبات الكاثوليكيات. حقا، إن العالم قد انقلب رأسا على عقب.

وعندما انفصلت أشهر زوجتين في أمريكا لدى الرأي العام السحاقيتان الممثلتان آن هيك و إيلن دي جينيرس فقد زارهم رئيس الولايات المتحدة ليقدم تعاطفه. وصارت هيلاري كلينتون أول سيدة في البيت الأبيض تمشي في مدينة نيويورك في استعراض افتخار اللوطيين. فهل تساءلت نيويورك تايمز في افتتاحيتها، وهذه الصحيفة هي السيدة الشمطاء للشارع الثالث والأربعين، هل تساءلت عن الحكمة في أن تشارك السيدة الأولى لأمريكا في الاستعراض مع الرجال اللابسين ملابس نساء والرجال المتنعلين الصنادل بسيور؟ لا أبدا. وكذلك فقد أخبر ريتشارد بيرك، المراسل السياسي الوطني للتايمز، أخيراً الزملاء في الاستقبال المقام بمناسبة الذكرى العاشرة لجمعية الصحفيين القومية للسحاقيات واللواطيين فقال إن "ثلاثة

أرباع الناس الذين يقررون ما يجري على الصفحة الأولى [من التايمز] هم لواطيون "ليسوا إلى ذلك الحد منغلقين على انفراد"»[٤٧]

بعد تسعة شهور من المسير في استعراض افتخار اللواطيين، رفضت السيدة كلينتون أن تسير في استعراض يوم القديس باتريك الأربعين بعد المائتين، وهو الاستعراض الذي كان سابقا واجبا على جميع سياسي مدينة نيويورك. والنظام القديم للإيرلندين، وجماعة أخوة الرومان الكاثوليك التي تدير الاستعراض لم تسمح لمنظمة السحاقيات الإيرلنديات واللواطيين الإيرلنديين بأن يمشوا وحدة واحدة، وسبق أن عوقبت السيدة كلينتون من جماعات حقوق اللواطيين لأنها سارت في يوم القديس باتريك في العام ٢٠٠٠م. إن استرضاء السناتورة كلينتون للواطيين، ولو كان ذلك يعني إهانة الكاثوليك الإيرلنديين، يدل على التوازن الجديد للقوة في الحزب الديمقراطي، وعلى الرابطة الجديدة للقوات في حرب الثقافة.

ولو أن هيستر برن كانت شخصية حقيقية وليست خيالية في رواية هوثورن(*) لكانت على ملصق روزي(**) بدل أن تكون مرفوعة

(*) الحرف القرمزي (١٨٥٠) رواية للكاتب الأمريكي ناثانيل هوثورن (١٨٠٤-١٨٦٤)، وهي رواية كئيبة عن الخطيئة والتكفير والخلاص.

(**) روزي: هو ملصق يرمز للمرأة العاملة التي التحقت بالعمل في المصانع الأمريكية في الحرب العالمية الثانية للتعويض عن ملايين الرجال الذين ذهبوا للحرب، وصار رمزاً للمرأة البطلة قومياً.

على المشنقة، وعليها حرف قرمزي "A"(*) قد دُبس بقميصها، ولفضحت صاحبها القسيس ديمزديل بصفته والدا لا يفي بديونه، ولكانت تخاطب جمهورا محييا لها وتقول ما تستطيع أن تفعله الدكتورة لورا(**) بنصيحتها.

وحتى أطفال وسط أمريكا الآن يقومون برحلات مناوبة واجبة في الثورة الجنسية. وقولهم "اعمل الشيء الذي يخصك!" هو الآن عُرف أخلاقي. وكل امرأة أمريكية في سن حمل الأطفال كان لها إجهاض كمرجع تعود إليه، والملايين منهن لن يرجعن عنه. يردنه موجودا لأنفسهن ولبناتهن وسوف يصوتن ضد أي سياسي أو حزب يهدد بانتزاع الإجهاض منهن.

القتل للرحمة جاء إلى أوروبا وهو قادم إلى أمريكا، وعلى أي أساس أخلاقي سنقف نحن بعد الآن لنوقف موت الرحمة؟ إن الدكتور كيفوركيان، وكان يمكن أن يعتبر غولا في عصر سابق، وبعض ضحاياه كانوا مكتئبين ليس إلا، ولم يكونوا يموتون، إن هذا الدكتور يحصل الآن على صورة متعاطفة في برنامج ٦٠ دقيقة. في عصر الفرد، يؤمن الناس بهذه الحياة، وليس بالحياة الأخرى، يؤمنون بنوعية الحياة، وليس بقدسية الحياة، وما من أحد يريد أن

(*) هذا الحرف A يرمز للكلمة Adulteress وهي الزانية المتزوجة.

(**) د. لورا شلسينجر. يهودية، صاحبة برنامج إذاعي عن الأسرة والزواج والأطفال.

يقال له كيف عليه أن يعيش حياته. ويكتب عالم الاجتماع والمثقف العام الشعبي آلن وولف ويقول: "إن الأمريكين لن يعيشوا حياتهم في القرن الحادي والعشرين على أساس مُثُلٍ أخلاقية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وإن أي شكل من أشكال السلطة العليا عليها أن تفصل طلباتها وفق حاجات الناس الحقيقيين."[٤٨] وبعد ألفية ونصف، تكون الوثنية هي "الطفل العائد."

أمريكا التي نشأ فيها الكثيرون منا ولّت. وانتصرت الثورة الثقافية في عقول الملايين وما بقي في طوق قوة السياسيين قلب وضع الثورة الثقافية رأسا على عقب، ولو كانوا يملكون الشجاعة لمحاولة ذلك. إن نصف الأمة قد تحول. والكاثوليك في حزب الطبقة العاملة هم يوافقون تقريبا بنسبة ١٠٠٪ على حقوق ما يعرف "مع حق الاختيار للمرأة" ومع حقوق الاختيار للواطين. وحزب الأكثرية الأخلاقية والائتلاف المسيحي قد انسحب في المسائل الاجتماعية - فأن تخرج وتعمل عمل الرب صار عمل وزارة التربية والتعليم. ولم يبق الشباب مهتمين بشأن أرواحهم، وإنما هم قلقون على ناسداك. والعديد من نخب المثقفين والإعلاميين يحاربون بصفة حلفاء للثورة أو زملاء مسافرين، والعديد من المحافظين يفردون طلبا لشروط الهدنة.

وما أعلنته جماعة ضئيلة من ذوي الاتجاه الإنساني العلماني في بيان في عام ١٩٧٣صار هو البوصلة الأخلاقية لأمريكا، ويجري

الآن جعله قانونا للبلاد. لقد أنصت الأمريكيون لقيم الثورة، وتشربوها، واحتضنوها، وهي القيم التي ألصقت الفضيحة بآبائهم وأجدادهم، واستحضرت إلى الذهن البصيرة العميقة التي قالها أليكساندر بوب(*):

الرذيلة وحش له سحنة مهولة للغاية،
ولكي تكره هذا الوحش تحتاج إلى أن تراه وحسب.
ومع ذلك فإننا إن رأينا الرذيلة كثيرا جدا، وتآلفنا مع وجهها،
فإننا في البداية نحتملها، ثم نرثي لها، ثم نحتضنها.[٤٩]

إن ثورة مضادة اجتماعية فقط أو صحوة دينية هي التي تستطيع أن تقلب اتجاه الغرب قبل أن يؤدي هبوط معدل الولادات إلى إغلاق آخر مخرج للعبور وقبل أن يقرع الجرس معلناً نزول الستارة على مسرحية الرجل الغربي التي دام تمثيلها طويلا. ولكن ما من إشارة في الأفق يمكن أن نراها تدل على أي من الأمرين: لا الثورة المضادة الاجتماعية ولا الصحوة الدينية .

ما هي القوة التي تستطيع أن تقاوم أغنية جنية البحر الفاتنة لثقافة المتعة واللذة التي تغوي وتعجب للغاية والتي يروجها كل الذين يتحدثون إلى الشباب تقريبا - هوليوود، وتلفاز الموسيقى،

(*) شاعر إنكليزي (١٦٨٨-١٧٤٤)

والمسلسلات الإذاعية والتلفازية، ووقت البث الرئيسي في التلفاز، والمجلات الساخنة، والموسيقى الساخنة، والروايات الرومانسية والأفضل مبيعاً؟ وكيف يمكن للوالدين أن ينافسوا عندما يقوم الناس حتى المعلمين والواعظين منهم بتقديم الواقي الذكري؟ ما الذي سيقلب رأي النساء الأمريكيات إلى أن يردن ما أرادت أمهاتهن وما صلّت من أجله جداتهن: رجل طيب، وبيت في الضواحي، ومجموعة من الأطفال؟ يبدو هذا الأمر غريبا تقريبا.

في القيصر والمسيح، وهو الكتاب الثالث من قصة الحضارة للمؤرخ وِلْ ديورانت يحاجج هذا المؤرخ بأن "العوامل البيولوجية كانت "أساسية" في سقوط الأمبراطورية الرومانية:

يظهر هبوط خطير في عدد السكان في الغرب بعد هادريان(*) ويتحدث قانون أصدره سيبتيموس سيفيروس(**) عن نقص في الرجال. وفي بلاد الإغريق كان نقص السكان مستمرا لعدة قرون. وفي الإسكندرية التي افتخرت بأعدادها حَسَبَ الأسقف ديونيسيوس(***) أن السكان كانوا في زمانه [٢٥٠ قبل

(*) عاش بين (٧٦ -١٣٨) إمبراطور روما (١١٧-١٣٨) وهو الذي سعى إلى إنهاء التمييز بين روما ومقاطعاتها .

(**) إمبراطور روما (١٩٣-٢١١) وهو الذي شكل حكما عسكريا وحكم مستبدا .

(***) عاش (٢٠٠؟-٢٦٠؟)، قديس ومفكر لاهوتي يوناني مسيحي وكان أسقف الإسكندرية بعد ٢٤٧ .

الميلاد] قد بلغوا النصف. وكان يندب ويتفجع لأنه يرى "الجنس البشري يتناقص ويضمحل باستمرار." البرابرة والشرقيون فقط هم الذين كانوا يزدادون في خارج الإمبراطورية وفي داخلها ."[50]

كيف خفضت روما سكانها؟ " لقد ازدهر قتل الأطفال على الرغم من أنه وُصِم بأنه جريمة ... وقد يكون الإفراط الجنسي قد خفض الخصوبة الإنسانية، وتجنب الزواج أو تأجيله قد يكون له مثل ذلك الأثر."[51] ويضيف ديورانت "ربما كان لعملية منع الحمل، والإجهاض، وقتل الأطفال... آثار في تدهور السكان وراثياً، وكان لها أثر عددي أيضا . أقدر الرجال تزوج آخرهم، وأنجب أقلهم، ومات أبكرهم."[52] "كان المسيحيون ينجبون أطفالاً بينما الوثنيون لا ينجبون:" كان الإجهاض وقتل الأطفال اللذان يهلكان المجتمع الوثني ممنوعين على النصارى بوصفهما عملين معادلين للقتل، وفي العديد من الحالات أنقذ المسيحيون الأطفال المتروكين عرضة للعوامل الطبيعية، وعمّدوهم، وأنشؤوهم بمساعدة أموال المجتمع."[53]

مفارقة المفارقات. اليوم يضغط غرب مسيحي مسن يموت، يضغط على العالم الثالث وعلى العالم الإسلامي ليقبل منع الحمل والإجهاض والتعقيم مثلما فعل الغرب. ولكن لماذا عليهم أن يدخلوا حلف انتحار معنا في الوقت الذي يقفون فيه لوراثة الأرض عندما نكون قد ذهبنا؟

عندما طُلب الاستسلام من قوات الجنرال كامبرون في واترلو(*) أجاب: "الحرس القديم يموت، ولكنه لا يستسلم."[٥٤] وهذا شعار رائع للذين التجؤوا في دهليزنا الخاص بالحرب الثقافية. ومع ذلك فإن تقييما موضوعيا لميدان المعركة - من الذي يملك المدافع الكبيرة؟ من الذي يحتل الأرض العالية؟ - يوحي بأن الحرس القديم سوف يموت. وذلك لأن القرارات التي تتخذها النساء اليوم سوف تقرر إن كانت الأمم الغربية ستكون موجودة في غضون قرن، والنساء الغربيات يصوتن بلا.

ولكن من أين جاءت هذه الثورة التي أسَرت، بهذه السرعة الكبيرة، شريحة ضخمة من معظم الناس المسيحيين و "التابعين للكنائس" من شعوب الغرب؟ وما هي عقائدها ومذاهبها؟

(*) معركة واترلو لقي فيها نابليون بونابرت هزيمته النهائية على يد تحالف قادته بريطانيا في ١٨ حزيران يونيو ١٨١٥

الفصل الثالث

كتاب تعاليم الثورة

عندما تتكسر الطاولة المستديرة يجب على كل رجل أن يتبع إما غالاهاد أو مودّريد الأشياء الوسطية قد ولت.[1]

سي. اس. لويس

ما الذي يرتئيه ويعلمه هذا الدين الجديد، هذا الإيمان الجديد الذي جاء على أجنحة الثورة؟ كيف يختلف هذا الدين عن الدين القديم؟

أولاً، إن هذا الإيمان الجديد هو من هذا العالم، وبهذا العالم، ومن أجل هذا العالم فقط. إنه يرفض أن يعترف بأي نظام أخلاقي أعلى منه، أو بأي سلطة أخلاقية أعلى منه. وأما بالنسبة إلى العالم الآخر فإن هذا الدين يسلمه بكل سعادة إلى المسيحية وإلى الأديان التقليدية طالما كانت هذه الأديان مبتعدة عن الميدان العام وعن المدارس العامة. وأما بالنسبة إلى القصص الإنجيلية القديمة عن الخلق، وعن آدم وحواء، وعن الحية في الجنة، وعن الخطيئة الأصلية، وعن الطرد من جنة عدن، وعن موسى على جبل سيناء،

وعن الوصايا العشر وكونها منقوشة في الحجر وتُلزم كل الناس - اعتقد بكل ذلك إذا كنت ترغب فيه، ولكن هذه المفاهيم لن تُدرّس ثانية بوصفها حقيقة. وذلك لأن الحقيقة، كما اكتشفها دارون وأكدها العلم، هي أن نوعنا وعالمنا نتائج عجيبة لأحقاب من التطور. ويصرح البيان الثاني المعروف باسم البيان الإنساني والمكتوب في العام ١٩٧٣ بأن "العلم يؤكد أن النوع البشري هو ظهور من قوى طبيعية تطورية."[٣٠] تلك الصورة الموضوعة على الجدار في درس علم الحياة في الفصل الدراسي لقردة تمشى على أربع أرجل، ثم على اثنتين، ثم تتطور إلى الإنسان المنتصب القامة -تلك هي الكيفية التي حدث بها التطور.

وللإنجيل الجديد حقائقه الحاكمة: لا يوجد إله، لا توجد قيم مطلقة في الكون، وما فوق الطبيعة خرافة. وكل الحياة تبدأ هنا وتنتهي هنا، وغرضها هو السعادة الإنسانية في هذا العالم، وهو العالم الوحيد الذي سنعرفه مطلقا. وكل مجتمع يؤسس نظامه الأخلاقي الخاص به، ومن أجل زمنه الخاص، ولكل رجل ولكل امرأة الحق في أن يعملوا الشيء نفسه. وبما أن السعادة هي غاية الحياة وبما أننا مخلوقات عاقلة، فإننا نملك الحق في أن نقرر متى يرجح ألم الحياة على لذة الحياة ومتى ننهي هذه الحياة، إما بأنفسنا أو بمساعدة الأسرة أو الأطباء.

في الميدان الأخلاقي الوصية الأولى هي "جميع أساليب الحياة متساوية." والحب ومصاحبه الطبيعي، من الجنس، أمور صحية وجيدة. وجميع العلاقات الجنسية الطوعية مسموحة، وجميعها متساوية من الناحية الأخلاقية - وهي ليست من اختصاص أحد، وإنما هي من اختصاص صاحبها، وبالتأكيد ليست هذه العلاقات من اختصاص الدولة لتمنعها. وهذا المبدأ الذي يقول -جميع أساليب الحياة متساوية - يجب أن يكتب ويدخل في القانون، وأما أولئك الذين يرفضون احترام القوانين الجديدة فينبغي أن يعاقبوا. وإن إبداء عدم الاحترام لأسلوب حياة بديل يصم المرء بأنه متعصب. والتمييز ضد الذين يتبنون أسلوب حياة بديلاً هو جريمة. إن كراهية اللواطيين وليس اللواط هي الشر الذي يجب أن يستأصل.

والوصية الثانية هي "لا تكن ميالا إلى إصدار الأحكام." ولكن الثورة لم تكن ميالة إلى إصدار الأحكام فقط بل كانت قاسية على أولئك الذين يخرقون الوصية الأولى. كيف يمكن الدفاع عن هذا المعيار المزدوج الظاهر؟

وفقا لتعاليم دين الثورة، فإن النظام الأخلاقي المسيحي القديم الذي يدين ممارسة الجنس خارج الزواج ويرى أن اللواط غير طبيعي ولا أخلاقيا هو نظام أخلاقي مغروس في الانحياز، وفي التعصب الإنجيلي، وفي العقيدة الدينية، والتقاليد البربرية. إن

النظام المسيحي القمعي والقاسي كان عائقا للإنجاز الإنساني والسعادة الإنسانية وهو المسؤول عن تدمير حيوات لا عداد لها، خصوصا حيوات الشاذين من الرجال والنساء.

ويقوم النظام الأخلاقي الجديد على العقل المستتير وعلى احترام الجميع. وعندما كتبت الدولة النظام الأخلاقي المسيحي وأدخلته في القانون، فإنها بفعلها ذلك قننت التعصب. ولكن عندما نكتب نظامنا الأخلاقي وندخله في القانون، فإننا نقدم جبهات الحرية ونحمي حقوق الأقليات المضطهدة.

وتتبع للنظام الأخلاقي الجديد الذي يقدس الحرية الجنسية نتيجة لازمة منطقية وهي: بما أن الواقي الذكري والإجهاض ضروريان لمنع النتائج غير المرادة وغير المرغوبة للحب الحر -من الهربز إلى الإيدز إلى الحمل- فإن الواقي والإجهاض يجب أن يكونا متاحين لأي شخص ناشط جنسيا حتى الدرجة الخامسة إذا ما نشأت الحاجة.

وبموجب التعاليم الجديدة يمنع منعا صارما استخدام المدارس العامة لإشراب الأطفال بالمعتقدات اليهودية-النصرانية. ولكن يمكن وينبغي أن تستخدم المدارس العامة لإشراب الأطفال بتسامح نحو أساليب الحياة جميعها، وتقدير حرية الإنجاب، واحترام الثقافات

كلها، واستحسان التنوع المتصل بالأعراق، والأجناس والأديان. وفي المدارس الجديدة خرجت من العطلات الأيام المقدسة لأسبوع الفصح التي تحيي ذكرى آلام المسيح، والصلب، وقيامة المسيح. وصار يوم الأرض، الذي يتعلم فيه الأطفال أن يحبوا الأرض الأم، وأن يحافظوا عليها، وأن يحموها، هو يومنا لصوم يوم الغفران والتفكر، ولا يستثنى من يوم الأرض أي طفل. وكتب العالم المحافظ روبرت نسبت يقول إن البيئية هي "إلى حد كبير في طريقها إلى أن تكون الموجة الثالثة العظيمة من صراع الخلاص في التاريخ الغربي، بعد أن كانت المسيحية هي الموجة الأولى، وكانت الاشتراكية الحديثة هي الموجة الثانية."[٣٠]

إن الثورة الثقافية لا تدور حول خلق ميدان مستو للّعب لجميع العقائد، وإنما هي حول هيمنة أخلاقية جديدة. ففي نهاية الأمر أزيلت كل الأناجيل، والكتب، والرموز، والصور، والوصايا، والعطلات من المدارس العامة، وسوف تحول هذه المدارس إلى مراكز تعليم للدين الجديد. وفيما يلي يكتب جون دنفي بصراحة منشطة في العام ١٩٨٣ في ذا هيومنست حول الدور الجديد للمدارس العامة في أمريكا:

> المعركة على مستقبل الإنسانية يجب أن يقاتلها ويربحها المدرسون في الفصول الدراسية في المدارس العامة، والمدرسون ينظرون إلى

دورهم بشكل صحيح بصفتهم معتنقين حديثا لدين جديد، دين الإنسانية ... يجب على هؤلاء المدرسين أن يجسدوا تكريس الحياة المنكر للذات مثلما يفعل معظم الواعظين المتعصبين الأصوليين، لأن المدرسين سيكونون هم القسس من نوع آخر، يستخدمون الفصل الدراسي بدل منبر الوعظ في الكنيسة لتوصيل القيم الإنسانية في أي موضوع يعلمونه ... يجب أن يصبح الفصل الدراسي، وسيصبح الفصل الدراسي، ساحة الصراع بين القديم والجديد -بين الجثة الفاسدة للمسيحية، مع كل ما يجاورها من الشرور والبؤس، وبين الإيمان الجديد للإنسانية، وهو إيمان يزدهي بوعده العالم بأنه سوف يتحقق فيه في النهاية المثال المسيحي الذي لم يتحقق مطلقا وهو "أحبوا جيرانكم."

العلمانية الجديدة ليست إيمانا ضعيفا بلا نكهة.

في السياسة. الإيمان الجديد عولمي ومتشكك بالوطنية، وذلك لأن الحب المفرط للبلد يؤدي في الغالب جدا للشك بالجيران، ويؤدي بالتالي إلى الحرب. وتاريخ الأمم هو تاريخ الحروب، والإيمان الجديد ينوي الوصول إلى نهاية للأمم. إن المساندة المبذولة للأمم المتحدة، وللعون الخارجي، ولاتفاقيات منع الألغام الأرضية، ولإلغاء الأسلحة النووية، ولمعاقبة جرائم الحرب، وللمسامحة بديون الدول الفقيرة هي علامات الرجال التقدُميين والنساء التقدميات. وحيثما

تشكلت مؤسسة جديدة فوق قومية -منظمة التجارة العالمية، واتفاقية كايوتو لمنع احترار الأرض، والمحكمة الجنائية العالمية الجديدة في الأمم المتحدة - فسوف تساند هذه الثورة تحويل السلطة والسيادة من الأمم إلى المؤسسات الجديدة للحكومة العولمية.

في إحدى المرات دعا الشاعر شيللي Shelley الشعراء باسم "المشرعون للعالم غير المعترف بهم."[٤٠] في الأزمنة الحديثة حل كتّاب الأغنية محل الشعراء في وعي الشباب، وفي الستينيات من ١٩٦٠ كان البيتلز «الخنافس» هم أشهر المغنين، وكان جون لينون هو أمير الشعراء لذلك الجيل. وفي أغنيته "تخيل" يضع لينون، في مقطوعات قليلة من القصيدة، السماوات على الأرض التي تخيلها في النظام الديني في ما بعد المسيحية:

تخيل ألاّ وجود لعناية إلهيةٍ في السماوات
إنه سهل إذا حاولت
ولا جحيم تحتنا
فوقنا سماء فقط
تخيل أن كل الناس يعيشون لليوم.

❖ ❖ ❖

تخيل ألاّ وجود لأي بلاد

ليس صعبا أن تفعل

لا شيء لتَقتُل من أجله أو لتموت من أجله

ولا دين أيضا

تخيل أن كل الناس

يعيشون الحياة بسلام.[٥]

وذهب لينون، وهو الذي وصف نفسه بأنه "اشتراكي بالفطرة،" إلى أن يتخيل عالما "بدون ممتلكات" حيث يتقاسم فيه كل الناس كل شيء. ومع ذلك، فعند وفاته في سن الأربعين، عرف العالم أن لينون قد نجح وبكل برود أن يمتلك ما قيمته ٢٧٥ مليون دولار من الممتلكات، وهو ما يجعله واحدا من أغنى الناس على ظهر الأرض.[٦] وعلى الرغم من أن عالم خيال جون لينون وزميليه في البيتلز بول ماك كارتني وبوب ديلان كان عالما طوباويا، فإن ذلك لم يقلل من جاذبيته للشباب. وذلك لأن كتّاب الأغنية هؤلاء قدموا ديناً جديدا لاعتناقه والإيمان به، مع رؤيته الخاصة السعيدة للحياة هنا على الأرض، للحلول محل الإيمان المسيحي الذي انكمش في أرواحهم. وكما كتب ديفيد نيوبل مؤلف ميراث جون لينون يقول: إن الشاعر كاتب الأغنية عرف بدقة ما كان يسعى إليه. وفي بيان أدهش أمريكا أواسط الستينيات من ١٩٦٠ تنبأ لينون بأن "المسيحية سوف تذهب. وسوف تتلاشى وتنكمش. ولا احتاج إلى المحاججة حول

ذلك. فأنا على حق وسوف يثبت بالبرهان أني على حق. إننا أكثر شهرة الآن من المسيح."[7]

"سرطان التاريخ الإنساني"

ولكن الدين يحتاج إلى شياطين كما يحتاج إلى ملائكة. وكثير مما يعلمه الإيمان الجديد ينبثق من كراهية لما ينظر إليه على أنه ماض مخجل شرير إجرامي. وبالنسبة إلى الثورة، فإن التاريخ الغربي هو مسرد مصور من الجرائم -العبودية، وإبادة الجنس، والاستعمار، والهيمنة الإمبريالية، والأعمال الوحشية والمجازر- ارتكبتها أمم كانت تدين بالمسيحية. وكتبت سوزان سونتاك، وهي أم الولادة للثورة، كتبت في ١٩٦٧ تقول "العرق الأبيض هو سرطان التاريخ الإنساني، والعرق الأبيض، وهو وحده فقط،... يمسح الحضارات ذاتية الحكم حيثما ينتشر."[8]

> أمريكا أنشئت على إبادة الجنس ... هذه بلاد عرقية بكل حماسة وانفعال... والحقيقة هي أن موزارت، وباسكال، والجبر البولياني(*)، وشكسبير، والحكومة البرلمانية، وكنائس الباروك، ونيوتن، وتحرير

(*) جورج بول (١٨١٥-١٨٦١). رياضي بريطاني وعالم منطق هو الذي طور تفاضلا وتكاملا للمنطق الرمزي. وينسب له الجبر البولياني الذي يستخدم في دوائر المنطق في علوم الحاسوب.

النسـاء، وكانط، ومـاركس، وباليـه بالانشين(*) لن يفـتـدوا مـا جلبـتـه
هذه الحضارة على وجه الخصوص من أضرار على العالم.[9]

ومثل روباشوف(*) في ظلام في الظهيرة، وصل مـثقفـونا إلى قبول تهمة سـونتاغ لحضـارتهم وتطوعوا مجانا لمساعدة الإدعاء في إقامة دعـواه. وإذا كان العديد من الأمريكيين يلتفـتـون إلى الخلف وينظرون إلـى تاريخهم باشـمئـزاز فمن يسـتطيع أن يلومـهم؟ وذلك، كما يكتب مايرون ماغنيت في الحلم والكابوس:

حرم جامعي بعد حرم اطّرح كتبا عظيمة ودورات لأفكار عظيمة عن الحضارة الغربية التقليدية بوصفها كتبا وأفكارا تقادم عهدها... وبرز مبدأ بديل يفترض أنه كافٍ للواقع الجديد: بول غودمان،(**) نورمـان أو. براون،(***) هربـرت مـاركـيـوز،(****) فـرانز فـانون،

(*) جورج بالانشين (١٩٠٤-١٩٨٣) مدير ومخرج باليه أمريكي من أصل روسي. صار المدير الفني لباليه مدينة نيويورك. وأخرج أكثر من ١٠٠ باليه منها طائر النار (١٩٥٠) ودون كيشوت (١٩٦٥)

(**) نيقولاس روباشوف بطل رواية آرثر كوستلر ظلام في الظهيرة.

(***) بول غودمان (١٩١١-١٩٧٢) ناقد أدبي ومؤلف.

(****) نورمان أو. براون: (١٩١٣ - ٢٠٠٢) (فيلسوف وناقد، استفاد من نظريات أعضاء الستينيات من ١٩٦٠ في الثورة الثقافية المضادة من كتبه زمن الإغلاق، والحياة والموت.

(*****) هيربرت ماركيوز (١٨٩٨ - ١٩٧٩) واحد من كبار منظري مدرسة فرانكفورت. بعد دراسته في ألمانيا هاجر إلى الولايات المتحدة درّس في جامعة كولومبيا وهارفرد وبرانديس الفلسفة السياسية وكان يسارياً يصنف نفسه بأنه ماركسي اشتراكي هيغلي. أثر في حركة الطلاب وصار "أباً لليسار الجديد".

ميشيل فوكو، جيمس بالدوين، مالكولم إكس، حتى الأغاني العاطفية لبوب ديلان أزاحت في المدة الأخيرة جانباً أفلاطون ومونتين. وكانت الرسالة ذات العلاقة هي جور المجتمع الغربي، وكتم الرضا الفطري لأصحاب الامتياز والاستغلال الاستبدادي للفقراء وغير البيض في الوطن وفي العالم الثالث."[10]

ماذا كان رأي الروائي جيمس بالدوين في بلده عند نهاية حياته؟ كتب يقول: لا يوجد في التاريخ الأمريكي، "ولا يوجد الآن مؤسسة أمريكية واحدة ليست مؤسسة عرقية."[11] "وأضافت روبن ويست في نصها بعنوان الدستورية التقدمية تقول: "التاريخ السياسي للولايات المتحدة... هو في مقياس كبير تاريخ لوحشية، لا يمكن التفكير بها تقريبا، نحو العبيد، وكراهية تبيد العِرق للأمريكيين الأصليين، وتقليل القيمة عرقيا لغير البيض ولثقافات غير البيض، وتقليل القيمة جنسيا للمرأة ...."[12] ويقول جونثان كوللر، العالم بالتفكيكية، إن الإنجيل يجب أن يفهم "لا بصفته شعرا أو سردا نثريا ولكن بصفته نصا عِرقيا وجنسيا يؤثر تأثيرا قويا."[13] مثل هذه المشاعر لم تبق من النوادر، ولكنها صارت هي القاعدة أكثر فأكثر في التعليم العالي في الولايات المتحدة.

في العام ١٩٩٠ أعلنت جامعة تولين برنامجا جديدا، "مبادرات من أجل إثراء العِرق والجنسين في جامعة تولين." وشرح رئيس الجامعة إيمون كيللي الضرورة الملحة بقوله: "العِرقية والجنسية

منتشرتان في أمريكا وموجودتان بشكل أساسي في كل المؤسسات الأمريكية ... ونحن كلنا سلالة من أمريكا العرقية والجنسية."[١٤] وفي تقرير حديث صدر عن الأوصياء في ولاية نيويورك بشأن إصلاح المنهج يبرز التقرير الحاجة إلى نظرة جديدة على التاريخ الأمريكي ويقول: "الأمريكيون الأفريقيون، والأمريكيون الآسيويون، والبورتوريكيون/ واللاتينيون، والأمريكيون الأصليون كانوا جميعا ضحايا ظلم ثقافي وتمييز مؤسسات... العالم الأمريكي الأوروبي لقرون مضت."[١٥]

هذه هي الرسالة التي يتلقاها الأطفال في الكلية وفي في المدرسة الثانوية أيضا: الأوروبيون والأمريكيون مذنبون بإبادة الجنس ضد السكان المحليين من هذه القارة. وأجدادنا نقلوا ملايين من الأفارقة في سفن الموت إلى العالم الجديد، واسترقوهم ليقوموا بالأعمال الشاقة التي لم يكن يعملها أجدادنا، وهم أصابوا بالعجز وقتلوا الملايين من أولئك. وأمم أوروبا فرضت أنظمة عرقية على الشعوب الملونة، خصوصا في أفريقيا، ونهبت منهم ثرواتهم. والمسيحية تعايشت مع ذلك وتغاضت عن العبودية، والاستعمار، والعرقية، والجنسية طوال أربعمائة سنة.

ويتساءل الرجل المسن في قصيدة إليوت "جيرونشن" ويقول: "بعد مثل هذه المعلومات، أي تسامح؟"[١٦] وكتب ألن بلوم في إغلاق

عقل أمريكا يقول: "لقد اعتدنا نحن على أن نسمع عن الآباء المؤسسين وهم يتهمون بأنهم عرقيون، وقتلة الهنود، وممثلون لمصالح الطبقات، " وقال إن هذه الافتراءات "تضعف قناعاتنا في الحقيقة أو في تفوق المبادئ الأمريكية وتفوق أبطالنا."[١٧] وفي الحقيقة إنها تفعل هذا الفعل، لأن ذلك هو الغرض منها.

وأمام محكمة التاريخ، اتهمت أمريكا والغرب بتهمة نورمبرغ وهي "جرائم ضد الإنسانية." وفي كل الأوقات غالبا أيضا فإن المثقفين الغربيين، الذين ينبغي أن يقوموا بالدفاع عن أعظم حضارة وخير حضارة في التاريخ، يقومون بمساعدة الادعاء أو يدخلون في مرافعة فيها من حيث المبدأ إقرار بذنب المتهم. والعديدون جدا لا يستطيعون إلا أن يقدموا الدفاع المتلعثم عن "الألمان الطيبين" -"ولكننا لم نعرف."

في تحريك هذه التهمة، فإن للثورة غايات متممة: تعميق الإحساس بالذنب، ونزع السلاح الأخلاقي من الغرب وشله، وانتزاع اعتذارات لا نهاية لها وتعويضات لا نهاية لها إلى أن تتحول ثروة الغرب إلى متهميه. إنه ابتزاز أخلاقي بِنِسبٍ مَلْحَمِية، وهي سرقة الألفية. وإذا ما سمح الغرب لأعدائه بحصول ذلك فإننا نستحق أن نُنهب ويؤخذ ميراثنا.

لماذا يقف العديد من قادة الغرب عاجزين عن تفنيد التهم؟ لأنهم في قرارة قلوبهم، كلينتون، وجوسبان، وشرودر يعتقدون أن

التهم صحيحة، وأن الغرب مذنب. وإلا فلماذا يسافر السيد كلينتون إلى أفريقيا ليعتذر عن العبودية لأحفاد الزعماء القبليين الذين كانوا يأسرون العبيد ويبيعونهم؟ لقد وجدت العبودية، حتى قبل آركنساس. والغرب لم يخترع العبودية، الغرب أنهى العبودية.

في تعاليم الثورة، لماذا خلّد الغرب أكبر أهوال في التاريخ؟ لأن أمم الغرب اعتقدت أن حضارتها وثقافتها كانتا متفوقتين على الآخرين وأن لأمم الغرب الحق في أن تفرض حكمها على حضارات وثقافات وشعوب "أنقص؟". هذا هو جذر الشر كله، وهو الاعتقاد بأن ثقافة بعينها متفوقة وأعلى من أخرى، وهو الذي يقود إلى قتل الآخر. وهكذا فإن استئصال فكرة الثقافات المتفوقة والحضارات المتفوقة هو الطلب الأول في أعمال الثورة.

المساواة هي المبدأ الأول، ومن يخطئ ضد المساواة فهو خارج الكنيسة. وفي هذا النظام الديني الجديد لا دين أعلى تفوقا، ولا ثقافة أعلى تفوقا، ولا حضارة أعلى تفوقا من غيرها. الجميع متساوون. إن "التنوع"، والتمثيل في المجتمع لكل المعتقدات، والألوان، والثقافات في أمة متعددة الأعراق، ومتعددة الثقافات هو الذي ينبغي أن نطمح إليه، وهو الذي نصلي مخلصين، لنكون متوجهين إليه. ويتبع ذلك منطقيا أن أي مرشح يريد أن يحشد منطقة انتخابية حول فكرة أن الحضارة الغربية والثقافة الغربية متفوقتان وأن المسيحية هي

الإيمان الوحيد الصحيح، سيكون مبتدعا ونذيرا بخطر وشيك.

كم هو حاسم هذا الاعتقاد لمؤسستنا الثقافية الجديدة؟

في العام ١٩٩٤ جاءت الحرب الثقافية إلى ليك كاونتي، في فلوريدا، عندما صوت مجلس إدارة مدرسة بثلاثة أصوات ضد اثنين ليطلب أن يتعلم الأطفال أن تراث أمريكا وثقافتها كانا "متفوقين على الثقافات الأجنبية أو الثقافات التاريخية الأخرى." وقالت رئيسة مجلس الإدارة بات هارت، وهي تصف نفسها بأنها وطنية ومسيحية: لقد تم تبني الفكرة جوابا على السياسة التعليمية المتعددة الثقافات في فلوريدا. وقالت السيدة هارت: إنه لجميل للطلاب أن يتعلموا عن الأمم والثقافات الأخرى، ولكن يجب أن يتعلموا أن ثقافة أمريكا هي "المتفوقة بلا مراء."[١٨]

وذهل اتحاد المعلمين وسمى هذا الاقتراح مغالاة في التعصب والقومية والدعوة إلى الحرب. وقال كيث موللنز وهو من جماعة الشعب من أجل قيم التيار العام قال لصحيفة نيويورك تايمز: "إن الناس لا يفهمون الغرض والجدوى من هذا."[١٩]

هراء. فالجدل الملتهب الذي تلا ذلك بيّن أن الناس كانوا يعرفون بالضبط ماذا كان "الغرض والجدوى." وأوضحت ذلك بجلاء جودي بيرسون وهي عضو في مجلس إدارة المدرسة فقالت: "نحن نحتاج إلى إعادة فرض أننا يجب أن نُعلّم أن أمريكا تأتي

أولا"[20] وإلا، كما قالت السيدة بيرسون، فإن الشباب "إذا شعروا أن بلادهم أنقص أو مساوية للآخرين، فلن يكون لديهم الدافع الذي يحفزهم للذهاب إلى الحرب والدفاع عن مجتمعنا." [21]

أحد المنشقين اتهم الأكثرية في مجلس إدارة المدرسة "بتقويض نظامنا المدرسي."[22] وقالت الأسوشييتد برس: "بعض المدرسين والآباء يقولون إن ما يجري تعليمه حقيقة هو التطرف في الرأي."[23] وحذر المتحدث باسم جمعية مجالس إدارة المدارس الوطنية جي بتلر من أن " - "القيم" - في التعليم ... هي شيء نسمع المزيد عنه مع تصاعد الجناح الديني اليميني."[24]

واتهم غيل بري، رئيس اتحاد المعلمين المحلي، مجلس الإدارة بخرق التعديل الأول وقال: " تريد الأغلبية في مجلس الإدارة أن تبدأ من استنتاج يقول - إن أمريكا متفوقة وأعلى من جميع الأمم الأخرى - ومن ثم تعمل عائدة للخلف من ذلك الاستنتاج ... تلك ليست تربية. ذلك تلقين عقائدي."[25] ولكن أليس البدء من استنتاج يقول إن أمريكا هي ببساطة مساوية لجميع الأمم الأخرى "تلقيناً عقائدياً أيضاً؟"

في قلب هذا النزاع سؤال بايلت(*): ما هي الحقيقة؟" بالنسبة

(*) بونتيوس بايلت هو الحاكم الروماني في فلسطين الذي أمر بصلب السيد المسيح عليه السلام حسب العقيدة المسيحية.

للثورة فإن ليك كاونتي كانت تناقض الحقيقة، أي، كل الثقافات متساوية، ولا ثقافة متفوقة على غيرها. وبالزعم أن ثقافة أمريكا كانت متفوقة فإن مجلس إدارة السيدة هارت قد ارتكب كفرا مبتدعا. والثورة لا تستطيع أن تسمح بالتحدي السافر لعقيدة أساسية ينبغي أن تعلمها بصفتها حقيقة للأطفال في ليك كاونتي. وهكذا فقد ذهبت إلى محطات المعركة. في انتخابات الخريف، وبنسبة ضخمة للحضور من الناخبين، هُزِم جميع المساندين لسياسة "أمريكا أولا".

وقال السيد موللنز: "إن الشعب طرد المتطرفين."[٢٦]

وتكشف هذه الحادثة الصفة الحقيقية لثقافتنا الجديدة المهيمنة. وبشأن معتقداتها الأساسية فإنها غير متسامحة بعمق وهي لن تنصاع للتحدي أو التناقض. وأي شخص يُعلم الأطفال أن ثقافة أمريكا متفوقة فهو "متطرف" يعلم أكذوبة، وليس له عمل في المدارس العامة في أمريكا الجديدة.

بما أن المساواة هي مبدؤها الجوهري فإن الثورة الثقافية تعلم أن الأبطال الحقيقين للتاريخ ليسوا هم الفاتحين، والجنود، والسياسيين، الذين بنوا الأمم الغربية وأقاموا الإمبراطوريات العظيمة، بل هم الذين قدموا القضية العليا - وهي المساواة بين الشعوب. وهكذا فإن نهاية العزل في الجنوب ونهاية التمييز

العنصري في أفريقيا الجنوبية هما نصران أعظم من هزيمة الشيوعية، ومانديلا وغاندي هما البطلان الأخلاقيان الحقيقيان للقرن العشرين. وبهذا يقف مارتن لوثر كنج بالقامة الطولى في البانثيون الأمريكي، وأي ولاية ترفض تخصيص يوم عطلة للاحتفال بميلاده يجب أن تقاطع. وبالنسبة إلى جورج واشنطون، فإذا حذف اسمه من المدارس، فليكن ذلك. ألم يكن مالكا للعبيد؟ ألم يساهم في أعظم انتهاك صارخ ارتكبته أمريكا للمساواة الإنسانية؟

وبما أن المساواة هي مبدأ أول، فإن ديمقراطية الشخص الواحد، والصوت الواحد هي أعلى أشكال الحكومة، وهي الشكل الشرعي الحقيقي الوحيد. إنها وحدها التي يمكن أن تفرض بالقوة، مثلما فرضت على ألمانيا واليابان، وكان ينبغي أن تفرض على العراق. التدخل العسكري من أجل المصالح القومية هو فعل أناني وخسيس، ولكن التدخل الأخلاقي الذي يريق الدماء في سبيل قضية الديمقراطية، كما في الصومال، وهاييتي، والبلقان -فلا شيء أنقى وأطهر منه.

وبهذا المعيار تحكم الثورة على أخلاقية حروب أمريكا. فحرب ١٨١٢، والحرب المكسيكية -الأمريكية، والحروب الهندية، والحرب الأسبانية -الأمريكية قد تكون أمنت قارة بتكلفة قليلة من الأرواح، ولكن هذه الحروب وللأبد ملطخة بروح أمريكا الإلحاقية الشوفينية

التي خاضت هذه الحروب. وعلى الرغم من أن الحرب الكورية وحرب فيتنام تم خوضهما من أجل إنقاذ الأمم الصغيرة من الشيوعية الآسيوية القاتلة فإنهما كانتا حربين غير حكيمتين وغير عادلتين. وذلك لأننا كنا متحالفين مع أنظمة فاسدة وقاتلنا من أجل الحفاظ على هذه البلاد في معسكرنا في الحرب الباردة التي لم يكن لها مطلقا الوضوح الذي كان للحرب ضد الفاشية.

ومساندة الرئيس نيكسون للجنرال بينوشيه لإطاحة الحاكم الكاستروي سلفادور أللندي في تشيلي كانت إساءة بالغة. ومثلها أيضا كانت مساعدة رونالد ريجان للكونترا في نيكاراجوا الذين كانوا يقاتلون لإعادة السيطرة على بلادهم من الساندنستا الموالين للسوفيت. وأما بالنسبة لغزو ريجان لغرينادا لإنقاذ تلك الجزيرة الصغيرة من عصابات ستالينية قتلت حاكمها الماركسي، موريس بيشوب - فقد كان ذلك اعتداء أمريكيا. أما غزو كلينتون لهايتي لاستعادة السلطة للقس الماركسي الذي نزعت منه صلاحياته، وهو الأب أرستيد - فذلك كان تدخلا بالنيابة عن الديمقراطية وهو مبرر تبريرا كاملا.

وطالما أنها "حرب جيدة،" فالغاية تبرر الوسائل في كتاب تعاليم دين الثورة. أن يكون السيد لنكولن قد جعل من نفسه مستبدا مطلقا، وأن يدوس على الدستور، وأن يسجن المنشقين بدون

محـاكمـة، وأن يطلق الجنرال شيـرمـان والجنرال شـريدان ليحـرقا الجنوب الـرمـاد فهـذا كـان طيـبـا. واسـتـئـصـال الرق بـرر الوسـائل المستخدمة حتى ولو عانـى المواطنون الأمريكيون معاناة فظيعة. وأما بالنسبة "الجيدة" في الحرب العالميـة الثانية، فإن تحالفنا مع ستالين القـاتل قتـلا جـمـاعـيـا، وقـصـفَ المدن بالقنابل مـثل ناغـازاكي وقـتل عشرات الآلاف من النساء والأطفال في سـاعـات، فـقـد كـانت حـربا مقبولة، لأن قلوبنا كانت نقية ولأن عدونا كان شرا.

لقد أدين ريتشـارد نيكسـون من أجل "القـصـف القـاتل بالقنابل" لهـانوي لتـحـرير أسـرى الحـرب الأمـريكيين، ويقـال إن ذلك القـصف لشمال فيتنام قتل ألفاً وتسعمائة نسمـة طوال ثلاثة عشر يوما. ومع ذلك، فـإن هـاري ترومـان هـو إلى الأبد بطل ولو أنه كـان قـد أمـر بقـصف ذري لهـيروشـيـمـا وناغـازاكـي، فـقـتل ١٤٠,٠٠٠ مـائة وأربعين ألف مدنـي، وأعـاد مليوني أسيـر حـرب روسـي ليـعـذبوا ويـقـتلوا بيد ستالين في عملية كيلهول.

بالنسبـة إلى الثورة الثـقـافيـة فالعدو دائما في اليمين، والثورة لا تغـفـر ولا تنسى. قـارن المطاردة التي لا تـعـرف الرحـمـة للجنرال بينوشيه حتى قبره، وهو المستبد الذي سحق الكاستروية في تشيلي، قـارنهـا بالتعـابيـر عن الحـزن عند موت شـركاء مـاو في القـتل، وهـمـا تشو إن لاي ودنغ اكسياوبنغ.

بايرون دو لا بكويذ المتهم باغتيال قائد الجميعة الوطنية لتقدم الملونين مدغار إيفرز في الميسيسيبي في العام ١٩٦٣ يحاكم، ثم تعاد محاكمته، ثم يحاكم للمرة الثالثة بعد ثلاثين عاما، ويموت في السجن، حسب ما تأمر به الثورة، في حين أن الثورة تلتمس الرحمة من أجل ليونارد بلتير الذي قتل عميلين مجروحين من أف بي آي. بعد تبادل إطلاق النار في العام ١٩٧٥ في محمية باين ريدج. وآخر أيقونة ثقافية هو موميا أبو جمال الذي ينتظر دوره في الموت لأنه قتل شرطيا في فيلادلفيا في العام ١٩٨١ بتفريغ مسدسه في الضابط المجروح الذي كان ملقى ينزف. وقد حث مائة مؤرخ أكاديمي بأن موميا يجب أن يعطى محاكمة جديدة وأن قتله لذلك الشرطي يجب أن "ينظر إليه في ضوء التاريخ."[٢٧] وبما أن بلتير هندي وموميا أسود فهما مؤهلان ليكونا عضوين من طبقة ضحية. أما عميلان ميتان من أف بي آي وشرطي ميت - ثلاثة رجال بيض - فلا.

المساواة التي تنادي بها الثورة هي إفساد لفكرة جفرسون التي تقول "كل الناس خلقوا متساوين." والذي عناه جيفرسون هو أن الجميع قد وهبهم خالقهم الحق نفسه في الحياة، والحرية، والتملك، وأن الجميع يجب أن يكونوا متساوين تحت حكم القانون. وقد رفض مذهب المساواة. وكما كتب إلى جون آدمز في العام ١٨١٢ يقول: "أنا أوافق معك أن هناك أرستقراطية طبيعية بين الناس. والأساس في هذا هو الفضيلة والموهبة."[٢٨]

فإذا ما قيس الناس بالفضائل والمواهب فإن من الأصح أن يقال إنه "ما من إنسانين خلقا متساويين مطلقا." إن ما تعنيه أمريكا ليس هو المساواة في الشرط أو المساواة في النتيجة بل هو الحرية. وهكذا فإن "أرستقراطية طبيعية" من المقدرة، والإنجاز، والفضيلة، والامتياز - من الرياضة إلى الفنون إلى الأكاديمية - تستطيع أن ترتفع لتقود، ولتلهم، ولتضع نموذجا لنا جميعا لنحتذيه وعلامة لنا جميعا لنهدف إليها. إن التراتبيات طبيعية بقدر ما هي جوهرية. أنظر إلى المؤسسات الأمريكية القائمة على التميز، من مايكروسوفت إلى يانكي نيويورك، ومن سلاح البحرية الأمريكي إلى مايو كلينك. كم عدد التي تدار منها على مبدأ شخص واحد وصوت واحد؟

وكما يبين التاريخ فكل الشعوب، والثقافات، والحضارات ليست متساوية. بعضها أنجز العظمة مرارا، وآخرون لم ينجزوا قطعيا. جميع أساليب الحياة ليست متساوية. جميع الأديان ليست متساوية. جميع الأفكار ليست متساوية. وفي الحقيقة، ما هو الاستشهاد الحقيقي إن لم يكن أكثر الشهادات جميعا بلاغة وإلزاما وهي أن جميع الأفكار ليست متساوية.

وفي الوقت الذي تملك فيه كل الأفكار الحق في أن تسمع، فليس هناك من فكرة تملك الحق التلقائي في أن تحترم. ويطلب

منا التعديل الأول للدستور أن نتسامح مع الكاذب مثلما نتسامح مع الصحيح، ومع الأحمق مثل الحكيم، ولكن الأمم والمجتمعات تتقدم بفصل القمح عن التبن، وبنبذ التبن. إن فكرة الثورة عن المساواة فكرة أيديولوجية وطوباوية، وغير عقلانية وهي في نهاية المطاف فكرة مدمرة. إن مجتمعا تائها منفلتا فقط هو الذي يمنح مكافأة مغاوير القبعات السوداء الذين تطوعوا لمواجهة أخطر المخاطر والذين دخلوا في أشق التدريب، لكل كاتب أو طباخ أو غاسل قوارير في الجيش. ألم يكن هو اللورد أكتون الذي قال إذا ماتت الديمقراطية فالمساواة دائما هي التي تقتلها؟

الشكل القليل القيمة من المساواة يرجع في أبوته إلى الثورة الفرنسية وليس إلى الثورة الأمريكية، يرجع إلى اشتراكيي القرن التاسع عشر، وليس إلى الوطنيين الأمريكيين في القرن الثامن عشر. وفي الحقيقة، بما أن الناس جميعا يتحلون على نحو مختلف بالمواهب، والقدرات، والفضائل، فإن الطريقة الوحيدة لتحقيق المساواة في النتيجة هي الاستبداد. وذلك ليس أمريكا. وإن أولئك الذين يراجعون اختبارات الملكات المدرسية مراجعات متكررة لا تنتهي، ولأن النتائج تصطدم مع تصوراتهم المسبقة، فإنهم عندئذ يعطون نقاطا إضافية للطلاب بناء على الأجناس التي ينتمون إليها، ثم يرمون هذه الاختبارات لأنها ما تزال لا تنتج النتائج المرغوبة،

هؤلاء الذين يفعلون ذلك، هم دعاة عقائديون ميئوس منهم ولن تبقى أفكارهم الكاذبة عن الطبيعة البشرية على قيد الحياة بعد اصطدامها الأول بالواقع الحقيقي.

إن المساواة التي تدعو الثورة إليها وتعلمها يمكن أن توجد في النتائج النهائية في "سباق المؤتمر" في مغامرات أليس في بلاد العجائب. وبعد أن ركض المشاركون جميعهم في دوائر لمدة نصف ساعة سألوا: "ولكن من الذي فاز؟"

وقال طائر الدودو: "كل واحد منكم فاز والجميع سينالون جوائز."[٢٩]

إن مجرد التسامح، كما قال جي. كي. تشسترتون هو "فضيلة الرجال الذين ما بقوا يؤمنون بأي شيء." ولكن إيماننا الجديد متسامح فقط بشأن ما يعتبره تافها: الجنس، والكتابات العارية، واللغة القذرة، والسلوكيات الفظة، والملابس غير المهندمة، والفن الفاحش. وليس لدى هذا الإيمان أي تسامح نحو الذين يتحدون عقائده العلمانية.

في هذا النظام الديني الجديد تستطيع أن تصنع فيلما سينمائيا يصور يسوع المسيح بصفته شخصا ضعيفا شبقا يشتهي ويلاحق مريم المجدلانية، كما هو في فيلم الإغراء الأخير للمسيح.

ولكن اقترح علاقة بين الوراثة والذكاء، مثلما فعل تشارلز مراي في منحنى الجرس فسوف تعلم عندئذ ماذا يعني أن تعبر وتجتاز الثورة. يمكن لصيدلي محلي أن يبيع الواقي الذكري لمن هم في الثلاثة عشر من العمر، ولكنك إذا بعت سجائر للأطفال أنفسهم فسوف تتعرض للمقاضاة بحجة تعريض صحتهم للخطر وتعريض أخلاقهم للمهالك. والكتب التي تزعم أن "الله ميت،" أو أن القديس بطرس كان لوطيا، أو أن العزوبية مُقعِدة، أو أن البابا بيوس الثاني عشر كان "بابا هتلر"، هي كتب سوف تجتذب مراجعات حارة من أجل "الجرأة" "والإبداع" "والاستخفاف بالمقدسات." ولكن ازلقْ بلسانك واستخدم مذمة عرقية، كما فعل السناتور بايرد، أو تفوه بكلمة نابية عن اللوطيين، كما فعل النائب ديك آرمي كما هو مشهور في استعماله الخاطئ لكلمات متشابهة في "بارني فاغ"(*) وسوف لن تهرب من عمود الضرب بالسياط.

في القرن التاسع عشر كان الكفر جريمة في العديد من الولايات. واليوم يقبل الكفر، والسوقية، والفحش حتى في ساعات البث الرئيسية، ولكن الفكاهة العرقية تعتبر "خطاب بغضاء" يجب

(*) النائب ديك آرمي جمهوري، في مؤتمر صحفي نطق اسم نائب آخر هو بارني فرانك (Barney Frank) بشكل (Barney Fag) وكلمة Fag كلمة تحقير للشواذ وادعى آرمي أنها كانت زلة لسان!!

أن يعاقب عليه بشدة. يقول الدارويني ديفيد دينت نستطيع أن "ننقذ المعمدانين"، ولكن "ليس إذا ما كان هذا يعني التسامح بتعمد إعطاء معلومات غير صحيحة للأطفال عن العالم الطبيعي." ويحذر دينّت القائلين بالخلق بقوله: "أنتم أحرار في أن تحتفظوا بأي معتقد ديني أو أن تخلقوا أي معتقد ديني ترغبون به طالما أن ذلك لا يصبح مصدر إزعاج عام ... وأولئك الذين لا يتكيفون، الذين لن يكونوا معتدلين، والذين يصرون على المحافظة فقط على أنقى سلالة وأكثرها توحشا من تراثهم لتبقى حية، فإننا سنكون ملزمين، وبتردد، على أن نحبسهم أو ننزع سلاحهم." [٣٠]

هذه هي الروح العسكرية للتعاليم الحداثية.

جرائم البغضاء

هذا الاعتقاد الجديد، مثل أي دين، يملك قائمته الخاصة من الجرائم الأخلاقية. وأبغض هذه الجرائم هي "جرائم البغضاء،" وهي هجمات تدفع إليها البغضاء الموجهة نحو لون الضحية أو معتقده أو أصله القومي أو توجهه الجنسي.

والآن، من الواضح، أن جريمتي قتل جيمس بايرد وماثيو شيبارد كانتا عملين يتسمان بالجبن ويستحقان الاحتقار وكانتا جريمتين تستحقان العقوبة القصوى. ولكن لماذا جُعلت هاتان

الجريمتان، من بين خمسة عشر ألف جريمة اقترفت كل عام، لماذا جُعلتا سببا لاستنكار خاص من نُخبنا السياسية والثقافية؟ فبعد كل شيء، كان القتلة من النكرات. وفي حالة بايرد، كانوا مذنبين سابقين ضالعين بالمخدرات على نحو عالٍ، وفي حال شيبارد كانوا مجرمين، ولا قيمة لهم.

وحقيقة كان قتل بايرد، وقد رُبط إلى سيارة شاحنة جرته حتى مات، كان قتلا فظيعا بشكل خاص، ولكن ذلك لا يؤهل هذا القتل ليكون جريمة بغضاء. لقد كان جريمة بغضاء لأن بايرد كان أسود وقد اختاره قتلته لأنه كان أسود. لقد ضُرب شيبارد حتى فقد وعيه ورُبط بسلسلة إلى سياج في ريف متجمد بعد أن أبدى بعض التوددات الجنسية لواحد من المجرمَين اللذين قررا عندئذ أن يسلباه ويقتلاه. لقد كان قتل شيبارد جريمة بغضاء لأن شيبارد كان لوطيا ولأن قاتليه كانا من البيض الأسوياء، استشاطا غضبا عندما تعرض أحدهما إلى توددات جنسية. لو أن شيبارد كان قد قُتل بالطريقة الوحشية نفسها بأيدي عشاق سابقين له لما كان قتله مؤهلا ليكون جريمة بغضاء، ولا كان موته قد وصل إلى النظر الرئاسي.

كلنا لنا انحيازاتنا، ولذلك دعوا المؤلف هنا يقر بانحيازاته. لو أن قاتلي ماثيو شيبارد اختارا فتاة بعمر السادسة عشرة ولم يختارا

شابا شاذا بعمر الحادية والعشرين، لكانت جريمة اغتصابها وقتلها بالنسبة لي شرأ أكبر من جريمة قتل الشاب. ولكن القاتلين في كلتا الحالتين ينبغي أن يقاسيا العقوبة نفسها. ولو كان قاتلا جيمس بايرد أسودين، أو لو كان بايرد أبيض، لكان موته جرأ شكل فظاعة شريرة مساوية وتبرر العقوبة نفسها.

لماذا اختير هذان المجرمان القاسيان من الرئيس ومن الصحافة؟ اختيرا لأنهما يناسبان الصورة بشكل كامل. ففي تعاليم الثورة، تكون أسوأ الجرائم هي جريمة قتل اللواطين لأنهم شاذين، وجريمة قتل السود لأنهم سود، وهي جرائم أسوأ حتى من اغتصاب طفلة وقتلها. كيف نعرف؟

بعد أقل من عام من مقتل شيبارد، اتهم رجلان من أركانساس بقتل جس درخسنغ البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما. وفيما يلي التفاصيل، كما روتها اسوشييتدبرس:

> وفقا لما تقوله الشرطة، فإن ديفيز كاربنتر الأصغر، ٣٨ عاما، وجوشوا براون، ٢٢ عاما، خدرا وعصبا عيني جس درخسنغ وسدا فمه بملابس داخلية، وربطاه إلى فرشة ووجهه للأسفل وثبتاه بلاصق الأنابيب وبالأحزمة. ثم اغتصب الصبي مرارا، وليط بأجسام متنوعة قبل أن يختنق بسبب الوضع الذي كان قد وضع فيه كما قال المحققون...

ومع ذلك فإن جريمة القتل والتعذيب والاغتصاب هذه لم تصل تقريباً إلى الصحافة القومية. لماذا؟ لأن هذه الجريمة كانت "جريمة جنس،" ولم تكن "جريمة بغضاء"، ولأن إظهار اللواطيين وهم يقومون بأفعال سادية بربرية لا يناسب نص كتاب الشرير - الضحية لدى نخبتنا الثقافية. وإن إبراز وحشية كاربنتر وبراون كان سيؤدي الى نكسة للقضية. وقد كتب برنت بوزل الناقد في وسائل الإعلام:

> لو أن جس ديرخسنغ قد رمي بالرصاص داخل مدرسته في أركنساس لصار قصة قومية فورية. ولو أنه كان شاذا بشكل علني وكان مهاجماه أسوياء لأدت الجريمة إلى توجيه كل شبكات الأخبار. ولكن ما من منفذ ليبرالي من وسائل الإعلام يجرؤ أن يكون الأول في قص حكاية جريمة فظيعة يكون الشريران فيها رجلين شاذين[32]

وعندما عقدت محكمة براون كانت صحيفة واشنطون تايمز هي الوحيدة تقريبا من بين الصحف القومية التي روت تقارير الإجراءات. وقد كتب أندرو سولليفان وهو لوطي وكاتب عمود في جريدة نيو ريبابلك، كتب يقول: " إن التباين [في التغطية القومية لجريمتي شيبارد ودرخسينغ] ليست حقيقة وحسب، إنه تباين مذهل."[33] لقد وجد سولليفان ثلاثة آلاف قصة عن جريمة شيبارد في بحث له في قاعدة بيانات نكسس NEXIS في الشهر الأول بعد

القتل، ولكنه وجد ستة وأربعين قصة فقط عن ذبح جس درخسينغ. وكانت شبكة فوكس نيوز هي الشبكة الوحيدة التي روت محاكمة جريمة براون والحكم عليه. ووسائل الإعلام الكبيرة تحولت إلى ذراع اتصال للثورة .

في الحال بعد جرّ بايرد جرا مميتا، مات جيك روبيل البالغ من العمر ستة أعوام بالطريقة المرعبة ذاتها. فعندما ذهبت أم الطفل كريستي إلى مطعم سفري للشطائر في انديبندنس، ميسوري، تركت طفلها جيك محزوما في حزام مقعده في الخلف من سيارتها من نوع شيفي بليزر . وتركت كريستي المفاتيح على السيارة. وكان كيم ديفيز، وهو في الرابعة والثلاثين، وقد خرج لتوه من السجن، كان يراقبها وهي تخرج إلى مطعم الشطائر وقفز إلى مقعد السائق. فركضت كريستي روبيل لتنقذ ولدها، وفتحت الباب الخلفي للسيارة لتجره إليها. ودفع ديفيز بالطفل إلى الخارج وهو لا يزال مربوطا إلى حزام المقعد . صرخت كريستي روبيل صراخا هستيريا عليه ليقف. نظر ديفيز إلى المقعد الخلفي، ثم إلى مرآة المنظر الخلفي للسيارة، واندفع مسرعا، وهو يجر الطفل لمسافة خمسة أميال حتى أوقفته شرطة الدراجات النارية الذين رأوا جثة الطفل وهي مجرورة على طول الشارع الرئيسي. لماذا لم تنل هذه الجريمة انتباها قوميا؟ لأن الطفل جيك روبيل كان أبيض وديفيز

كان اسود. إن جرائم البغضاء هي طريقة النخبة الثقافية لتصوير الرجال البيض تصويرا عرقيا .

قبل عشرة أيام من عيد الميلاد في عام ٢٠٠٠ اقترفت فظاعة أكثر شرا مما فعل بماثيو شيبارد أو جيمس بايرد وذلك في وتشيتا.

كان خمسة من الشبان والشابات، ثلاثة شبان وشابتان، في حفلة عندما اقتحم عليهم بيتهم أخوان، وأحدهما في الثالثة والعشرين والآخر في العشرين من عمره. وُضع الخمسة في سيارة، واقتيدوا إلى آلة صرف آلية، وأجبروا على سحب نقودهم، ثم أخذوا إلى ملعب كرة قدم . الشابتان أجبرتا على التعري واغتصبتا. ثم أجبر الضحايا على ممارسة الجنس مع بعضهم البعض تحت فوهة السلاح. ثم أجبر الجميع على أن يركعوا، ثم أطلق الرصاص على كل واحد منهم في رأسه. مات ثلاثة شباب وشابة واحدة. أما الشابة الأخرى فتركت ملقاة على أنها ميتة، ولكنها ركضت وهي تنزف عارية مسافة ميل في البرد لتجد مساعدة، أما الأخوان فرجعا بسيارتهما لنهب البيت.

هيذر موللر، البالغة من العمر خمسة وعشرين عاما كانت تُذكر من أجل صوتها الغنائي. وآرون ساندر كان قد عاد لتوه من كلية جبل سانت ماري وكلية تخريج القساوسة في إمّيتزبيرغ، في ميريلاند، لأنه كان قد قرر أن يكون قسيسا. وكان برادلي هيرمان

البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً صديقا لآرون. وجاسون بيفورت، البالغ من العمر السادسة والعشرين، كان أستاذ علوم ومدريا في أوغاستا هاي. وكان قد خطط أن يتقدم بالخطبة إلى المرأة التي بقيت حية وكان قد أحضر خاتما وكتابا عن كيفية عمل ذلك. ويكتب فرانك موريس في ذا وندرر: " لم يحظ جاسون بالفرصة ليتقدم بالخطبة أو يعطيها الخاتم، ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية في بلدته برات كبيرة بما يكفي لجنازته، ولذلك فقد نُقلت إلى كنيسة بروتستانتية أكبر."[٣٤] وفي الدقائق التي سبقت موت جاسون بيفورت أُجبر ذاك الرجل على أن يراقب المرأة التي أمل أن يتزوجها وهي تغتصب.

ولكن ما لم يذكره موريس هو أن جميع الضحايا كانوا بيضا وأن القتلة كانوا سودا. لو أن أعراق الطرفين قد قُلبت لكانت تلك جريمة بغضاء للعقد كله. ومع ذلك فإن هذه الفظاعة لم تصنع أبدا بروكاو، ولم تصنع أبدا ريذر، ولم تصنع أبدا جينينغز، ولم تصنع أبدا الصفحة رقم واحد في الصحافة القومية. لماذا لم تفعل؟ يكتب كاتب العمود والمؤلف ديفد هورووتز فيقول: " القصة لم تناسب الميلودراما القومية الصحيحة سياسيا التي تحكي عن الضحية الأسود والجور الأبيض."[٣٥]

يبدو أن لدى السيد هورووتز نقطة حرية بالاهتمام. فوفقا

لدليل المؤشرات الثقافية الرئيسية للعام ١٩٩٩ فإن الأمريكيين الأفارقة، وعلى الرغم من أنهم نسبة (١٣٪) ثلاثة عشر بالمائة فقط من سكاننا، مسؤولون عن نسبة (٤٢٪) اثنين وأربعين بالمائة من جرائم العنف كلها، وعن أكثر من نسبة نصف جرائم القتل في الولايات المتحدة.[٣٦] وتبين الإحصاءات الخاصة بالجرائم بين الأعراق نمطا من التحامل أكثر استثارة للصدمة مما تقدم.

في العام ١٩٩٠، غضب البروفيسور وليام ولبانكس من قسم العدالة الجنائية في الجامعة العالمية في فلوريدا بسبب حملة سعت إلى تقليل الجرائم المرتكبة من السود بحق السود، لأن الحملة كما يبدو عاملت الهجمات الواقعة على البيض بوصفها أقل أهمية في استحقاقها للاستنكار. وبعد دراسة معمقة لأرقام ضحايا الجريمة المستمدة من وزارة العدل في العام ١٩٨٧ اكتشف ولبانكس ما يلي وقدم تقريرا وفقا لذلك:

- في العام ١٩٨٧، اختار المجرمون البيض ضحايا سودا بنسبة (٣٪) ثلاثة بالمائة من جرائم العنف، بينما اختار المجرمون السود ضحايا بيضا بنسبة (١٥٪) خمسة عشرة بالمائة من الفترة الزمنية.
- عندما كانت الجريمة اغتصابا، اختار المجرمون البيض نساء سودا بنسبة صفر بالمائة من هجماتهم، بينما اختار المجرمون

السود نساء بيضا بنسبة (٢٨٪) ثمانية وعشرين بالمائة في هجماتهم. ومن أصل ثلاثة وثمانين ألف حالة اغتصاب لم يستطع ويلبانكس أن يجد أي مغتصب أبيض لضحية سوداء.

- اختار المجرمون البيض ضحايا من السود بنسبة (٢٪) اثنين بالمائة من عمليات السلب والنهب، ولكن المجرمين السود اختاروا ضحايا من البيض بنسبة (٧٣٪) ثلاثة وسبعين بالمائة من أعمالهم في السلب والنهب.[٣٧]

وعندما نشر البروفسور ولبانكس لأول مره أرقامه المذهلة والمحزنة لم يظهر أي تفنيد لها ولا تحدٍ ولا مناقضة، بل ساد الصمت بكل بساطة. وبعد عشر سنوات، في العام ١٩٩٩، نشرت الواشنطون تايمز النتائج التي وجدتها في دراسة عن الجريمة بين الأعراق قامت بها مؤسسة القرن الجديد، واعتمدت على إحصاءات وزارة العدل في ١٩٩٤، وهذه النتائج التي وجدتها دراسة مؤسسة القرن الجديد دعمت النتائج التي وجدها ويلبانكس.

- اقترف السود نسبة (٩٠٪) تسعين بالمائة من جرائم العنف بين الأعراق في العام ١٩٩٤.
- ولأن السود يشكلون نسبة (١٢٪) اثني عشر بالمائة من السكان، فإن هذه الأرقام تعني أن احتمال ارتكاب السود لأعمال العنف بين

الأعراق يفوق احتمال ارتكاب البيض لها بخمسة عشر ضعفا.

- وكان احتمال قيام السود بأعمال عصابات اغتصاب بين الأعراق، وهجمات عصابات، يفوق احتمال قيام البيض بذلك بنسبة ١٠٠ إلى ٢٥٠ مرة.
- حتى في الجرائم من نوع "جرائم البغضاء" - وهي أقل بنسبة ١٪ واحد بالمائة من الجرائم بين الأعراق - فإن احتمال أن يكون السود هم المهاجمون هو أكبر بمرتين من احتمال أن يكونوا هم الضحية.[٣٨]

ووجدت دراسة مؤسسة القرن الجديد أن الأمريكيين من أصل آسيوي هم أقل الجماعات عنفا، وهي تقترف جرائم العنف بمعدل يصل إلى نصف المعدل فقط مما يقترفه الأمريكيون البيض.

وهذه الأرقام يجب أن تبعث إحساسا عميقا بالخذلان في قلوب عشرات الملايين من الأمريكيين الأفارقة المحترمين. ومع ذلك فالأرقام تكشف مبدأ مركزيا للثورة الثقافية بصفته كذبة كبيرة وهو: الافتراء الحقود الذي يقول بأن أمريكا هي أمة يكون فيها الشعب الأسود باستمرار عرضة للخطر من الأكثرية . وواقع الأمر هو أن معدلات الجرائم في مجتمعات الأقلية في أمريكا هي العليا، وأن الجرائم بين الأعراق تأتي من هذه المجتمعات. إننا لا نحل أي شيء عن طريق خداع الذات.

والأمر نفسه على ما هو واضح ما يزال صحيحا بالنسبة لإنجلترا. فقد وجد دوني ودز وهو كاتب عمود، بعد تحليل الأرقام الخاصة بالجريمة بين الأعراق والمدفونة في وزارة الداخلية، وجد في "الإحصاءات عن العرق ونظام العدالة الجنائي أن من بين الجرائم التي اقترفت في العام ١٩٩٥ وكانت "بدوافع عرقية" هناك مائة وثلاثة وأربعين ألف (١٤٣٠٠٠) جريمة اقترفت ضد أقليات، وأن مائتين وثمانية وثلاثين ألف (٢٣٨٠٠٠) جريمة اقترفت ضد ضحايا بيض" وكانت النتيجة التي وصل إليها ودز:

> إذا كانت الأقليات العرقية تشكل نسبة (٦٪) ستة بالمائة من السكان في المملكة المتحدة، وهم يقترفون (٢٣٨,٠٠٠) مائتين وثمانية وثلاثين ألف هجوم في العام، وكان السكان البيض الذين يشكلون نسبة أربعة وتسعين (٩٤٪) من السكان وهم يقترفون مائة وثلاثة وأربعين ألف هجوم عرقي في العام، فإنه سيكون واضحا على أساس عدد السكان، أن الأقليات العرقية تقترف ما يصل إلى خمسة وعشرين (٢٥) ضعفا من الهجمات العرقية أكثر مما يقترفه السكان البيض.[٣٩]

يرأس جاريد تيلر صندوق القرن الجديد، وتيلر هذا هو مؤلف كتاب: مُعبّد بالنوايا الطيبة: فشل العلاقات العرقية في أمريكا المعاصرة، وهو أيضا شخصية جدلية في الجدل القائم حول الجريمة والعرق. ولكن إحصاءات صندوق القرن الجديد مستندة إلى أرقام

وزارة العدل وتقتفي اقتفاء قريبا أثر النتائج التي وجدها ولبانكس ووجدها وودز. وهذه النتائج أيضا لم يتم تحديها وهي مهملة تقريبا.

وعندما طلبت واشنطون تايمز من مورغان رينولدز، وهو مدير مركز العدل الجنائي في المركز القومي لتحليل السياسة في دالاس، أن يعقب على دراسة صندوق القرن الجديد عن الجريمة بين الأعراق، رفع مورغان رينولدز كتفيه بلامبالاة وقال: "إنها مسألة يهملها معظم العلماء البيض، لأنك لا تستطيع إلا أن تدخل في المتاعب فقط ... وإنها ليست أخبارا جديدة لأي شخص تابع الاختلافات في العرق وفي الجريمة، ولكنها من الناحية السياسية غير صحيحة."[40] وقد تطوع عالم الجريمة جيمس كيو ويلسون بالقول إن النواحي العرقية للجريمة "حساسة جدا" وهي أكثر حساسية من أن تناقش علنا.[41] ولكن إذا كان هذا صحيحا، فلماذا نمتلك تشريعات مسنونة لجرائم البغضاء مطلقا؟.

الجريمة هي الجريمة، وينبغي أن تعاقب مقترفها بغض النظر عن معتقده أو لونه. ويجب أن تكون العدالة مصابة بعمى الألوان. ولكن هذه الحملة لترميز وتصنيف جرائم معينة بصفتها "جرائم بغضاء" ليس لها أي علاقة بالعدالة ولها كل علاقة مع الأيديولوجية. إن نخبتنا الثقافية تريد الأمريكيين أن يروا بلدهم كما تفعل تلك النخبة - أي بوصفها بلادا عرقية بحاجة إلى خلاص، وفيها يكون

الذكور البيض هم أكثر المجرمين انتشارا وخطورة. أما الحقيقة فلا تهم: فإذا كانت جريمة اغتصاب صبي في الثالثة عشرة من عمره، أو الموت جرا لطفل في السادسة من عمره هي جرائم قام بها متهم سابق أسود، أو إذا كانت بشاعة عرقية في وتشيتا جرائم لا تلائم، أو أسوأ من ذلك إذا كانت تناقض النص، فادفن القصة.

في كتاب تعاليم الثورة لا تتأهل ثلاثون جريمة قتل لشباب على يد السادي جون وين غاسي لتكون جرائم بغضاء، أما لو أن غاسي ضُرب خارج بار للشواذ من أجل التودد إلى صبي من الأخوة، لكان ذلك قد تأهل ليكون جريمة بغضاء. ولكانت جريمة قتل الدكتور كنغ قد تأهلت لتكون جريمة بغضاء لأن قاتله جيمس إيرل راي أبغضه بصفته قائداً أسود، ولكن جريمتي قتل جون إف. كينيدي بيدي كاستروي وقتل روبرت كينيدي بيد فلسطيني متطرف لا تتأهلان لتلك التسمية.

ومثلما هو الأمر في القُدّاس، فإن إعادة التمثيل للعشاء الأخير لعدد لا نهاية له من المرات، والعشاء الأخير منسك من مناسك الكاثوليكية، فإن السرد المتكرر للتفاصيل الملتهبة لجرائم البغضاء هو شعيرة عملية في الإيمان الجديد، وتمتلك جريمة البغضاء النموذجية دائما العناصر نفسها: العقدة، والبطل، والشرير والضحية: التقدميون يتصدون للمتعصبين البيض نيابة عن

الأقليات العاجزة عن الدفاع عن نفسها. ولا يتوقف أبدا البحث عن جرائم بغضاء جديدة من قبل وسائل الإعلام وهي الوسائل التي صارت ذراع دعاية للثورة. لأن كل جريمة بغضاء مكتشفة مجددا تعيد توكيد عقيدة منزهة عن الخطأ هي: في الأعماق أمريكا هي أمة موصومة بالخوف من الإنسان الشاذ وهي أمة متعصبة. وكما تقول السيدة سونتاغ: "العرق الأبيض هو سرطان التاريخ الإنساني."

ولكن كيف استولى هذا الدين الجديد على أمريكا المسيحية المحافظة منذ الأمس فقط؟ ومن أين أتى هذا الدين الجديد؟

الفصل الرابع

الأربعة الذين صنعوا ثورة

من الذي سوف يحررنا من نير الحضارة الغربية؟[1]

- جورج لوكاش

منظر ماركسي.

إن الدولة الشمولية الكفء حقيقة ستكون دولة يسيطر فيها التنفيذيون الأقوياء من الرؤساء السياسيين مع جيشهم من المديرين على سكان من العبيد الذين لا داعي لقسرهم لأنهم يحبون عبوديتهم.[2]

- ألدوس هاكسلي

عالم جديد شجاع.

الجذر الكبير للثورة التي استولت على المؤسسات الثقافية للجمهورية الأمريكية تعود إلى الخلف بعيدا إلى ما وراء الستينيات من ١٩٦٠، تعود إلى آب أغسطس ١٩١٤، بداية الحرب العظمى التي يسميها المؤرخ جاك بارزن" الضربة التي طوحت بالعالم الحديث في مساره الذي أدى به إلى تدمير ذاته.[3]

في ٤ آب أغسطس ١٩١٤، وقف الاشتراكيون الديمقراطيون في الرايخستاغ (البرلمان) وصوتوا، كلهم بدون استثناء، على حسابات الحرب للقيصر، والتحقوا بذلك بحفلة الوطنية في الوقت الذي كانت فيه جيوش الرايخ قد سحقت بلجيكا ودخلتها. ذُهل الماركسيون؛ فالحرب الأوروبية التي توقعوها طويلا كان يفترض أن يكون زمانها زمانهم. فماركس كان قد أرعد في السطر الأخير من بيانه الشيوعي بالقول: "يا عمال العالم اتحدوا". وقد توقع الماركسيون بثقة أن العمال عندما تجيء الحرب سوف ينتفضون ويثورون ضد حكامهم أكثر مما يقاتلون رفاقهم العمال في الأمم المجاورة. ولكن هذا لم يحدث. وانقلب أكبر حزب اشتراكي في أوروبا إلى حزب حرب، ورمى العمال عُددهم وخرجوا للقتال والأغنيات في قلوبهم. وكما تصف ذلك المؤرخة باربارا تكمان فتقول:

> عندما جاء النداء قام العامل الذي صرح ماركس أنه ليس له وطن أم، بالتماهي بنفسه مع البلد، لا مع الطبقة. وتبين أن العامل عضو في أسرة وطنية مثل أي شخص غيره. وقوة عداوته التي كان يفترض أنها ستقلب الرأسمالية وجدت لها في الغريب هدفا أفضل. لقد ذهبت الطبقة العاملة إلى الحرب بإرادتها، وبرغبة أيضا مثلها مثل الطبقة الوسطى، ومثل الطبقة العليا، ومثل النوع الإنساني.[٢]

لقد انكشف الماركسيون بوصفهم حمقى.

ومع تكشف أهوال الجبهة الغربية انتظر الماركسيون. ولكن حتى معركة إيبر، ومعركة باشنديل، ومعركة السوم، حيث لقي مئات الألوف من الجنود البريطانيين حتفهم فوق بضع ياردات من الطين، لم تؤد بالعمال إلى الانقضاض في وطن الثورة الصناعية. وكذلك فلا الطبقة العاملة الفرنسية ولا الطبقة العاملة الألمانية انكسرت في فردان. والتمرد الذي حصل في العام ١٩١٧ في الخنادق الفرنسية سحق بسرعة. وجاءت ضربات جديدة عند نهاية الحرب.

بعد الثورة الروسية حاول الشيوعيون القيام بانقلابات في بودابست وميونخ وبرلين. وسُحق السوفيت البافاريون بسرعة من قبل الجنود القدامى الألمان. وروزا لوكسمبرغ(*) التي قادت هذا التمرد الاسبارتاكوسي، وكارل لبكنكث ضربا بالهراوة وأطلق عليهما النار حتى الموت في برلين من قبل قوات الوحدات الحرة. ودام نظام بللا كون(**) في بودابست لأشهر قليلة. وفشل العمال في التحشد والالتفاف حول الثورات التي أُطلقت باسمهم.

(*) روزا لوكسمبرغ (١٨٧٠-١٩١٩) قائدة اشتراكية ألمانية شاركت في ١٩١٨ بتأسيس حزب سبارتاكوس الذي صار في ما بعد هو الحزب الشيوعي الألماني اعتقلت بعد التمرد في العام ١٩١٩ ثم أعدمت.

(**) بللا كون: (١٨٣٦-١٩٣٩؟) وهو سياسي هنغاري أسس الحزب الشيوعي الهنغاري (١٩١٨).

وحاول تروتسكي(*) أن يجعل الجيش الأحمر هو رأس الحربة للثورة. وعندما غزا بولندا دفع به الوطنيون البولنديون إلى الخلف عند نهر الفيستولا تحت قيادة المارشال بيلسودسكي(**). وبهذا لم يمر ولم ينجح أي شيء تنبأ به الماركسيون. لقد جاءت ساعتهم وذهبت. وعمال الغرب، البروليتاريا الأسطورية، رفضوا أن يلعبوا الدور الذي حدده لهم التاريخ. كيف يمكن لماركس أن يكون على هذا النحو من الخطأ؟.

والآن قدم اثنان من أتباع ماركس تفسيرا. نعم، ماركس كان مخطئا. والرأسمالية لم تكن تفقر العمال. وفي الحقيقة فإن حظهم كان في تحسن، ولم يهبوا في ثورة لأن أرواحهم كانت مشبعة بألفي عام من المسيحية التي أعمتهم عن مصالحهم الطبقية الصحيحة. فما لم تجتث المسيحية والثقافة الغربية من روح الإنسان الغربي وإلى أن تجتثا منها، وهما الجهاز المناعي للرأسمالية، فإن الماركسية لا تستطيع أن تمتد بجذورها، وسوف تتكشف الثورة ويخونها العمال الذين كان ينبغي على الثورة أن تقاتل باسمهم. وبتعابير إنجيلية، فإن كلمة ماركس، وهي بذرة الثورة، قد سقطت على تربة مسيحية صلبة

(*) تروتسكي، ليون: (١٨٧٩-١٩٤٠) وهو منظر ثوري روسي. أحد قواد الثورة البولشفية.

(**) بيلسودسكي، جوزيف (١٨٦٧-١٩٣٥) قائد وسياسي بولندي ثوري وكان أول رئيس (١٩١٨-١٩٢٢) لبولندا المستقلة.

كالصخر وماتت. وبعد أن رهن الماركسيون كل شيء على الطبقة العاملة، فإنهم بذلك قد راهنوا على الحصان الخاسر.

واول تابع منشق كان هو الهنغاري جورج لوكاش، وهو عميل للكومنترن(*)، جلب له كتابه التاريخ والوعي الطبقي اعترافا بصفته منظرا ماركسيا ينافس ماركس نفسه. وقال لوكاش "أنا رأيت أن التدمير الثوري للمجتمع هو الحل الأول والوحيد، وأن قلب القيم في كل أنحاء العالم لا يمكن أن يحدث بدون إعدام القيم القديمة وخلق قيم جديدة من قبل الثوريين."[4] وبصفته نائب المسؤول عن الثقافة في نظام بللا كون، وضع لوكاش موضع التنفيذ أفكاره التي وصفها هو بنفسه بأنها "شيطانية" فيما صار يعرف باسم "الإرهاب الثقافي."

وليضع جزءاً من هذا الإرهاب نظم وأسس نظاما تربويا جنسيا متطرفا في المدارس الهنغارية. وأعطي الأطفال دروسا عن الحب الحر، والجماع الجنسي، وعن الطبيعة القديمة لأخلاق الأسرة من الطبقة الوسطى، وعن تقادم العهد بنظام الزواج الآحادي، وأن الدين لا علاقة له، وهو ما يحرم الإنسان من كل

(*) الكومنتيرن: كلمة منحوتة من كلمتي: «الشيوعي الدولي» أسس لينين هذا التشكيل (١٩١٩) ليتولى من خلاله قيادة الحركات الاشتراكية في العالم. وقد فشلت جهوده وتم حله (١٩٤٣).

ملذاته. ودُعيت النساء كذلك إلى أن يثرن ضد الأعراف الجنسية في ذلك الوقت.[5]

وغرض لوكاش من تعزيز الإباحية بين النساء والأطفال كان تدمير الأسرة، وهي قلب مؤسسة النصرانية والثقافة الغربية. بعد خمسة عقود من هروب لوكاش من هنغاريا، تم اعتناق أفكاره بحماسة من قبل جيل ازدهار ولادات الأطفال في "الثورة الجنسية."

والتابع الثاني كان هو أنطونيو غرامشي(*)، وهو شيوعي إيطالي بدأ مؤخرا بنيل الاعتراف الذي يستحقه بصفته أعظم استراتيجي ماركسي في القرن العشرين. بعد مسيرة موسوليني إلى روما في العام ١٩٢٢ هرب غرامشي إلى روسيا. ولكنه لم يكن مثل "المغفلين النافعين" ولا مثل "اليسار الطفولي" الذين كانوا موضع سخرية لينين من مثل كاتب أمريكي هو لينكولن ستيفنس يقول "لقد كنت هناك في المستقبل وهو يعمل؟"- بل كان غرامشي ملاحظا حادا رأى أن البلشفية لم تعمل. ومن خلال الإرهاب فقط كان النظام يستطيع أن يفرض الطاعة. واستنتج غرامشي أن اللينينية قد فشلت. إن الشعب الروسي لم يكن قد انقلب ليتبع الشيوعية، إنه يبغضها. إن بلاد الشعب الروسي وعقيدته وأسره وأيقوناته

(*) غرامشي، أنطونيو (١٨٩١-١٩٣٧) وهو منظر سياسي إيطالي، موسوليني حل الحزب الشيوعي واعتقل غرامشي وأبقاه في السجن مدة طويلة.

وروسيا الأم كلها كانت تعني للشعب الروسي أكثر بكثير من أي تضامن عمال دولي. واستنتج غرامشي أن السوفيت كانوا يخدعون أنفسهم. والشعب الروسي لم يتغير. إنهم طائعون فقط لأن المقاومة كانت تعني طرقة على الباب في منتصف الليل ورصاصة في قفا العنق في البدروم أو الغرفة السفلية من قصر لوبيانكا. وحتى القيصر استثار حبا وولاء أكثر من البولشفيك المكروهين.

واستنتج غرامشي أن الأرواح المسيحية للشعب الروسي هي التي منعتهم من اعتناق الثورة الشيوعية. وكتب غرامشي يقول: "إن العالم المتمدن مضت عليه مدة ألفي عام وهو مشبع إشباعا كاملا بالمسيحية، "وإن النظام المؤسس على المعتقدات والقيم اليهودية-المسيحية لا يمكن أن يقلب حتى يتم قطع تلك الجذور.[٦] وإذا كانت المسيحية هي الدرع الحراري للرأسمالية، فللاستيلاء على الغرب، يجب على الماركسيين أن يجتثوا المسيحية من الغرب.

بعد أن صحا غرامشي من الأوهام، وبعد أن أصابه الهلع من ستالين الذي استولى على السلطة بعد موت لينين والذي لم يرق له المفكرون الماركسيون المستقلون، عاد غرامشي إلى وطنه ليقود الحزب الشيوعي الإيطالي. أما موسوليني فكانت لديه فكرة أخرى. فقد سجن غرامشي وأغلق السجن عليه وأضاع مفتاحه. وبعد أن وهنت قوى غرامشي في السجن، وصار قريبا من الموت بسبب

السُل، أطلق سراحه أخيرا، ولكنه مات في العام ١٩٣٧ عن عمر يناهز ٤٦ عاما. ولكن غرامشي في كتابه ملاحظات في السجن ترك خلفه المخططات التفصيلية لثورة ماركسية ناجحة في الغرب. وثورتنا الثقافية الخاصة بنا كان يمكن أن تأتي مباشرة من صفحاته. "في الشرق"، كتب غرامشي عن روسيا:

> كانت الدولة هي كل شيء، وكان المجتمع المدني قائماً منذ الأزل... في الغرب كان هناك علاقة مناسبة بين الدولة والمجتمع المدني، وعندما ارتعشت الدولة ظهر هيكل قوي للمجتمع المدني فورا. الدولة [في الغرب] لم تكن إلا الخندق الخارجي، وخلف هذا الخندق كان يقف هناك نظام قوي من القلاع والسدود الترابية الحاجزة.[٧]

وأفضل من الاستيلاء على السلطة أولا وفرض ثورة ثقافية من فوق، هو، كما يحاجج غرامشي، أنه يجب على الماركسيين في الغرب، أن يغيروا الثقافة أولا، ثم إن السلطة سوف تسقط في أحضانهم مثل ثمرة ناضجة. ولكن تغيير الثقافة يتطلب "مسيرة طويلة عبر المؤسسات" -الفنون، والسينما، والمسرح، والمدارس، والكليات، والندوات، والصحف، والمجلات، والواسطة الإلكترونية الجديدة، والراديو. وكان يجب السيطرة عليها كلها الواحدة منها بعد الأخرى، وأن تقلب وتُسيس إلى أن تكون وكالة للثورة. ثم يمكن بعدئذ للناس أن يثقفوا ببطء ليفهموا الثورة بل ليرحبوا بها.

لقد حض غرامشي زملاءه الماركسيين على أن يشكلوا جبهات شعبية عامة مع المثقفين الغربيين الذين يشاركون الماركسيين احتقارهم للمسيحية وللثقافة البرجوازية والذين يشكلون عقول الشباب. رسالة إلى الرفاق: "إنها الثقافة، أيها الأغبياء؟" ولأن الثقافة الغربية هي التي ولدت الرأسمالية وصانتها، وإذا كان بالإمكان هدم تلك الثقافة، فإن النظام يسقط من تلقاء نفسه. على غلاف كتابه في العام ١٩٧٠ والذي كان نصرا سريعا وكتابا من أفضل الكتب مبيعا تخضير أمريكا، وهو بيان الثقافة المضادة ردد المؤلف تشالز رايخ كالببغاء ما قاله غرامشي بدقة:

> هناك ثورة قادمة. ولن تكون مثل ثورات الماضي. إنها سوف تتجذر وتنبثق في الأصل مع الفرد ومع الثقافة، وسوف تُغير البنية السياسية بصفتها آخر فعل فقط. إنها لن تتطلب العنف لكي تنجح. ولا يمكن أن تقاوم بنجاح بالعنف. إنها الآن تنتشر بسرعة مثيرة للتعجب، ومنذ مدة فإن قوانيننا، ومؤسساتنا، وبنيتنا الاجتماعية تتغير بالتبعية ...
>
> **هذه هي ثورة الجيل الجديد.**[٨]

لقد ثبت أن فكرة غرامشي عن كيفية صنع ثورة في مجتمع غربي كانت فكرة صحيحة. إن نظام لينين قد هز العالم طوال سبعين سنة، ولكن ثورته في نهاية المطاف فشلت، وانهار نظامه.

وفي النهاية، بقي حزب لينين وستالين الشيوعي على ما كان عليه من البداية، وهو مؤامرة من مجرمين سياسيين استخدموا أفكار ماركس وبلاغته لإخفاء ما كانوا يعنونه حقيقة: وهو السلطة المطلقة. لقد مات نظام لينين بغيضا غير مأسوف عليه. ولكن الثورة الغرامشية تتدحرج متقدمة، وهي إلى هذا اليوم، مستمرة في اكتساب ملتزمين بها.

مدرسة فرانكفورت تأتي إلى أمريكا

في العام ١٩٢٣، أنشأ لوكاش وأعضاء من الحزب الشيوعي الألماني، في جامعة فرانكفورت، معهدا للماركسية وفق نموذج معهد ماركس -أنجلز في موسكو. وبعد بعض التأمل، استقروا على اسم أقل استفزازا، وهو معهد للبحوث الاجتماعية. وبعد مدة وجيزة صار يعرف ببساطة على أنه مدرسة فرانكفورت.

وفي العام ١٩٣٠، صار مدير ذلك المعهد هو ماكس هورخيمر، وهو مرتد ماركسي ومعجب بالماركيز دو ساد. وهورخيمر أيضا كان قد استنتج بأن ماركس كان مخطئا. وأن الطبقة العاملة لم تكن ترتقي إلى دورها بصفتها طليعة الثورة. ومن قبل ذلك الوقت، كان العمال الغربيون ينتقلون بسعادة إلى الطبقة الوسطى، البورجوازية

الكريهة. لقد خذلوا الماركسيين، الذين ما كانوا ليصابوا بالذهول والإحساس بالمفاجأة من أحداث وول ستريت في أيار مايو ١٩٧٠، عندما ضُرب الراديكاليون والطلاب المحتجون على عدوان نكسون وتدخله في كمبوديا، على أيدي عمال البناء من اتحاد نقابات البناء برئاسة بيت بيرنّان الذي نصبه نكسون بعد ذلك وزيرا للعمل لديه.

وبناء على توجيه هورخيمر بدأت مدرسة فرانكفورت تعيد ترجمة الماركسية إلى تعابير ثقافية. ورُميت الكتيبات القديمة عن ميدان المعركة، وكتبت كتيبات جديدة. بالنسبة إلى الماركسيين القدامى، كان العدو هو الرأسمالية، أما لدى الماركسيين الجدد، فالعدو هو الثقافة الغربية. وبالنسبة إلى الماركسيين القدامى، كان الطريق إلى السلطة هو الإطاحة العنيفة بالنظام، مثلما حدث في باريس في العام ١٧٨٩ وكما حدث في سانت بطرسبيرغ في العام ١٩١٧. وبالنسبة إلى الماركسيين الجدد، فالطريق إلى السلطة كان غير عنيف ويتطلب عقودا من العمل الصبور. سيأتي النصر فقط بعد أن تكون المعتقدات المسيحية قد ماتت في روح الإنسان الغربي. وهذا سيحدث فقط بعد أن يكون قد تم الاستيلاء على مؤسسات الثقافة والتعليم وبعد أن تكون هذه المؤسسات قد جندت على يد حلفاء الثورة وعملائها. احتلوا المؤسسات الثقافية للغرب، وهي "القلاع والسدود الترابية،" وسوف تسقط الدولة، وهي "الخندق الخارجي" بدون قتال.

ولكن بالنسبة إلى الماركسيين القدامى والجدد معا، على كل حال، بقي تعريف الأخلاقيات كما يلي: ما يتقدم بالثورة فهو أخلاقي، وما يعوقها فهو ليس أخلاقيا. وكما يكتب العلامة جون فونت من معهد هدسون ويقول: إن غرامشي اعتقد بـ

"التاريخانية المطلقة، " وتعني أن الأخلاق، والقيم، والحقيقة، والمعايير، والطبيعة الإنسانية نفسها هي كلها منتجات لعصور تاريخية مختلفة. وليس هناك معايير أخلاقية مطلقة تعتبر صادقة بشكل شامل لكل بني البشر خارج سياق تاريخي محدد، بل الأصح هو أن الأخلاقيات "تبنى اجتماعيا."[٩]

وعندما قال رونالد ريغان بشكل عفوي قولته المشهورة بأن السوفيت "يحتفظون لأنفسهم بالحق في أن يكذبوا، وأن يسرقوا، وأن يخدعوا، " فإنه قد أصاب كبد الحقيقة التي لا يستطيع أن يطعن فيها ماركسي أمين طعنا قويا، على الرغم من أن تلك الملاحظة كادت تسبب تقريبا انهيارا عصبيا جماعيا في وزارة الخارجية."[١٠]

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، التحق الناقد الموسيقي ثيودور أدورنو(*)، وعالم النفس إريك فروم(**)، وعالم الاجتماع ويلهليم

(*) أدورنو، ثيودور: (١٩٠٣-١٩٦٩)، عالم اجتماع وفيلسوف ألماني.

(**) إريك فروم: (١٩٠٠-١٩٨٠) كاتب أمريكي ألماني المولد، وكان محللا نفسيا أكد على دور التكييف الاجتماعي في السلوك الإنساني.

رايخ[*] بمدرسة فرانكفورت. ولكن التاريخ تدخل بفظاظة في العام ١٩٣٣. فقد صعد أدولف هتلر إلى السلطة في برلين، وبما أن الشخصيات البارزة القائدة لمدرسة فرانكفورت كانوا يهودا وماركسيين، فإنهم لم يكونوا مناسبين على نحو جيد للرايخ الثالث. فحزمت مدرسة فرانكفورت أيديولوجيتها وهربت إلى أمريكا. وغادر معها أيضا طالب جامعي متخرج اسمه هربرت ماركيوز[**]، وبمساعدة من جامعة كولومبيا، أقاموا مدرسة فرانكفورت الجديدة في مدينة نيويورك وأعادوا توجيه مواهبهم وطاقاتهم لإضعاف ثقافة البلد التي منحتهم ملجأ.

ومن بين الأسلحة الجديدة للنزاع الثقافي التي طورتها مدرسة فرانكفورت كان سلاح النظرية النقدية. ويظهر الاسم رحيما بما فيه الكفاية، ولكنه يعبر عن ممارسة يمكن أن تكون أي شيء غير أن تكون رحيمة. وقد عرف أحد طلاب النظرية النقدية هذه النظرية

(*) ويلهليم رايخ: (١٨٩٧-١٩٥٧) محلل نفسي نمساوي نظّر بأن الكبت الجنسي هو مصدر العديد من المشكلات النفسية والاجتماعية. وقد قاطع فرويد وترك ألمانية النازية واستقر في مدينة نيويورك مات في السجن وهو يقضي حكما لمدة سنتين لازدرائه للمحكمة وخرقه للقانون.

(**) هربرت ماركيوز: (١٨٩٨-١٩٧٩) فيلسوف سياسي أمريكي ألماني المولد. أحد مؤسسي معهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي هرب من النازيين (١٩٣٤) إلى الولايات المتحدة. علم في جامعة هارفارد وغيرها ثم صار (١٩٦٥) أستاذ الفلسفة في جامعة كلفورنيا في سانديغو. وقد عرف بتركيبه للأفكار الماركسية والفرودية وأفكار هيغل.

بأنها "جوهريا نقد تدميري لكل العناصر الرئيسية للثقافة الغربية، شاملا المسيحية، والرأسمالية، والسلطة، والأسرة، وأبوية الأسرة، والتراتبية، والأخلاقيات، والتقاليد، والضبط الجنسي، والولاء، والوطنية، والقومية، والوراثة، ومركزية العرق الإثني، والأعراف، والمحافظة."[١١]

باستخدام النظرية النقدية، على سبيل المثال، يكرر الناشط الثقافي الماركسي ويكرر مرارا التهمة بأن الغرب مذنب بجرائم إبادة الجنس ضد كل حضارة وثقافة واجهها. وبموجب النظرية النقدية، يكرر المرء ويكرر أن المجتمعات الغربية هي أكبر مستودعات للتاريخ تحوي التعصب العرقي، والتمييز بين الجنسين، والتمييز ضد المحليين، وكراهية الغرباء، وكراهية الشواذ جنسيا، واللاسامية، والفاشية، والنازية. وبموجب النظرية النقدية فإن جرائم الغرب تنبع من شخصية الغرب كما شكلتها المسيحية. وأحد الأمثلة الحديثة هو "سياسات الهجوم، " حيث "البدائل" وحيث "الدكاترة الممثلون لغيرهم" لا يدافعون عن مرشحيهم، ولكنهم يهاجمون ويهاجمون ضد المعارضة. ومثال آخر من النظرية النقدية هو الهجوم الذي لا يرحم ضد البابا بيوس الثاني عشر بوصفه متواطئا في الهولوكوست أو المحرقة من، دون الاهتمام بالمجلدات التي تقدم البينات التي تظهر أن ذلك الاتهام كذبة.

وفي نهـاية المطاف تبـعث النظرية النقـدية على "التـشـاؤم الثـقـافي،" وهو إحـسـاس بالغـربة، وباللا أمل، وباليـأس بحـيث أن الشعب، وإن كـان مـرفـهـا وحـرا يتـوصـل إلى أن يرى مـجـتـمـعـه وبلده بصفته بلدا قمعياً، وشـرا، وغير مسـتحق لولائه وحبـه. لقد اعتبـر الماركسيون الجدد التشـاؤم الثقـافي شرطـا مسبقـا ضـروريا للتـغـيير الثوري.

وتحت تـأثيـر النظرية النقـدية، أقنع الكثـيـرون من جـيل الستينيات أنفسهم بأنهم كانوا يعيشون في جحيم لا يطاق، وهم كانوا أكثر جيل محظوظ في التاريخ. في كتاب تخضير أمريكا الذي سـحـر السناتور مـاكغـفـرن، والقـاضـي دوجـلاس، وواشـطنون بوست، تحـدث تشـارلز رايخ عن "جـو شـامل من العنف" في المدارس الثـانوية الأمريكية.[12] كـان هـذا قـبل ثلاثين عـامـا من كولمبـاين، ولم يكن رايخ يعني الأسلحة والسكاكين:

> الامتحان أو الاختبار هو شكل من أشكال العنف. التمارين الرياضية الإلزاميـة لمن هو مـحـرج أو خـائف هي شكل من أشكال العنف. إن المطلب الذي يقـضي بأن على الطالب أن يحـصـل على ترخـيص ليسير في الممر هو عنف. والحضور الإجباري في الفصل الدراسي، والدراسة الإجبارية في قاعة الدراسة هما عنف.[13]

إن إريك فـروم في كـتـابه الفـرار من الحـرية وويلهلم رايخ في

كتابه النفسية الجماهيرية للفاشية وكتابه الثورة الجنسية يعكسان النظرية النقدية. ولكن أكثر الكتب التي سبق أن نشرتها مدرسة فرانكفورت تأثيراً، كان هو كتاب الشخصية السلطوية. إن هذا الكتاب هو زينة المذبح لمدرسة فرانكفورت، وفيه استبدل بحتمية كارل ماركس الاقتصادية الحتمية الثقافية. فإذا كانت الأسرة مسيحية بعمق وكانت رأسمالية، ويحكمها أب سلطوي، فإن بإمكانك أن تتوقع من الأطفال أن ينشؤوا متعصبين عرقيا وفاشيين. ويصف تشالز سايكس، وهو زميل كبير في مركز ويسكونسن لبحوث السياسات، يصف كتاب الشخصية السلطوية بأنه "قرار اتهام لا يساوم للحضارة البرجوازية، مع التشويه الذي يرى أن ما كان يعتبر مجرد طراز قديم من قبل نقاد سابقين صار يصرح به الآن على أنه فاشستي ومنحاز نفسيا."[14]

وفي الوقت الذي جرم فيه ماركس الطبقة الرأسمالية، جرمت مدرسة فرانكفورت الطبقة الوسطى. أما أن الطبقة الوسطى هي التي ولدت الديمقراطية وأن بريطانيا الطبقة الوسطى كانت تقاتل هتلر عندما كان الرفاق من مدرسة فرانكفورت في موسكو يتعايشون مع هتلر فذلك لا يهم. لا، ولا يهم أن أمريكا الطبقة الوسطى هي التي أعطت أدورنو وزملاءه ملجأ آمنا عندما هربوا من النازي. الحقيقة لا تهم، لأن هؤلاء كانوا دعاة ماركسيين، وهم وحدهم كانوا يُعرِّفون الحقيقة.

بعد أن أكتشف أدورنو الأرض التي تعشش فيها الفاشية وهي الأسر الأبوية، حدد أدورنو الآن البيئة الطبيعية للفاشية وهي: الثقافة التقليدية: "إنها أطروحة معروفة جيداً وهي أن القابلية للتأثر بالفاشية ظاهرة أكثر ما تميز الطبقة الوسطى، أي - إنها في الثقافة - ومن ثم، فإن الذين ينسجمون أكثر ما يكون الانسجام مع هذه الثقافة سيكونون هم أكثر تحاملا."[١٥].

وقد كتب مرة ادموند بيرك: "إنني لا أعرف كيف أكتب اتهاما ضد شعب بأكمله."[١٦] ولكن أدورنو ومدرسة فرانكفورت، على كل حال، قد فعلوا ذلك بالضبط تماما. فهم أكدوا مباشرة أن الأفراد الذين ينشؤون في أسر يحكمها الأب، والذين هم وطنيون يلوحون بأعلام الوطنية ويتبعون دين الأيام القديمة، هم فاشيست في بداية الظهور وهم نازيون بالقوة والإمكانية. ونظرا لأن الثقافة المسيحية المحافظة تولد الفاشية، فإن الذين ينغمسون انغماسا عميقا في مثل هذه الثقافة يجب أن يراقبوا مراقبة وثيقة من أجل الاتجاهات الفاشية.

هذه الأفكار تم استدخالها إلى النفس من قبل اليسار. ومنذ وقت مبكر في الستينيات من ١٩٦٠، وُصِم المحافظون وشخصيات السلطة الذين شجبوا أو عارضوا ثورة الجامعات بشكل روتيني وصموا، بأنهم "فاشيست". كان أبناء جيل ازدهار المواليد، من دون أن يعلموا، يتبعون نصاً كان يتماشى متوازيا مع خط الحزب الذي وضعته اللجنة المركزية في موسكو في العام ١٩٤٣:

يجب على الأعضاء وعلى منظمات الجبهة باستمرار أن يحرجوا نقادنا، وأن ينزعوا الثقة منهم، وأن يقللوا من قيمتهم. وعندما يصير المعوقون مزعجين جدا يجب أن ندعوهم بالفاشيست، أو بالنازيين أو باللاساميين ... وهذا الارتباط سيصير بعد التكرار الكافي "حقيقة" في أذهان الجمهور.[17]

ومنذ الستينيات من ١٩٦٠، كان وصم الخصوم بأنهم كارهون أو بأنهم مرضى عقليا هو أفعل سلاح في ترسانة اليسار. وهذه هي "المعادلة السرية." كما وصفها عالم النفس والمؤلف توماس زاز" :إذا أردت أن تحقر ما يفعله شخص ... فسمه مريضا عقليا."[18] خلفها كلها تكمن أجندة سياسية. مجتمعنا المريض يحتاج إلى علاج ليشفيه من انحيازه الباطن. وقد كتب كريستوفر لاش وهو يقوّم دراسات في الانحياز لمدرسة فرانكفورت، والتي منها الشخصية السلطوية وهو أكثر الدراسات شهرة فقال:

إن الغرض والتصور خلف دراسات في الانحياز أملى الاستنتاج بأن الانحياز هو اضطراب نفسي متجذر في بنية الشخصية "السلطوية"، ولا يمكن أن يمحى ويزال إلا بإخضاع الشعب الأمريكي لما يرقى أن يكون علاجا نفسيا جماعيا -بمعاملتهم مثل نزلاء في مصح لغير العقلاء.[19]

هذا هو جذر "الدولة العلاجية" -وهي نظام يعاد تعريف الخطيئة فيه بصفتها مرضا، وتصير فيه الجريمة سلوكا ضد

المجتمع، ويحل فيها الطبيب النفسي محل الكاهن. فإذا كانت الفاشية، كما يقول أدورنو، موجودة "في الثقافة" فعندئذ إننا، نحن جميعا، الذين نشأنا في تلك الثقافة القديمة ثقافة الله والوطن من الأربعينيات من ١٩٤٠ ومن الخمسينيات من ١٩٥٠ نحتاج للعلاج لمساعدتنا لنقف وجها لوجه مع الانحيازات والتعصبات التي كنا منقوعين فيها منذ الولادة.

بصيرة أخرى من بصائر هورخيمر وأدورنو كانت هي إدراكهما أن الطريق إلى الهيمنة الثقافية كانت عبر التكييف النفسي، وليس الجدل الفلسفي. ويمكن تكييف أطفال أمريكا في المدارس ليرفضوا معتقدات آبائهم الاجتماعية والأخلاقية بصفتهم متعصبين عرقيا، ويميزون بين الجنسين، ويكرهون الشواذ، ويمكن تكييف الأطفال ليقبلوا الأخلاقيات الجديدة. وعلى الرغم من أن مدرسة فرانكفورت تبقى غير مألوفة لمعظم الأمريكيين، فإن أفكارها معروفة جيدا في كليات إعداد المعلمين منذ الأربعينيات من ١٩٤٠ والخمسينيات من ١٩٥٠.

وقد أكدت المدرسة بشكل جلي أن الأطفال سواء تعلموا حقائق أو مهارات في المدرسة فإن ذلك كان أقل أهمية من تخرجهم مكيفين ليظهروا المواقف الصحيحة. وعندما كتب ألان بلوم في إغلاق العقل الأمريكي أن: "خريجي المدارس الثانوية الأمريكية هم

من بين أكثر الأميين في العالم حساسية، " ويحصلون على أخفض علامات الاختبارات في الأرض في الامتحانات المقارنة، ولكنهم يحصلون على أعلى العلامات للحساسية نحو قضايا مثل البيئة، كان بلوم بذلك يشهد على نجاح مدرسة فرانكفورت"[20]. قد يعتبر الآباء أن المدارس العامة اليوم هي فشل مكلف لأن الأطفال لم يبقوا يتعلمون فيها. وبالنسبة لمدرسة فرانكفورت، فالمدارس العامة ناجحة لأن الأطفال المتخرجين منها يبدون كل المواقف الصحيحة. ولدى دخولهم الكلية فإن هؤلاء الطلاب الآن يدخلون جلسات توجيه، يعلمون فيها بالقيم الجديدة التي تقبل في الكليات الجامعية -لجعل عقولهم صحيحة، كما قال الرئيس الإداري للسجن في فيلم كول هاند لوقا.

إلى أي حد كانت الثورة الثقافية ناجحة في محو القيم القديمة وغرس قيم جديدة في أرواح الشباب؟ في الأيام التي تلت بيرل هاربر كانت صفوف المتطوعين في محطات تجنيد الأسطول والجيش والبحرية تمتد لتدور حول الموقع. وكان طلاب الكليات أيضا متمثلين في تلك الصفوف مثلما تمثل الفلاحون. ولكن في الأيام التي تلت المجزرة في مركز التجارة العالمي-وقبل أن يكون جندي أمريكي واحد قد ذهب إلى القتال أو قبل أن يطلق صاروخ كروز واحد على معسكرات إرهابيي القاعدة - كانت قد بدأت التجمعات المضادة للحرب في الحرم الجامعي الأمريكي.

ولكن أهمية المدارس في تكييف عقول الشباب قد تم تخطيها الآن بوسائل الإعلام الجديدة: التلفاز والسينما. كتب ويليم ليند، مدير مركز المحافظة الثقافية في مؤسسة الكونغرس الحر يقول:

> صناعة الترفيه ... قد امتصت امتصاصا كاملا أيدلوجية الماركسية الثقافية وهي تعظ بها بلا نهاية لا بمجرد خطب المواعظ ولكن بالأمثال أيضا: فالنساء القويات يضربن الرجال الضعفاء، والأطفال أحكم من آبائهم، ورجال الدين الفاسدون يعوقهم التائهون بمحاكاتهم، السود من الطبقة العليا يجابهون العنف من البيض من الطبقة الدنيا، اللوطيون الشجعان الذين يعيشون حياة طبيعية. إنها كلها خرافة، قلب للواقع، ولكن وسائل الترفيه جعلتها تبدو حقيقة، حقيقية أكثر من العالم الذي يوجد خلف واجهة الباب الأمامي.[٢١]

ولنقوّم كيف غيرت الثورة الثقافية الطريقة التي نفكر بها، ونعتقد بها، ونتصرف بها، قارن القيم التي عكستها وساندتها أفلام الخمسينيات من ١٩٥٠ مثل: على واجهة الماء، في الظهيرة، وشين، قارنها مع القيم التي تبنتها الأفلام الرئيسية في هذه الأيام. في احتفال جائزة الأكاديمية في العام ٢٠٠٠ كان أكثر فيلمين أحيطا بالاحترام هما الجمال الأمريكي وقواعد بيت عصير التفاح.

في الجمال الأمريكي صور النجم كيفن سبيسي الحياة في ضاحية أمريكية بصفتها أرضا يبابا أخلاقيا. والشرير عضو سابق

في المارينز يكبت رغبته اللواطية، ويجمع تذكارات نازية، ويصير مجنونا بالقتل. وفي قواعد بيت عصير التفاح، يصور مايكل كين شخصا لطيف الكلام ينادي بالإجهاض يقف بلا خوف ضد التعصب في وسط أمريكا. لقد صارت وسائل الإعلام الجماهيرية الأمريكية مدافع الحصار في الحرب الثقافية وصندوق سكنر(*) ضخما لتكييف شباب أمريكا.

في أثناء الخمسينيات، من ١٩٥٠، كانت مدرسة فرانكفورت تفتقر إلى شخصية تشيع الأفكار المدفونة في النثر الدبق، لهورخيمر وأدورنو. وهنا يدخل هيربرت ماركيوز وهو ضابط سابق في مكتب الخدمات الاستراتيجية وأستاذ في جامعة براندیس، وهو رجل لم يكن طموحه مقتصرا على أن يكون رجل فكر بل كان يود أن يكون رجل فعل ثوري. ماركيوز قدم الإجابة عن سؤال هورخيمر: من الذي سيلعب دور البروليتاريا في الثورة الثقافية القادمة؟

مرشحو ماركيوز هم: الشباب المتطرف الراديكالي، ودعاة تحرير المرأة، والسود المتعسكرون، واللواطيون، والمغتربون، واللااجتماعيون، وثوريو العالم الثالث، وكل الأصوات الغاضبة من "ضحايا" الغرب المضطهدين. هذه كانت البروليتاريا الجديدة التي

(*) صندوق سكنر: سمي باسم مخترعه بي. أف. سكنر وهو جهاز تكييف لسلوك الحيوانات الصغيرة مثل الفئران والطيور.

ستقلب الثقافة الغربية. وبين "المقموعين"، وهم المجندون المحتملون لثورته، كان غرامشي نفسه قد شمل كل "الجماعات المهمشة في التاريخ ... لا المظلومين اقتصاديا فقط بل النساء، والأقليات العرقية، والكثير من - "المجرمين" - أيضا."[٢٢] وكان تشارلز رايخ صدى لماركيوز وغرامشي: عندما قال: "إن واحدة من الطرق التي يكافح بها أبناء الجيل الجديد ليشعروا بأنفسهم بأنهم لا منتمين هي أن يتماهوا مع السود، ومع الفقراء، ومع بوني وكلايد، ومع الخاسرين لهذا العالم."[٢٣] ومن الصدف، أنه في عام ١٩٦٨ وهو العام الذي رشح فيه بوني وكلايد، وهو فيلم رومانسي عن قاتلين منحرفين جنسيا، لجائزة الأكاديمية، فإن اثنين من "خاسري" رايخ وهما سرحان سرحان وجيمس إيرل راي حققا الخلود باغتيالهما روبرت كندي والدكتور كينغ.

المجتمعات القديمة هدمت بالكلمات وبالكتب، ولكن ماركيوز اعتقد بأن الجنس والمخدرات كانا سلاحين أفعل. في كتابه الشهوة والحضارة، يحض ماركيوز على اعتناق عام لمبدأ اللذة. وقال ماركيوز: أرفض النظام الثقافي بالكلية (وكان هذا هو "الرفض العظيم" له)، ونحن نستطيع أن نخلق عالما "متعدد أشكال الشذوذ."[٢٤] وفي الوقت الذي تدفقت فيه أجيال ازدهار المواليد كالفيضان إلى الجامعات حانت لحظة ماركيوز المناسبة. واستهلكت

كتب ماركيوز. وصار شخصية شعائرية للعبادة. وعندما ثار الطلاب في باريس في العام ١٩٦٨ حملوا رايات تنادي: "ماركس، ماو، ماركيوز."

وكان الشعار الذي ألهمه ماركيوز نفسه هو "مارس الحب لا الحرب." وفي كتاب الرجل ذو البعد الواحد دعا ماركيوز إلى دكتاتورية تعليمية. وفي "التسامح القمعي" دعا إلى تسامح جديد سماه "التسامح المحرِّر" وهو الذي يستتبع "عدم التسامح مع الحركات من اليمين، والتسامح مع الحركات من اليسار."[٢٥] إن طلاب الستينيات، وهم ممتلئون بقناعة ماركيوزية، هتفوا ضد المدافعين عن جهد حرب الولايات المتحدة في فيتنام، ورحبوا بالراديكاليين الذين كانوا يلوحون بأعلام فيتكونغ. وفي بعض مواقع الحرم الجامعي، يستطيع اليوم القتلة الذين أطلق سراحهم ليحسنوا سلوكهم أن يجدوا جماهير أكثر استقبالا مما يستطيع أن يجده المحافظون. إن المعيار المزدوج الذي يغضب منه اليمين، والذي يسمح بأن يُفضح المحافظون ويُعلقوا من أجل خطاياهم التي يغفر مثلها لليسار، هو معيار "التسامح القمعي"، وهو موضوع قيد العمل. إن ماركيوز لم يخف ما أراده. ففي مجتمع الضواري كتب يقول:

> يستطيع المرء أن يتكلم بحق عن ثورة ثقافية، نظرا لأن الاحتجاج موجه نحو المؤسسة الثقافية كلها ... هناك شيء واحد نستطيع أن

نقوله بتـأكيـد كـامل. إن الفكرة التـقليـدية عن الثـورة وإن الإستراتيجية التقليدية عن الثورة قد انتهت. إن هذه الأفكار طراز قديم... وإن ما يجب أن نتولاه هو نوع من التفكيك الناشر والمبعثر للنظام"[٣٦]

إن "تفكيك النظام تفكيكاً شاملاً" لا يعني شيئا أقل من إلغاء أمـريكا. إن مـاركيـوز مـثل غـرامشي قـد تجـاوز مـاركس. إن الرؤية الماركسيـة القـديمة التي ترى العمـال وهم يثورون لقلب حكامهم الرأسماليين هي رؤية تنتمي إلى الماضي. أما اليوم، فإن هيربرت ماركيوز وفيالقه يضعون نهاية لحضارة غربية فاسدة عن طريق احتلال مؤسساتها الثقافية وتحويلها إلى وكالات لإعادة التربية والثورة. وكما كتب روجر كمبال، وهو مؤلف ومحرر، كتب في نيوكراتيريون يقول:

في سياق المجتمعات الغربية، فإن "المسيرة الطويلة عبر المؤسسات" كانت تعني - في كلمات هيربرت ماركيوز - "العمل ضد المؤسسات الراسخة في الوقت الذي يعمل في هذه المؤسسات." وبهذه الطريقة بالدرجة الرئيسية أي - بواسطة الاندساس والاختراق أكثر مما هو بواسطة المواجهة - انتصرت الأحلام المضادة للثقافة التي حلم بها راديكاليون مثل ماركيوز.[٣٧]

وبالنسبة إلى الماركسيين الثقافيين ليس هناك قضية تعلو في

مرتبتها أكثر من إزالة العائلة، فقد احتقروا العائلة بصفتها دكتاتورية وحاضنة للتمييز الجنسي ضد المرأة وللظلم الاجتماعي.

والعداء للعائلة التقليدية لم يكن جديدا على الماركسيين. ففي الأيديولوجية الألمانية كتب ماركس نفسه أن الذكور الأبويين يعتبرون الزوجات والأطفال بالدرجة الأولى ملكية لهم. وفي أصل الأسرة، والمِلْكية الخاصة، والدولة، عمم انغلز القناعة النسوية بأن كل التمييز ضد النساء يأتي من العائلة الأبوية. وحاجج إريك فروم أن الاختلافات بين الجنسين لم تكن موروثة، بل هي اختراع من قصص الثقافة الغربية. وقد صار فروم من الآباء المؤسسين لحركة التسوية الكاملة بين الجنسين. وبالنسبة إلى ويلهلم رايخ فإن "العائلة السلطوية هي الدولة السلطوية بشكل مصغر... وإن الإمبريالية العائلية ... يعاد إنتاجها في الإمبريالية القومية." وبالنسبة إلى أدورنو فإن العائلة الأبوية هي مهد الفاشية.

ولكي تقتطع مدرسة فرانكفورت رأس الأسرة والأب هو رأسها دعت إلى بدائل من الأمومة، حيث الأم هي التي تحكم الفروع، و "نظرية الخنثى، " حيث يكون دورا الذكر والأنثى في الأسرة قابلين للتبادل، بل وأن يعكسا. ولعل الأنثى الملاكمة، والنساء في القتال، والنساء بأعمال الرابي والأسقف، والله بصفته هي، وفلم جي. آي. جين لديمي مور حيث تقوم فيه سيغورني ويفر وهي تشبه رامبو

بتهدئة عسكري مرعوب وذليل في فلم الغرباء، وكل الأفلام والعروض التي تصور النساء بوصفهم خشنات وعدوانيات وتصور الرجال بوصفهم حساسين وعرضة للعطب. لعل هذه الأمثلة كلها تشهد على نجاح مدرسة فرانكفورت والثورة النسوية التي ساعدت على ولادتها كالقابلة.

ومثل لوكاش، اعتقد ويلهلم رايخ أن الطريق إلى تدمير الأسرة كان عبر سياسات جنسية ثورية وتعليم جنسي مبكر. ويدين ظهور التعليم الجنسي في المدارس الابتدائية في أمريكا إلى لوكاش، ورايخ، ومدرسة فرانكفورت.

في موت الغرب، يجب أن تعتبر مدرسة فرانكفورت بصفتها متهما أولا ومتآمرا رئيسا. إن الهجوم الدعائي على الأسرة الذي دعت إليه هذه المدرسة أسهم في انهيار الأسرة. والأسر النووية اليوم تمثل أقل من ربع بيوت الولايات المتحدة الأمريكية. وتحرير النساء من الأدوار التقليدية للزوجة والأم، وهو التحرير الذي كانت مدرسة فرانكفورت من بين أول من تبناه، قاد إلى إهانة هذه الأدوار والحط من قدرها في المجتمع الأمريكي.

إن ملايين النساء الغربيات الآن يشاركن الحركة النسوية في عدائها للزواج والأمومة. والملايين منهن تبنين جدول أعمال الحركة

وليس لديهن النية في الزواج ولا الرغبة في الأطفال. وإن اعتناقهن لمبدأ اللذة الذي جاء به ماركيوز، و مناوباتهن ودورهن في الثورة الجنسية، يعني زواجات قد تأجلت. وكما يبين الطلاق ومعدلات الولادات فان الزواجات التي دخل بها الأزواج هي زواجات أقل استقرارا وأقل ثمرة. في عملية إفراغ الأمم الأوروبية من السكان، حتى في البلاد الكاثوليكية القديمة منها، فإن استخدام موانع الحمل شامل تقريبا . إن منع الحمل، والتعقيم، والاجهاض، والقتل بحجة الرحمة بالمريض، هي الفرسان الأربعة في "ثقافة الموت" التي سوف يحمل عليها البابا حملة شعواء حتى آخر أيامه. إن حبة منع الحمل والواقي الذكري صارا بمثابة المطرقة والمنجل للثورة الثقافية.

في الخمسينيات من ١٩٥٠، هدد خروتشوف بقوله: "سوف ندفنكم." ولكننا نحن الذين دفناه. ومع ذلك، فإذا لم يجد الإنسان الغربي طريقة لوقف الانهيار في معدل الولادة فإن الثقافة الماركسية سوف تنجح حيث فشلت الماركسية السوفيتية، وذلك لأن المجلس البابوي للأسرة، في تقرير ١٩٩٨ عن إفراغ أوروبا من السكان، قد ربط التشاؤم الثقافي مباشرة بعدم الخصوبة.

> لا يمكن أن نتوقع عودة إلى معدل خصوبة أعلى في تلك البلدان التي تتنازل فيها الخصوبة في الوقت الحاضر إلا إذا كان هناك

تغيير فقط في "المزاج" في هذه البلاد، وانتقال من التشاؤم الحاضر إلى حالة ذهنية يمكن أن تقارن بعصر "ازدهار المواليد"، في أثناء عصر إعادة البناء بعد الحرب العالمية الثانية."[٢٨]

ولكن مثل هذا "التغيير في المزاج" لا يرى ولو من بعيد في القارة القديمة، حيث تستمر معدلات الولادة بالهبوط. وفي المساعدة لتقويض الأسرة وللتحريض على التشاؤم الثقافي تستطيع مدرسة فرانكفورت أن تدعي حصة من الفضل في أنها ساعدت في انتحار الغرب.

وهكذا ساعدت عصبة ضئيلة من المرتدين الماركسيين على تهديم الثقافة الأمريكية وبدأت في تفكيك جمهوريتنا. لقد كتب على شاهد قبر المهندس المعماري كريستوفر رن: "أيها القارئ، إذا كنت تبحث عن نصب تذكارية فانظر حولك."[٢٩] وهكذا يمكن القول عن لوكاش، وغرامشي، وأدورنو، وماركيوز بأنهم أربعة صنعوا ثورة.

في غضون ثلث قرن، فإن ما كان يدان بوصفه الثقافة المضادة، صار هو الثقافة المهيمنة، وما كان هو الثقافة المهيمنة صار، بتعبير جيرترود هيملفارب، هو "الثقافة المنشقة."[٣٠] لقد صارت أمريكا دولة أيديولوجية، "واستبدادية ناعمة،" حيث تفرض الأرثوذكسية الجديدة لا بعملاء الشرطة ولكن بالمحققين عن الثقافة الشعبية. ونحن نرى ذلك في المطلب الإلزامي من أجل "تدريب الحساسية"

في العسكرية، وفي العمل التجاري، وفي الحكومة. افتح التلفاز وراقب. إن قيم الثورة تهيمن على الوسيلة الإعلامية. وإن برنامج التصحيح السياسي (للعرق والجنس واللون ...) هو الذي يحكم. إن تحدي أرثوذوكسيتنا الجديدة يوصف بأنه "خطاب بغضاء،" وقلة الاحترام لعقائدها يوصف بأنه علامة على المرض العقلي. "خذ جون روكر إلى طبيب نفسي!" وقبل بضع سنوات مضت وصف مهرجٌ الجامعات الأمريكية بأنها "جزر من الشمولية في بحر من الحرية." أما الآن فحتى البحر صار غير مضياف. وقد تكلمت إيملي ديكنسون(*) عن وقتنا مثلما تكلمت عن وقتها هي عندما قالت:

وافِق - تكن أنت العاقل -
اعترض - تكن أنت الخطر فورا -
وتعالج بالسلاسل.[31]

إن التصحيح السياسي هو الثقافة الماركسية، إنه نظام لمعاقبة الانشقاق وللوصم بالعار للهرطقة الاجتماعية مثلما عاقب التحقيق الهرطقة الدينية. وعلامتها التجارية هي عدم التسامح. وبتصنيف معارضيها بصفتهم مبغضين أو مرضى عقليا يكتب الصحفي بيتر

(*) إيملي دكينسون: (١٨٣٠-١٨٨٦) شاعرة أمريكية عاشت بعزلة في بيتها في أمهيرست مساشوستس، حيث كتبت قصائدها المفعمة بالعمق العاطفي والذكاء اللماح. ولم ينشر أول ديوان من شعرها حتى ١٨٩٠.

هيتشنز في رثائه لبلاده، إلغاء بريطانيا، فيقول إن النظام الجديد يقلد طرق الاتحاد السوفيتي في معهد سيربسكي(*) الذي كان يصنف المنشقين السياسيين مثل ناتان شارانسكي بصفتهم غير عقلاء قبل أن يغلق عليهم أبواب المستشفى النفسي.[٣٢] وما يصفه الأمريكيون "بتعبيرهم العرضي ... التصحيح السياسي، " هو كما يقول هيتشنز "أكثر نظام فكري غير متسامح حكم الجزر البريطانية منذ عهد الإصلاح."[٣٣] مثلما هو الحال في الولايات المتحدة.

إن معارضة العمل الإيجابي يصف المرء بأنه عرقي. والإصرار على أن هناك أدواراً في المجتمع غير مناسبة للنساء، من مثل طيار في حاملات الطائرات البحرية، يصم المرء بأنه يميز بين الجنسين. وإذا كنت تعتقد أن الهجرة أعلى بكثير جدا من قدرة تماسكنا الاجتماعي، فإنك توصف بأنك محلي أو كاره للأجانب. في العام ١٩٧٣، رفعت الجمعية الأمريكية للطب النفسي صفة اللواطية من القوائم بوصفها اضطرابا مرضيا، وكان ذلك تحت تهديد مليشيات حقوق اللواطيين. وأي إنسان يعتبر اللواطية الآن اضطرابا مرضيا يعاني هو نفسه من مرض في الروح يدعى كراهية اللواطيين.

لقد قال البابا يوحنا بول الثاني"إن الأفعال اللواطية هي ضد قانون الطبيعة، " قال ذلك في الوقت الذي كان فيه الآلاف يسيرون

(*) معهد سيربسكي: مستشفى أمراض عقلية في موسكو.

في اليوم العالمي للاعتزاز اللواطي في روما.[24] وقال "إن الكنيسة لا تستطيع أن تُسكت الحقيقة، لأن هذا ... لن يساعد على تمييز ما هو خير مما هو شر."[25] وإعادة التأكيد هذه للتعاليم الأخلاقية الكاثولوكية تسم البابا وتسم كل الذين يقبلون هذه التعاليم بأنها صحيحة، بأنهم يكرهون اللواطيين. ويسمي العالم والمؤلف بول غوتفريد ذلك: "نزع الإنسانية عن الانشقاق."[26]

الكلمات أسلحة كما قال أورويل. وعلى التقليديين حتى الآن أن يكتشفوا إجراءات مضادة فعالة. عندما تصف عدوا بأنه عرقي أو فاشي فإنك لا تبقى محتاجا إلى أن تجيب على حججه. ويجب عليه أن يدافع عن شخصيته. وفي محكمة القانون، يكون المتهم بريئا حتى تثبت إدانته. ولكن إذا كانت التهمة هي التمييز العرقي، أو كراهية اللواطيين، أو التمييز بين الجنسين، فهناك اليوم افتراض للإدانة. والبراءة هي التي يجب أن يثبتها المتهم بدون أي شك معقول.

لقد سمع أورويل كلمة "فاشي" تستخدم مرات عديدة فافترض أنه إذا قال جونز لسميث إنه فاشي، فإن جونز كان يعني: "أنا أكره سميث!" ولكن إذا قال جونز: "أنا أكره سميث" فإنه يكون بهذا معترفا بكراهية غير مسيحية. إنه بقوله لسميث فاشي، لا يحتاج أن يشرح لماذا هو يكره سميث أو لا يستطيع أن يبذ سميث في الجدال، لقد أجبر سميث على أن يبرهن على أنه لم يكن معجبا

قريبا من أدولف هتلر. لقد كان هوي لونغ محقا، عندما تأتي الفاشية إلى أمريكا فإنها سوف تأتي باسم مناهضة الفاشية.[٣٧]

إن القول بأن لوكاش، وغرامشي، وأدورنو، وماركيوز، ومدرسة فرانكفورت كان لهم تأثير هائل على تاريخ أمريكا الثقافي والفكري هو قول لا ينكر. ولكنهم، على غير غرار البولشفيك، لم يكتسحوا القصر الشتوي، ولم يقبضوا على زمام السلطة، ولم يفرضوا أفكارهم بالقوة والرعب، ولم يكونوا عمالقة مثل ماركس الذي قدم له الرجال البيعة والطاعة. بل إن قلة حتى من الأمريكيين تعرف من كان أولئك. ما من واحد منهم، ولا حتى ماركيوز كان مثل القديس بطرس، أو لوثر، أو وزلي. لقد كانوا مثقفين مارقين وأشخاصاً غير متكيفين أخلاقيا، نعم، هذا صحيح، ولكنهم كانوا أيضا رجالا فكروا "خارج الصندوق" ووضعوا في التداول أفكارا عن الكيفية التي يمكن بها إطلاق ثورة ناجحة في الغرب، ضد الغرب. وانتصرت أفكارهم. إن نخب أمريكا، من الذين قد لا يعرفون اليوم حتى من كان مفكرو فرانكفورت أولئك، قد انجذبوا إلى أفكارهم مثلما تنجذب القطط إلى حشيشة القط.

إن الأمريكيين الذين يقبلون اليوم هذه الأفكار لا يستطيعون أن يعرفوا أنها كانت قد فرخت في حاضنة ماركسية في ألمانيا وايمار أو أنها أفكار فُكر فيها في سجن فاشستي في إيطاليا موسوليني، أو أن

غـرض هذه الأفكار كـان هدم ثقـافـتنا وقلب حـضـارتنا. ولكن هذا يستدعي السؤال: لماذا كانت أمريكا الستينيات من ١٩٦٠، إذا كانت ما تزال بلدا مغموسا في تراثها اليهودي المسيحي، وتاريخها، وتقاليدها، ومعتقداتها، لماذا كانت متقبلة لمثل جدول الأعمال الثوري هذا؟

صحيح، أن قطاعا صـغيـرا من نخبة أمـريكا، قبل وفي أثناء الكساد العظيم، صار متواطئاً في ما سماه المؤلف الفرنسي جولين بندا خيانة المثقفين.[٣٨] لقد احتقروا أمـريكا المسيحية الرأسمالية التي عاشـوا فيها. ولكن لماذا تجـذرت أفكار الخونة الثقـافيين في أمـريكا الوسط؟ لماذا اجتذبوا أتباعا بين أطفال من الجيل الأعظم الذي هزم هتلر؟ ولماذا ما يزال العديد جدا من الشباب يقبلها؟ هل كانت أمـريكا أخلاقيا شاردة في الستينيات من ١٩٦٠، تبحث عن شيء جـديد لتؤمن به، وعن طريقـة جـديدة للعـيش؟ هل كـانت أخشاب البيت القديم متعفنة؟ هل كانت الثورة حتما لا مناص منها؟ هل كـان الشبـاب والعديد من معلميهم، بكل بساطة، متعبين من متطلبات النظام الأخلاقي القديم ويتطلعون إلى طريقة ليقولوا بها وداعا لكل ذلك؟ هل جميعهم تسلقوا وَحَسْب على ظهر أول قطار جاء عبر المدينة؟

من المؤكد أن مدرسة فرانكفورت لم تكن الوحيدة في الحلم بثورة اجتماعية وفي ابتكار ثورة اجتماعية. ففي الثلاثينيات من

١٩٣٠، كان العديد من المثقفين يفكرون على الخطوط نفسها ووصلوا إلى النتائج نفسها. وفيما يلي نص من كتاب العام لجمعية التعليم الوطني في ١٩٣٧:

> لقد اغتُصب نظام المدرسة الرأسمالي والوطني الحالي في مكان واحد فقط - هو روسيا - وذلك التغيير وقع عن طريق الثورة. ومن هنا فإن شهادة التاريخ تشير على ما يبدو إلى أننا من المحتمل أن يكون علينا أن نعتمد على ثورة من أجل تغيير اجتماعي له طبيعة مهمة وبعيدة الأثر.[٣٩]

مارغريت سانغر، وهي مؤسسة الأبوة المخططة، كانت راديكالية أشهر من أي عضو في مدرسة فرانكفورت، وقد تنبأت بأفكارهم عندما قالت: "إن تنظيم النسل يستهوي الراديكالي المتقدم لأنه محسوب ليقوض سلطة الكنائس المسيحية. وأنا أتطلع إلى اليوم الذي أرى فيه الإنسانية متحررة من استبداد المسيحية تحريرا ليس بأقل من تحررها من استبداد الرأسمالية."[٤٠]

هل كانت ثورة الستينيات من ١٩٦٠ قد اكتسحت أمريكا لو أن غرامشي لم يكتب أبدا ملاحظات في السجن أولو أن أدورنو وماركيوز لم يخرجا أبدا من ألمانيا؟ هل كان لوكاش، وغرامشي، وأدورنو، وماركيوز رجالاً لا يستغنى عنهم؟ ربما لا. ولكنهم ابتدعوا الاستراتيجية والتكتيك لثورة ماركسية ناجحة في الغرب، والثقافة

التي انطلقوا لتدميرها لم تبق هي الثقافة المهيمنة في أمريكا أو في الغرب. لقد بدؤوا حياتهم بصفتهم منبوذين وقد ينتهون في الجانب الرابح من التاريخ.

لماذا نجحوا؟ إن أربعة عوامل اجتمعت معا في الستينيات من ١٩٦٠ لتخلق الكتلة الحرجة التي انفجرت مثل أداة الدكتور أوبنهايمر في صحراء نيو مكسيكو في ألاموغوردو.

العامل الأول، كان هو "الرسالة في قارورة،" كما سمى رجال مدرسة فرانكفورت أفكارهم. وفي الوقت الذي كانت فيه أفكارهم تستتبت، كان أمريكيون آخرون، اغتربوا عن المسيحية والثقافة الرأسمالية، كانوا يعملون بشكل مستقل في استراتيجيات وأفكار مشابهة لتقويض الثقافة وإزالة أمريكا القديمة التي صاروا يمقتونها. وهذه الأفكار التي غذيت لعقود من الزمن بدأت تزدهر في الستينيات من ١٩٦٠.

العامل الثاني، هو أنه كان قد وصل إلى الحرم الجامعي، ابتداء من ١٩٦٤فرقة ضخمة من الشباب الذين لم يكونوا قد عرفوا لا الصعوبات ولا الحرب. وكان لدى الثورة الثقافية الآن جمهور ضخم، وأسير لها، ومتقبل لها. وكان هؤلاء الشباب شباباً أفسدهم الدلال، وكانوا ميسوري الحال، وخالي البال، وواثقين، ومتحررين، وسئمين

وجاهزين للتمرد. ولم يكن ابتلاع السمكة الذهبية هو ما يدور في أذهان الشباب.

وكما يذكرنا العالم المحافظ روبرت نِسبت عن السأم فيقول "إنه قوة من أكثر القوى إلحاحا وشمولية [من بين] القوى التي شكلت السلوك الإنساني،" وقال إن "سلسلة علاجات أو إنهاءات السأم هي سلسلة واسعة."[41] وفي مرتبة عالية منها يأتي الجنس، والمخدرات، والثورة. في الستينيات من ١٩٦٠ واجه من دعاهم آرنولد توينبي "البروليتاريا الداخلية" من الطلاب، وهم سئمون من دراستهم، واجهوا أستاذتهم الجامعيين، وهم سئمون من موادهم وحياتهم غير المثيرة -كان مزيجا قابلا للانفجار.

العامل الثالث، وكان التلفاز في الستينيات من ١٩٦٠ يستطيع أن يوصل تكتيكات وانتصارات الراديكالين في الحرم الجامعي والثوار الحضريين فوراً إلى نظرائهم. وهذه الوسيلة، وقد نضجت الآن، لم تعد هي اقطاعية الخمسينات لهودي دودي ومات ديلون، لم تكن تستطيع فقط أن تبث الأفكار الجديدة، بل كانت تستطيع أن تعزز هذه الأفكار بخلق وقائع بصرية جديدة.

العامل الرابع، كان فيتنام وهو العنصر الذي لا غنى عنه. إذا كانت الحرب تعني التضحية، وإراقة الدماء، وربما الموت، فإن جيل وود ستوك (جيل موسيقى الروك) لم يكن ليريد أي دور فيها. وما

قدمه ماركيوز كان هو الغطاء الفكري للجبن، والمناقشة الأخلاقية لادعاء المرض، وطريقة للاحتيال للتنصل من دفعة التجنيد المسحوبة في الوقت الذي يشعر فيه بالتفوق على أولئك الذين ذهبوا إلى الحرب. "الأبطال الحقيقيون" لهذه الحرب، كما قال السناتور فولبرايت وعمدة نيويورك جون ليندسي هم في كندا. ووقعت الرسالة في آذان صاغية متقبلة في مجموعة جامعات آيفي ليغ وليس فقط هناك.

وأخيراً، فإن المؤسسة الأمريكية القديمة قد كسرت على دولاب فيتنام - وهي الحرب التي شنتها الليبرالية ولم تستطع أن تربحها- وتمزقت سلطتها الأخلاقية في عيون الشباب. وهكذا صارت الطريق إلى السلطة مفتوحة للمركب السياسي للثقافة المضادة، ولحملة ماكغفرن في العام ١٩٧٢ التي كان من بين أكثر العاملين لها حماسة الشاب بيل كلنتون، وهو الفخر والمثال الذي يحتذى لجيل وود ستوك.

ولكن كل هذا يطرح سؤالاً أكبر: هل يعتبر موت الثقافة المستندة إلى الدين أمرا لا مفر منه بعد أن يكون المجتمع قد وصل إلى مرحلة اليسر؟ وعندما تصل أمة إلى أن تقهر صعوباتها التي واجهتها في مرحلة طفولتها والصراعات التي واجهتها في مرحلة مراهقتها ورجولتها، وعندما تبدأ بإنتاج حياة من اليسر والرفاهية، هل تستسلم على نحو طبيعي لمرض في الروح يقود إلى الانحطاط

والانهيـار والموت؟ لقـد قـال أوسكار وايلد" : إن أمـريكا هي البلد الوحـيـد الذي سـار من البـربرية إلى الانحطاط بدون حـضـارة بينهما".[٤٢] هل كان لدى هذا الرجل نقطة جديرة بالاهتمام؟

يقتـرح جاك بارزن أن جيل الستينيات من ١٩٦٠ بكل بساطة استـأنف من حيث ترك جيل العشـرينيـات من ١٩٢٠. إن عـصـر الجنس، والإسراف في احتساء الخمر، والجاز قاد بشكل طبيعي إلى عـصـر الجنس، والمخـدرات، ورقص الروك أند رول. ولم ينقطع التدهور إلا بشكل وجيز فقط مع إقحام حقيقة الكساد، والحرب العالمية، والحرب الباردة. وما أن انتهت الخمسينيات من ١٩٥٠ حتى تولى جيل جـديد من حيث تـرك جـمـهور العـشـرينيـات من ١٩٢٠ الصاخبة عندما انهار السوق في العام ١٩٢٩.

ولكـن إذا كان مذهب اللذة في الستينيات من ١٩٦٠ انساب من مبدأ اللـذة في عـصـر التـحـريم، فإن هناك هذا الفرق: وهـو أن جيل العـشـرينيـات من ١٩٢٠ لم يكره أمـريكا. إن قلة من كـتـاب "الجـيل الضـائع" هربوا من البـلاد، ولكن المتـمـردين الاجـتـمـاعين من عشرينيات ١٩٢٠ لم يكونوا ثوريين.

وبعـد كل شيء، فـقـد انتـخـبـوا هـاردنغ، وكـوليـدج، وهوفـر في أعظم فـوز جـمـهوري سـاحق في الانتـخـابات في التـاريخ. والنخـبـة الفكرية في الستينيـات من ١٩٦٠ كانت مـختلفـة. وكمـا كتب إريك

هوفَر" : ليس هناك مكان في الوقت الحاضر يكره فيه المتعلمون بلادهم كراهية بلا حدود مثلما هو الحال في أمريكا."[٤٣]

بعد انهيار الإمبراطورية السوفيتية، سألت مجلة تايم: "هل يستطيع اليمين أن يبقى بعد النجاح؟"[٤٤] واقتبست مجلة تايم من عالم محافظ قوله: "إنها علامة نصر هائل بحيث أنه لا يوجد قضايا تستثير الوعي والعمل بالنسبة إلى المحافظين اليوم."[٤٥]

ورد جيمس كُوبر، محرر فصلية الفنون الأمريكية أمريكان آرتز كورترلي بقوله: "لا شيء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة. وإن مسألة أكبر تحث المحافظين، وفي الحقيقة كل الأمريكيين ... هي الواجب العظيم غير المنتهي الذي ألمح إليه الرئيس ريغان في خطابه الوداعي إلى الأمة ... وهو استعادة السيطرة على الثقافة من اليسار..."[٤٦]

وفي الوقت الذي كان فيه معظم المحافظين يقاتلون في الحرب الباردة، كانت عصبة صغيرة تمسك الجبهة المنسية، وهي حرب الثقافة. وقد ناشد كُوبر المحافظين أن يتولوا حرب الثقافة بصفتها قضيتهم الجديدة وتحدث عن الأرض التي فقدت من قبل وقال:

> منذ سبعين عاما مضت كتب الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي (١٨٩١-١٩٣٧) عن أهم مهمة تنتظر الاشتراكيين وهي "الاستيلاء على الثقافة." ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، كان اليسار

الليبرالي قد نجح في الاستيلاء لا على الفنون، والمسرح، والأدب والموسيقى، والباليه، فقط بل استولى أيضا على السينما، والتصوير، والتعليم، ووسائل الإعلام.

ومن خلال سيطرة اليسار على الثقافة، فإنه لا يملي الأجوبة فقط، بل يملي الأسئلة المطروحة أيضا. وباختصار، فإن اليسار يسيطر على الجهاز الكوني الذي يفهم به معظم الأمريكيين أو الأمريكي معنى الأحداث.

هذا الكون يعتمد على مفهومين كبيرين: الأول هو أنه ليس هنالك قيم مطلقة في الكون، ولا معايير للجمال والقبح، والخير والشر. والثاني هو أن اليسار - في عالم بلا إله - يمسك بالتفوق الأخلاقي بصفته الحكم النهائي لنشاطات الإنسان.[٤٧]

ولكن المحافظين أهملوا صرخة كُوبر. وبدلا من ذلك قاتلوا ضد التأمين الصحي الوطني ومن أجل اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا) ومنظمة التجارة العالمية. وقال صاميويل ليبمان، ناشر نيو كرايتيريون: "إن اليمين قد صوت بأقدامه."[٤٨] وأضاف كُوبر: "إن المحافظين عادوا إلى جمع المال واستراتيجيات الحرب الباردة، وأقاموا وصححوا منقوشاتهم من أعمال جورج ستبس عن الخيول الإنجليزية المطهمة على جدران مكاتبهم، ونسوا المسألة كلها. فبعد كل شيء، عللوا انصرافهم بالسؤال ما هي أهمية الثقافة على أي حال؟"[٤٩]

"حيثما تكن محفظة الإنسان فهناك سيكون قلبه أيضا." فقلوب العديدين في اليمين هي في تقليل معدلات الضريبة الهامشية واستئصال ضريبة ربح رأس المال. وهذه قضايا جيدة بالتأكيد. ولكن ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم كله وعانى فقدان بلاده؟ هل ارتفاع الناتج المحلي الإجمالي بمعدل ٢ أو ٣ أو ٤ ٪ بالمائة هو على نفس الدرجة من الأهمية مقد قدرة الحضارة الغربية على الصمود وعلى أن نبقى أمة واحدة تحت رعاية الله وشعبا واحدا؟ مع انهيار معدل الولادات، ومع الحدود المفتوحة، ومع انتصار التعددية الثقافية المناوئة للغرب، فإن موضع الخلاف اليوم هو بقاء أمريكا بصفتها أمة منفصلة، وفريدة، وبقاء الحضارة الغربية نفسها - والعديد جدا من المحافظين قد ذهبوا غائبين بلا إجازة في القتال العظيم الأخير في حياتنا.

إذن دعونا ننظر ماذا ستعني مسيرة موت الغرب، لا في القرون المستقبلية فقط، بل في هذا القرن أيضا، ولا لأطفال أطفالنا فقط، بل للجيل الصاعد اليوم أيضا.

الفصل الخامس

الهجرات الكبيرة القادمة

فن التنبؤ صعب جدا، خصوصا ما يتصل منه بالمستقبل .[١]

مارك توين

في العهدين القديم والحديث حكايات كثيرة، تروى لإعطاء الموعظة، في بيان الكيفية التي فقد فيها الأوائلُ في الولادة أو المختارون الأُول، أماكنهم في بيوت آبائهم. فعيسو الجائع يبيع حقه، الناتج عن انه المولود الأول، إلى أخيه يعقوب مقابل وجبة من الحساء. وفي إنجيل ماثيو ٢٢ يقارن عيسى (عليه السلام) جنة السماء بوليمة عرس يعدها ملك لابنه. وعندما رفض الضيوف المدعوون بغلظة دعوة الملك، أرسل خدمه إلى الطرقات العامة والفرعية لإحضار الغرباء إلى بيته للاحتفال بزواج ابنه.

وفي الوقت الذي بدأت تموت فيه الشعوب الغربية، فإن الغرف الفارغة في بيت الغرب لن تبقى فارغة لمدة طويلة. في أمريكا، مُلئت الأماكن التي أعدت لأربعين مليون نسمة لم يولدوا، وفُقدوا منذ قضية رو ضد ويد، ملئت بالفقراء المتنين من آسيا وأفريقيا

وأمـريكا اللاتينيـة. وفي الوقت الذي يتـخلى فـيـه الأوروبيـون عن الأطفـال، فـإن الأمـاكن التي أعـدت لهؤلاء الأطفـال، أيضـا، سـوف يشغلها الغرباء.

دعونا نزر ثانية إحصـاءات الأمم المتحدة عن إفراغ أوروبا من السكان. في العـام ٢٠٠٠ كان هناك (٤٩٤) أربعمـائة وأربعة وتسعون مليون أوروبي بأعمار من خمسة عشر عـامـا إلى خـمسـة وسـتين عـامـا. هذا الرقم سوف يغطس لينزل إلى (٣٦٥) ثلاثمائة وخمسة وسـتين مليـون نسـمـة مع حلول العـام ٢٠٥٠ . ولكن (١٠٧) المائة وسبعـة الملايين من الأوروبيين الذين تبلغ أعمارهم فوق الخـامسـة والستين اليوم سوف يُحلق عددهم إلى (١٧٢) مائة واثنين وسبعين مليونا. وفي غضون خمسين عـامـا، فـإن نسبـة الأوروبيين الشبـاب ومتوسطي الأعـمار إلى الشيوخ المسنين سـوف تهبط من خمسة لواحد إلى أن تكون اثنان لواحد.[٢] ومع انسحـاق دول الرفـاهيـة في أوروبا من قبل الآن تحت عبء البرامج الاجتمـاعيـة، فمن ذا الذي سيـدفع للصحـة، وللرعـاية، وللتقـاعديات لكبـار السن؟ ومن الذي سيعتني بالمسنين في مراكز التقاعد وبيوت التمريض؟ ومع هبوط عدد الأطفال بأسرع من هبوط عدد الذين هم في عمر العمل، فمن الذي سـوف يحش المروج، وينظف المباني، ويغسل الصحون، ويعد الطعـام في مطاعم أوروبا ويقـدمـه؟ ومن أين سـتـأتي مـربيـات الأطفال؟ ومع سكان عاملين أقل بنسبة خمسة وعشرين بالمائة ومع

سكان مسنين أكبر بنسبة تسعين بالمائة، من أين ستأتي الممرضات الجديدات والأطباء الجدد للعناية بهؤلاء المسنين؟

مع حلول العام ٢٠٥٠ سيكون ثلث شعب أوروبا فوق عمر الستين. وفي المملكة المتحدة، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا سيكون واحد من كل عشرة فوق سن الثمانين [٤٢] وسيكون العمر المتوسط للأوروبي خمسين عاما، أي أعلى بتسع سنوات فوق العمر المتوسط لأسن أمة على الأرض اليوم وهي اليابان . في كتاب الفجر الأشيب: كيف ستحول موجة العمر القادمة أمريكا والعالم، كتب وزير التجارة السابق بيت بيترسون يقول:

> في غضون الثلاثين سنة القادمة، توحي التوقعات الرسمية بأنه سوف يتوجب على الحكومات في معظم أكثر الدول تقدماً أن تصرف على الأقل نسبة (٩٪) تسعة بالمائة إلى (١٦٪) ستة عشر بالمائة إضافية من الناتج المحلي الإجمالي سنويا لتفي ببساطة بوعودها بالمزايا الموعودة لكبار السن. وإن دفع هذه التكاليف، من خلال فرض الضرائب الزائدة، سوف يرفع عبء الضريبة الإجمالية بنسبة إضافية لا يتصورها الفكر تصل إلى نسبة ٢٥٪ - ٤٠٪ بالمائة من كل الأجور القابلة لفرض الضريبة من كل عامل ـوهذا في بلاد تتجاوز فيها من قبل الآن معدلات الضريبة الإجمالية على المرتب في الغالب نسبة (٤٠٪) أربعين بالمائة. أما إذا لجأنا إلى الصرف بوجود العجز المالي، فإنه سيكون

علينا أن نستهلك كل المدخرات والمزيد من مجمل مدخرات العالم المتقدم.[4]

هذا هو المعادل المالي لشتاء نووي. وإذا كانت أوروبا ترغب في استبقاء شبكة سلامتها الاجتماعية، فهناك ثلاثة خيارات: يجب الحصول على تريليونات من الدولارات في إيرادات الضريبة الجديدة، أو يجب على النساء الأوروبيات أن يبدأن بحمل الأطفال بضعفين أو بثلاثة أضعاف من حملهن السابق، أو يجب على أوروبا أن تستورد ملايين من العمال في كل عام. هذه هي الخيارات القاسية التي تواجه القارة القديمة.

ومع ذلك، وكما يلاحظ يوسف الشامي من وكالة السكان في الأمم المتحدة، "فليس هناك من علماء السكان من يعتقدون بأن معدلات الولادة سوف تقفز إلى الأعلى. كم سيستغرق من الوقت إقناع امرأة أن يكون لديها أربعة أطفال؟ إن الناس مهتمون بمظهرهم، وتعليمهم، ومساراتهم الوظيفية."[5] إن معدل الولادة في أوروبا ما يزال يهبط طوال عقود. وليس الأمر ضربة حظ. ومعدل الولادة الذي يقع تحت مستويات استبدال السكان هو معدل شائع في كل أمة في أوروبا باستثناء البانيا، وهي بلد مسلم.

وليست هذه المسألة مسألة مؤامرة بل هي مسألة إجماع، من الاختيار الحر. فالنساء الأوروبيات قررن أنهن يردن طفلا أو

طفلين، أو لا يردن أي طفل، ويملكن الوسائل لتحقيق هذه الخيارات وهي مانع الحمل، والتعقيم، والإجهاض .ـوتنظر النساء الأوروبيات إلى هذه الرغبات الشخصية على أنها أكثر إلزاما بكثير من الدراسات السكانية التي تصف الحال التي ستكون عليها أوروبا عندما يكُنّ بعمر السبعين أو الثمانين أو بعد أن يقضين نحبهن.

ويكتب جوناثان ستيل من الغارديان فيقول: إن " قرارا ضخما" يواجه أوروبا، " إذا ما كان ينبغي لمستويات المعيشة ألا تهبط، قد يتوجب على بلاد الاتحاد الأوروبي أن تسمح بزيادة (٦٠) ستين ضعفا في الهجرة، وهذا ما يغذي احتجاجات الجناح اليمين ويتسبب في إلحاق ضرر إضافي لعلاقات المنطقة العرقية الهشة . هذا هو رأي خبراء السكان المعتبر وهم يتفحصون حقيقة سكان أوروبا المتقدمين في السن."[٦]

الهجرة الضخمة قد بدأت من قبل الآن. ففي عام ٢٠٠٠ أخذت إنكلترا "١٨٥,٠٠٠" مائة وخمسة وثمانين ألف مهاجر، وهو رقم قياسي.[٧] وفي العام ١٩٩٩ تسلل (٥٠٠,٠٠٠) خمسمائة ألف أجنبي بصورة غير شرعية إلى الاتحاد الأوروبي، وهي زيادة بعشرة أضعاف عن العام ١٩٩٣.[٨] وفي شهر أيار مايو ٢٠٠١ كتبت الواشنطن بوست تقول:

منذ عام فقط، كانت اكتشافات سفن غارقة مكتظة بالحمولة البشرية التي تبلغ (٥٠٠) خمسمائة إلى (١٠٠٠) ألف من الناس

أمرا جديدا وكان يولد عناوين رئيسية وغضبا عبر أوروبا . ولكنها الآن صارت أمرا معتادا في المياه الواقعة بين تركيا والمواقع المقصودة في اليونان، وإيطاليا، وبعيدا إلى الشمال حتى الريفيرا الفرنسية.[٩]

رواية معسكر القديسين لجان راسبيل في العام ١٩٧٢ تدور حول غزو لفرنسا يقوم به أسطول ضخم من المعوزين من العالم الثالث، وأوروبا التي شلتها فلسفة المساواة والتحررية الليبرالية تكون عاجزة عن المقاومة، يبدو أنها رواية حملت نبوءة. لقد بدأ التاريخ يقلد الفن.

تبدو أوربا عاجزة عن إيقاف هذه الملايين عن المجيء وتولي الأعمال الشاغرة في الوقت الذي يموت فيه جيل الحرب. وفي الحقيقة، فإن أرباب العمل سوف يطلبون إحضار هؤلاء الملايين وإدخالهم البلاد . ومثل ذلك ستفعل الملايين المتنامية من الشيوخ وكبار السن. ومع تدفق الملايين إلى أوروبا من شمال أفريقيا ومن الشرق الأوسط، فإنهم سيجلبون معهم ثقافتهم العربية والإسلامية، وتقاليدهم، وولاءاتهم، وإيمانهم، وسيخلقون نسخة مكررة من أوطانهم في الأرض القلب من الغرب. هل سيندمجون، أم أنهم سيبقون بصفتهم أجزاء لا تهضم من أفريقيا ومن البلاد العربية في المعسكر القاعدة لما كان يوما أرض النصرانية؟ تمعن بالأرقام .

في الوقت الذي تنكمش فيه أعداد السكان في البرتغال، وإسبانيا، وفرنسا، وإيطاليا، واليونان جميعا، نجد على الشاطئ الآخر من البحر الداخلي (المتوسط) أن عدد السكان في المغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر سوف ينفجر بثلاثة وسبعين مليون نسمة في خمسة وعشرين عاما. ففي العام ١٩٨٢، عندما كان المؤلف في القاهرة، كان هناك أربعة وأربعون مليون مصري. وبحلول العام ١٩٩٨ كان هناك أربعة وستون مليون مصري. وعندما يحل العام ٢٠٢٥ ينتظر أن يصل عدد سكان مصر إلى ستة وتسعين مليون نسمة. في القرن التاسع عشر غزت أوروبا أفريقيا واستعمرتها. وفي القرن الحادي والعشرين، تغزو أفريقيا أوروبا وتستعمرها. ويكتب نيقولاس أبرستادت، وهو خبير السكان في معهد المشروع الأمريكي ويقول: "في العام ١٩٩٥ كانت أعداد السكان حسب التقديرات في أوروبا (بما فيها روسيا) وأعداد السكان في أفريقيا متساوية بالضبط تقريبا. وعندما سيحل العام ٢٠٥٠، ووفق هذه التقديرات، سيفوق الأفارقة بأعدادهم الأوروبيين بنسبة أكثر من ٣ إلى ١."[١٠] إن وباء الإيدز فقط هو الذي يقف في الطريق ويمنع الشعوب الأفريقية من إلقاء ظلالها على أوروبا واكتساحها في نهاية المطاف.

الأمم الأوروبية متجانسة، وهي في هذا على النقيض من أمريكا. فليس لدى أوروبا تاريخ يرحب بالأغراب أو تاريخ في إدماج المهاجرين. وهذه الشعوب التي تختلف ألوانها، ومعتقداتها، وثقافتها سوف تصل كذلك إلى أوروبا في الوقت الذي تتهاوى فيه الدولة ـ الأمة فيها. ومنذ العام ١٩٩٠، تفتتت ثلاث أمم أوروبية هي ـ الاتحاد السوفيتي، وتشيكوسلوفاكيا، ويوغوسلافيا ـ إلى إحدى وعشرين أمة. وقد تولد قريبا أمتان أخريان هما كوسوفو والجبل الأسود. والحركات الانفصالية حية في روسيا، ومقدونيا، وإيطاليا، وكورسيكا، وبلاد الباسك من إسبانيا، وفي سكوتلندا، وويلز، وبافاريا، ومنطقة سكين في السويد. وفي بلجيكا يشتعل النزاع القديم في اللغة والثقافة بين الفلمنغ والوالون.

ولاحظت الغارديان اللندنية بجفاف في عدد شهر تشرين أول (أكتوبر) من عام ٢٠٠٠[١١] فقالت "في أوروبا، التي يعود تاريخ سكانها الأصليين البيض إلى ما قبل (٤٠,٠٠٠) أربعين ألف عام، لن يلقى تصاعد الأكثرية غير البيضاء الترحيب والتحية ... برباطة الجأش." وأعمال الشغب العرقية التي حدثت في الربيع في أولدمان وليدز بين سكان من جنوب آسيا وبين سكان بيض تؤكد وجهة نظر الغارديان. لقد ظهرت أحزاب مناوئة للهجرة ومنها ـ الجبهة القومية بقيادة جان ـ ماري لوبن في فرنسا، وحزب الحرية بقيادة خورخي هيدر في النمسا، وحزب الشعب السويسري بقيادة

كريستوف بلوخر. وفي الوقت الذي تتصاعد فيه أمواج الهجرة من الأمم الإسلامية من شمال أفريقيا ومن الشرق الأوسط ومن الأمم السوداء في جنوب الصحراء، وتصل الأمواج إلى ذؤابتها وتتكسر إلى أوروبا، ستصبح مسألة الهجرة أكثر تفجراً مما سبق. الأحزاب الكبرى سوف تمسك بالمسألة من الأحزاب الصغرى، أو أن الأحزاب الصغرى ستصبح هي الأحزاب الكبرى.

يبدو منذ ما قبل الآن، أن قائدة الحزب الألماني المسيحي الديمقراطي أنجيلا ميركل تتحرك لاستغلال ردود الفعل الصادرة ضد الهجرة الإسلامية. وتكتب نيويورك تايمز وتقول: "فكرة ألمانيا الموحدة بصفتها مجتمعا متعدد الثقافة من حوالي(٨٠) ثمانين مليون نسمة تقريبا مع أكثر من (٧) سبعة ملايين نسمة ولدوا أجانباً تبدو فكرة تزعج [السيدة ميركل]، فليس هناك أمة أخرى في أوروبا لديها مثل هذا العدد من الأجانب."[١٢]

السيدة ميركل مزعوجة من طلبات الولايات المتجددة بأن تدخل تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، وذلك لأن عضويتها في الاتحاد سوف تمنح الأتراك الحق في التحرك بحرية عبر أوروبا. وقد أخبرت ميركل روجر كوهين من التايمز وقالت: "حوالي نسبة (٧٥٪) خمسة وسبعين بالمائة من الأتراك في العالم ممن يعيشون خارج تركيا موجودون في ألمانيا."

لا نقول إن عليهم ألا يكونوا مسلمين . ولكننا نقول فعلاً إننا بلد له خلفية مسيحية، ويجب على الأتراك أن يفهموا هذا ... إن دعوة تركيا لتكون مرشحة لعضوية الاتحاد الأوروبي كانت غلطة . هناك اختلافات في القيم. فنحن لا نملك الفهم نفسه لحقوق الإنسان . حاول أن تفتح كنيسة في إستانبول.[١٣]

أمم أوروبا صغيرة، ومكتظة بالسكان، وليس لديها خبرة لتكون "بوتقات انصهار." وهكذا، يبدو أن نخبهم الحاكمة أكثر تنبها، وأكثر توجسا، وأصعب عريكة بشأن المخاطر الاجتماعية للهجرة الكبيرة مما عليه الأمريكيون. ولكن هذه الأمم نفسها، ونخبهم الحاكمة متأخرون، بل متأخرون جدا، في الصحوة على الخطر السكاني الذي يتمثل بالسكان الذين يموتون.

بناء الكارثة النهائية (CATASTROIKA)(*)

ما من أمة سوف تتأثر تأثراً مؤذيا من جراء انهيار معدل الولادة فيها أكثر من روسيا . ويتوقع أن عدد سكانها سيهبط من (١٤٧) مائة وسبعة وأربعين مليون نسمة إلى (١١٤) مائة وأربعة عشر مليون نسمة مع حلول العام ٢٠٥٠ . وفي الوقت الذي يموت فيه الروس،

(*) كلمة منحوتة من Catastrophe بمعنى الكارثة والمأساة النهائية + Stroika من اللغة الروسية بمعنى Structure أي بناء.

فإن الصين، حتى وهي تحت سياسة «زوجان وطفل واحد»، تتوقع أن يزيد سكانها (٢٥٠) مائتين وخمسين مليون نسمة مع حلول العام ٢٠٢٥. وهؤلاء لن يقيموا في الوطن. وعدد الرجال الصينيين من قبل الآن يفوق عدد النساء المتوفرات للزواج بأكثر من (٤٠) أربعين مليون رجل. فإذا كانت روسيا الأم عصبية، فهذا ما ينبغي لها أن تكون عليه. وذلك لأن روسيا حتى بعد أن تفتت الاتحاد السوفييتي تملك أرضا تساوي ضعفي ما تملكه الصين.

ثلاثة أرباع كتلة الأرض الضخمة الروسية تقع شرق الأورال، ولكن (٨) ثمانية ملايين نسمة فقط من الروس يعيشون في المساحات الشاسعة التي لا مسالك فيها من روسيا الشرق الأقصى، السكان فيها أقل من السكان الموجودين في جمهورية التشيك. ولكن إلى جنوبهم يعيش (١,٢٥) بليون وربع بليون نسمة من الصينيين، مع توقع أن يولد (٢٥٠) مائتان وخمسون مليون آخرون على الطريق. هذه الحفنة النسبية من الروس يشغلون النصف الشمالي من أوسع قارة على الأرض، يشغلون كتلة من الأرض أكبر من الولايات المتحدة، ومملوءة بأكثر موارد العالم حيوية وأكثرها طلبا وهي: الخشب، والزيت، والذهب.

ويكتب الصحفي البريطاني جون أوماهوني[١٤] ويقول: "إن روسيا تنزف إنسانية بمعدل غير مسبوق لأمة حديثة، وصناعية

وغـيــر مــعــهــودة إلا فــي أوقــات المجــاعــة والحــرب." وكــان هذا الصحفي في شتاء العام ٢٠٠١ قد سافر إلى الشرق الأقصى وشبه جـزيرة كـامتشـاتكا، وعـاد بقصـة مروعـة من اليـأس والموت. فمن قبل سقوط الشيوعية، كانت عاصمة كامتشاتكا قد فقدت ربع سكانها. وفي المناطق القريبة، يكاد الموت الحقيقي للمجتمع المتمدن يكون وشيكا:

> على كل حال، فإن التدهور في السكان كان على أشده في الأطراف الواسعة المكشوفة والمعرضة للخطر من الأراضي الروسية. وربما كان المثل المذهل أكثر من غيره هوتشوكوتكا، فإن قطعة ضخمة من الشرق الأقصى تبلغ من حيث الحجم ثلاثة أضعاف بريطانيا، وفيها ذوى عدد السكان بنسبة مذهلة تصل إلى (٦٠٪) ستين بالمائة، وهبط العدد من (١٨٠,٠٠٠) مائة وثمانين ألف نسمة في العام ١٩٩٠ إلى مجرد (٦٥,٠٠٠) خمسة وستين ألف نسمة اليوم، وهو رقم من المتوقع أن يهبط إلى (٢٠,٠٠٠) عشرين ألف نسمة فقط في غضون السنوات الخمس القادمة، وهو أمر إذا حدث يجعل البنية التحتية للمنطقة غير قابل للإدامة.[١٥]

كـانت الصين منذ زمن طويل تتطلع إلى شرائح من سيبيريا بصفتها "الأراضي المفقودة"، المسروقة في القرن التاسع عشر عندما كانت الصين ضعيفة ومضطربة بالثورة وتفترسها القوى الاستعمارية الغربية. وفي أثناء ثورة تيبنغ التي حصدت حياة خمسة

وعشرين مليون نسمة، غبن عملاء القيصر إمبراطورية تشي انغ وأخذوا (٣٥٠,٠٠٠) ثلاثمائة وخمسين ألف ميل مربع شمال آمور وبين يوسوري والبحر. وهذه الأرض، هي الآن المقاطعة البحرية لسيبيريا، وتساوي من حيث الحجم ضعف كاليفورنيا، وتتوضع حول منشوريا مثل يد كالفنجان. و فلاديفوستوك، وهي ميناء روسيا على بحر اليابان، والقاعدة البحرية لأسطول المحيط الهادئ، كانت قد تأسست في العام ١٨٦٠ على الأرض التي كانت ملكيتها للصين حتى تلك الحرب. وبما أنه كان على روسيا أن تسلم كل الأراضي التي أخذتها من القازاق، والقيرغيز، والأزبك، والطاجيك، والتركمان، فإن الأراضي التي أخذت من الصين سوف تُطلب ثانية أيضا.

في الشهور الأولى من حكم الرئيس نيكسون في العام ١٩٦٩، اصطدمت القوات الصينية والروسية على طول جبهة آمور. يوسوري. ومع أنه يوجد الآن تفاهم بين بكين وموسكو، فإن الصينيين لم ينسوا ذلك. قبل منتصف هذا القرن، ستحاول بكين على الأرجح أن تستعيد هذه الأراضي، ويمكن أن يكون جيران آلاسكا عبر مضيق برينغ روادا صينيين شبابا قساة، أكثر من كونهم روسا مسنين. ومن قبل الآن، يتحرك المستوطنون الصينيون إلى الأرض الروسية، بالضبط مثلما تحرك الأمريكيون ذات مرة في السابق إلى المقاطعة الشمالية من المكسيك من تكساس قبل اقتطاعها.

وتكتب الفاينتشال تايمز فتقول: "يقلق الروس في الشرق الأقصى بشأن الصين إلى درجة جنون العظمة، وقد وجد استطلاع للرأي أجري في العام (٢٠٠٠) في بريموريف، وهي المنطقة المحيطة بفلاديفوستوك، إلى الجنوب من خاباروفسك، وجد أن نسبة (٧٤٪) أربعة وسبعين بالمائة من السكان توقع أن الصين ستلحق بها كل أو بعض منطقتهم "على المدى ا لبعيد"».[١٦]

ويأتي التهديد الآخر لروسيا من الجمهوريات السوفييتية السابقة إلى جنوبها وهي ـ كازاخستان، وأوزبكستان، وطاجكستان، وقرغيزستان، وتركمانستان. ودعونا نضفْ أفغانستان إليها، حيث وجه الثوار الإسلاميون فيها ضربة قاضية للإمبراطورية السوفييتية. وتسعى موسكو لإعادة توكيد سلطتها في هذه المنطقة التي تسميها "الخارج القريب، " لها، ولكن الروس هم أوروبيون تاريخيا ومسيحيون أرثوذكس، بينما هذه الشعوب آسيوية وإسلامية، وتتذمر بمرارة لأنها أخضعت للاستعمار وأُخضعت للشيوعية. ويبدو أن احتمال أن تندفع روسيا جنوبا لمعاودة السيطرة على هذه البلاد أقل من احتمال أن يأتي المهاجرون المسلمون شمالا، ربما، مع محاربين مسلمين لانتزاع قطع من روسيا من مثل الشيشان. وحليف روسيا في القوقاز، وهي أرمينيا، وهي أمة مسيحية أخرى، قد التحقت بروسيا، ولاتفيا، وبلغاريا، وإسبانيا من بين الأمم التي لديها أخفض معدلات الخصوبة على الأرض. أرمينيا أيضا بدأت تموت.

بحلول العام ٢٠٢٥ سوف يقترب سكان إيران من سكان روسيا.
ومن قبل الآن، كان الإيرانيون يهددون الجمهورية السوفييتية السابقة في أذربيجان. ويبدو تراجع موسكو من آسيا تراجعا لا معدى عنه في الوقت الذي يعتدي فيه الصينيون والمسلمون على بلاد سيطر عليها سابقا القياصرة والمفوضون. إن أكاديمية العلوم الروسية، وهي تمعن النظر في هذه التوقعات السكانية، قد صاغت تعبيرا جديدا هو بناء الكارثة النهائية[١٧] (كاتاستروبكا) ويفهم العلماء أن السكان هم المصير المقدر لكل مجتمع. وفي الوقت الذي ينكمش فيه سكان روسيا، أمعن النظر فيما سيحدث في مكان آخر في آسيا الوسطى.

آسيا الوسطى

(مليون نسمة)

	٢٠٠٠	٢٠٢٥
أفغانستان	٢٢,٧	٤٤,٩
كازاخستان	١٦,٢	١٧,٧
أوزبكستان	٢٤,٣	٣٣,٤
قرغيزستان	٤,٧	٦,١
طاجكستان	٦,٢	٨,٩
تركمانستان	٤,٥	٦,٣
	٧٨,٦	١٧٧,٣

وسكان هذه البلاد الستة يعادلون نصف سكان روسيا اليوم، فإنهم في غضون خمسة وعشرين سنة سيكونون تقريبا بعدد سكان روسيا، وسيكون الروس أسن وأشيب وستكون هذه الشعوب الإسلامية أفتى وأكثر فحولة.

في القرن التاسع عشر ضغطت روسيا الشاسعة، والقوية، والمكتظة بالسكان ضغطت فوق ما سماه القياصرة "رجل أوروبا المريض،" أي الإمبراطورية العثمانية. وبالتوقعات الحالية، فإن عدد السكان في تركيا وعددهم في روسيا سيكونان متقابلين في العام ٢٠٥٠. وبحلول العام ٢١٠٠ سيكون هناك ثمانون مليون روسي فقط. فمن الذي سيكون " رجل أوروبا المريض" عندئذ؟ ومن الذي سيكون الضاري المفترس ومن الذي سيكون الفريسة؟

قبل ذلك الوقت بكثير، كما يقول أناتولي انطونوف، رئيس قسم علم الاجتماع العائلي في الجامعة الحكومية في موسكو، ستقع أزمة: "هذه هي أزمة كل الحضارات الغربية. لماذا نشعر بالسعادة بدون أن يكون عندنا أطفال؟"[١٨] ويود أنطونوف من الحكومة أن تستخدم وسائل الإعلام لترفع من شأن صورة العائلة. فإذا لم يتصرف الرجال والنساء الروس في الحال لزيادة السكان، فإن أنطونوف يخشى من أن المتطرفين يستطيعون استلام السلطة باسم بقاء الشعب الروسي. ويحذر انطونوف فيقول: "إذا لم يتم عكس

التوجه نحو انهيار عدد السكان فإننا سنحصل على دولة فاشية.[190]

إذا كانت روسيا تستطيع أن تضع الحرب الباردة وتضع تذمرها من خسارة مكانة القوة العظمى خلفها، فإن موسكو سترى عندئذ في أمريكا حليفا طبيعيا في صيانة وحدتها، وكرامتها، واستقلالها. وينبغي أن يدرك الأمريكان أن الروس سيكونون في أي "صدام للحضارات" هم الذين سيزودون بالرجال الجبهات الشرقية والجنوبية الشرقية للأرض القلب من الغرب.

وبخصوص أوكرانيا، وهي ثاني جمهورية سابقة للسوفييت من جهة الاكتظاظ بالسكان، فإن الأمم المتحدة تتوقع خسارة في السكان تبلغ نسبة (٤٠٪) أربعين بالمائة، وهو الأمر الذي يخفض عدد الأوكرانيين من خمسين مليون نسمة اليوم إلى أقل من ثلاثين مليون نسمة في العام ٢٠٥٠. وهذا توقع متفائل، يقوم على ارتفاع مهم في معدل الخصوبة في أوكرانيا من ١,٢٦ من الأطفال لكل امرأة اليوم إلى ١,٧٠.

لمن يُقرع الجرس

من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، استعمرت الأمم الغربية العظمى معظم العالم. فابتداء من العام ١٧٥٤ عبر الأمريكيون سلسلة جبال أليغينيز ودفعوا الفرنسيين، وبعد ذلك دفعوا الأسبان خارج قارتهم، وابتلعوا نصف المكسيك، وزربوا الهنود الذين بقوا على قيد الحياة في محميات، واندفعوا فوق جبال الروكي إلى المحيط الهادئ، ووثبوا إلى هاواي، ومدواي، وغوام، والفليبين. وفي الجهة الأخرى من العالم، كان الروس تحت حكم آل رومانوف قد سيطروا على كل الأراضي الواقعة من القطب إلى أفغانستان، ومن بروسيا إلى المحيط الهادئ، ونزولا إلى اليد الممدودة لألاسكا إلى مدينة سيتكا. وبقيادة البريطانيين، كانت الأمم الأوروبية تغزو وتستعمر أفريقيا، وجنوب آسيا، وجنوب شرقها، وتؤسس مناطق مغلقة على ساحل الصين التي كانت بلدا مغلوبا على أمره.

أشرطة التاريخ الآن تسير في عكس الاتجاه السابق. والتراجع الكبير من الغرب، الذي بدأ مع انهيار إمبراطوريات أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، يصل ذروته في هذا القرن، في الوقت الذي تكر فيه الموجة الإسلامية الثانية الكبرى منسابة إلى أوروبا، وفي الوقت الذي يعاود فيه سكان آسيا الوسطى والصين ادعاءهم

لاستعادة ما كان قد أخذه القياصرة منهم في القرون الماضية. وبحلول العام ٢٠٥٠، ستكون روسيا قد فقدت قطعا من سيبيريا وستكون قد أُخرجت من القوقاز وأعيدت خلف الأورال إلى أوروبا. وقد كتب الشاعر دون يقول: "إذا امّحت كتلة من الطين بفعل البحر، فإن أوروبا تكون أقل، بمثل ما لو أن رأسا من البر في البحر امّحى، وبمثل ما لو أن ضيعة من ضياع صديقك أو من ضياعك الخاصة امّحت ... لذلك لا ترسل لتعرف لمن يُقرع الجرس، إن الجرس يُقرع لك."

إيران والخليج

في الاندفاع إلى عاصفة الصحراء، حاجج المؤلف ضد حرب الخليج وفق ما يلي: إن نصرا أمريكيا سيترك لنا واجبات إمبريالية لن يستطيع الأمريكيون الإبقاء عليها إلى أجل غير محدد. وإمارة الكويت لم تكن أمة قابلة للحياة، ولم تكن لتستطيع البقاء بدون حام قوي. ولكن الأمريكيين سوف يتعبون في نهاية الأمر ويعودون إلى وطنهم، مثلما عاد البريطانيون إلى بلادهم، وسوف تستوعب الكويت وتضم من طرف العراق أو إيران. وكل ما كنا نستطيع أن نفعله هو أن نبقي على الكويت مؤقتا. وزيادة على ما تقدم، فإن الخصم الكبير في الخليج كان إيران، فهي لها من السكان ومن الأرض ثلاثة أضعاف العراق.

لقد خسرنا النقاش، وربحت الولايات المتحدة الحرب، ولكن الحجة تبدو اليوم أكثر إلزاما حتى من السابق. ومع قيام أمريكا بتبني سياسة "الاحتواء المزدوج" لإيران والعراق، تمعن في التوقعات السكانية في السنوات الخمس والعشرين القادمة فقط.

الخليج الفارسي

(مليون نسمة)

	٢٠٠٠	٢٠٢٥
العراق	٢٣.١	٤١.٠
إيران	٦٧.٧	٩٤.٥

في العام ١٩٩٠، تباهت الولايات المتحدة بأسطول رونالد ريجان الذي بلغ ستمائة سفينة. ومنذ حرب الخليج، خفض أسطول الولايات المتحدة إلى النصف، وخفض الجيش إلى النصف، وخفض القوات الجوية إلى النصف. وبحلول العام ٢٠١٠، تتوقع الولايات المتحدة أسطولا من مئتي سفينة. والتحالف الكبير الذي جمعه الرئيس بوش الأول لهزيمة العراق واحتوائه قد انهار. فقد ارتدت الدول العربية، مثلما فعل الأوروبيون، باستثناء البريطانيين، الذين خفضت قواتهم المسلحة أيضا إلى النصف منذ نهاية الحرب الباردة.

كان بإمكان جيش الجنرال شوارسكوف أن يزحف إلى بغداد، وأن يشنق صدام، وأن يفرض "وكالة ماك آرثر". ولكن، مع القوات

الأمريكية الموجودة، ومع مستويات القوة المتحالفة، ومع تردد الأوروبيين والعرب في الزحف مرة ثانية معنا، لن يكون من المحتمل أن يكون هناك قطعيا عاصفة صحراء ثانية.

ويحلول العام ٢٠٢٥ سيكون سكان إيران (٩٤،٥) أربعة وتسعين ونصف مليون نسمة، وهو عدد من السكان أكبر بكثير من عدد سكان أي أمة أوروبية باستثناء روسيا. وستكون تقنية القنبلة الذرية بعمر ثمانين عاما، وستكون إيران، التي تملك من قبل الآن صواريخ بوليستيه، ستكون بالتأكيد تقريبا قد حصلت على القنبلة. ومنذ أن بدأ العصر الذري، ليس هناك من أمة تملك السلاح الذري قد شهدت أبدا أنّ أرضها الأم قد غُزيت أو أن حربا كبيرة قد شنت عليها. والأمة النووية الوحيدة التي سبق أن هوجمت كانت هي إسرائيل، وذلك بضربات كالوخزات الصغيرة من سكود من عراقٍ كان يجري تدميره.

ومثلما أبان الكوريون الشماليون للعالم، فإن أي أمة ولو كانت مارقة تستطيع أن تحصل على استماع محترم من الولايات المتحدة إذا كانت تستطيع أن تبني قنبلة ذرية.

أوروبا . رجل ميت يمشي

عندما عاد السياسي بيتمان - هولويغ(*) من فيينا ليقدم إيجازا للقيصر عن أحوال حليفهم النمساوي - الهنغاري عشية الحرب العالمية الأولى، تلعثم وزير الخارجية المهزوز وقال: "سيدي نحن متحالفون مع جثة."[200] ونحن كذلك. فيما مضى كانت أوروبا أمما محاربة عظيمة حشدت ملايين من الجنود إلى ساحات المعركة من أوروبا، واليوم في القرن العشرين لا تزيد الجيوش الميدانية إلا قليلا عن قوات شرطة وطنية. لقد كشفت حروب البلقان في التسعينيات من القرن العشرين عجز تلك الأمم بدون الولايات المتحدة. في البوسنة، كان على بريطانيا وفرنسا أن تستدعيا الأمريكيين لئلا تؤخذ قواتهم رهائن من قبل الصرب المحليين.

الأحلاف إنما تدخل الأمم فيها لتقوية ذاتها. فكيف تتقوى أمريكا بمعاهدة لتقوم بالدفاع إلى الأبد عن قارة ترفض أن تجند جيوشا لتدافع عن نفسها، وشعوبها بدأت تموت؟ وباستثناء تركيا وبريطانيا، فإن أمم حلف الناتو هي عالة أكثر منها حلفاء. غائبون بدون إجازة في فيتنام، وكانوا مساعدين في حرب الخليج بشكل

(*) بيثمان- هولويغ (١٨٥٦-١٩٢١) سياسي ألماني كان مستشار ألمانيا في المدة (١٩٠٩-١٩١٧).

هامشي فقط. في خارج أوروبا، اعتادت جيوشهم بشكل رئيسي على القيام بواجبات شرطة الأمم المتحدة في أفريقيا جنوب الصحراء. ولم يبقوا قادرين على ما يبدو على استنهاض الولاءات والتضحيات التي كانت لهم في الأيام الخوالي. واليوم، يحتاج الاتحاد الأوروبي المكون من خمس عشرة أمة سنوات عديدة ليحشد ستين ألف عسكري من أجل قوته التي يتباهى بها باسم قوة الرد السريع. وتهديدات الأوروبيين في أن "يذهبوا لها وحدهم" هي تهديدات الأطفال في أن يهربوا من البيت، وهم لم ينجحوا تماما أبدا لأن أمهاتهم قلن لهم ألا يعبروا الشارع.

إن شيئا حيويا ما قد ذهب من أوروبا. في ما مضى، كانت الأمم الأوروبية راغبة في التضحية من أجل "رماد آبائهم ومعابد آلهتهم."[٢١] ولكن الأوروبيين الآن، على الرغم من أنهم أغنى وأكثر عددا مما كانوا عليه في العام ١٩١٤أو العام ١٩٣٩، ليسوا راغبين في التضحية. وقد انتشر المرض الأوروبي إلينا هنا. فالولايات المتحدة فقدت آلافا من الرجال في يوتاه وشواطئ أوماها في اليوم د(*)، ولكنها انسحبت من الصومال بعد خسارتها لثمانية عشر من رجال المغاوير في كمين. وعندما بدأ السيد كلينتون بقصف صربيا،

(*) المقصود هنا باليوم د. هو ٦ حزيران/يونيو ١٩٤٤ الذي نزلت فيه قوات الحلفاء على شواطئ نورماندي الفرنسية.

أمر الطائرات الأمريكية بأن تبقى على ارتفاع فوق خمسة عشر ألف قدم كيلا يتعرض الطيارون للخطر. وكي تتجنب الولايات المتحدة وقوع الإصابات في صفوف قواتها أمر القوات البرية الأمريكية أن تمتنع عن العمل من اليوم الأول من الحرب.

يوم أوروبا قد انتهى. والهجرات الضخمة القادمة من العالم الإسلامي سوف تغير التركيب العرقي للقارة القديمة بحيث سيكون الأوروبيون أكثر شللا بخطر الإرهاب من أن يتدخلوا في شمال أفريقيا، أو في الشرق الأوسط، أو في الخليج الفارسي. الأوربيون من قبل الآن، تجاهلوا العقوبات الأمريكية على إيران، والعراق، وليبيا . وكلما صار سكان أوروبا أكثر عربا ومسلمين حل الشلل. يجب أن نعرف. من خمسينيات ١٨٥٠ إلى الحرب العالمية الأولى كانت سياسية الولايات المتحدة نحو الإمبراطورية البريطانية رهينة لدى الإيرلنديين وهم الذين كانت أصواتهم في الانتخابات حاسمة في ولايات مثل نيويورك.

ومع انخفاض سكان الدول الأوروبية وتلاشي الأطفال، فليس لأوروبا مصلحة حيوية لتبرير إرسال عشرات الآلاف من شبابهم إلى الحرب إذا لم تهاجَم هذه الدول. وحسب معدلات الولادات الحالية، فإن عدد سكان أوروبا في العام ٢١٠٠ سيكون أقل من ثلث العدد الذي هم عليه الآن. لقد صوتت أوروبا من أجل الحياة المترفة السعيدة.

ولكن إذا كان الأوربيون غير مهتمين بهذا الشكل في حفظ ذاتهم إلى حد أنهم يرفضون أن يكون لهم عدد كاف من الأطفال للمحافظة على أممهم حية، فلماذا ينبغي على الأمريكان أن يدافعوا عن أوروبا . وربما أن يموتوا من أجل أوروبا؟ وذلك من أجل أن يتمكن الأوروبيون من الحياة الراقية حتى الالتهاب المتفجر. أوروبا عانقت مصيرها، وربما لم يكن ذلك عن وعي من كل الشعب، ولكنه كان جماعيا من كل الشعب. الأوروبيون لا يخططون للاستمرار عرقاً عظيماً حيوياً. ما الذي ندافع عنه نحن إذن؟ الحضارة الغربية؟ ولكن الأوروبيين، بقرارتهم ألا يكون لديهم أطفال، قد قبلوا من قبلُ أن يكون القرن الثاني والعشرون قرن نهاية لحضارتهم.

حل نهائي لمسألة الشيخوخة

في البيان الإنساني الثاني في العام ١٩٧٣، حض آلاف من المفكرين الأمريكيين على "الاعتراف بحق الفرد في أن يموت بكرامة، وبحقنة القتل الرحيم، والحق في الإنتحار"[٢٢] لقد كانوا سابقين لوقتهم.

في شهر تشرين ثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، صوت المجلس الأدنى للنواب من البرلمان الهولندي بأغلبية ١٠٤ مائة وأربعة مقابل ٤٠ أربعين صوتا لجعل الانتحار بالمساعدة وجعل القتل الرحيم الطوعي

أمرين مشروعين. وكتب نات هينتوف في جويش وورلد ريفيو، "أول أمة منذ ألمانيا هتلر أوروبا تشرع ... القتل المباشر للمرضى بيد الأطباء."[٢٣] وكان البرلمان يندفع ليلحق بالأطباء الهولنديين الذين كانوا يمارسون القتل الرحيم طوال عقود مضت. وفي العام ١٩٩١، وجدت دراسة مدعومة من الحكومة أن "غالبية كل موت القتل الرحيم في الأراضي المنخفضة كانت غير طوعية."[٢٤]

وبموجب القانون الجديد، سيحتاج الأطفال الذين تراوح أعمارهم بين اثني عشر عاما وخمسة عشر عاما إلى موافقة والد كي ينتحروا أو يحصلوا على مساعدة طبيب ليقتلوا أنفسهم. ولكنهم، بعد تجاوزهم سن السادسة عشرة، لا يبقون بحاجة إلى موافقة الوالدين.[٢٥] وأتهم مجلس أوروبا الهولنديين بخرق المعاهدة الأوروبية لحقوق الإنسان، ولكن الأطباء الهولنديين كانوا قد نزلوا من قبل عميقا على المنحدر الزلق نحو الرايخ الثالث. وكما تروي ريتا ماركر من فريق العمل الدولي المضاد للقتل الرحيم:

> قبل شهر من مناقشة المجلس الأدنى للنواب القانون الجديد للقتل الرحيم، حكمت محكمة هولندية أن الدكتور فيليب سوتوريوس كان لديه من الناحية الطبية ما يبرر عمله عندما ساعد إدوارد برونجيرمسا البالغ من العمر ٨٦ ستاً وثمانين سنة لينتحر. برونجيرمسا من الناحية الجسمية لم يكن مريضا أو معانيا للآلام.

قال انه ببساطة كان "متعبا من الحياة" وأن تقدمه في العمر "وجود لا أمل فيه."[٢٦]

ومن زنزانته في السجن حيًا جاك كيفوركيان الهولنديين وتنبأ بأن أمريكا لن تتلبث طويلا خلف هولندا. وكانت جمعية هيملوك في الولايات المتحدة على الدرجة نفسها من الحماسة والأمل بأن هولندا ستبين لنا الطريق. وقال فاي غريش رئيس جمعية هيملوك: "إننا منفعلون متأثرون. ولقد أعجبنا بما كان يفعله شعب هولندا طوال العشرين سنة الأخيرة."[٢٧]

وبالنسبة إلى الجمعية الهولندية للقتل الرحيم الطوعي، يعتبر القانون الجديد ناقصا على نحو خطير، وذلك لأنه لا يمنح حقوق القتل الرحيم للذين قد تعبوا ببساطة من الحياة. فقد قال متحدث باسم الجمعية، "إننا نعتقد بأنك إذا كنت متقدما بالسن، وليس عندك عائلة بالقرب منك، وأنت فعلا تعاني من الحياة، ففي هذه الحالة ينبغي أن يكون القتل الرحيم ممكنا."[٢٨] ووافقت على ذلك وزيرة الصحة إلس بورست. وقالت: الناس المتقدمون بالسن جدا، والذين سئموا من الحياة، ينبغي أن يسمح لهم بقتل أنفسهم وقالت: "أنا لست ضد ذلك، طالما كان من الممكن تنظيم القتل بعناية وحرص كاف بحيث لا تهم وتخص إلا الناس المسنين جدا الذين تعبوا من عيش الحياة."[٢٩] فإذا كان مثل هذا المريض راغبا في أن يموت، حسب قول الوزيرة، فينبغي أن يعطى له أو لها حبة للانتحار.

وعندما وجه البابا جون بول الثاني رسالة له بمناسبة عيد رأس السنة في العام ٢٠٠٠ كانت هولندا في ذهنه بالتأكيد عندما تحدث عن "الإشارات المرعبة - وثقافة الموت - "[٢٠]

لا نستطيع إلا أن نستحضر اليوم أن ظلال الموت تهدد حياة الناس في كل مرحلة من مراحل الحياة وهي تنذر بالخطر على وجه الخصوص في أبكر بداية للحياة وفي نهايتها الطبيعية. والغواية المغرية في سبيلها إلى أن تصير أقوى مما سبق في الاستيلاء على الموت بتوقع وصوله، وكأننا نحن سادة حياتنا الخاصة بنا أو حياة الآخرين.[٢١]

ويقف هنتوف إلى جانب الأب المقدس:

في أثناء احتلال النازيين للأراضي المنخفضة، ثار أطباء ذلك البلد ضد ثقافة الموت وذلك بأن رفضوا التعاون في قتل المرضى.

وأما الآن، فإن موقفهم المتغير يذكرني بتقرير من برلين في تاريخ ١٧ تشرين أول أكتوبر ١٩٣٣ نشرته نيويورك تايمز وفيه أن وزير العدل الألماني نوى تخويل الأطباء سلطة "لإنهاء آلام المرضى الذين لا يرجى لهم شفاء، حسب طلبهم، في مصلحة الإنسانية الحقيقية."[٢٢]

ومع ذلك، فإن نظرة صارمة على الاتجاهات السكانية والأخلاقية في أوروبا لا تلهم بالثقة بأن هذا القتال قتال رابح

بالنسبة إلى الذين يتحدث نيابة عنهم الأب المقدس. وبالنسبة إلى المسيحية التي تعلم الناس بأن الله هو مبدع الحياة، وأنه ما من أحد من البشر يملك حقا في قتل الحياة البريئة هي مسيحية ليست أصلا ناميا في أوروبا. وبحلول العام ٢٠٥٠، فإن أكثر من (١٠٪) عشرة بالمائة من سكان أكبر أربع أمم في أوروبا الغربية. بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا. سيكونون فوق سن الثمانين. فهل سيصبر عمال أوروبا، الذين يجب أن ترتفع ضرائبهم والذين يجب أن تؤجل مواعيد تقاعدهم ليعينوا بالمال تكاليف رواتب التقاعد والرعاية الصحية لهؤلاء السكان المسنين الذين تتنامى أعداهم، هل سيصبر العمال على المحافظة على كبار السن المرضى والهرمين في الثمانينات والتسعينات من أعمارهم ليبقوا على قيد الحياة؟

وجدت دراسة جامعية في بلجيكا أن وفاة واحدة من كل عشر وفيات هناك هي وفاة من فعل طبيب، إما بإعطاء المريض حقنة قاتلة بدون إذنه أو عن طريق منع العلاج عنه.[٣٣] وفي زيوريخ، يعتبر الانتحار بالمساعدة أمراً مسموحا به في البيوت المعدة للمتقدمين في السن.[٣٤] وأطفال ازدهار الولادات في أوربا قد يعيشون حتى يروا حياتهم تنتهي، بدون موافقتهم، من مجتمع قاس غليظ القلب ضد رغبتهم في البقاء أحياء مثلما كانوا هم قساة غلاظ القلوب

ضد الأطفال غير المولودين في زمانهم. ما يذهب دائرا يعود دائرا.

بعد شغب نيوآرك في العام ١٩٦٧، علق رئيس بلديتها الأسود بذكاء قائلا: "لا أعرف إلى أين تتجه أمريكا، ولكن نيوآرك سوف تصل هناك أولاً." وحيثما تصل أوروبا اليوم. فسوف تصل إليه أمريكا غدا بالتأكيد قريبا.

في العام ١٩٨٤، أذهل حاكم كولورادو ديك لام كبار السن عندما أخبر مجموعة من الأطباء قائلا: "علينا واجب هو أن نموت ونبتعد عن الطريق مع كل آلاتنا وقلوبنا الاصطناعية.... وأن نترك المجتمع الآخر، أطفالنا، ليبنوا حياة معقولة."[٣٥] وفي هيئة التعليم في جامعة برنستون الآن أستاذ أسترالي متخصص بالأخلاقيات البيولوجية، وهو بيتر سنغر، يحاجج بأنه إذا ما ولد طفل يعاني من إعاقات شديدة إلى درجة أن والديه وأطباءه يرون أن من الأفضل له أن يموت، فإنه سيكون أمرا أخلاقيا أن نقتل هذا المولود الجديد ونترك الوالدين ليفكرا في طفل معافى."[٣٦] ومحاججة سنغر ليست غير منطقية. فإذا سلمنا للوالدين بحقوق إجهاض طفل غير مولود حتى الشهر التاسع، فلماذا يفقد هذان الوالدان الحق بإنهاء حياة الوليد في اللحظة التي ينزلق فيها الجنين إلى خارج الرحم؟

إن لأفكار سنغر سلالة سابقة عظيمة التأثير. ففي السابق

وعودة حتى العام ١٩١٩، كانت مرغريت سانغر تحذر أمريكا في مجلتها عن تنظيم النسل بيرث كنترول ريفيو وتقول: " المزيد من الأطفال الأصحاء،[٣٧] والأقل من غير الأصحاء." وفي الحال كان الأمريكيون والألمان يتنافسون في تعزيز أفكار سانغر. وفي العام ١٩٢٠، نشر كاتبان هما د. ألفرد هوتشيه، أستاذ الطب النفسي في جامعة فريبورغ، وكارل بندينغ، أستاذ القانون في جامعة لايبزغ، نشرا كتاب الإذن بتدمير الحياة التي لا تستحق الحياة. ويحاجج الكتاب في الحالة التي تتصل بالانتحار بالمساعدة من أجل المرضى مرضا نهائيا والمرضى الذين هم "أصداف فارغة من المخلوقات البشرية، " والمتخلفين عقليا، والذين يعانون من عطب في الدماغ ومن ظروف طبية نفسية.[٣٨] ووجد استطلاع للرأي أن ثلاثة من كل أربعة من الآباء الألمان فضلوا السماح للأطباء بإنهاء حياة الأطفال المعوقين إعاقة حادة.[٣٩]

في تشرين أول أكتوبر من العام ١٩٣٣، اقتبست نيويورك تايمز من وزير العدل عند هتلر قوله بأن تخليص المجتمع من هذه المخلوقات المسكينة سيجعل من "الممكن للأطباء أن ينهوا عذابات المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم، حسب الطلب، وفي مصلحة الإنسانية الحقيقية."[٤٠] وأما الأموال الموفرة فيمكن استخدامها لينتفع بها "أولئك الذين هم على عتبة العمر المتقدم."[٤١] إن لغة

الرقة مألوفة لنا جميعا. إنها تعيد إلى الذاكرة كلمات ووكر بيرسي التي وضعها في فم الأب سميث في كتاب الأعراض المتزامنة للرغبة بالموت فيقول: "هل تعرف إلى أين تقود الرقة؟ ... الرقة تقود إلى غرفة الغاز."[٤٢]

وفي شرحهم لقضيتهم، استطاع النازيون أن يشيروا إلى تشرتشل الذي "أراد أن تموت لعنة الجنون، " وجورج برناردشو الذي قال في العام ١٩٣٣: "إذا كنا نرغب في نوع معين من الحضارة يجب علينا أن نستأصل نوع الناس الذين لا يلائمون فيها."[٤٣] وهي أفكار الفوهرر بالضبط، يا بريطانيا العظمى.

وبين أول وأشهر القضايا عن الانتحار بالمساعدة كانت قضية "بيبي كنور." فقد رفع والد الطفل الصغير التماساً مباشراً إلى هتلر من أجل السماح لابنه، وهو أعمى، ومتخلف عقليا، وفاقد لذراع وساق، بأن يموت. وأحال هتلر الطلب إلى طبيبه كارل براندت. وفي العام ١٩٣٨ صدر له الإذن.

وصار "موت الرحمة" شائعا في ألمانيا. وفي "مراجعة لكفاحي، " قدمتها الصحفية دوروتي تومبسون في اختيار نادي كتاب الشهر لعام ١٩٣٩، فإن تلك الصحفية نددت بهتلر إلا في مسألة واحدة:

في موضوع تحسين النسل يكتب (هتلر) كتابة عقلانية، إلى حد ما. والمختصون بتحسين النسل في كل أنحاء العالم سيوافقون معه على

أن غير الصالح للتناسل على نحو واضح ينبغي أن يعقم. ولكن قوانين التعقيم الألمانية تشمل مدمني الخمر المعتادين، وإنها لفكرة تدعو للتفكه فلو أن هذه القوانين وجدت في النمسا قبل هتلر. فإن هتلر نفسه ما كان يمكن أن يولد أبدا (ولا كان يمكن أن يولد، بالمناسبة، بيتهوفن أو نيتشه.)

هناك أساس علمي، على الرغم من أن الميدان يحتاج إلى المزيد من الاستكشاف، لبعض أفكار هتلر عن تحسين النسل.[٤٤]

ويُرجّع الشاعر دبليو بي ييتس أصداء السيدة تومبسون إذ يقول: " بما أن التحسينات في الزراعة والصناعة تهدد بإزالة آخر كابح لتكاثر الجماهير غير القابلة للتعليم ... فإن أفضل السلالات لم تكن تقوم بتعويض أعدادها، بينما كانت تقوم بذلك أغبى السلالات وأقلها صحة."[٤٥]

عندما جاءت الحرب، تلقت أفكار هتلر في تحسين النسل "المزيد من الاستكشاف." فأمر هتلر بقتل الرحمة" للحياة التي لا تستحق الحياة. الآكلون عديمو النفع." . الأطفال المشوهون والمتخلفون تخلفا شديدا.[٤٦] وكان الاسم الرمزي للبرنامج "اكشن ٤" وقد قتل هذا البرنامج عشرات الآلاف قبل أن يؤنب الأسقف كليمنس فون غالين، في موعظة نارية في كاتدرائية منستر في ١٩٤٠، نظام هتلر على جريمة "القتل الواضح" ودعا الكاثوليك إلى

أن "يسحبوا أنفسنا ومؤمنينا من تأثيرهم (النازيين) كيلا نتلوث بتفكيرهم وسلوكهم الذي يغضب الله "[٤٧]

اهتزت برلين، فوضعت البرنامج علنا في حالة توقف، ولكنها، استمرت فيه بهدوء. وفرانز ستانغل، هو أحد المتمرسين بمشروع آكشن ٤، يقوم بعمله الدراسي العالي في مكان يدعى تريبلنكا. وفي الحكم في نورمبرغ، وهو فيلم ١٩٦٠، صور مونتغمري كليفت سينمائيا ضحية برنامج النازيين في تحسين النسل الذي وافقت عليه دورثي تومبسون بشروط.

ولكن ليس هناك من فيلم أبدا صور حتى الآن ريموند لودلو، وهو بطل أمريكي عاد إلى الوطن من الحرب العالمية الثانية وقد نال نجمة برونزية، وقلبا قرمزيا، ووسام سجين حرب. وفي مطلع العشرينات من عمره، كان لودلو قد كرر الهرب، فكان أن أجبر على التعقيم بموجب قوانين فيرجينيا، وهي واحدة من إحدى وثلاثين ولاية أقرت قوانين التعقيم القسري في أيام الصفاء أيام مارغريت سانغر.[٤٨]

فالمعركة بين الذين يعتقدون بقدسية الحياة الإنسانية، وبين الذين يعتقدون أن بعض الحيوات لا تستحق أن تعاش ويجب أن تنتهي، هي بهذا الشكل معركة ليست جديدة. وأوروبا والحالة هذه تواجه مستقبلا سيكون فيها ثلث شعبها أكبر من خمسة وستين سنة

وأن واحدا من كل عشرة أكبر من ثمانين سنة . ومع القليل من أمثال الأسقف فون غالين وجون بول الثاني معهم . فإن النتيجة على ما يبدو لن تكون موضع الكثير من الشك.

إسرائيل والشرق الأوسط[٤٩]

على الرغم من أن سكان إسرائيل يتزايدون، فإن اتجاه الجيران يساعد المرء على فهم السبب الذي توصل من أجله المحاربون . السياسيون من أمثال إسحق رابين وإيهود باراك إلى قرار بأنهم لا يملكون أي خيار سوى أن يقايضوا الأرض مقابل السلام.

معدل الخصوبة عند الفلسطينيين في إسرائيل هو ٤,٥ طفلا لكل امرأة، وفي الضفة الغربية ٥,٥ طفل لكل امرأة، و في غزة ٦,٦ طفل لكل امرأة. إذا كان موضوع السكان هو المصير المقدر لكل مجتمع، فإن إسرائيل تكون في أزمة وجودية لا يمكن إلا أن تتفاقم بالاحتلال العسكري المستمر وبتوسيع المستعمرات. تمعن في الأرقام:

ملايين البشر

	٢٠٠٠	٢٠٢٥
إسرائيل	٦,٢	٨,٣
الأردن	٦,٧	١٢,١
مصر	٦٨,٥	٩٥,٦
سورية	١٦,١	٢٦,٣
لبنان	٣,٣	٤,٤
المملكة العربية السعودية	٢١,٦	٤٠,٠٠

في السنوات الخمس والعشرين المقبلة، سينمو عدد سكان إسرائيل (اليهود والعرب) فيزيد (٢,١) مليونين ومائة ألف نسمة، بينما سيتعاظم عدد جيرانها العرب ويزدادون (٦٢,٢) اثنين وستين مليونا ومائتي ألف نسمة. والآن انظر بإمعان في "المشكلة الفلسطينية" لدى إسرائيل.

في غضون خمسة وعشرين عاما سيكون (٢) مليونا فلسطيني داخل إسرائيل، و(٧) ملايين في الضفة الغربية وغزة، و(٧) سبعة ملايين في الأردن. (١٦) ستة عشر مليون فلسطيني يعيشون متلاصقين مع (٦) ستة ملايين يهودي إسرائيلي. (ستون بالمائة من السكان الأردنيين هم فلسطينيون.) في العام ٢٠٥٠ سيكون (٣) ثلاثة ملايين فلسطيني داخل إسرائيل، و(١٢) اثنا عشر مليون

فلسطيني في الضفة الغربية وفي غزة، و (١٠) عشرة ملايين فلسطيني في الأردن - (٢٥) خمسة وعشرون مليون فلسطيني يعيشون مع (٧) سبعة ملايين يهودي إسرائيلي في منتصف القرن.

وليس هناك من دولة عربية واحدة من بين اثنتين وعشرين دولة اليوم مؤهلة لتوصف بأنها ديمقراطية بشكل كامل. ومع ذلك فكلما صارت الدول أكثر ديمقراطية، يجب أن تزيد استجابة أنظمتها لإرادة "الشارع العربي". وهؤلاء الذين يخبروننا بأن الديمقراطيات لا تذهب للحرب أبدا مع بعضها قد يرون هذا الرأي قيد الاختبار، عندما تصير الدول الملكية العربية إلى المزيد من الأنظمة "الديمقراطية"، مثلما حدث في طهران مع الإطاحة بالشاه.

عودة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)

في بداية القرن السابع الميلادي، كان عالم البحر الأبيض المتوسط عالما مسيحيا. ولكن، وفي غضون خمسين عاما من هجرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة في العام ٦٢٢م، اكتسحت جيوش الإسلام الساحل الجنوبي من ذلك البحر الداخلي. وفي أوائل القرن الثامن أزاح العرب والبربر جانبا

مقاومة الفيزقوط الضعيفة، واجتاحوا إسبانيا، وعبروا جبال البرنس إلى فرنسا، حيث خاضوا واحدة من المعارك الفاصلة في التاريخ. وفي تور(*)، هزم " مطرقة الإفرنج" شارل مارتل المسلمين الذين انسحبوا إلى الخلف فوق الجبال. وكتبت هيلاري بللوك: " هكذا تم إنقاذ أرض المسيحية في اللسان الواقع بين الأنهار، على مسافة قليلة من شاتلرو، وعلى مسيرة يوم شمال بواتييه."[5] وباستثناء مملكة صغيرة من الأستورياس(**)، التي ستكون قواعد معسكر الاسترداد الإسباني، فإن الإسلام قد هيمن على شبه الجزيرة الأيبيرية لقرون. ولم يطردوا حتى العام ١٤٩٢ عندما قام فرديناند وإيزا بيللا بطرد المسلمين أخيرا من إسبانيا.

وفي الشرق، جاء الغزو الإسلامي لاحقا. ففي القرن الرابع عشر، دخلت الإمبراطورية العثمانية البلقان، هزم العثمانيون

(*) معركة تور قرب بواتييه: قاد عبدالرحمن الغافقي رحمه الله المسلمين وعبر جبال البرنس، وهزم الأفرنجة في بوردو وتقدم نحو بواتييه، وهي مدينة في غرب فرنسا الوسطى إلى شرق الجنوب الشرقي من مدينة نانت، ثم تقدم نحو تور، وهي مدينة في غرب فرنسا الوسطى على نهر اللوار، وهناك اشتبك المسلمون مع جيش بقيادة شارل مارتل (٦٨٨؟-٧٤١) الملقب بالمطرقة وهو جد شارلمان ملك الافرنج فيما بعد، وقد حلت بالمسلمين هزيمة فادحة ولم يحاولوا بعدها عبور جبال البرنس. وكانت المعركة في ١١ تشرين أول أكتوبر في العام ٧٣٢م.

(**) أستورياس: منطقة ومملكة سابقة في الشمال الغربي من أسبانيا من السكان الأصليين لشبه جزيرة أيبريا قبل الغزو الروماني لها في القرن الثاني قبل الميلاد.

الصرب في معركة كوسوفو في العام ١٣٨٩، و سقطت في العام ١٤٥٣ القسطنطينية. وفي العام ١٦٨٣ كان الأتراك على أبواب فيينا عندما أوقفهم الملك البولندي جون سوبييسكي. ولكن لم يخرجوا حتى العام١٩١٣ عندما تم أخيرا طردهم من معظم البلقان.

وجاء المد العالي للإمبراطورية الغربية مع نهاية الحرب العالمية الأولى. ففي تشرين ثاني نوفمبر ١٩١٧ صرح آرثر بلفور وزير الخارجية أن سياسية حكومة جلالة الملك هي أن تخلق وطنا قوميا لليهود في فلسطين، هذا في الوقت الذي كان فيه الجيش البريطاني بقيادة اللنبي يسير إلى القدس. وذهبت الإمبراطورية العثمانية باستلام البريطانيين والفرنسيين وبموجب اتفاقية سايكس . بيكو تقاسم البريطانيون والفرنسيون الأسلاب. بعد ثلاثة عقود، ولدت دولة يهودية بين العرب، تحت رعاية الإمبراطورية البريطانية والأمم المتحدة الواقعة تحت هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن الإمبراطورية البريطانية كانت في تراجع. بحلول العام ١٩٤٨، خرجت من الهند، وخرجت من فلسطين، ثم خرجت من الأردن، وخرجت من مصر، وخرجت من العراق، وخرجت من الخليج، وكانت الإمبراطورية الفرنسية تسير في أعقابها قريباً.

والآن الإشارات موجودة في كل مكان تشير إلى أن الإسلام

ينهض مرة ثانية. هناك حركة إسلامية انفصالية نشيطة في الفليبين. والقوات الإسلامية تخوض المعارك مع الانفصاليين المسيحيين في إندونيسيا. ومن فلسطين إلى باكستان هتف غوغاء الشارع يستحسنون مذبحة البنتاغون ومركز التجارة العالمي. ولسنوات قدمت طالبان الأفغانية الملاذ الآمن لأسامة بن لادن وخلاياه الإرهابية وأرسلت المجاهدين إلى الجمهوريات السوفييتية القديمة في آسيا الوسطى ولمساعدة ثوار الشيشان للقتال في روسيا. وفي آذار مارس ٢٠٠١ أمر أمير الطالبان الملا محمد عمر بتحطيم كل التماثيل الدينية بما في ذلك تمثال بوذا الكبير في باميان الذي يعود تاريخه إلى القرن السابع، وصرح بقوله: " هذه الأصنام كانت آلهة للكفار."[٥١٠]

وطُردت إسرائيل من لبنان على يد حزب الله ويجري دفعها إلى خارج الضفة الغربية وخارج غزة على يد الانتفاضات التي تتولى فيها حماس دورا قياديا. وفي تركيا، وفي الجزائر جاءت الانتخابات في التسعينيات من ١٩٩٠ إلى السلطة بأنظمة إسلامية، وأزيحت هذه الأنظمة بوسائل أخرى غير ديمقراطية. وفي مصر جددت الميليشيات الإسلامية اضطهاد الأقباط المسيحيين. وفُرض القانون الإسلامي الآن في عشرة من الولايات الشمالية من نيجيريا.

في أوروبا، تموت الصلوات الجماعية المسيحية، والكنائس

تفرغ، والمساجد تمتلئ. هناك خمسة ملايين مسلم في فرنسا، وما بين اثني عشر مليون وخمسة عشر مليون مسلم في الاتحاد الأوروبي.[52] ويوجد ألف وخمسمائة مسجد في ألمانيا.[53] لقد حل الإسلام محل الدين اليهودي بوصفه الدين الثاني في أوروبا. ومع تناقص المد المسيحي وخروجه من أوروبا، فإن المد الإسلامي يدخلها. وفي العام ٢٠٠٠ سيكون هناك لأول مرة عدد من المسلمين في العالم أكثر من عدد الكاثوليك فيه.[54]

وفي حين أن الأيديولوجية" الإسلامية" قد فشلت في أفغانستان، وإيران، والسودان في خلق دولة حديثة تستطيع أن تملك ولاء شعبها وتخدم لتكون نموذجا للأمم الإسلامية الأخرى، فإن الدين الإسلامي لم يفشل. وفي العلم، والتكنولوجيا، والاقتصاد، والصناعة، والزراعة، والتسليح، والحكم الديموقراطي ما تزال أمريكا، وأوروبا، واليابان متقدمة بأجيال للأمام. ولكن العالم الإسلامي يحتفظ بشيء قد فقده الغرب: وهو الرغبة في أن يكون لديه أطفال والإرادة لمتابعة حضارتهم، وثقافاتهم، وعائلاتهم، وإيمانهم. ومن الصعب اليوم، أن تجد أمة غربية لا يموت فيها السكان المحليون، ومن الصعب على الغرار نفسه أن تجد أمة إسلامية لا ينفجر فيها عدد السكان المحليين. قد يكون الغرب تعلم ما لا يعرفه الإسلام، ولكن الإسلام يتذكر ما قد نسيه الغرب: " ليس هناك رؤية إلا بالإيمان".

إسرائيل على سبيل التشبيه

مثلما كانت منطقة القناة الأمريكية، وروديسيا البريطانية، وجمهورية جنوب أفريقيا بالأمس، قد ينظر إلى إسرائيل اليوم بصفتها شبيها وعالما صغيرا من الغرب نفسه.

في حرب استقلال إسرائيل في العام ١٩٤٨، توسعت إسرائيل إلى ما وراء حدودها التي قررتها الأمم المتحدة بكثير. واستغلت إسرائيل الغلطات الفادحة من مصر جمال عبدالناصر والأمم المتحدة تحت أمينها العام يوثانت في العام ١٩٦٧، فاستولت على مرتفعات الجولان السورية، والقدس الشرقية العربية، والمدينة القديمة، وغزة، والضفة الغربية، واحتلت كل سيناء حتى قناة السويس في ستة أيام. وفي العام ١٩٨٢، دفعت إسرائيل منظمة التحرير إلى ضواحي بيروت وطردتها.

ولكن تراجع أرض إسرائيل بدأ من زمن سابق. في العام ١٩٧٣، عاود المصريون عبور القناة واسترجعوا سيناء الغربية. وبعد خمس سنوات، استعادت مصر شبه جزيرة سيناء بأكملها. وفي الثمانينيات من ١٩٨٠ والتسعينات من ١٩٩٠ أدارت المليشيات الإسلامية حرب عصابات هي التي أجبرت الإسرائيليين على الخروج من لبنان، وشن الفلسطينيون انتفاضة أجبرت إسرائيل على

أن تقدم الأرض مقابل السلام. ومع حلول العام ٢٠٠٠ عرض رئيس الوزراء باراك نسبة ٩٩٪ تسعة وتسعين بالمائة من مرتفعات الجولان مقابل السلام مع سورية وعرض نسبة ٩٥٪ من الضفة الغربية وغزة زائدا القدس الشرقية، مقابل السلام مع فلسطين مستقلة. ورفض الأسد وعرفات العرضين.

حتى لو قبل العرب إسرائيل، فما هو الضمان لها بأن تكون هذه المطالبات بالأرض هي آخر المطالبات الموجهة إلى الدولة اليهودية؟ ولماذا يجب على العرب، بعد أن يكونوا قد هضموا ما تعطيه إسرائيل، ألا يتابعوا هدف طرد " الكيان الصهيوني" من الشرق الأوسط؟ يقول الإسرائيليون إنهم يعرضون على جيرانهم سلاما عادلا، ولكن العرب قد يرون إسرائيل بصفتها أمة في تراجع، وتحاول أن تعقد أفضل صفقة تستطيعها. لماذا لا ينبغي للعرب أن يعتقدوا بأنه مثلما أن الحرب جاءت بإسرائيل إلى طاولة المفاوضات لتقدم الأرض مقابل السلام، فالمزيد من الحرب سوف تنتج المزيد من الأرض مقابل السلام؟

من وجهة نظر العرب الحرب ناجعة. فحرب يوم الغفران في العام ١٩٧٣ أدت بإسرائيل إلى تسليم سيناء. وجهاد حزب الله طرد إسرائيل من لبنان. وانتفاضتان أجبرتا إسرائيل على أن تعرض أن تسلم كل الضفة الغربية، وغزة، والقدس الشرقية تقريبا. وأما قوة

إسرائيل العسكرية، فإنها لم تبق قادرة على أن توقف تراجع إسرائيل بأكثر مما أوقف تفوق الغرب العسكري تراجعه. هل منعت العشرون ألف سلاح نووي لدى روسيا فقدانها لأوروبا الشرقية، ودول البلطيق، وأوكرانيا، وكازاخستان، وبقية إمبراطورية موسكو في القوقاز وآسيا الوسطى؟.

هاهنا هو التشابه مع الغرب. هل هو في طبيعة الأشياء أن الأمم والحضارات تصعد، وتتوسع، وتهيمن، وتحكم لتتراجع فقط وتقدم المساواة لرعاياها من الشعوب الخاضعة. وهو عرض يقبل، إلى أن يكتسب هؤلاء الرعايا من الشعوب القوة ليصعدوا، ويتوسعوا، ويهيمنوا هم أنفسهم؟ هل عصرنا عصر المساواة بين الأمم هو حقيقة نهاية التاريخ أو مجرد هدنة مؤقتة، وسلام زائف، ووقف إطلاق نار، وزمان الانتقال من يوم هيمنة الغرب إلى اليوم الذي يدفع فيه الغرب إتاوة؟ لقد كتب مرة المؤرخ البريطاني جيه. ثي. فراوند أنه "إذا كان عشرة رجال يعتقدون بشيء ما اعتقادا عميقا إلى الدرجة التي يكونون معها مستعدين للموت في سبيله، وإذا كان عشرون رجلا يعتقدون بشيء ما اعتقادا عميقا إلى الدرجة التي يكونون معها مستعدين للتصويت من أجله، فإن الرجال العشرة سوف يسنون القانون على العشرين."[55] وعندما ننظر إلى أمريكا، وآسيا، وأوروبا، والشرق

الأوسط، فأي الشعوب اليوم تظهر ميلا أعظم للموت في سبيل مصيرها؟

هل كل وعظنا حول المساواة بين الشعوب هو خداع متعمد للذات؟ هل هو مجرد مقدمة لصراع متجدد للسيطرة على مصير الرجال والأمم، صراع غرب غني، يتجرد من السكان، ويموت، مع عزوف عميق عن الحرب، ولد من حمامات الدم في القرن العشرين، هل هو صراع مقدر للغرب أن يخسره؟ وكما قال سوفوكليس، يجب على المرء أن ينتظر حتى المساء ليرى كم كان اليوم رائعا . فهل هو مساء الغرب؟

النزعة الحربية، والاستشهادات، ونعم، عدم التسامح هي علامات صعود الأديان والقضايا الغالبة. المسيحيون الأوائل الذين قبلوا الموت وفضلوه على حرق البخور للآلهة الرومانية كانوا بعد قليل يسحقون تلك الآلهة الرومانية . لا مساواة لهم. عند تعميد كلوفيس، أنذر أسقف ريميس ملك الفرنجة، " إحن رقبتك. احرق ما تعبد، واعبد ما تحرق!."[٥٦] ليس مسكونيا يا صاحب الغبطة. الملوك البروتستانت والملوك الكاثوليك على السواء لم يجبنوا عند حرق الهراطقة أو سحبهم وإعدامهم عند شجرة تايبرن. المسيحية التي غلبت العالم لم تكن إيمانا جبانا، ولم يكن حماة ذلك الإيمان يعتقدون بأن كل الأديان كانت

متساوية. كانوا يعتقدون أن دينا واحدا كان صحيحا، وكل ما بقي كان كاذبا.

ومن منابر الكنائس المسيحية نسمع اليوم اعتذارات حزينة عن الخطايا الماضية: "كنا على خطأ في مرافقة الغزاة الفاتحين، وعلى خطأ في فرض ديننا على السكان المحليين، وعلى خطأ في أن نكون خدم الإمبراطورية. إننا نعترف، إننا نرجو المغفرة من الذين أخطأنا وأخطأ آباؤنا بحقهم."

ويمكن لهذا أن يكون الطريق إلى الجنة، ولكنه يستطيع أن يقود إلى الجحيم على الأرض. ويعلم التاريخ أن الكلب الذي يصدر النباح الضعيف هو الذي يُرفس. من ذا الذي سيعتنق دينا يتجول رهبانه ووعاظه في المسوح والرماد ليكفروا عن خطايا القرون الماضية؟ هل الناس الذي يتعلمون الآن بأنهم كانوا ضحايا الروح العرقية المسيحية هل سيكونون راضيين بالاعتذارات؟ هل سيقولون ما مضى قد مضى؟ أم أنهم سيقولون: "هؤلاء المسيحيون الذين اضطهدنا أجدادهم ونهبونا، هم الآن مشلولون بالشعور بالذنب ولا قوة لهم في المقاومة. دعونا نسترجع ما أخذوه منا، ثم دعونا نأخذ ما يملكون."؟

هل تأنيب الضمير للطوائف المسيحية في "مجرى التفكير العام" يعني أنهم ارتقوا إلى مستوى أخلاقي أعلى، أم أن هذا هو

مجرد تجلٍ لخسرانهم الإيمان بصحة المسيحية وتفوقها؟ إذا كان الغرب يتوقع حياة طويلة، فإن من الأفضل له أن يستعيد الاستيلاء على الإيمان المقاتل الذي كان له في شبابه. وذلك لأن من طبائع الأشياء أن الأمم والأديان إما أن تحَكم أو تُحكم. إن أزمنة المساواة هي هدنات مؤقتة في صراع لا نهاية له. لقد قال الكاتب المسرحي الروماني بلاتوس: الإنسان ذئب للإنسان." وأضاف توماس هوبز: أعتبر أن هناك ميلا عاما للإنسانية كلها، ورغبة دائمة قلقلة لسلطة بعد سلطة، لا تتوقف إلا في الموت."[٥٧٠]

ومثلما هو الحال مع إسرائيل فهي أمة ميسورة حديثة محاطة بجيران فقراء لهم ظلامات تاريخية، فكذلك هو الغرب، فهو حضارة ثرية حديثة محاطة بجيران فقراء لهم ظلامات تاريخية. ومثلما هو الحال مع المثقفين الغربيين فهم الأخشن نحو التاريخ الغربي، فكذلك هم "المؤرخون الجدد" لإسرائيل "ما بعد الصهيونية" فهم يرسمون ميلاد أمتهم بأحلك الألوان. ومثلما أن الغرب يعتقد بأن كل الأمم ستكون راضية بما لديها، فكذلك بعض الإسرائيليين يعتقدون أن الفلسطينيين سيكونون راضين عن بانتوستاناتهم في غزة وفي الضفة الغربية. ولكن لماذا يكونون راضين؟ عندما يزداد عدد الصينيين على عدد الروس بنسبة عشرين إلى واحد بدلا من عشرة إلى واحد، لماذا لا يسعى

الصينيون للعودة لادعاء واستعادة ما أخذ منهم عندما كانت روسيا قوية وكانت الصين ضعيفة؟

إسرائيل تواجه إسلاما له تاريخ قديم بصفته دينا مقاتلا وشعوبا مستعدة للموت في سبيل قضية، بينما أمريكا تشترك بألفي ميل من الحدود مع المكسيك. وهكذا فربما كان التشابه غير صحيح تماما. ولكن أمريكا بعد ذلك ليست هي البلد الذي كانت عليه فيما سلف. في العام ١٩٥٣ أمر عسكري عجوز لا تغلبه العواطف أسمه آيك كل الغرباء غير الشرعيين أن يخرجوا من الولايات المتحدة في" عملية القفا المبلول". هل يستطيع أحد أن يتخيل السيد بوش وهو يأمر خمسة ملايين أو عشرة ملايين من الغرباء غير الشرعيين بأن يطردوا من الولايات المتحدة؟

كما قالت غولدا مائير مرة إن إسرائيل لم يكن لها صديق أفضل من ريتشارد نيكسون، فهو الذي أنقذ أمتها في حرب يوم الغفران في العام ١٩٧٣. ولكن ريتشارد نيكسون كما يتذكر المؤلف لم يكن أعمى عن قوى التاريخ. فقد اعتاد أن يقول: " يجب على السياسي أن ينظر النظرة الطويلة المدى." ففي سان كليمنت مرة، بعد أن توقف لزيارة مجاملة من إسحق رابين، وهو صديق قابلناه في إسرائيل في غضون أيام بعد حرب الأيام الستة، سألت زوجتي، شيللي، الرئيس السابق عن الأحوال المتوقعة مستقبلاً لإسرائيل.

ورد نيكسون: "على المدى البعيد؟" ومد قبضته اليمنى، وإصبعه الإبهام للأعلى، بأسلوب إمبراطور روماني يقضي بحكم على مصارع مجالد، ثم إن الرئيس وببطء أدار إبهامه متجها به للأسفل. ولم أسأله أبدا عما يفكر به حول الأحوال المتوقعة مستقبلا للغرب.

الفصل السادس

الاسترداد

يبدو أن الجنوب الغربي الأمريكي يعود ببطء إلى الولاية القضائية المكسيكية بدون إطلاق طلقة واحدة.[1]

- من جريدة إكسيلسوار - الصحيفة القومية للمكسيك.

في العام ١٨٢١، دعت المكسيك المستقلة حديثا الأمريكيين إلى الاستقرار في مقاطعتها الشمالية من تكساس -بشرطين: يجب على الأمريكيين أن يعتنقوا الكاثوليكية الرومانية، ويجب عليهم أن يُقسموا قَسم الولاء للمكسيك. وقبِل الآلاف من الناس هذا العرض. ولكن، في العام ١٨٣٥، وبعد أن استولى على السلطة قائد مستبد، هو الجنرال سانتا آنّا، ثار أهل تكساس، بعد أن سئموا من حلف أيمان الولاء وتغيير الدين تغييراً زائفا، وصار عددهم الآن يفوق عدد المكسيكيين في تكساس بنسبة عشرة إلى واحد. فثاروا وطردوا الحامية المكسيكية الصغيرة لتعود أدراجها عبر نهر ريو غراند.

قاد سانتا آنا جيشا نحو الشمال لاسترداد مقاطعته المفقودة. وفي إرسالية تبشيرية دعيت آلامو ذبح سانتا آنا أول ثوار قاوموه.

ثم أعدم أربعمائة تكساني استسلموا له عند غولياد ولكن سانتا آنا وقع في كمين على ضفاف نهر سان جاسنتو. فذبح جيشه، ووقع هو في الأسر. وطالب التكسانيون بإعدامه على ما اقترف من مذبحة في ألامو، ولكن سام هوستون كانت لديه فكرة أخرى. فقدم لذلك الدكتاتور عرضا: حياتك في مقابل تكساس. فوقع سانتا آنا، وحصلت تكساس على استقلالها. وفي آخر يوم له في منصبه اعترف آندرو جاكسون بجمهورية النجمة الوحيدة لملازمه القديم الذي كان قد قاد تنيسيي هيكوري العجوز(*) في مذبحة للهنود الحمر ١٨١٤ الرد ستِكس في موقع هورس شو بند.

بعد ثمانين عاما، وفي ساعاته الأخيرة في المنصب، قرر الرئيس جون تايلور أن يكتب صفحته الخاصة في التاريخ بإلحاق جمهورية تكساس بالاتحاد، مانعا بذلك هذا الشرف عن جيمس كي. بولك، الذي كان مشمولا بحماية وعطف جاكسون، وكان بولك قد كسب البيت الأبيض على أساس تعهده بإدخال تكساس إلى الاتحاد. والمكسيك المغضبة الآن نازعت ادعاء الولايات المتحدة لكل الأرض الواقعة شمال نهر ريو غراند. ولمساندة هذا الادعاء أرسل بولك الجنرال زاكاري تايلور إلى الضفة الشمالية من النهر. وعندما

(*) سام هيوستون كان في معركة هورس شو بند على رأس أهل تنسي تحت آندرو جاكسون وكان لقبه هيكوري العجوز.

عبر الجنود المكسيكيون وأطلقوا النار على دورية أمريكية، مسيلين الدم الأمريكي بذلك على ما كان يدعي بولك بأنها أرض أمريكية، طلب إعلاناً سريعا للحرب من الكونجرس وحصل على طلبه. وبحلول العام ١٨٤٨ كان جنود بأسماء مثل غرانت، ولي، وماكليلان في مدينة مونتيزوما. وأجبرت المكسيك المهانة على أن تتنازل عن كل تكساس، والجنوب الغربي، وكاليفورنيا. ولتهوين ألم البتر أعطت الولايات المتحدة للمكسيك خمسة عشر مليون دولار.

غلى المكسيكيون بالحقد والاستياء. وفي العام ١٩١٠ بدأت الاضطرابات مجددا. وبعد ثورة كانت موجهة ضد الكنيسة وضد الأمريكيين، عومل البحارة الأمريكيون بعنف وقبض عليهم في مدينة تامبيكو. وأمر ويلسون قوات من المارينز الأمريكيين أن تحتل مدينة فيرا كروز إلى أن يطلق المكسيكيون إحدى وعشرين طلقة تحية لعلم الولايات المتحدة. وكما شرح ويلسون للسفير البريطاني فقال: "سوف أعلم الأمريكيين الجنوبيين بأن ينتخبوا رجالا طيبين."[٢٠] وعندما قاد قاطع الطرق بانشو فيللا غارة قاتلة على نيومكسيكو في العام ١٩١٦ أرسل ويلسون الجنرال بيرشنغ وقوات قوامها عشرة آلاف لتقوم بالتعليم.

وعلى الرغم من سياسية حسن الجوار من الرئيس روزفلت، فإن الرئيس كارديناس أمم، في العام ١٩٣٨، شركات الزيت

الأمريكية في يوم ما يزال موضع احترام في تاريخ المكسيك. وولدت بيمكس، شركة البترول المكسيكية وهي احتكار حكومي سيصطدم مع أوبك في العام ١٩٩٩ لتصعد أسعار الزيت إلى خمسة وثلاثين دولارا للبرميل لسلب الأمريكيين الذين قادوا كفالة قيمتها خمسون بليون دولار لإنقاذ المكسيك المفلسة في العام ١٩٩٤. وهذا يذكر المرء بجواب السياسي الإيطالي كافور عندما سئل عن الهدف الدبلوماسي لأمته الموحدة في العام ١٨٥٩ وقال: "لندهش العالم بنكراننا للجميل".[٢]

ما المغزى من هذا التاريخ؟ إن للمكسيك ظلامة تاريخية ضد الولايات المتحدة وهي ظلامة يشعر بها شعب المكسيك شعورا عميقا. فهم يعتقدون أننا سلبنا من بلادهم نصف أرضها عندما كانت المكسيك فتية وضعيفة. وهكذا فهناك تباينات عميقة في المواقف نحو أمريكا بين المهاجرين القدامى من أيرلندا، وإيطاليا، وأوروبا الشرقية، وبين المهاجرين اليوم من المكسيك. ومع وجود الخمس تماما من كل أسلاف شعوب المكسيك الآن في الولايات المتحدة، ومع مجيء ما يصل إلى مليون نسمة كل عام، فإننا نحتاج إلى أن نفهم التباينات الموجودة بين المهاجرين القدامى والمهاجرين الجدد، وبين أمريكا الأمس وأمريكا اليوم.

١- الأرقام التي تتدفق من المكسيك إلى الولايات المتحدة هي أرقام أكبر من أي موجة تأتي من أي بلد آخر في مثل هذا الزمن القصير. وفي التسعينيات من ١٩٩٠ وحدها، نما عدد الناس الذين ينحدرون من أسلاف مكسيكيين في الولايات المتحدة بنسبة (٥٠٪) خمسين بالمائة ووصلوا واحدا وعشرين مليون نسمة، وهذا الرقم لا يشمل ستة ملايين هسباني رفضوا أن يخبروا القائمين على الإحصاء عن بلد المنشأ لهم. والأمريكيون المكسيكيون متمركزون كذلك في الجنوب الغربي في الولايات المتحدة، على الرغم من أن الآباء المؤسسين أرادوا للمهاجرين أن ينتشروا بين السكان ليضمنوا استيعابهم وتمثلهم.

٢- والمكسيكيون لم يأتوا من ثقافة أخرى وحسب. ولكن الملايين منهم كذلك من عرق آخر. ويعلمنا التاريخ والخبرة أن الأعراق المختلفة أصعب استيعابا وتمثلا بكثير. إن الملايين الستين من الأمريكيين الذين يزعمون أصولا ألمانية لأسلافهم هم مستوعَبون و متمثَّلون على نحو كامل، بينما الملايين من أفريقيا وآسيا ما يزالون لا يشاركون مشاركة تامة في المجتمع الأمريكي.

٣- الملايين من المكسيكيين هم هنا بشكل غير مشروع. لقد خالفوا القانون الخاص بالدخول إلى الولايات المتحدة، وهم يخالفون

القانون بوجودهم هنا. وفي كل عام، يوقف (١.٦) مليون وستمائة ألف غريب غير شرعي، وكلهم تقريبا يحاولون اختراق حدودنا الجنوبية النازفة.[٤]

٤- وعلى خلاف المهاجرين القدامى الذين رفعوا أيديهم بالوداع إلى الأبد لبلادهم الأصلية عندما صعدوا على ظهر السفينة، فبالنسبة للمكسيكيين، فإن البلد الأم هي في الجوار عند الباب التالي. والملايين منهم لا رغبة لديهم في تعلم اللغة الإنجليزية أو في أن يصيروا مواطنين. أمريكا ليست وطنهم، والمكسيك وطنهم، وهم يرغبون في البقاء مكسيكيين يفخرون بذلك. لقد جاءوا هنا للعمل. وأفضل من أن يُستوعبوا هو أن يخلقوا تيوانا صغيرة (Tijuanas)(*) في المدن الأمريكية، بالضبط مثلما صنع الكوبيون هافانا الصغيرة في ميامي. أمريكا وحدها فقط هي التي تستضيف عددا من الناس من أصول مكسيكية يبلغ عشرين ضعفا لمن لهم أصول كوبية. ولهم محطات إذاعية خاصة بهم، ومحطات تلفزة، وصحف، وأفلام، ومجلات، وبهذا فإن الأمريكيين المكسيكيين يخلقون ثقافة هسبانية منفصلة وعلى انفراد من الثقافة الواسعة لأمريكا. إنهم يتحولون إلى أمة داخل أمة.

(*) تيوانا في الأصل مدينة مكسيكية في أقصى الشمال الغربي من المكسيك (السكان في ١٩٩٩ كانوا ٧٤٢٦٨٦). مركز للصناعة الخفيفة ومشهورة بسباقاتها ومصارعة الثيران يعبر الحدود عندها كل عام ما يصل إلى (١٤) أربعة عشر مليون سائح!!

٥- وموجات المهاجرين المكسيكيين تأتي أيضا إلى أمريكا مختلفة عن تلك التي جاء إليها المهاجرون القدامى. إن إيمانا بالحقوق العرقية والاستحقاقات الإثنية قد تجذر لدى أقلياتنا. وهذا الإيمان شجعته النخب الثقافية التي تحتقر بوتقة الانصهار وتبشر بأمجاد التعددية الثقافية. واليوم تشجع، الملاذات الإثنية للإبقاء على هوياتها المنفصلة، وفي الأحياء التي تتحدث الإسبانية تشيع الروح الإقليمية (الشوفونية). ويكتب غلين غارفن في مجلة ريزن: "النبض التكاملي للستينات من ١٩٦٠ ميت، والأناقة الليبرالية في التسعينات من ١٩٩٠ هي التفرقة، وهي تلبس لباس سياسات الهوية- الجماعة."[٥] ولو أن كالفن كوليدج(*) صرح اليوم بأن "أمريكا يجب أن تبقى أمريكية"[٦] لاتهم بجريمة البغضاء.

صامويل بي هنتنغتون، مؤلف كتاب صراع الحضارات، يسمي الهجرة "القضية المركزية لعصرنا."[٧] وهو يقسم المهاجرين إلى "صابئين" جاؤوا ليندمجوا ويتم تمثلهم في حياتنا، وإلى "مقيمين مؤقتا"، جاؤوا ليعملوا لسنوات قليلة ثم يعودوا لأوطانهم. ويكتب هنتنغتون أن "المهاجرين الجدد" القادمين عبر الحدود الجنوبية "ليسوا صابئين وليسوا مؤقتين. إنهم يذهبون ويؤوبون بين كاليفورنيا

(*) كالفن كوليدج (١٨٧٢-١٩٣٣) الرئيس الثلاثون للولايات المتحدة (١٩٢٣-١٩٢٩).

والمكسيك، ويحتفظون بهويات مزدوجة ويشجعون أفراد عائلاتهم على اللحاق بهم"[8] ويحذر هنتنغتون من (١,٦) مليون وستمائة ألف مهاجر يقبض عليهم كل عام وهم يعبرون حدود الولايات المتحدة فيقول:

> إذا عبر مليون جندي مكسيكي الحدود فإن الأمريكيين سوف يعاملون ذلك بوصفه تهديدا كبيرا لسلامتهم الوطنية ويتصرفون برد فعل وفقا لذلك. وغزو أكثر من مليون مكسيكي مدني كما يبدو أن (الرئيس المكسيكي فينست) فوكس يقترح سيكون تهديدا مضاهيا ضد الأمن الاجتماعي الأمريكي، وينبغي للأمريكيين أن يردوا ضده بقوة.
>
> الهجرة المكسيكية تحد فريد، ومزعج، ومخيف يلوح في الأفق لوحدتنا الثقافية، وهويتنا القومية، وعلى وجه الإمكان لمستقبلنا بوصفنا بلادا.[9]

القادة الأمريكيون لا يردون "بقوة"، على الرغم من أن أحد الاستطلاعات التي أجراها زغبي وجد أن نسبة (٧٢٪) اثنين وسبعين بالمائة من الشعب تريد تخفيض الهجرة، واستطلاع من راسموسن في تموز يوليو ٢٠٠٠ وجد أن نسبة (٨٩٪) تسعة وثمانين بالمائة تريد اللغة الإنجليزية أن تكون هي اللغة الرسمية لأمريكا.[10] الشعب يريد الفعل، والنخب لا توافق ولا تفعل شيئا. وعلى الرغم من تبجحنا بكوننا "آخر قوة عظيمة في العالم،" فإن الولايات

المتحدة تفتقد الجلد لتدافع عن حدودها وتطلب، بدون اعتذار، بأن يتم تمثل المهاجرين ودمجهم في المجتمع.

ربما يستطيع حبنا المشترك للدولار أن يجسر الصدع الثقافي، وسوف نعيش بسعادة معا في ما سماه أحد المؤلفين الأمة العالمية الأولى.[11] ولكن العم سام يقوم بمخاطرة جهنمية في استيراد شتات مهاجرين ضخم من عشرات الملايين من أمة مختلفة عن أمتنا اختلافا كبيرا. وإذا كنا نرتكب خطأ فاحشا قاتلا، فهذا ليس قراراً نستطيع أن نعود إليه أبدا لننقحه. أطفالنا سوف يعيشون مع العواقب، والبلقنة، ونهاية أمريكا كما نعرفها. ويكتب هنتنغتون "إذا فشل الاستيعاب والتمثل، فإن الولايات المتحدة ستصير بلدا منصدعا فيه كل الإمكانات المحتملة للصراع الداخلي والانقسام الذي يتبع ذلك."[120] هل تستحق هذه المخاطرة أن نقوم بها؟ ولماذا نقوم بهذه المخاطرة؟

الأمم الغربية ومن قبل الآن مازالت تعيش في حالة تصدع حول الأثنية والثقافة. وإن الحركات الانفصالية قد مزقت الاتحاد السوفييتي، ويوغوسلافيا، وتشيكوسلوفيا، وهي لا تهدأ عن العمل في فرنسا، وإسبانيا، وإيطاليا. في العام ٢٠٠١ بدأت ألمانيا احتفالات دامت عاما عن بروسيا القديمة. وفي إنكلترا، يجري استبدال العلم البريطاني على سيارات الأجرة وألعاب كرة القدم لكأس العالم ووضع

صليب القديس جورج. والناس لا يتماهون إلا أقل فأقل بالدولة ـ الأمة، وأكثر فأكثر مع الأصحاب والأقارب. وقد تشكلت حتى الآن أحزاب مستقلة في آلبيرتا وفي ساسكاتشيوان، وأن نسبة (١٤٪) أربعة عشر بالمائة من كولومبيا البريطانية يفضلون الإنفصال عن كندا.[١٣]

لقد اقترح الرئيس فوكس قيام اتحاد أمريكي شمالي من كندا، والولايات المتحدة، والمكسيك مع فتح كامل للحدود أمام البضائع والناس في البلدان الثلاثة. وخلبت الفكرة وول جورنال ستريت.[١٤] ولكن الناتج المحلي الإجمالي للشخص الواحد في المكسيك البالغ خمسة آلاف دولار ليس إلا، هو كسر فقط من مثيله في أمريكا، وفجوة الدخل بيننا هي أوسع فجوة على الأرض بين دولتين كبيرتين جارتين.[١٥] ومنذ أن أجيزت نافتا في العام ١٩٩٣، هبطت الأجور الحقيقية في المكسيك بنسبة (١٥٪) خمسة عشر بالمائة. ونصف المكسيكيين الآن يعيشون في فقر، وثمانية عشر مليوناً يعيشون على أقل من دولارين في اليوم، بينما الحد الأدنى للأجر في الولايات المتحدة خمسون دولاراً في اليوم. افتح الحدود، ويمكن أن يتدفق الملايين عابرين الحدود إلى الولايات المتحدة في شهور. هل بلادنا لا شيء أكثر من مجرد اقتصاد؟

الصورة القديمة عندنا للشعب المكسيكي تراه شعبا وديعا، ومحافظا، ودودا، وكاثوليكا في معتقداته التقليدية وقيمه التقليدية.

وما يزال هناك الملايين من هؤلاء من العاملين بجد، والمتوجهين توجها عائليا، والوطنيين الأمريكيين من التراث المكسيكي، من الذين كانوا من أوائل من لبى نداء أمريكا لحمل السلاح. وإن أي رجل أو امرأة أو طفل من أي بلد أو قارة يمكن أن يكون أمريكيا طيبا. ونحن نعرف ذلك من تاريخنا.

ولكن التغيير السكاني الهائل، خصوصا في كاليفورنيا، حيث ربع السكان ولدوا أجانب وثلثهم تقريباً لاتين، قد ولّد نعرة إقليمية إثنية جديدة. وعندما لعب فريق كرة القدم الأمريكي مع المكسيك في مدرج لوس أنجليوس منذ بضع سنوات مضت، حُقِّرت "الراية المرصعة بالنجوم" (أي علم الولايات المتحدة أو نشيدها) واستُهزِئ بها، ومُزِّق علم أمريكي ورُشِق الفريق الأمريكي ومشجعوه القليلون بالقنابل المائية، وزجاجات الجعة، والقمامة.[16]

ومنذ عامين أعلنت مدينة إل سينيزو في جنوب تكساس أن اللغة الإسبانية هي لغتها الرسمية وأمرت بأن تكتب كل الوثائق الرسمية باللغة الإسبانية وبأن تجري إدارة كل الأعمال التجارية في المدينة باللغة الإسبانية.[17] وصار أي تعاون مع سلطات الهجرة الأمريكية إساءة تؤدي للطرد. إن مدينة إل سينيزو، بالأمر الواقع، قد انفصلت عن الولايات المتحدة.

وفي السلطة التشريعية في ولاية نيو مكسيكو (New Mexico) (المكسيك الجديدة بالإنجليزية) في العام ٢٠٠١، قُدم قرار بإعادة تسمية الولاية لتكون "نويبو مكسيكو"، (NUEVO MEXCO) المكسيك الجديدة بالإسبانية)، وهو الاسم الأول الذي حملته الولاية قبيل أن تصير جزءا من الإتحاد الأمريكي. ولما هزم مشروع القانون، اقترح مقدمه، وهو العضو النائب ميغل غارسيا، للمراسلين أن "التعصب العرقي الخفي" قد يكون هو السبب -وهو التعصب العرقي نفسه، كما قال، الذي كان وراء تسمية الولاية نيو مكسيكو في البداية.[١٨]

إن روحاً من الانفصالية، والقومية، واسترداد الأرض عادت للحياة في الحي الأسباني. إن منظمة طلاب أمريكا اللاتينية تطالب بعودة الجنوب الغربي إلى المكسيك.[١٩] إن تشارلز تروكسيلو، وهو أستاذ دراسات تشيكانو في جامعة نيومكسيكو يقول: إن "أزتلان" جديدة وعاصمتها لوس أنجيلوس هي أمر لا مفر منه، وينبغي على المكسيكيين أن يسعوا لذلك بأي وسائل ضرورية."[٢٠]

وقال ريكي سييرا من الحرس الوطني الشيكانو (له علاقة بالأمريكيين -المكسيكيين أو ثقافتهم) بكلام طنان: "نحن نعيد استعمار أمريكا، ولذلك فهم خائفون منا. آن الأوان لنسترجع ما هو لنا."[٢١] وقال أحد قادة المتظاهرين في ويستوود وهو يشمت فرحا: "نحن هنا.. لنُري لوس انجيلوس البيضاء البروتستانتية أننا نحن

الأغلبية... وندعي بأن هذه الأرض أرضنا. لقد كانت دائما لنا ونحن ما نزال هنا... وإذا كان هناك من إنسان سيُرَحّل فسيكون أنتم."[٢٢]

خوسيه آنخل خوتيريز، وهو أستاذ العلوم السياسية في جامعة تكساس في آرلنغتون ومدير مركز الدراسات المكسيكية -الأمريكية في الجامعة ذاتها خاطب جمهورا في الجامعة وقال: "عندنا أمريكا بيضاء تشيخ. إنهم لا يلدون مواليد. إنهم يموتون. الانفجار واقع في سكاننا. إنهم يسلحون في سراويلهم من الخوف! وأنا أحب ذلك."[٢٣]

والآن قد يبدو هذا كلاماً عابراً، ولكن أصواتا أكثر سلطة تصدر النغمات ذاتها، وتتردد النغمات في الأحياء المكسيكية. ولاحظ القنصل العام المكسيكي خوسيه أوسونا في العام ١٩٩٨ وقال: "حتى وإن كنت أقول ذلك جادا في جزء منه، وهازلا في جزء آخر، فإني أعتقد أننا نمارس عملية استرداد كاليفورنيا."[٢٤] ودعا المشرع آرت توريس من كاليفورنيا القانون ١٨٧ الذي يقترح قطع الرعاية الاجتماعية عن الغرباء غير الشرعيين، دعاه باسم: "آخر شهقة في النزع الأخير من أمريكا البيضاء."[٢٥]

ويشمت ماريو أوبليدو فرحا ويقول: "كاليفورنيا ستكون ولاية مكسيكية. وسوف نسيطر على كل المؤسسات، وإذا كان الناس لا

يحبون ذلك، فعليهم أن يغادروا." وماريو أوبليدو هو رئيس العصبة المتحدة للمواطنين الأمريكيين اللاتينيين، والذي تلقى وسام الحرية من الرئيس كلينتون.[٢٦] وأخبر الرئيس المكسيكي إرنستو زيديللو الأمريكيين-المكسيكيين في دالس: "أنتم مكسيكيون، مكسيكيون تعيشون في شمال الحدود."[٢٧]

لماذا لا ينبغي على المهاجرين المكسيكيين أن يكون لهم ولاء لوطنهم أكبر من ولائهم لبلد تسللوا إليه كي يجدوا لهم عملا ببساطة؟ لماذا لا ينبغي للمكسيكيين القوميين والوطنيين أن يحلموا بالاسترداد؟

انظر في منظمة الطلاب، حركة طلاب الشيكانو لأزتلان، التي كان يرأس فرعها في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجيلوس منذ سنوات قليلة خلت شخص يدعى أنطونيو فيللاريغوسا، فهو كاد يكون عمدة لوس أنجيلوس في العام ٢٠٠١ بفارق جاء في حدود أربعين ألف صوت. ما هي خطة أزتلان التي توجد من أجلها حركة طلاب الشيكانو لأزتلان؟ بكلمات هذه الحركة ذاتها فإنها تهدف أن تعود فتطالب بأرض آبائهم التي سرقت في "الغزو الغريب (الأنجلو أمريكي) الوحشي لأراضينا."[٢٨]

> وقلبنا في أيدينا وأيدينا في التراب، فإننا نعلن استقلال أمتنا المختلطة (من الأوروبيين والسكان الأصليين). نحن شعب برونزي (اللون) وبثقافة برونزية. قبل العالم، وقبل كل شمال أمريكا، وقبل

> كل إخواننا في القارة البرونزية، إننا أمة، إننا اتحاد من الشعوب الحرة، إننا الأزتلان.[29]

وفي الخطة، "تنتمي أزتلان إلى أولئك الذين زرعوا البذور، وسقوا الحقول، وجمعوا المحاصيل، لا إلى الأجانب الأوروبيين. نحن لا نعترف بالحدود التي رسمتها النزوات على القارة البرونزية."[30] إن شعار حركة طلاب أزتلان الشيكانو هو: "لعِرْقنا كل شيء. ولأولئك الذين هم من خارج عرقنا، لا شيء."[31]

وتطالب حركة أزتلان الولايات المتحدة "بالتعويض" عن العبودية الاقتصادية السابقة، والاستغلال السياسي، والتدمير الاثني والثقافي النفسي، وإنكار الحقوق المدنية والإنسانية."[32] وتؤكد حركة الأزتلان أن "التحرير السياسي":

> لا يمكن أن يأتي إلا من خلال الفعل المستقل من طرفنا، لأن نظام الحزبين هو الحيوان نفسه برأسين وهو يتغذى من الحوض نفسه. حيثما نكن أكثرية فسوف نسيطر، وحيثما نكن أقلية فسوف نشكل جماعة ضغط، وقوميا نحن نشكل حزبا واحدا: عائلة العرق.[33]

تصرح حركة أزتلان في دستورها أن رمزها الرسمي "سيكون هو الصقر بجناحيه المفرودين، وهو يحمل بمخلب ماكاويتل(*) ويحمل

(*) سلاح بدائي استخدمه السكان الهنود الحمر الأصليون ضد الغزاة من الأوروبين. وهو عبارة عن سيف عريض خشبي بمقبضين، وحافته محددة بصوان حاد كالشفرة.

حـزمة ديناميت بالمخلب الثاني وفي منقاره الفتيلة المشتعلة."[٣٤]

إن حـركـة طلاب أزتلان الشيكانو هي نسـخـة الشيكانو من التفوق الأبيض للأمة الآرية، إلا أنها تدعي أن لها فقط أربعمائة فرع في الجامعات عبر الجنوب الغربي حتى كورنل وآن آربور. وفي خطابتها عن "أمة هجين" (من الأوروبيين والسكان المحليين)، وعن "الشعب البرونزي" و"الثقافة البرونزية، " و "القارة البرونزية، " و"العرق فوق الجميع، " فإن هذه الحركة تكون عرقية ومضادة للأمريكيين بلا خجل. إن كون فيللاراغوسا قد استطاع أن يخوض حملة انتخابية من أجل منصب رئيس البلدية لثاني أكبر مدينة أمريكية بدون أن يكون عليه أن يشرح ارتباطه بمنظمة أزتلان ويتبرأ منها، يشهد على حقيقة هي أن وسائل الإعلام الأمريكية الكبرى ترهب أخلاقيا أي أقلية تستطيع أن تحرر أوراق اعتماد بوصفها ضحية للتميز الماضي.

وليس هناك من مكان كان فيه الترهيب الإثني أنجح منه في الجامعة. فبعد سنوات من الاحتجاجات المخربة من حركة طلاب أزتلان الشيكانو. قامت جامعة تكساس بتخفيض قيمة يوم استقلال تكساس. وفي العام ٢٠٠٠، عقدت الجامعة "مناسبة خاصة للخريجين لجمع المال لتستغل العطلة لتحصيل المال، في حين أنها فعليا لا تولي العطلة أي اعتراف عام بها."[٣٥]

وفي الوقت نفسه يستمر الغزو. فحدود أمريكا المكسيكية التي كانت نائمة في الماضي وتبلغ ألفي ميل هي الآن مسرح مواجهات يومية. وصارت المزارع في أريزونا مناطق تخييم مؤقتة ليليا لآلاف الغرباء، وهم الذين يقطعون الأسيجة ويتركون قطعان المواشي المسمومة وآثارا من الحطام في سفرهم شمالا في الأرض الوعرة. حتى الجيش المكسيكي يظهر ازدراءه. وقد أوردت وزارة الخارجية خمسة وخمسين تسللاً عسكرياً في خمس سنوات قبل الحادثة التي وقعت في العام ٢٠٠٠، عندما قامت حمولات من السيارات من أفراد الجيش المكسيكي بالدخول عبر سياج الأسلاك الشائكة، وأطلقت النار، وطاردت ضابطين راكبين وسيارة دورية حدود أمريكية.[٣٦] ويعتقد عملاء دورية الحدود أن بعض وحدات الجيش المكسيكي تتواطأ مع تجمعات المخدرات.

لقد صارت أمريكا قناة تصريف لسكان ينفجرون ممن لم تبق المكسيك قادرة على توظيفهم. ومع نمو سكان المكسيك بمعدل عشرة ملايين في كل عقد، لن يكون هناك أي نهاية للمسيرة الطويلة شمالا قبل أن يصير الجنوب الغربي الأمريكي هسبانيا بالكامل. وقد سلم السيناتور المكسيكي أدولفو زينسر بأن "السياسية الاقتصادية للمكسيك معتمدة على الهجرة غير المحدودة إلى الولايات المتحدة."[٣٧] وكان الأكاديمي الساخر من الأمريكان، "والمساند

الشيوعي في وقت مضى" خورخي كاستينادا كان قد حذر في مجلة أتلانتيك مونثلي، منذ ست سنوات، من أن أي جهد أمريكي لقطع الهجرة "سوف تجعل السلام الاجتماعي في... المكسيك أمرا لا يمكن الدفاع عنه... بعض الأمريكيين لا يحبون الهجرة، ولكن هناك القليل جدا مما يستطيعون فعله حيال ذلك."[٣٨] وتأخذ هذه الآراء وزنا إذا ما عرفنا أن السيناتور زينسر الآن هو مستشار الأمن القومي للرئيس فوكس بينما خورخي كاستينادا هو وزير خارجيته.

تحت قيادة فوكس وزنسر، وكاستينادا مالت السياسية المكسيكية إلى مساندة الداخلين غير الشرعيين للولايات المتحدة. وأقيم مكتب للمكسيكيين في الخارج لمساعدتهم على التهرب من حراس الحدود الأمريكيين في صحارى أريزونا وكاليفورنيا عن طريق تزويدهم "بحقائب البقاء" وفيها الماء، واللحم المجفف، والغرانولا، والتايلينول، وحبوب مضادة للإسهال، والأربطة، والواقيات الذكرية. وتوزع هذه الحقائب في أفقر مدن المكسيك، مع معلومات عن الكيفية التي يستطيع بها الداخلون غير الشرعيين أن يذهبوا إلى الخدمات الاجتماعية المجانية في كاليفورنيا، حيث لا تطرح أي أسئلة. وباختصار، فإن مكسيكو سيتي هي الآن تساعد وتحرض على غزو الولايات المتحدة، والرد السياسي للولايات المتحدة هو رد الصمت الخائف والشلل الأخلاقي.[٣٩]

وفي الوقت الذي يستمر فيه الغزو، ومع كون كاليفورنيا هي الجهة المقصودة المفضلة، قام عالم الاجتماع وليام فري بتوثيق هجرة خروج يقوم بها الأمريكيون الأفارقة والأمريكيون ?الإنجليز بالخروج من الولاية الذهبية بحثا عن مدن وبلدات تشبه تلك التي شبوا فيها.[٤٠] وهناك كاليفورنيون آخرون ينتقلون إلى المجتمعات المحددة بحدود. إن بلدا لا يستطيع أن يسيطر على حدوده لا يبقى حقيقة بلدا بعد ذلك، ولقد حذّرنا رونالد ريغان منذ حوالي عشرين سنة مضت.

والاهتمامات بشأن حدوث تغيير جذري في التركيبة الإثنية لأمريكا سميت اهتمامات لا أمريكية. ولكنها أمريكية بقدر ما كان بنيامين فرانكلين أمريكيا. وهو الذي سأل مرة: "لماذا ينبغي على بنسيلفانيا، وهي ولاية أسسها الإنجليز، أن تصير مستعمرة للغرباء الذين سيكونون بعد مدة قصيرة من الكثرة العددية بحيث يصيروننا ألمانا بدل أن نصيرهم إنجليزا...؟"[٤١] ولن يكتشف فرانكلين أبدا مخاوفه كانت مبررة. لقد توقفت الهجرة الألمانية في أثناء حرب السنوات السبع.

لقد حذر الرئيس السابق تيودور روزفلت فقال: "إن الطريقة الوحيدة المستيقنة يقينا مطلقا لإيراد هذه الأمة موارد الخراب، ولمنع كل إمكانية لها لتستمر في كونها أمة مطلقا، ستكون هي السماح لها بأن تصير شبكة من القوميات المتناحرة."[٤٢]

الهجـرة موضـوع ضروري للحـوار القومي، لأنه يدور حـول من نكون بصفتنا شعبا. فالهجرة مثل الميسيسبي، في تدفقه اللامتناهي للماء المانح للحياة، أثرت أمريكا طوال تاريخنا. ولكن عندما يفيض الميسيسبي بفيضاناته على ضفافه فإن الخراب يمكن أن يكون ضخما. ومع ذلك، وبأوامر من أصحاب برنامج التصحيح السياسي فإن الهجرة، بوصفها قضية، مرفوعة من جدول البحث على الطاولة. إن "المحليين" فقط أو "المصابين بكره مرضي للأجانب" يستطيعون أن يتساءلوا عن السياسة التي تدخل بموجبها الولايات المتحدة للبلاد المزيد من الناس من ألوان، وعقائد، وثقافات، وحضارات مختلفة أكثر مما تدخل لبلادها جميعُ الأمم الأخرى على سطح الأرض مجتمعة. إن مياه النهر ترتفع إلى مستويات لم ير مثلها في تاريخنا. ماذا سيجري لبلادنا إذا لم تستطع سدود صد الفيضان أن تصمد؟

في أواخر ١٩٩٩، غادر هذا الكاتب تكسون وساق باتجاه الجنوب الشرقي إلى دوغلاس، مدينة الحدود في أريزونا ذات الثمانية عشر ألف نسمة والتي صارت الممر الرئيسي لغزو الولايات المتحدة. وفي شهر آذار مارس فقط، ألقت دورية الحدود الأمريكية القبض على سبعة وعشرين ألف مكسيكي يعبرون الحدود بشكل غير قانوني، ويقدر عدد الغرباء غير الشرعيين العابرين في شهر

واحد بعدد السكان الموجودين في دوغلاس زائدا ما يعادل نصف عددهم فوق ذلك.[٤٣]

وفي أثناء وجودي هناك زرت تيريزا موراي، وهي أرملة في الثانية والثمانين من عمرها وهي جدة تعيش في صحراء أريزونا التي ترعرعت فيها. وكان بيتها في مزرعتها محاطا بسياج من سلسلة مربوطة من الأسلاك الشائكة بارتفاع سبعة أقدام وعلى قمته لفات من السلك الحاد كالشفرات. وهناك قضبان حديدية على كل باب ونافذة وهي متصلة بأسلاك إلى جهاز إنذار. وتنام السيدة موراي ومعها مسدس عيار ٣٢,٠ موضوع على طاولتها قرب السرير، والسبب في ذلك هو أنها تعرضت للسطو ثلاثين مرة. كلاب حراستها ماتت، نزفت الكلاب حتى الموت عندما رمى أحدهم من فوق سياجها لحما يحتوي على زجاج مهشم. إن تيريزا موراي تعيش حياتها داخل سجن تحت أقصى درجات الأمن، في بيتها، وفي بلدها، لأن حكومتها تفتقر إلى الشجاعة الأدبية لتقوم بواجبها وتدافع عن حدود الولايات المتحدة الأمريكية.

إذا كانت أمريكا تعني شيئا، فهي تعني الحرية. ولكن كما تقول تيريزا موراي: "فقدت حريتي. لا أستطيع أبدا أن أغادر منزلي ما لم يكن عندي شخص يحرس البيت. كان من عادتنا أن نركب خيلنا بدون عائق عبر الحدود. ولدينا مكسيكيون يعملون في أملاكنا. لقد

كان العيش هنا عيشا طيبا. أما الآن فإنه جحيم. إنه جحيم واضح قديم."[44]

وفي الوقت الذي تعيش فيه تيريزا موراي غير حرة، في وجود جهنمي، فإن الجنود الأمريكيين يدافعون عن حدود كوريا، والكويت، وكوسوفو. ولكن لا شيء في خطر عند تلك الحدود، وهي على بعد نصف محيط العالم، لمقارنته مع ما هو في خطر على حدودنا مع المكسيك التي تمر فوقها جيوش الليل وهي تمشي متثاقلة بلا نهاية نحو الشمال إلى المدن الكبرى لأمريكا. الجيوش الغازية تعود لوطنها، أما جيوش المهاجرين فلا تعود.

من الذي قتل تحالف ريغان؟

طوال ربع قرن، من عام ١٩٦٨ وحتى ١٩٩٢، كان الحزب الجمهوري يمتلك قفلا واقعيا على الرياسة. "فالأكثرية الجديدة" التي صنعها ريتشارد نيكسون وكررها رونالد ريغان أعطت الحزب الكبير القديم خمسة انتصارات في ستة انتخابات رياسية. وكان مفتاح النصر هو أنهم ألحقوا بالقاعدة الجمهورية كتلتين ديمقراطيتين وهما: الإثنيون الشماليون الكاثوليك، والبروتستانت البيض الجنوبيون. وقد أغرى السيد نيكسون هؤلاء الناخبين ليبتعدوا عن تحالف نيوديل بمناشداته للوطنية، وحقوق الشعب،

والمحافظة الاجتماعية. وأعطى النجاح هوامش حاسمة للحزب الكبير القديم في الولايات الصناعية، وفي "جنوب صلب" كان هو المعسكر القاعدة للحزب الديمقراطي منذ أبوماتوكس. تحالف نيكسون - ريجان هذا برهن على أنه لا يهزم تقريبا. كان يستطيع ماكفرن، ومونديل، ودوكاكيس أن يحمل نسبة (٩٠) تسعين بالمائة من أصوات الناخبين السود، ولكن مع أخذ الجمهوريين نسبة (٦٠) ستين بالمائة من أصوات الناخبين البيض، وهي التي كانت تمثل نسبة (٩٠) تسعين بالمائة من إجمالي الأصوات، لم يكن بد للحزب الكبير القديم من أن يأتي في القمة.

كان هذا إستراتيجية جنوبية. وفي الوقت الذي سمتها فيه وسائل الإعلام إستراتيجية لاأخلاقية، فإن الديمقراطيين ارتبطوا بدعاة العزل العرقي طوال قرن بدون رقابة مماثلة. لقد وضع روزفلت وأدلاي ستيفنسون دعاة العزل العرقي على تذاكرهم الانتخابية. وخارج ميسوري، وهي ولاية حدودية ذات تعاطفات جنوبية، وكانت الولايات الوحيدة التي أخذها أدلاي في العام ١٩٥٦ هي الولايات الديكسيقراطية(*) التي حملها لاحقا جورج والاس.

(*) ديكسيقراطية نسبة إلى مجموعة منشقة من الديمقراطيين في الجنوب شكلوا حزب حقوق الولايات في ١٩٤٨.

لم يسبق لنيكسون ولا لريغان أن ساند دعاة العزل العرقي. وكان نيكسون، بمنصبه نائبا للرئيس، مساندا للحقوق المدنية وكان في هذا أقوى من السيناتورين جون ف. كندي أو ليندون جونسون. ودور نيكسون في كسب مرور قانون الحقوق المدنية في العام ١٩٥٧ كان موضع ثناء في رسالة شخصية من الدكتور مارتن لوثر كنغ الذي حيا في نيكسون نائب الرئيس "العمل الدؤوب والشجاعة التي لا تهاب في السعي لجعل الحقوق المدنية حقيقة واقعة."[٤٥]

وطوال ربع قرن، ظل الديمقراطيون عاجزين عن التقاط قفل الحزب الكبير القديم على الرياسة لأنهم لم يستطيعوا أن يهزوا ويرخوا قبضة الجمهوريين على الصوت الأبيض. وباستثناء النصر الانتخابي الساحق الذي حققه ليندون جونسون في العام ١٩٦٤ لم يكسب الصوت الأبيض أي ديمقراطي منذ ترومان في ١٩٤٨ إن ما كسر قفل الحزب الكبير القديم على الرياسة كان هو قانون الهجرة في العام ١٩٦٥.

في أثناء أعمال الشغب المناوئة للسوفييت في برلين الشرقية في العام ١٩٥٣، تهكم برتولت بريخت، الكاتب المسرحي الشيوعي، وقال: "أليس من الأسهل... للحكومة أن تحل الشعب وتنتخب آخر؟"[٤٦] في السنوات الثلاثين السابقة، بدأت أمريكا باستيراد هيئة ناخبين جدد. وساند الجمهوريون بسعادة سياسة للهجرة مالت نحو

العالم الثالث، وهي الهجرة التي وسعت القاعدة الديمقراطية وأرخت القبضة التي أعطاها نيكسون وريغان للجمهوريين على رياسة الولايات المتحدة.

في العام ١٩٩٦، كوفئ الحزب الكبير القديم. وذهبت إلى كلينتون ست ولايات من أصل سبع ولايات فيها أضخم أعداد من المهاجرين وهي - كاليفورنيا، ونيويورك، وإلينوي، ونيوجيرسي، وماساتشوسيتس، وفلوريدا، وتكساس. وفي العام ٢٠٠٠ ذهبت خمس ولايات إلى غور، وكانت فلوريدا ولاية تساوى فيها الطرفان. ومن (١٥) الخمس عشرة ولاية التي أكثريتها من الذين ولدوا أجانب، خسر بوش (١٠) عشر ولايات. ولكن من الولايات العشر التي فيها أقلية من الذين ولدوا أجانب - مونتانا، وميسيسبي، ووايومنغ، وفيرجينيا الغربية، وداكوتا الجنوبية، وداكوتا الشمالية، وكارولاينا الجنوبية، وآلاباما، وتنيسي، وأركانساس - اكتسح بوش كل الولايات العشر.

ومن بين الولايات التي فيها أكثر المهاجرين كانت ولاية تكساس فقط جمهورية بشكل موثوق. ولكنها الآن ذاهبة في طريق كاليفورنيا. في التسعينات من ١٩٩٠ استقبلت تكساس (٣,٢) ثلاثة ملايين ومائتي ألف مقيم جديد بوصفهم الحصة الهسبانية من سكان تكساس وارتفعت النسبة بسرعة من (٢٥) خمسة وعشرين

بالمائة إلى (٣٣) ثلاثة وثلاثين بالمائة.[٤٧] والهسبان الآن هم الجماعة الإثنية الكبرى في أربع من المدن الخمس الكبرى في تكساس: هيوستون، ودالاس، وسان أنطونيو، وإلباسو. وقال عنوان رئيسي حديث في نيويورك تايمز: "إن البيض غير الهسبان قد يصبحون قريبا أقلية في تكساس."[٤٨] ومع نزول السكان الأنجلو من نسبة (٦٠) ستين في المائة في ١٩٩٠ إلى نسبة (٥٣) ثلاثة وخمسين في المائة، فإن اليوم الذي يكون فيه البيض أقلية في تكساس لأول مرة منذ ما قبل الامو هو يوم قريب. وتقول جريدة دالاس مورننغ نيوز: "التوقعات تبين أنه بحلول العام ٢٠٠٥ سيكون البيض أقل من النصف في تكساس."[٤٩]

أمريكا سائرة في طريق كاليفورنيا وتكساس. " في العام ١٩٦٠ كانت نسبة (٨٨,٦) ثمانية وثمانين وستة بالعشرة بالمائة من سكان الولايات المتحدة من البيض، وفي العام ١٩٩٠ كانت (٧٥,٦) خمسة وسبعين وستة بالعشرة بالمائة فقط -هبوط بنسبة (١٣) ثلاثة عشر بالمائة في ثلاثين عاما..] وبحلول العام ٢٠٢٠ [يمكن أن تهبط نسبة البيض إلى مستوى نسبة(٦١) واحد وستين بالمائة"[٣٠٣] هكذا يكتب بيتر بريملو من مجلة فوربس. ومع حلول العام ٢٠٥٠، فإن اليورو-أمريكيين، وهم أكبر حصة من هيئة ناخبي الحزب الكبير القديم وأخلصها، سيكونون أقلية، وذلك نتيجة لسياسة الهجرة التي كان

قد رعاها الجمهوريون. لم يكن جون ستيورات ميل على خطأ تماما عندما وصم المحافظين بتسميتهم "الحزب الغبي."[51]

الهسبان هم أسرع قطاع ينمو في سكان أمريكا. كانوا بنسبة (٦،٤) ستة وأربعة من العشرة بالمائة من سكان الولايات المتحدة في العام ١٩٨٠ ونسبة (٩) تسعة بالمائة مع حلول العام ١٩٩٠، وفي عام ٢٠٠٠ أعلى من نسبة (١٢) اثني عشر بالمائة. ويقول جيفري باسل وهو عالم سكان من المعهد الحضري "معدلات الخصوبة الهسبانية أعلى بقليل نوعا من نسبتها عند السكان البيض أو السود. إنها عند مستويات عصر ازدهار المواليد في الخمسينات من ١٩٥٠"[52] عند عدد (٣٥،٤) خمسة وثلاثين مليوناً وأربعة من عشرة يساوي عدد الهسبان الآن عدد الأفارقة الأمريكيين وهم يصيرون ديمقراطيين مثلهم أيضا في تفضيلاتهم الانتخابية. لقد خسر السيد بوش أصوات الأفارقة الأمريكيين بنسبة أحد عشر صوتا مقابل صوت واحد، ولكنه خسر الهسبان أيضا بنسبة صوتين مقابل صوت واحد.

في العام ١٩٩٦ عندما حمل كلينتون الأصوات اللاتينية بنسبة سبعين صوتا إلى واحد وعشرين صوتا، حمل في المرة الأولى الأصوات اللاتينية بنسبة واحد وتسعين صوتا إلى ستة أصوات.[53] وكان رجال كلينتون واعيين بأن المهاجرين كانوا يستطيعون إعطاء

الديمقراطيين قفلهم الخاص على البيت الأبيض، لذلك عمل رجال كلينتون بلا هوادة على تجنيسهم. وفي العام نفسه حتى ٣٠ أيلول سبتمبر ١٩٩٦ فإن إدارة الهجرة والجنسية أدارت (١,٠٤٥,٠٠٠) مليونا وخمسة وأربعين ألف قسم أقسمها المهاجرون بوصفهم مواطنين جددا، وذلك بشكل سريع إلى درجة أن (٨٠,٠٠٠) ثمانين ألفا لهم سجلات إجرامية، - منهم (٦,٣٠٠) ستة آلاف وثلاثمائة من أجل جرائم خطيرة - انزلقوا ضمن المجنسين.[٥٤] وهذه فيما يلي أرقام المواطنين الجدد في كل عام من الأعوام الخمسة الماضية.

١٩٩٦	١,٠٤٥,٠٠٠
١٩٩٧	٥٩٨,٠٠٠
١٩٩٨	٤٦٣,٠٠٠
١٩٩٩	٨٧٢,٠٠٠
٢٠٠٠	٨٩٨,٢١٥٢٠٨[٥٥]

وتلقت كاليفورنيا ثلث هؤلاء المواطنين الجدد. وفي حين أن تسجيل البيض غير اللاتينيين هبط بنحو مائة ألف في كاليفورنيا في التسعينات من ١٩٩٠، فإن مليونا من اللاتينيين سجل فيها.[٥٦] والآن فإن الهسبان يشكلون نسبة (١٦) ستة عشر بالمائة من هيئة الناخبين في كاليفورنيا، وأعطوا غور الولاية مع وجود مئات الآلاف

من الأصوات للتوفير. ويقول المستشار الديمقراطي ويليام كاريك: "كلا الحزبين يحضر في احتفالات القسم ليحاول تسجيل ناخبين." ويوجد طاولة ديمقراطية وطاولة جمهورية. طاولتنا لديها الكثير من العمل. طاولتهم مثل مصلح غسالة المياتاج «أي نادرة العطب» (Maytag)[٥٧] إن كاليفورنيا التي تملك خمسة وخمسين صوتاً انتخابياً، والولاية الوطن لنكسون وريغان، صارت هي الآن ميدان القتل للحزب الكبير القديم.

التصويت في الاستفتاءات العامة في كاليفورنيا قد انقسم أيضا وفقا للخطوط الإثنية. في العام ١٩٩٤، كان الهسبان يحتشدون تحت أعلام مكسيكية، وعارضوا الاقتراح ١٨٧ لإنهاء الرعاية الاجتماعية للمهاجرين غير الشرعيين. وفي مبادرة الحقوق المدنية في كاليفورنيا في العام ١٩٩٦ صوت الهسبان للتفضيلات الإثنية. وفي العام ١٩٩٨ صوت الهسبان للإبقاء على التعليم مزدوج اللغة. وصوت الأنجلو أمريكان عكس ما سبق بأكثرية ساحقة.

ويعتقد رون أونز، أبو الاستفتاء العام على "الإنجليزية للأطفال" الذي أنهى التعليم مزدوج اللغة الذي تموله الدولة، يعتقد أن شغب لوس أنجيلوس في العام ١٩٩٢ قد يكون نقطة اللاعودة على طريق بلقنة كاليفورنيا.

خيوط الدخان المتصاعد من المباني المحروقة، واللقطات الفظيعة الطويلة التلفزيونية مزقت تمزيقا كاملا تقريبا الإحساس بالأمن لدى الطبقة الوسطى من أهل كاليفورنيا الجنوبيين. فجأة، انكشف القناع عن "كاليفورنيا متعددة الثقافات" السعيدة والمحبوبة جدا من المروجين المحليين المعززين للتنوع الثقافي، انكشفت عن أنها قاسية وخطرة. انها طوباوية سيئة من العالم الثالث.... والأعداد الكبيرة من اللاتينيين الذين قبض عليهم (ورحلوا على عجل) بسبب أعمال النهب جعلت البيض يلقون نظرة جديدة حذرة على الحدائقيين والمربيات الذين كانوا قبل أسابيع فقط يبدون لطفاء وموثوقين للغاية. فإذا كانت لوس انجليوس المتعددة الثقافة قد انفجرت إلى فوضى مفاجئة، فما هو الأمن الذي يمكن أن يتوقعه البيض بصفتهم أقلية في كاليفورنيا غير بيضاء على نحو يتزايد؟[٥٨]

باستثناء اللاجئين من بلاد شيوعية مثل هنغاريا وكوبا، فإن المهاجرين ينجذبون بثقلهم نحو حزب الحكومة. والسبب الواضح: هو أن المهاجرين يحصلون من الحكومة - في المدارس المجانية لأطفالهم، وإعانات الإسكان، والرعاية الصحية - على أكثر مما يدفعون لها. وهم يصلون فقراء، ومعظمهم لا يجمع سريعا أرباحا رأسمالية، أو عقارات، أو دخولا يمكن أن تخضع للضرائب الاتحادية. فلماذا ينبغي للمهاجرين أن يساندوا حزبا جمهوريا، يخفض ضرائب هم لا يدفعونها، ضد حزب ديمقراطي سيوسع البرامج التي يعتمدون هم عليها؟

لقد كان الحزب الديمقراطي، بعد جزيرة إيلليس(*)، هو محطة الوقوف الأولى دائما للمهاجرين. والمولودون أجانب لا يبدؤون بالتحول إلى جمهوريين إلا بعد أن يبدؤوا بالتحرك إلى الطبقة الوسطى فقط، وهذا ما قد يستغرق جيلين . والديمقراطيون بتجنيسهم وتسجيلهم نصف مليون أو مليون مولود أجنبي في العام، فإنهم بعملهم هذا يقفلون الانتخابات الرياسية المستقبلية ويرمون المفتاح بعيدا . فإذا لم يعمل الحزب الكبير القديم شيئا ما نحو الهجرة الضخمة الجماعية، فإن الهجرة الضخمة الجماعية سوف تفعل شيئا ما نحو الحزب الكبير القديم - تحوله إلى أقلية دائمة في بيتنا لأحدث أقلية في أمريكا وهم الأنجلو أمريكان.

ومع تغير الشخصية الإثنية لأمريكا فإن السياسة تتغير. والمد الصاعد للهجرة يحول السياسة والقوة تحويلا طبيعيا إلى اليسار، وذلك بزيادة المطالب على الحكومة. والحصة التي تتوسع بسرعة من هيئة الناخبين الأمريكيين من أصول أفريقية وهسبانية دفعت وما تزال تدفع الحزب الكبير القديم إلى أن يذهب صامتا في العمل الإيجابي(**)

(*) جزيرة إيلليس: هي جزيرة في خليج نيويورك الأعلى جنوب غرب منهاتن. وكانت هي المحطة الرئيسية للمهاجرين إلى الولايات المتحدة من العام ١٨٩٢ إلى العام ١٩٤٣، وهي الآن جزء من المعلم الوطني لتمثال الحرية ومفتوحة للسواح وفيها متحف للهجرة.

(**) هو سياسة أو برنامج يسعى للتعويض عن التمييز السابق وذلك من خلال إجراءات نشيطة لضمان الفرص المتساوية كما في التعليم والتوظيف.

ويخرس دعواته للحسومات في الإنفاق الاجتماعي. في العام ١٩٩٦، كان الجمهوريون سيلغون وزارة التعليم في الولايات المتحدة. وهم يوسعونها الآن. ومع ارتفاع أعداد المهاجرين الهسبان، ومع مصير الأصوات الهسبانية هي الأصواتَ الحاسمةَ في الولايات المحورية، فإن جدول أعمالهم سيصير هو جدول أعمال أمريكا. إن هذا الأمر يحدث منذ حين. ففي العام ٢٠٠٠ فإن اتحاد العمل الأمريكي ومجلس المنظمات الصناعة (AFL-CIO)الذي سبق أن عارض الهجرة الضخمة الجماعية حوّل نفسه وصار يعمل للعفو عن الغرباء غير الشرعيين، مؤملا أن يوقع ملايين العمال غير الشرعيين ليكونوا أعضاء في الاتحاد يدفعون المستحقات له. والبيت الأبيض تحت بوش – في قرارات سياساته وتعييناته – تنبه تنبها حادا للصوت الهسباني، وهو في الأغلب على حساب المبادئ المحافظة.

كوبيك أمريكا؟

جورج بورجاس وهو اقتصادي من هارفارد، درس القضية، فلم يجد فوائد اقتصادية صافية من الهجرة الضخمة من العالم الثالث. فالتكاليف المضافة للمدارس، والرعاية الصحية، والرعاية الاجتماعية، والأمن الاجتماعي، والسجون، زائدا الضغط المضاف على الأرض، والماء، ومصادر الطاقة، تفوق الضرائب التي يسهم بها

المهاجرون. ويقدر المكتب القومي للبحث الاقتصادي كلفة الهجرة بمبلغ (٨٠,٤) ثمانين بليونا وأربعة أعشار بليون دولار في العام ١٩٩٥[٥٩]. ويقدر الاقتصادي دونالد هدل من جامعة رايس أن التكلفة السنوية الصافية للهجرة سوف تصل إلى مبلغ (١٠٨) مائة وثمانية بلايين دولار بحلول العام ٢٠٠٦.[٦٠] ما هي إذن المنافع التي تبرر المخاطر التي نجازف بها لبلقنة أمريكا؟

إحصاء العام ٢٠٠٠ كشف ما أحس به الكثيرون. فلأول مرة منذ قيام الدولة، يشكل البيض في كاليفورنيا أقلية. وهروب البيض قد بدأ. في التسعينات من ١٩٩٠، زادت كاليفورنيا ثلاثة ملايين نسمة، ولكن عدد سكانها من الأنجلو فعلا "هبط نصف مليون تقريبا... مدهشا العديد من علماء السكان."[٦١] وفقدت مقاطعة لوس أنجليوس (٤٨٠,٠٠) أربعمائة وثمانين ألف نسمة من الشعب الأبيض. وفي الرحيل، فقدت قلعة الجمهوريين في مقاطعة أورنج نسبة (٦) ستة بالمائة من سكانها البيض. وقال وليام فولتون، وهو زميل باحث في مركز دراسات جامعة كاليفورنيا الجنوبية: "لم يبق بوسعنا بعد الآن أن نتظاهر بأننا ولاية طبقة وسطى بيضاء."[٦٢] وينظر كيفن ستار، مكتبيّ الولاية، إلى هسبنة كاليفورنيا بوصفه أمرا طبيعيا لا مفر منه:

هيمنة الأنجلو لم تكن إلا مرحلة متقطعة في قوس هوية كاليفورنيا،

المـتـدة من وصـول الإسـبـان... لقـد كـان الطبـيـعـة الهـسـبـانيـة لكاليفورنيا موجودة طوال الوقت، وأغرقت مؤقتا بين الثمانينيات من ١٨٨٠ وحتى الستينيات من ١٩٦٠، ولكن ذلك كان انحرافا. هناك توكيد على الدي إن إي السكاني الجِبِلّي من النمط الأطول، وهو جزء من المتصل الكاليفورني -المكسيكي.[٦٣]

المستقبل يمكن التنبؤ به: مع مغادرة مائة ألف من الأنجلو من كاليفورنيا في كل عام، ومع ارتفاع السكان الآسيويين بنسة (٤٢) اثنين واربعين بالمائة في عقد واحد، ومع كون نسبة(٤٣) ثلاثة وأربعين بالمائة من جميع الكاليفورنيين تحت سن الثامنة عشرة هم من الهسبان، فإن أكبر ولاية أمريكية في طريقها إلى أن تصير ولاية من العالم الثالث بشكل غالب.[٦٤]

لا أحد يعلم كيف سينتهي هذا الأمر، ولكن كاليفورنيا يمكن أن تصير كويبك ثانية، ولها مطالب من أجل الاعتراف الرسمي بثقافتها وبهويتها الهسبانية المنفصلة والفريدة - أو تصير ألستر ثانية. ومثلما طالبت شين فين بعلاقات خاصة مع دبلن وحصلت عليها، فقد يطالب المكسيكيون الأمريكيون بعلاقة خاصة مع بلدهم الأم، وبالمواطنة المزدوجة، وبالحدود المفتوحة، وتصويت التمثيل في التشريع المكسيكي. والرئيس فوكس يصادق على هذه الأفكار. ومع كون كاليفورنيا تمسك بنسبة (٢٠) عشرين بالمائة من الأصوات الانتخابية اللازمة لرياسة الولايات المتحدة، ومع كون الأصوات

الهسبانية حاسمة في كاليفورنيا، فأي مرشح رئاسي سيغلق الباب أمام مثل هذه المطالب؟

قال الرئيس زيديللو: "لقد أعلنت بفخر أن الأمة المكسيكية تمتد لما وراء الأرض التي تحيط بها حدود المكسيك وأن المهاجرين المكسيكيين جزء مهم - بل مهم جدا- من هذا الامتداد."[٦٥] ويوافق خلفه على ذلك. والمرشحون لمنصب الرئيس في المكسيك الآن يجمعون المال ويقومون بالحملات النشيطة في الولايات المتحدة. ويستكشف الحاكم غراي ديفيس خططاً لجعل يوم الخامس من مايو، وهو ذكرى نصر يواريز في العام ١٨٦٢ على الجيش الفرنسي في بويبلا، يوم عطلة في كاليفورنيا. ويقول ديفيس: "في المستقبل القريب سينظر الناس إلى كاليفورنيا والمكسيك بوصفها منطقة رائعة واحدة."[٦٦] ربما نستطيع أن نسميها أزتلان.

لم تبق أمريكا المجتمع الثنائي العرق في العام ١٩٦٠ الذي كافح لمحو الانقسامات وإغلاق الفجوات في أمة نسبة (٩٠) تسعين بالمائة منها من البيض. نحن اليوم نموّه المطالب الحقودة المنافسة لبلاد متعددة الأعراق، ومتعددة الإثنيات، ومتعددة الثقافات....[٦٧]

اليوم هناك(٢٨،٤) ثمانية وعشرون مليوناً وأربعة أعشار المليون في الولايات المتحدة ولدوا أجانب عنها. نصفهم من أمريكا اللاتينية والكاريبي، وربعهم من آسيا والباقي من أفريقيا، والشرق

الأوسط، وأوروبا. واحد من كل خمسة من النيويوركيين والفلوريديين ولد أجنبيا، مثلما أن واحداً من كل أربعة من الكاليفورنيين ولد أجنبيا كذلك. مع كون (٨.٤) ثمانية ملايين وأربعة أعشار المليون مولودين أجانب، ومع عدم بناء أي مصنع طاقة جديد في عقد من الزمان، فلا عجب، ولو قليل، من أن تواجه كاليفورنيا نقصاً في الطاقة، وفقدا في الطاقة. مع هجرة بلا نهاية، سوف تحتاج أمريكا إلى توسع لا نهائي في مصادر الطاقة - طاقة كهرومائية ومحروقات من باطن الأرض (زيت، وفحم، وغاز)، وطاقة نووية. والخيار الوحيد هو اطفاءات الأنوار، وتخفيضات الأنوار، وخطوط بلا نهاية عند المضخة.

في التسعينات من ١٩٩٠ كان المهاجرون وأطفالهم مسؤولين عن نسبة (١٠٠) مائة بالمائة من نمو السكان في كاليفورنيا، ونيويورك، ونيوجيرسي، وإلينوي، وماساشوسيتس، وأكثر من نصف نمو السكان في فلوريدا، وتكساس ومتشيغان وماريلاند.[٦٨] ومع كون الولايات المتحدة تخصص معظم تأشيرات المهاجرين لأقارب القادمين الجدد، فإن من الصعب على الأوربيين أن يأتوا، بينما توجد قرى بأكملها من السلفادور الآن هنا.

ويمكن رؤية نتائج الانحياز للعالم الثالث في الهجرة في إحصاءاتنا الاجتماعية. فالعمر المتوسط للأوربيين - الأمريكيين هو

٣٦، وللهسبان هو ٢٦. والعمر المتوسط لكل المولودين أجانب هو ٣٣، وهو أخفض بكثير من عمر الجماعات الإثنية الأمريكية الأسن من مثل الإنجليز وهو ٤٠، والاسكتلنديين - الايرلنديين وهو ٤٣. هذه الإحصاءات الاجتماعية تثير سؤالا: هل حكومة الولايات المتحدة بقيامها بإبعاد ما يصل نادرا إلى أن يكون نسبة (١) واحد بالمائة من عدد يقدر بأحد عشر مليون غريب غير شرعي في كل عام تفشل في واجبها الدستوري لحماية حقوق المواطنين الأمريكيين؟[٦٩] أنظر:

- ثلث المهاجرين الشرعيين الذين يأتون إلى الولايات المتحدة لم ينهوا دراسة المرحلة الثانوية. ونحو نسبة (٢٢) اثنين وعشرين بالمائة لم يحصلوا حتى على المرحلة المتوسطة، الدرجة ٩، مقارنة بنسبة أقل من (٥) خمسة بالمائة من المواطنين الذين ولدوا في البلد.[٧٠]
- أكثر من نسبة (٣٦) ستة وثلاثين في المائة من جميع المهاجرين، ونسبة (٥٧) سبعة وخمسين بالمائة ممن جاؤوا من أمريكا الوسطى، لا يكسبون عشرين ألف دولار في السنة. ومن بين المهاجرين الذين جاؤوا منذ العام ١٩٨٠ فإن نسبة (٦٠) ستين بالمائة ما تزال لا تكسب عشرين ألف دولار في السنة.[٧١]
- من بين أسر المهاجرين في الولايات المتحدة هناك نسبة (٢٩) تسعة وعشرين بالمائة تحت خط الفقر، وهي ضعف نسبة (١٤) أربعة عشر بالمائة في المولودين في البلد.[٧٢]

❁ استخدام المهاجر لطوابع الطعام، والضمان الاجتماعي المكمل، وبرامج غداء المدارس يسير بنسبة أعلى بنسبة (٥٠) خمسين بالمائة إلى نسبة (١٠٠) مائة بالمائة مما يستخدمه المولود في البلد.[٧٣]

❁ قدرت وزارة العمل في إدارة كلينتون أن نسبة (٥٠) خمسين بالمائة من خسائر الأجور الحقيقية التي استمرت لدى الأمريكيين منخفضي الدخل تعود إلى الهجرة.[٧٤]

❁ بحلول العام ١٩٩١، مثّل الرعايا الأجانب نسبة(٢٤) أربعة وعشرين بالمائة من جميع الاعتقالات في لوس أنجيلوس ونسبة (٣٦) ستة وثلاثين بالمائة من كل الاعتقالات في ميامي.[٧٥]

❁ في العام ١٩٨٠، آوت السجون الاتحادية وسجون الولايات تسعة آلاف مجرم غرباء. ومع العام ١٩٩٥ حلق الرقم إلى تسعة وخمسين ألف مجرم غرباء، وهذا الرقم لا يشمل على الغرباء الذين صاروا مواطنين أو المجرمين الذين أرسلوا من كاسترو في جسر الزوارق من ماريبل.[٧٦]

❁ بين العام ١٩٨٨ والعام ١٩٩٤ تضاعف أكثر من ثلاثة أضعاف عدد الغرباء غير الشرعيين في سجون كاليفورنيا، وذلك من خمسة آلاف وخمسمائة سجين إلى ثمانية عشر ألف سجين.[٧٧]

ولكن ليس في هذه الإحصاءات المذكورة أعلاه ما يثبت على

المهاجرين من أوروبا. وبعض الإحصاءات، عن التعليم المنخفض، على سبيل المثال، لا تنطبق على المهاجرين من آسيا.

ومع ذلك، فالهجرة الضخمة من بلاد العالم الثالث الفقير أمر "جيد للأعمال، " خصوصا الأعمال التي تستخدم أعداداً كبيرة بأجور منخفضة. في ربيع العام ٢٠٠١، أصدرت لجنة العمل السياسي للأعمال الصناعية (BIPAC) أوامر المسير من أجل الحشد الجوهري."[٧٨] وقالت صحيفة وول ستريت جورنال إن الشركات (٤٠٠) الأربعمائة ذات الأسهم الصناعية المضمونة، و(١٥٠) المائة والخمسون جمعية تجارية "سوف يدعون إلى الاستمرار بتطبيع التجارة مع الصين... وتخفيف قيود الهجرة لمواجهة حاجات العمل ..."[٧٩] ولكن ما هو جيد لأمريكا الشركات ليس بالضرورة جيدا لأمريكا الوسط. عندما يصل الأمر إلى الحدود المفتوحة، فإن مصالح الشركات والمصالح القومية لا تتطابق، إنها تتصادم. فإذا ما عانت أمريكا كسادا مستمرا، فإننا سنكتشف ما إذا كانت بوتقة الانصهار ستستمر بالعمل أو تتوقف.

ولكن الهجرة الضخمة تثير مزيدا من القضايا الحرجة وهي أكثر من الوظائف والأجور، لأن الهجرة في نهاية الأمر تتصل بأمريكا نفسها.

ما هي الأمة؟

معظم الناس الذين يغادرون أوطانهم ليأتوا إلى أمريكا، سواء كانوا من المكسيك أم من موريتانيا هم ناس طيبون، وناس محترمون. وهم يبحثون عن الحياة الفضلى نفسها التي بحث عنها أسلافنا عندما جاؤوا إلى أمريكا. وهم يأتون ليعملوا، وهم يطيعون قوانيننا، وهم يستمتعون بحرياتنا، وهم يستسيغون الفرص التي تملك أن تعرضها أعظم أمة على الأرض، ومعظمهم يحب أمريكا، وكثيرون يرغبون في أن يكونوا جزءا من العائلة الأمريكية. ويمكن للمرء أن يقابل هؤلاء القادمين الجدد في كل مكان. ولكن الرقم القياسي من المولودين أجانب عن أمريكا القادمين من ثقافات لا يجمعها إلا القليل مع الأمريكيين يثير سؤالا مختلفا: ما هي الأمة؟

يعرف بعضهم الأمة بأنها شعب واحد يشترك في الأسلاف، واللغة، والأدب، والتاريخ، والتراث، والأبطال، والتقاليد، والعادات، والأعراف، والمعتقد، شعب عاش معا عبر الزمان على الأرض نفسها تحت الحكام أنفسهم. هذه فكرة الدم والأرض عن الأمة. ومن بين الذين أكدوا هذا التعريف وزير الخارجية جون كوينسي آدمز الذي وضع هذه الشروط على المهاجرين: "يجب عليهم أن ينسلخوا من الجلد الأوروبي، وألا يستعيدوه أبدا. ويجب عليهم أن ينظروا إلى الأمام إلى ذريتهم أكثر مما ينظرون إلى الخلف إلى أسلافهم."[٨٠]

وتيودور روزفلت الذي أرعد ضد "الأمريكية - المفصولة بخط وصل(*) يشارك آدمز رأيه على ما يبدو. وودرو ويلسون وهو يخاطب الأمريكيين المجنسين حديثا في العام ١٩١٥ في فيلاديلفيا رجّع في قوله أصداء تيودور روزفلت: "إن الإنسان الذي يفكر بنفسه بصفتة منتمياً إلى مجموعة قومية معينة في أمريكا ما يزال عليه أن يصير أمريكيا."[٨١] هذه الفكرة عن الأمريكيين بصفتهم شعبا منفصلاً وفريدا، جاء التعبير عنها لأول مرة على لسان جون جاي في (الفيدراليست)(**):

> كانت العناية مسرورة في أن تعطي هذه البلاد الواحدة المتصلة إلى شعب واحد متحد - شعب منحدر من الأسلاف أنفسهم، يتحدث اللغة نفسها، ويؤمن بالدين نفسه، ومرتبط بمبادئ الحكم نفسها، ومتشابه جدا في أخلاقه وعاداته، وهو، بفضل مجالسه المشتركة، وأسلحته، وجهوده، يقاتل جنبا إلى جنب طوال حرب طويلة ودامية، قد أسس بشكل نبيل حريته العامة واستقلاله.[٨٢]

ولكن هل يستطيع أحد اليوم أن يقول أننا - نحن الأمريكيين- "شعب واحد موحد؟"

(*) «كأن يكتب أمريكي - مكسيكي مثلاً».

(**) مجموعة من ٨٥ مقالة تدافع عن الدستور الأمريكي. كتبها اليكسندر هاملتون مع جيمس ماديسون وجون جاي. ونشرها في ١٧ تشرين /أكتوبر ١٧٧٧ في ١٢ نيسان/إبريل ١٧٧٨. لذلك تركتها وكأنها اسم علم.

نحن لم ننحدر من الأسلاف أنفسهم. ونحن لم نبق نتكلم اللغة نفسها. ونحن لا ندين بالدين نفسه. ونحن لم نبق ببساطة بروتستانت، وكاثوليك، ويهود مثلما وصفنا عالم الاجتماع ول هيربرغ في مقالته المعنونة: مقالة في علم الاجتماع الديني الأمريكي في العام ١٩٥٥."[٨٣] ونحن الآن بروتستانت، وكاثوليك، ويهود، ومورمون، ومسلمون، وهندوس، وبوذيون، وتاويون، وشنتويون، وسانتيرا، وعصر جديد، وفودو، ولاأدريون غنوصيون، وملاحدة، وانسانيون، وراستافاريون، وويكان. وحتى ذكر اسم عيسى المسيح في حفل التنصيب من قبل الواعظين الذين اختارهم السيد بوش ليقدموا الابتهالات أثار غضب وصيحات بين نوع "غير حساس"، و"منفصل"، و "إقصائي."[٨٤] وطربت الافتتاحية في نيو ريبابلك تلك بهجماتها على هذه "الضربات المسيحية الساحقة" من منصة التنصيب.[٨٥] نحن لم نبق متفقين على وجود الله ولا على بدء الحياة، وماهية الأخلاقي وغير الأخلاقي. نحن لسنا "متشابهين في أخلاقنا وعاداتنا." نحن لم نقاتل أبدا "جنبا إلى جنب طوال حرب طويلة دامية." أما أعظم الأجيال فقد فعل، ولكنه يمضي. وإذا كان الباقون منا يتذكرون "حربا طويلة ودامية." فقد كانت فيتنام، ونحن لم نكن فيها جنبا إلى جنب.

نحن نبقى "مرتبطين بمبادئ الحكم نفسها." ولكن مبادئ الحكم المشتركة غير كافية لتمسكنا معا. لقد كان الجنوب "مرتبطا

بمبادئ الحكم نفسها" مثله مثل الشمال. ولكن ذلك لم يوقف الجنوبيين عن القتال لمدة أربع سنوات في حرب دامية ليكونوا أحراراً من إخوانهم الشماليين.

في تنصيبه، رفض الرئيس بوش رؤية جاي: "أمريكا لم تتوحد أبدا بالدم أو الميلاد أو الأرض. نحن تضمنا المثل التي تحركنا إلى ما وراء خلفياتنا، وترفعنا فوق مصالحنا، وتعلمنا ماذا يعني أن تكون مواطنا."[٨٦] وفي كتابه تفريق وحدة أمريكا يوافق آرثر شليسنجر مع فكرة بوش عن أمة، موحدة باعتقاد مشترك في عقيدة أمريكية توجد في تاريخنا وأعظم وثائقنا: تصريح الاستقلال، والدستور، وخطاب غيتسبرغ. ويكتب شليسنجر:

> العقيدة الأمريكية تصور أمة مكونة من أفراد يتخذون خياراتهم وهم مسؤولون أمام أنفسهم، وليست أمة قائمة على مجتمعات إثنية مصونة الحرمة. لأن قيمنا ليست مادة أو نزوة وظرفا عرضيا. إن التاريخ أعطاها لنا. إنها مركوزة في خبرتنا القومية، وفي وثائقنا القومية العظيمة، وفي أبطالنا القوميين، وفي تقاليدنا الشعبية، وفي تراثنا، وفي معاييرنا. [قيمنا] تعمل من أجلنا، ولهذا السبب، فإننا نعيش ونموت بهذه القيم."[٣٤٠]

ولكن الأمريكيين لم يبقوا متفقين على القيم، أو على التاريخ أو على الأبطال. وما يراه نصف الأمريكيين ماضيا مجيدا ينظر له النصف الآخر بوصفه ماضيا مخجلا وشريرا. كولومبوس،

وواشنطون، وجيفرسون، وجاكسون، ولينكولن، ولي -كلهم أبطال لأمريكا القديمة - وكلهم تحت الهجوم. وهذه الكلمات الأمريكية إلى أقصى حد وهي المساواة والحرية، تعني اليوم معاني مختلفة للأمريكيين المختلفين. وبالنسبة إلى "وثائقنا القومية العظيمة" فإن قرارات المحكمة العليا التي تفسر دستورنا لم توحدنا، وطوال أربعين عاما قسمونا، وبمرارة، حول الصلاة في المدرسة، والاندماج، ونقل الطلاب، وحرق العلم، والإجهاض، والكتابة العارية والوصايا العشر.

وكذلك الإيمان بالديمقراطية غير كاف ليمسكنا معا. نصف الأمة لم يهتم ولا حتى بالتصويت في انتخابات الرياسة عام ٢٠٠٠، وثلاثة من خمسة لا يصوتون في سنة الانتخابات التي لا يكون فيها انتخابات للرياسة. والملايين لا يستطيعون تسمية أعضاء مجلس الشيوخ (الكونجرس) الذين يتبعون لهم، أو الشيوخ (السيناتورات) أو قضاة المحكمة العليا. إنهم لا يأبهون.

وسواء أكان المرء متمسكا بفكرة الدم والأرض عن الأمة، أو بفكرة العقيدة، أو بكلتا الفكرتين، فما من أمة منهما هي التي كانت موجودة في الأربعينات من ١٩٤٠، أو الخمسينات من ١٩٥٠، أو الستينات من ١٩٦٠. نحن نعيش في البلاد نفسها. ونحكم بالقادة أنفسهم، ولكننا هل نستطيع أن نقول بصدق إننا مازلنا أمة واحدة وشعباً واحداً؟

من الصعب أن نقول نعم، ومن الأصعب أن نعتقد أن أكثر من مليون مهاجر في كل عام، يأتون من كل بلد على سطح الأرض، وثلثهم يدخل عنوة سوف يعيدون تشكيل الروابط لأمتنا المتفرقة الوحدة. لقد حذر جون ستيورات ميل من أن " المؤسسات الحرة تلي المستحيل في بلد مكون من قوميات مختلفة. بين شعب بدون شعور الأخوة، خصوصا إذا كان أفراده يقرؤون ويتحدثون لغات مختلفة، فإن الرأي العام الموحد الضروري لعمل الحكومة التمثيلية لا يمكن أن يوجد."[٨٨]

نحن على وشك أن نكتشف أن ميل كان على حق، أو أنه لم يكن كذلك

الفصل السابع

الحرب على الماضي

"كي تدمر شعبا يجب عليك أولا أن تجتث جذوره"[١]

ألكساندر سولجينيتسين

كيف يعمل المرء على اجتثاث جذور شعب؟ جواب: يدمر ذاكرته. يحرم شعبا من معرفة من هو ومن أين جاء.

قال رونالد ريغان في خطابه الوداعي إلى الشعب الأمريكي: "إذا نحن نسينا ماذا فعلنا، فلن نعرف من نحن، إنني أحذر من اقتلاع... الذاكرة الأمريكية، فذلك ما يمكن أن ينتج عنه، في نهاية المطاف، تآكل الروح الأمريكية."[٢]

في القرون الوسطى، فرض العثمانيون الأتراك على مسيحيي البلقان ضريبة دم. ولد واحد من كل خمسة أولاد. كان الأطفال يؤخذون من آبائهم، وينشّؤون ليكونوا مسلمين صارمين ليصيروا النخبة المتعصبة من جنود السلطان، أي، الإنكشارية، الذين كانوا يرجعون بعد ذلك لاحتلال واضطهاد الشعوب التي ولدتهم. وبالنسبة للدولة الحديثة فإن المعادلة لمسح الذاكرة أعطاها أورويل

عندما صار الكشافة متعصبين

قال عالم اللاهوت هنري فان تيل: "الثقافة هي الدين وقد برز للخارج وصار صريحا". وكتب رسل كيرك، وهو يردد أصداء المؤرخ كريستوفر داوسون، يقول: إن الثقافة كلها ذات جذور في "الشعائر"، أي، في الدين. ويحاجج بروس فروهنن ويقول: "هذا لم يبق مجرد لعب بالكلام." وبروس فروهنن هو الزميل الكبير في مركز رسل كيرك للتجديد الثقافي:

> الثقافة والشعائر تشتركان في جذر واحد في اللاتينية يعني يفلح الأرض ويحرثها ويربي، مثلما هو المعنى في فلاحة الإنسان لحديقته أو في تربية الإنسان لشخصيته... وكانت نقطة داوسون هي أن الشعب ينمو معا من عبادته المشتركة. ومثلما ينمي الشعب عادات الطقوس المشتركة_سواء أكانت طقوسا رسمية أو غناء بسيطا للتراتيل _فهو أيضا ينمي عادات اجتماعية تخص أشياء مثل المطبخ، والفن، والشعائر اليومية. هذه العادات المشتركة تربط أفراد الشعب معا في ثقافة مشتركة. وهذه العادات المشتركة تربط أيضا، إلى الأبد، ثقافة الشعب مع دينه المشترك.[٨٢]

إن هدف العلمانيين هو قطع الروابط بين ثقافتنا وبين "الدين المشترك." فإذا حدث ذلك تموت الثقافة. ومرة أخرى الدكتور كيرك:

> كل الثقافة تنشأ من الدين. وعندما يفسد الإيمان الديني، لابد أن تتدهور الثقافة، على الرغم من أن الثقافة تبدو غالبا وكأنها تزدهر

النقص في هؤلاء الأبطال. لقد صار هذا إجراء عمليا معياريا في السياسات الأمريكية.

الثقافيون الماركسيون فهموا هذا. وكانت نظريتهم النقدية نموذجا نمطيا لسياسات التدمير الشخصي. ما تفعله سياسات التدمير الشخصي للقادة الشعبيين المحبوبين تفعله النظرية النقدية لأمة بكاملها من خلال الهجمات المتكررة على ماضي الأمة. إنها المعادل الأخلاقي لتخريب القبور وتدنيس جثث أسلاف الأمة.

إن العديد من المؤسسات التي تتولى الرعاية الآن لماضي أمريكا تعمل وفق مبادئ الأخ الكبير في وزارة الحقيقة: أسقط عبر "ثقب الذاكرة" القصص الوطنية لعظمة أمريكا ومجدها، وأنتج تواريخ كل "العيوب والنقائص" الجديدة التي تبرز جرائمها وخطيئاتها، فتكشف أن ما أحببناه كان كريها وأن الذين بجّلناهم كانوا سيئي السمعة بل كانوا جديرين بالازدراء. العديد من الأبطال القدامى لم يعيشوا بعد ميادين القتل التي أوجدها التاريخ الجديد. والهدف النهائي هو: دمر الوطنية، اقتل حب البلاد، كسّر معنويات الشعب، فكك أمريكا. ولن يستطيع التاريخ بعد ذلك أن يوحدنا ويلهمنا، بل هو يوهن من عزائمنا ويقسمنا إلى أبناء الضحايا وأبناء الأشرار في تاريخ أمريكا.

حب الطفل لأمه ينمو نموا طبيعيا، أما حب الوطن فيجب أن يُعلم تعليما. وبالتعليم وحده فقط يستطيع الطفل أن يعرف الشعب ويعرف الأمة التي ينتمي إليها. وبالنسبة إلى الذين ولدوا قبل الحرب العالمية الثانية جاء حبهم لبلادهم بسهولة. فالراديو، والأفلام، والصحف، والكتب الهزلية، والمحادثات كلها وصّلت الرسالة نفسها: نحن كنا شعبا موثوقا، هوجمنا بدون إنذار في بيرل هاربر. والكثير من الأمريكيين الشجعان ماتوا هناك. وآخرون طعنوا في مسيرة الموت في مكان يسمى باتان. والآن كنا نعيد الدفع لليابان.

كان هناك روح التضامن والوحدة عندئذ على حال لا تشبه أي حال عرفناها منذ ذلك الوقت. لقد كنا فعلا أمة واحدة لا يمكن أن تنقسم وكنا شعبا واحدا. ولكن الحرب لم تكن فوق الشكوك والمساءلة. في كل ليلة، سمع المرء مناقشات حول "التعتيم" على قدرة الألمان على قصف واشنطون بالقنابل، والحكمة من معاونة ستالين، ومميزات ايزنهاور في مقابل ماك آرثر، وعن "خيانة" بولندا، ومن الذي كان مسؤولا عن كوننا قصفنا ونحن غير مستعدين في بيرل هاربر. واليوم "الحرب الجيدة" هي من بين الأحداث القليلة في التاريخ التي تحتفظ ببريقها، وما تزال لحظة لامعة مشرقة. ومهما كانت الحكمة في القرارات، فإن أعداءنا كانوا تجسيدا للشر، وكنا نحن إلى جانب الله.

كوريا كانت مختلفة، كانت حربا مفرقة في أمة منقسمة، كانت أمريكا ترومان. ولكن، خلافا لفيتنام، لم يكن هناك من أمريكي وطني أوحى بأن الكوريين الشماليين أو الصينيين الشيوعيين كانوا على حق وأن أمريكا كانت على باطل. كان الانشقاق هو انشقاق الجنرال برادلي: حرب كوريا كانت "الحرب الخطأ، في المكان الخطأ، في الزمان الخطأ، مع العدو الخطأ."[٤]

مع آيزنهاور جاءت نهاية لكوريا ولمناقشات ضارية حول "الخيانة في يالطا" وحول "من أضاع الصين" وبداية عصر جديد، عصر المشاعر الطيبة الذي دام حتى ٢٢ تشرين أول أكتوبر ١٩٦٣. ولكن بعد اغتيال الرئيس كنيدي، بزغت ثقافة معادية شرعت في تفجير أساطير أمريكا، ونزع الأسطرة عن تاريخها، ونسف أبطالها. ومع المتعاونين مع هذه الثقافة المضادة من وسائط الإعلام، لا تكاد هذه الثقافة المضادة تغادر مؤسسة لم تجرحها أو بطلا لم تلوثه. لقد نشأنا في عصر من الإيمان. وشخنا في عصر من عدم الإيمان، ندرأ عن أنفسنا بشكل ضعيف الدك المدفعي الذي تقصفنا به بلا رحمة مدفعية ثقافة معادية لا تقبل أي هدنة.

التاريخ القديم

ليس من وقت بعيد، كان كل طفل أمريكي يعرف أسماء كل المستكشفين العظماء - ماجلان، ودا غاما، ودوسوتو، وكورتيس، وهنري هدسون. ولكن أعظمهم قاطبة كان كولومبوس، وذلك لأنه اكتشف أمريكا في حدث هو من أعظم أحداث تاريخ العالم. كتب تاريخنا بدأت من هنا. في المدارس الكاثوليكية، تركز الانتباه على قصص المستكشفين الفرنسيين والإسبان والشهداء الأمريكيين الشماليين مثل الأخ اسحق جوكس، المبشر الديني الذي ذهب إلى الإيروكواي وضرب بالفؤوس حتى الموت قرب ألباني. ولكننا نحن أيضا، وجدنا الفرصة لجون سميث وجيمستاون والحجاج وصخرة بلايموث.

من هناك قفزت تواريخنا ١٥٠ مائة وخمسين عاما إلى الحرب الفرنسية والهندية، وقانون الطوابع، ومذبحة بوسطن، وحفلة شاي بوسطن، "أعطني الحرية أو أعطني الموت"، وبنكر هل، وإعلان الاستقلال، ووادي فورج، "إنني آسف لأنني لا أملك إلا حياة واحدة أعطيها لبلادي"، وبنيدكت آرنولد، وساراتوغا، واستسلام كورنواليس عند يوركتاون.

وسار التاريخ الأمريكي من نصر إلى نصر. حرق البريطانيون

البـيت الأبيض، ولكن دوللي مـاديسـون أنقـذ الرسـوم واللوحـات. وتماسك رجالنا "طوال الليل" أمام قصف فورت ماك هنري، ورد آندي جاكسون على البريطانيين في نيو أورلينز. وجاءت آلامو بسرعة، حيث رفض أبطال كروكيت وتكساس أن يستسلموا وماتوا إلى آخر رجل على حراب المكسيكيين. وما من أحد أوحى أن أمريكا سرقت أي شيء. وبعد ألامو تم تدمير المكسيكيين. وفي الخمسينيات من ١٩٥٠ اجتاحت أمريكا نوبة من الجنون باسم ديفي كروكيت، بفلم سينمائي، وعرض تلفزيوني، وحتى برقم قياسي لأفضل الكتب مبيعا حول "ملك الحدود البرية". ديفي جعل الممثل فيس باركر مشهورا. وكان هناك العديد جدا من الأطفال الذين يتجولون في القبعات القماشية التي اتخذها سكان الراكون قبعة جادة. وسجل نجم الروك جوني هورتون" معركة نيو اورلينز" لجيمي دريفتوود:

"في ١٨١٤ قمنا برحلة صغيرة

مع العقيد جاكسون

نزولا مع المسيسيبي الهائل

وأخذنا القليل من لحم الخنزير

وأخذنا القليل من الفاصولياء

وأمسكنا بالبريطانيين الملاعين السفاكين

في مدينة تسمى نيو أورلينز"[٥]

في تواريخنا للحرب الأهلية، كان لي وجاكسون جنديين عظيمين، وكانا رجلين من النبلاء. وكانت مسيرة شيرمان إلى البحر صفحة سوداء في التاريخ.كانت إعادة البناء قاسية. وكان الجنوبيون، بعد كل شيء، إخوانا مواطنين أمريكيين قاتلوا بشجاعة وكان ينبغي أن يعاملوا بشرف. وكانت أغنيات "ديكسي" أكثر شعبية من أغنية "ترنيمة المعركة للجمهوريين." ولكن لينكولن كان البطل العظيم، وله عطلة على شرفه. فهو الذي أنقذ الاتحاد، وحرر العبيد، ليغتاله جون ويلكيس بوث في مأساة من أكبر مآسي التاريخ الأمريكي، لأن آبي(*) الصادق لم يكن ليسمح بإعادة البناء(**) أبدا. هكذا علمونا.

بعد الحرب الأهلية جاء الفوز بالغرب. فقد عبر الرواد - رجالا ونساء وأطفالا على حد سواء - السهول الكبيرة، متحدّين الطقس المريع، والتهديد المستمر من مذابح الهنود. وكان الجنرال كستر والخيالة السابعة أبطالا في كتب تاريخنا. لقد ماتوا بأحذيتهم وهم على رأس عملهم. هكذا قال لنا إيرول فلين ورونالد ريغان وهما يمثلان ذلك في الأفلام. وكان ذلك الزمان هو زمان بارونات

(*) آبي: لقب لينكولن.

(**) فترة إعادة البناء (١٨٦٥-١٨٧٧) وكانت فيها ولايات الكونفيدرالية الجنوبية تحت سيطرة الحكومة الاتحادية قبل أن يعاد السماح لها بدخول الاتحاد ثانية.

الصناعة الذين هيمنوا على السكك الحديدية والبنوك حتى واجهوا ندهم المتمثل في تدي روزفلت " كاسر الاحتكارات " العظيم. بطل سان جوان هلْ أيضا بنى قناة بنما، وهي عجيبة من عجائب العبقرية الهندسية الأمريكية. وكانت تلك أيام إديسون، والأخوة رايت، وأليكساندر غراهام بل عندما اخترع الأمريكيون كل شيء يستحق الاختراع إلى حد كبير.

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى، عندما أرسل الرئيس ويلسون جنودنا بعيدا من أجل أن "يجعلوا العالم آمنا من أجل الديمقراطية." وبقيادة الجنرال بيرشنغ، وبالرقيب يورك بطل الحرب، هزمنا ألمانيا التي كانت قد بدأت الحرب بقصف سفننا بالطوربيد. وبعد ذلك، هاجمتنا اليابان بشكل غادر في بيرل هاربر. وهكذا كان علينا أن نرجع ثانية لننهي المهمة، فدمرنا موسوليني وهتلر، على رغم أن ستالين كان في المدارس الكاثوليكية فظيعا من كل الوجوه. لم يكن هناك جبهة شعبية في مدرسة القربان المقدس التي درس فيها المؤلف. والآن كان علينا أن ننقذ العالم من "الشيوعية الملحدة". وفي نهاية القداس اليومي أنشدنا صلاة من أجل هداية روسيا. وأسقطت هذه الصلاة فيما بعد لتحل محلها صلاة "من أجل السلام" وهي صلاة أقرب إلى أن تكون صلاة تناسب أجواء تخفيف التوتر والتعايش.

والآن إن ما سبق ليس عرضا مختلفا للتاريخ الأمريكي. ومع ذلك فإنه في لبابه هو هذه الحقيقة: نحن - الأمريكيين - لنا تاريخ مجيد، ونحن أغنى وأعظم من أي شعب حديث، أو أمة أو أي جمهورية وجدت قبلنا. هل ارتكبت الأخطاء والجرائم وغطيت؟ بالتأكيد. هذا يصح على كل أمة. ولكن ليس هناك أمة انتصرت في عدد من المساعي مثلما انتصرت أمريكا، وليس هناك أي حاجة لمن هم في الثامنة من العمر للمحاجة في فورت بيللو أو في مواعيد الغرام الخاص بكل من وارين هاردينغ أو جون ف. كنيدي.

لقد أسسنا المدارس العامة في أمريكا لتنشئة مواطنين صالحين ووطنيين سيقومون بحماية بلادهم وصونها. ويجب على هذه المدارس أن تقود الأطفال عبر دورات ستعلمهم أن يحبوا أمريكا. وعندما يقرأ الطفل السير، والتواريخ، والقصص، والقصائد وعندما يسمع الأغنيات ويرى الرسوم التي تخبره عن الماضي القومي المجيد، فإن جذور الوطنية تنغرس وتعلق. ومع الحب المتنامي للبلاد تأتي رغبة متنامية ليكون الطفل إلى الأبد جزءا من هذا الشعب، وتأتي إرادة التضحية، والاستعداد حتى للموت، للدفاع عن هذا الشعب، مثلما يدافع المرء عن عائلته الخاصة.

في العهد الجديد يلوح المسيح بعذاب جهنمي لأي إنسان يدمر الإيمان في "هؤلاء الصغار": "كان الأفضل له لو يعلق حجر

الطاحونة حول عنقه وأن يغرق في عمق البحر."[60] ومع ذلك فإن أطفال أمريكا اليوم يجري سلبهم وتجريدهم من تراثهم، ويخدعون عن حقهم في أن يعرفوا التاريخ الرائع لبلادهم. في كتاب تفريق أمريكا ينقل آرثر شليسنجر عن شخصية من كتاب ميلان كونديرا، كتاب الضحك والنسيان، تقول:

> الخطوة الأولى في تصفية شعب هي أن تمسح ذاكرته. دمر كتبه، وثقافته، وتاريخه. ثم اجعل شخصا ما يكتب كتبا جديدة، واصنع ثقافة جديدة، واخترع تاريخا جديدا. ولن يمر وقت طويل حتى تبدأ الأمة بنسيان ما كانت وما تكون.[7]

وتضيف شخصية أخرى: "صراع الإنسان ضد السلطة هو صراع الذاكرة ضد النسيان."[8] هذا صراع أمريكا القديمة ضد الثورة الثقافية. ومع ذلك، انظر إلى ما فعلته من قبل وزارة الحقيقة عندنا لأبطالنا ولتاريخنا.

وداعا يا كولومبوس

في الذكرى الثلاثمائة لرحلة كولومبوس، في العام ١٧٩٢، أعيدت تسمية كلية الملك في نيويورك لتسمى كولومبيا، وسميت عاصمة الولايات المتحدة باسم مقاطعة كولومبيا. وفي العام ١٨٨٢ لتكريم "نبي ... هو أداة للعناية الإلهية". نظم الكاثوليك

الأيرلنديون جمعية فرسان كولومبوس.[٩] أميرال البحر المحيط كان هو كولومبوس الذي نشأنا معه، ولكن، كما قهقه كاتب الافتتاحية غاري ويلز في مراجعات كتب نيويورك:

> حدث شيء مضحك في الطريق إلى الاحتفال بالذكرى الخمسمائة لاكتشاف أمريكا... لقد سُلب كولومبوس. وهذه المرة كان الهنود بانتظاره. إنه يأتي الآن مع مظهر اعتذاري. ولكنه ليس اعتذاريا بما فيه الكفاية، بالنسبة لبعضهم... إنه يأتي ليجلل بالخزي.[١٠]

كتاب كيرياترك سيل: فتح الجنة، وكتاب جان كيرو: كولومبوس: اغتصاب الجنة، اتهما المكتشف بأنه "أدخل الرق إلى الغرب، وأطلق إرثا من العار والعنصرية العرقية التي تستمر إلى هذا اليوم"[١١] وألغت الأمم المتحدة احتفالها بكولومبوس، ودعا المجلس الوطني للكنائس أن تنحى جانبا الذكرى الخمسمائة لرحلة كولومبوس بوصفها وقتا للتوبة عن "إبادة الجنس، والرق، وإبادة البيئة، والاستغلال" وهي القضايا التي أدخلها المكتشف الإيطالي إلى الأمريكيتين.[١٢] ويكتب كاتب الافتتاحية جورج ساموبلي من صحافة نيويورك:

> في العام ١٩٩٢ جاءت الذكرى الخمسمائة لرحلة كريستوفر كولومبوس عبر الأطلسي، وذهبت هذه الذكرى مع القليل الذي لا يكاد يذكر من الاحتفال الوطني، والاستنكار الرتيب فقط لقسوة

الفاتحين الأوروبيين على القارة، ولجشعهم، ووحشيتهم هو الذي خرق الصمت الوطني المحرج.[13]

وعندما سعى الأمريكيون الطليان إلى رفع راية لكولومبوس في استعراضهم في تشرين أول اكتوبر ٢٠٠٠ في دنفر، هدد متطرفون من الحركة الامريكية الهندية بالقيام بأعمال عنف. وقال رسل مينز وهو مشاغب متمرس من الحركة الأمريكية الهندية إن كولومبوس "يجعل هتلر يبدو مثل حدث منحرف."[14] وانسجاما مع مسيرة قوى التقدم، غيرت جامعة كاليفورنيا في بيركلي على عجل يوم كولومبوس إلى يوم شعوب أهل البلاد الأصليين.[15]

إن شيطنة المستكشفين والفاتحين الأسبان العظماء بوصفهم قتلة عنصريين لا يرجى صلاحهم هي شيطنة كاملة تقريبا. أمريكا، كما يقال، لم: "تكتشف" ولكنها غزيت من الأوروبيين الحاملين للأمراض الذين أحرقوا الثقافات الأهلية مثلما دمروا القرى الأهلية. وإن حرق كورتيس لسفنه ومسيره متوغلا في البلاد مع حفنة من الجنود للتغلب على الأزتك وهدايتهم هو الآن إبادة جنس ثقافية ضد شعب محب للسلام. أما كون الأزتك أنفسهم فاتحين جعلوا أعداءهم المهزومين عبيدا وقدموا أضحيات من الدم البشري إلى هويتزيلوبوكتلي (Huitzilopochtli) إلههم للشمس والحرب، فهو أمر يتم تجاهله. وماذا يعنون بقولهم "إبادة ثقافية؟" عندما وصل

الأوروبيون إلى الأمريكيتين، كانت بعض القبائل من سكان البلاد الأصليين ما تزال تمارس أكل لحوم البشر. ولم تكن قبيلة واحدة منها قد اخترعت العجلة.

الآباء المؤسسون

والآن جاء دور الآباء المؤسسين. خمسة من أول سبعة من رؤسائنا، باستثناء من يسمون آدم، امتلكوا عبيدا. جيفرسون كان منافقا فقوله "جميع البشر خلقوا متساوين" وهو فقرة في إعلان الاستقلال كان يتناقض مع تملك جيفرسون طوال عمره للعبيد. واستغلاله الجنسي لسالي هيمينغز التي رفض جيفرسون بشكل جبان أن يعترف بأطفالها الخلاسيين منه كان استغلالا مخزيا. واشنطون أيضا كان مالكا للعبيد ومساهما في أعظم شر في تاريخ الولايات المتحدة. ماديسون كان مع ذلك مالكا آخر. لقد كان داعية إلغاء الرق وليام لويد غاريسون محقا عندما دعا الدستور الذي كتبه ماديسون "اتفاقية مع الموت وعهدا مع جهنم."[١٦] وبالصفقة الفاسدة التي ختمت على نجاح الاتفاق الدستوري، عُدّ العبيد على أنهم ثلاثة أخماس الشخص فقط. وبالنسبة لأندرو جاكسون، هيكوري العجوز، فقد كان حسب حكم المؤلف المعلق روبرت نوفاك "مجرما قاتلا، وغوغائيا، ووحشا، وعرقيا عنصريا، وفاسدا حتى

أخمص قدميه". وكان مذنبا بمجازر إبادة الجنس في حروبه الهندية.[17]

إلى أي مدى كانت وزارة الحقيقة عندنا ناجحة في تشكيل رأي الأمريكيين نحو ماضي بلادهم؟ عندما كان آباؤنا شبابا، كان ٨٩ بالمائة من الرجال الأمريكيين و٩٤ بالمائة من النساء الأمريكيات يعتقدون أن هذه البلاد هي أعظم بلاد على ظهر الأرض.[18] أما اليوم، فإن ٥٨ بالمائة فقط من الرجال الأمريكيين يحددون الولايات المتحدة بوصفها "افضل بلاد في العالم" و٥١ بالمائة فقط من النساء الأمريكيات يوافقن على ذلك.[19]

الدكتور ديفيد بيغلي، وهو كاتب افتتاحية في مجلة فرونت بيج، يقص قصة عن الكيفية التي تقتلُ بها المناوأةُ الجديدةُ للتاريخ حبَّ البلاد في أرواح الشباب. هو نفسه من نسل شعب الكومانشي، وكان يقود فصله في دراسة علم النفس الاجتماعي في ولاية أوكلاهوما في نقاش يتسم بالحيوية عن الوطنية وماذا تعني أن تكون أمريكياً عندما قامت بنت جميلة شابة بيضاء وصدمت الفصل بالملاحظات التالية:

> انظر يا دكتور بيغلي، أنا لا أرى أي شيء يتصل بثقافتي يجعلني فخورة. إنها كلها لا شيء. عرقي لا شيء ليس إلا... انظر إلى ثقافتك. انظر إلى التقليد الأمريكي الهندي، أنا أعتقد الآن أن ذلك

عظيم حقا. لديك شيء تستطيع أن تكون فخورا به. ثقافتي لا شيء... أنا لست فخورة بالكيفية التي جاءت بها أمريكا للوجود."[20]

وقال الدكتور بيغلي: "في أحد المستويات لم أكن متفاجئا. فأنا كنت أعرف رئيس قسم تاريخنا الأمريكي في ولاية أوكلاهوما... وقد ميزت لهجته الليبرالية المبتذلة... لقد أخذت البنت دورة من دوراته وكانت لها النتائج التي يمكن التنبؤ بها."[21] ومع ذلك فإن بيغلي ذهل من التهيب والصمت الذي بدر من البقية الباقية من الفصل عندما قامت هذه المرأة بالتشهير بشعبها الخاص وأمتها مثلما شهرت بشعبهم وأمتهم. ما من امرأة هندية كان يمكن أن تتجاسر على أن تقول مثل هذا الشيء في حضور الرجال الهنود.

إن الرجال الداعين لإعادة كتابة ماضي أمريكا قد قاموا بواجبهم على خير وجه.

تمعن في رد الفعل نحو فلم من أشيع أفلام العام ٢٠٠٠ وهو الوطني.

الفلم من بطولة مل جبسون في دور بنجامين مارتن، وهو بطل أمريكي من الحرب الفرنسية والهندية وأب لسبعة يريدهم أن يبقوا خارج الثورة. ولكن مارتن ينجر إلى القتال عندما يتم قتل ابنه وهو

لم يكمل العشرية الثانية من العمر أمام عينيه على يد ضابط بريطاني وحشي، وعندما يؤخذ ابنه الأكبر بعيدا، وهو من الثوار، كي ينفذ به حكم الإعدام. وتجري القصة في كارولينا الجنوبية. وشخصية مارتن تستند إلى شخصية فرانسيس ماريون، "ثعلب المستنقع"، وعلى دانييل مورغان رجل العصابات المشهور. وشخصية العدو البريطاني تستند إلى العقيد باناستر تارلتون الذي كان يتصرف بلا رحمة بشكل أسطوري.

وقد أثار غضب النقاد منظران قويان لا يُنسيان. الأول بعد أن رأى مارتن ابنه يقتل بدم بارد فإنه يأمر ولديه الصغيرين البالغين من العمر ثلاثة عشر عاما وعشرة أعوام أن يحملا البنادق ويتبعاه. ويقوم الثلاثة بعمل كمين للدورية البريطانية التي أطلقوا عليها النار حتى مزقت إربا إربا، ويقوم مارتن بإنهاء آخر جندي بريطاني بساطور. لقد قام الأب والابنان بالثأر لفظاعة وقعت وأنقذوا ابنا وأخا آخر كان على وشك أن يعدم استبدادا. والمنظر الثاني يقوم فيه الضابط البريطاني بأخذ ثأره، وذلك بأن جمع عشرات من المدنيين من قرية مارتن في كنسية، ثم أمر بالأبواب فأغلقت ثم أمر بالكنيسة فأحرقت.

عند مشاهدة فلم الوطني، هاج بعض نقاد السينما كالمسعورين أكثر من هياج مارتن عندما رأى ابنه يعدم. وكتب جيمس فيرنيير

في بوسطن هيرالد: "لا تخطئوا فتحسبوا ?الوطني ?تاريخا، إنه ترغيب بالمبيعات لأمريكا."[٢٢] وماذا سيكون الخطأ في ذلك؟

وكتبت آن هورنادي في بلتيمور صن: "الإفراط حتى بلوغ الذروة في تصنع الصلاح والتقوى والإفراط في العاطفة مبتذل مثل الرابع من تموز /يوليو." وفي الحقيقة، "هو أكثر بكثير غشا وإيذاء من أي شيء ينبع من خيال اوليفر ستون."[٢٣] ولكنه مؤذ لمن؟ لقد عنى ستون ضمنا أن السي آي إيه، وعسكر الولايات المتحدة، وليندون جونسون قد تآمروا في قتل جون اف. كينيدي.

وبرز مخرج الفلم سبايك لي من الفلم كالمصاب بداء السكتة، يكاد يختنق من الغضب. ورسالته إلى هوليوود ريبورتر تستحق أن تقتبس مطولا. وذلك لأنها تعكس كالمرآة الوضع العقلي لنخبتنا الثقافية الجديدة:

> ذهبت أنا وملايين الأمريكيين الآخرين لمشاهدة «الوطني» وكلنا خرج من المسرح ينفث غضبا... «الوطني» هو دعاية... صارخة محضة. غسل كامل مموه لتبييض التاريخ، تاريخ مراجعة الأسس...
>
> طوال ثلاث ساعات تقريبا، راوغ "الوطني" عن الرق، أو حاد عنه أو أهمله إهمالا كاملا ...
>
> أمريكا بنيت على إبادة جنس الأمريكيين من السكان الأصليين وعلى استعباد الشعب الأفريقي. والقول بغير ذلك جريمة...[٢٤]

في رسالته الغاضبة، اعترف لي أنه كان عليه أن يمسك نفسه ليحجزها عن الصراخ على الشاشة. وهاجم كاتب القصة روبرت رادات لأنه لم يجعل شخصية جبسون مالكا للعبيد ولم يضع بعض الهنود على الأقل في فلم الحرب الثورية: "أين كانوا"؟ هل كان جون وجون _ فورد و وين _ قد استأصلوهم من قبل؟ "وانتقد لي، وقد استشاط غضبا من المنظر الأخير الذي يرفع فيه بنجامين مارتن عاليا علما أمريكيا بثلاث عشرة نجمة ويهجم بشكل بطولي على خطوط البريطانيين، وانتقد هذا المنظر ووصفه بأنه: مُدعاة للضحك."

ما يستخرج من رسالة لي هو مناوأة لأمريكا بشكل لدود – أي: إن بلادنا كانت قد بنيت على "إبادة الجنس" وعلى "الاسترقاق" – وقناعته المستقرة هي أن أي شخص يرفض هذا الرأي عن تاريخ الولايات المتحدة يكون شخصا "مجرما." إنّ عقلا مريضا أو مجرما، كما يقول لي، هو الذي يستطيع أن يرسم الثورة الأمريكية بوصفها ثورة بطولية، ومشرفة، وأخلاقية، ولا تتعامل مع الهنود الحمر الذين قتلوا في المجازر. وإن تصوير أي سود في أمريكا بوصفهم أحرارا، أو سعداء، أو موالين هو "دعاية" وفظيعة من الفظائع، ولا يمكن أن يكون ذلك صحيحا.

في صالون. كوم (Salon. Com) يستكشف جوناثان فورمان جذور هذا الفلم الشرير فيجدها حيث يحتمل أن تتوقعها: "الجنود

المتوحشون في "الوطني" يتصرفون على نحو أكثر شبها بفرق أنساق الحماية المسلحة (اس اس الألمانية) منهم بالقوات البريطانية الحقيقية. هل لفلم "الوطني" دافع خفي"؟[٢٥]

تستطيع في الواقع أن تحاجج... بأن "الوطني" فلم فاشيستي (وأنا استخدم الكلمة هنا بمعناها الحرفي، وليس بمعنى مرادف لكلمة "سيئ") بقدر ما يكون فاشيستيا أي شيء عمل في عقود ... "الوطني" يقدم طقسا عاطفيا عميقا للأسرة، وهي تعرض أبطالا لهم طلعة آرية غير عادية...

في منظر واحد تسلح اثنان من الأولاد من والديهما، وهما أشقران لم يبلغا العشريتين، وتحولا إلى معادلين للجنود - الأولاد من الرجال الذئاب الذين يظن أن الرايخ الثالث قد جندهم لشباب هتلر لتنفيذ هجمات العصابات ضد الحلفاء الغزاة.

في أكثر تتابعات الفلم إثارة، يستثار جيبسون بالأجنبي إلى أن يصير واحدا من أكثر الرجال دموية، رجال فوق مستوى البشر، رجال الغابة البارعين باستخدام الفأس المحبوبين جدا في الرموز الشعبية النازية...

والسكان السود في كارولينا الجنوبية - حيث تجري أحداث الفلم- يصورون بشكل أساسي على أنهم عبيد سعداء موالون، أو أنهم رجال سعداء بشكل مساو وأحرار (وهو غير مرجح).[٢٦]

ويكتب فورمان، إن حرق الكنيسة يكرر القسوة الفظيعة النازية في القرية الفرنسية اورادور سور غلين في حزيران /يونيو١٩٤٤. "إن المخرج الألماني رونالد إمريتش" قد يكون لديه "جدول أعمال لاشعوري."[٢٧] تماما، وبتحويل اورادور إلى كارولينا الجنوبية، عمل هو وكاتب النص روبرت رودات "عملا شيئا ما قريبا بشكل غير سار إلى مراجعة المحرقة (الهولوكوست). عملا فلما سيكون له اثر في تطعيم الجمهور ضد الرعب التاريخي الفريد في اورادور... وبذلك يعيدان تأهيل النازيين ضمنا..."[٢٨] وكتب فورمان: هذا هو نوع الفلم الذي استخدمه وزير الدعاية النازي جوزيف غوبلز في "جهود هدفت إلى إشعال لهيب البغض للإنجليز في قلوب الانعزاليين."[٢٩]

ويحس المرء بإغراء ليقول: "نوّر أيها الرجل." فمن سوء الحظ، في العمل هنا عقل مشروط بعمق ومنغمس في مناوأة التاريخ. فالتصوير المؤثر لوالد وسبعة أطفال محبين مطيعين يمثل "شعائر الأسرة". وقتالهم البطولي معا للإطاحة بالحكم البريطاني وكسب حرية أمريكا هو "فاشيستي". فابنا مارتن من عمر الثالثة عشرة، والعاشرة، هما مثل "الجنود الأولاد الذئاب" من الرايخ، لأنهما "أشقران" و"طلعتهما آرية."[٣٠] وبالنسبة لفورمان فإن الفاشيست في كل مكان.

لا يستطيع فورمان أكثر مما يستطيع سبايك لي أن يتسامح مع تصوير العبيد أو الرجال المحررين بوصفهم جنودا أمريكيين

فخورين ووطنيين. ومع ذلك، فإن هذا التصوير ليس إلا تصويرا سينمائيا لشريحة منسية من تاريخنا. فالزنوج الأحرار خدموا جنودا وقاتلوا في الثورة، تحت قيادة جاكسون في نيو أورلينز، ومن أجل الاتحاد، ومن أجل الكونفيدرالية تحت بيدفورد فوريست. إن رد الفعل البالغ ما فوق القمة لفلم جيبسون "الوطني" يشهد على الكيفية التي أشربت بها نخبنا الثقافية قبيلتنا الجديدة من الكتبة المخربشين كراهية انعكاسية تقريبا لماضي أمريكا وللرجال الذين كنا نحترمهم في الماضي بوصفهم آباء ووطنيين.

بالنسبة إلى نخبتنا الثقافية الجديدة، كانت الحرب الأهلية الأمريكية ثورة لمالكي العبيد وللخونة لتدمير الاتحاد لصون مؤسستهم الكريهة، والقضية التي خسرت كانت قضية وضيعة وعديمة الشرف. ومن هنا، ينبغي أن يكون العلم الكونفيدرالي منفرا بقدر ما يكون الصليب المعكوف للنازية منفرا. والعنصريون البيض فقط الأغبياء أخلاقيا، هم الذين يدافعون عن تلك الراية الدموية. وبخصوص لي وجاكسون، فقد قادا مئات الآلاف إلى حتوفهم في قضية شر. وإذا كانت الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون تطالب بأن نتخلص الساحات العامة من كل لوحات الكونفيدرالية، أو تماثيلها، أو أعلامها فهم ليسوا في مطالبهم هذه ضمن حدود حقوقهم وحسب، بل هم على حق أخلاقيا ايضا.

قبل وقت غير طويل، كانت قصص الرواد، والجنود، والمستوطنين، ورعاة البقر(الكابوي) الذين "كسبوا الغرب" واستأنسوا قارة بعد أن خاضوا في صراع تاريخي ضد طبيعة لا ترحم، وضد الخارجين على القانون، وضد الهنود، كانت تلك القصص موضوع كتب، وأفلام، وعروض تلفازية لم تخلب ألباب الامريكيين وحسب، بل خلبت ألباب بقية العالم كذلك. ولكن المراجعين للتاريخ قد عملوا عملهم. لا يجرؤ أي فيلم اليوم على ان يرسم صورة الهنود بوصفهم متخلفين أو أصحاب نزوات أو قساة. لا بل، كما هو في الرجل الكبير الصغير ورقصات مع الذئاب ينظر إلى الهنود بوصفهم رعاة حماية البيئة المبكرين الذين اعتنوا بالأرض، و غذوها، وطبعوها وحموها هي والحياة البرية التي اعتمدوا عليها. وهؤلاء الشعوب المحبون للسلام، والموثوقون، خُدعوا، وقتلوا، وذبحوا في المجازر بأيدي الرجال البيض اللاأخلاقيين الذين شقوا طريقهم بالذبح عبر السهول، وذبحوا الجاموس وأفسدوا الهنود الذين لم يقتلوهم قتلا تعسفيا. والجنرال كستر والخيالة السابعة الآن يمثلون دور نماذج من مجموعات الاغتيال اينساتزغروبن Einsatzgruppenclxxiv.

بالأمس فقط

لنرى كيف تم رمي أبطال أمريكا القدامى من البانثيون على أيدي طالبان الحداثة، فلنتمعن:

- عيد ميلاد واشنطن، الذي كان سابقا يوم عطلة وطنية من أجل الأب الروحي لبلادنا، وهو جندي وسياسي بلا ند في التاريخ الأمريكي، وأعظم رجل في القرن الثامن عشر، قد جرى استبداله وحل مكانه "يوم الرؤساء" حتى نستطيع جميعنا أن نتذكر عظمة ميلارد فيلمور، وتشيستر آرثر، وويليام جيفرسون كلينتون.

- مجلس إدارة مدرسة نيوأورلينز قد أزاح اسم واشنطن عن مدرسة ابتدائية. وسياسته الجديدة تمنع تكريم "المالكين السابقين للعبيد أو آخرين لم يحترموا إتاحة الفرصة للجميع."[٢١] وهذا أسقط أسماء الرؤساء جيفرسون، وماديسون، ومونرو، وجاكسون، وتايلر، وغرانت، وأسماء كلاي، وكالهون، وروبرت ئي لي.

هل ينبغي على الأمريكيين الأفارقة، وهم بعشرات الألوف، ممن يحملون هذه الأسماء العظيمة، أن يذهبوا إلى المحكمة ليغيروا أسماءهم؟ هل اسم آندرو جاكسون، قاتل الهنود، أو اسم ستون جاكسون، أسطورة الكونفدرالية، هوالاسم الذي يحمله جيسي جاكسون باعتزاز؟

• توماس جيفرسون، مؤلف إعلان الاستقلال، أعلن في العام الماضي أنه شخص غير مرغوب فيه في نيوجيرسي. وقد هزمت السلطة التشريعية مرتين مشروع قانون كان سيطلب من طلاب المدارس العامة أن يتلوا في الفصل كل يوم نصا مختصرا من إعلان الاستقلال. وقد صوت كل ديمقراطي في مبنى المحكمة التشريعية في الولاية بكلمة " لا " على الإعلان الذي شجب على أنه " ضد النساء، وضد السود، ومنحاز لله كثيرا"[٢٢] وقام سيناتور الولاية وين برايانت، وهو أمريكي أفريقي، بقيادة القتال ليوفر على الطلاب الحط من كرامتهم من جراء قيامهم بتلاوة قول جيفرسون " كل البشر خلقوا متساوين" ووجه برابنت اللوم إلى مقدم مشروع القانون وقال: "لا ينبغي لك أبدا أن تطلب من أحفادي أن يتلوا الاعلان. كيف تجرؤ على ذلك؟ أنت الآن قد أخذت علما بأن هذا مهين لمجتمعي."[٢٣]

• آندرو جاكسون، وهو الذي استولى على فلوريدا من إسبانيا لصالح الولايات المتحدة، هو الآن هدف لحملة تشنها حركة أمريكية هندية. وتسمي جاكسون " مجنونا بإبادة الجنس"، وبأنه خدم ليكون "نموذجا لهتلر"، وتريد الحركة الأمريكية الهندية أن تحرم الرئيس السابع لأمريكا من تكريمه في استعراض تللا هاسي السنوي في فصل الربيع.[٢٤]

"هيكوري العجوز" لقب آندرو جاكسون، يواجه إزعاجا في كارولينا الشمالية أيضا. وهناك يريد روبرت شافيز الذي وصف نفسه بأنه "نائب زعيم" التسكارورات، يريد من الطريق العام السريع للسيارات رقم ٧٤ في الولايات المتحدة، وهو الآن طريق آندرو جاكسون، أن تعاد تسميته ليكون الطريق العام السريع الأمريكي الهندي. ويقول: "جاكسون ليس بطلا لنا، إنه مثل هتلر. إنه قاتل"، ويدعي شافيز أن لديه أربعة آلاف توقيع على عريضة تطالب بتنفيذ تغيير الاسم.[٢٥]

وبما أن وجه ورقة النقد ذات العشرين دولاراً الأمريكية هي الآن مزدانة برسم " للملك آندرو " وهو الذي كان مالكا للعبيد، ومقاتلا هنديا، وهو الرئيس الذي وقع القانون الذي نقل الشيروكيين خارج جورجيا، والكاروليناويين الى أوكلاهوما، فان وجود صورته على ورقة النقد يمكن أن يصير مثيرا للاهتمام.

- ميدان كستر للمعركة الوطنية، قد أعيدت مؤخرا تسميته باسم ميدان البوق الكبير الصغير للمعركة الوطنية نظرا لأن الهنود يعتبرون مذبحة القيادة الكلية لكستر نصرا عظيما. وإلى جوار المسلة الصغيرة التى تكرم الآن الموتى الأمريكيين من الخيالة السابعة سيعلو نصب تذكاري للهنود الذين قتلوا أولئك الموتى وسلخوا فروة رؤوسهم ومثلوا بجثثهم.[٢٦]

• الهنود المحاربون طالبوا بأن تتخلى كل الفرق الرياضية عن الأسماء الهندية. وفي ٢٠٠١، وافقت هيئة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة على ذلك بحجة أن استخدام الكلية لأسماء فريق هندي وتعويذات هندية هو عمل "قليل الأدب ومهين" ويخلق "بيئة تعليمية معادية من الناحية العنصرية"[٣٧] ولم يخبرونا متى بالضبط صار الأمر كذلك. ولكن وجود موقف التصحيح السياسي الآن بوصفه المعتقد الصحيح المسيطر في حرم الجامعات، هو ما جعل الحملة تحظى بالنجاح. وهنود دارتموث الآن هم الأخضر الكبير، وهنود ستانفورد الآن هم الكاردينالات، والرجال الحمر (ردمن) في جامعة سينت جون الآن هم العاصفة الحمراء. ولكن داكوتا الشمالية قررت أن تستبقي اسم "سيوكس المقاتلون" بعد أن هدد خريج سابق بأن يسحب وعده بدفع مائة مليون دولار إذا تغير الاسم.

وأحبط ذلك ذوو الجلود الحمر لواشنطن (واشنطون ردسكنز) وشجعان أتلانتا (أتلانتا بريفز) حيث يستمر المعجبون بالشجعان باستخدام "ساطور توماهوك" المشهور، على الرغم مما يقال بأن ذلك مهين لمخترعي توما هوك. وقد اتبعت جريدة أوريغونيان من بورتلاند سياسة ترفض فيها ذكر أسماء الفرق التي تشمل على كلمات الهنود، أو الشجعان أو الرجال الحمر أو الجلود الحمر أو الزعماء.[٣٨]

- في سان خوسيه في كاليفورنيا منعت ثورة الغضب الهندي والهسباني إقامة تمثال لتوماس فولون، في متنزه عام، وهو المغامر الأمريكي الذي استولى على المدينة في الحرب المكسيكية وصار عمدتها وقال باسكال ميندبفيل من بويبلو يونيدو: " التمثال إهانة لأسلافنا، وهم الناس الذين قتلوا استبدادا هنا، إنه مثل علم أحمر للعنصريين هناك بأن الموسم مفتوح ضد المكسيكيين."٣٩ ولكن سان خوسيه تتفاخر فعلا بأن تمثالا جديدا لكويتزالكوتل Quetzalcoatl، وهو يمثل أفعى مجنحة هي إله الأزتك الذين لم تقترب إمبراطوريتهم قطعيا من الوصول إلى سان خوسيه.

ربما ينبغي على المكسيكيين والهنود أن يعيدوا النظر في كويتزالكوتل. فإن امبراطور الأزتك مونتيزوما الثاني كان شخصا متطيرا بعمق، وهو خائف من أن كويتزالكوتل سيعود من الشرق ليدعي تاج الامبراطور. وعندما روى له مبعوثون بأن كورتيس ورجاله الملتحين البيض كانوا قد نزلوا على الشاطئ في فيراكروز فإن مونتيزوما الذي لا يخاف ورجال بلاطه أصيبوا بالهلع.

- في سانت أوغسطين، في فلوريدا، وهي أقدم مدينة في الولايات المتحدة، وأسسها نائب كولومبوس، بونس دو ليون، تجري المطالبة بإزالة تمثال بونس المقام في مقدمة الخليج من قبل الهنود الأمريكيين. وهذا المكتشف الإسباني الذي جرح جرحا

مميتا بسهم في أثناء بحثه عن ينبوع الشباب يقول عنه الهنود إنه كان " مجنونا بإبادة الجنس."[40]

- في ساوثامبتون، الجزيرة الطويلة، تطالب فرقة العمل المناوئة للانحياز المحلية باطراح الختم الرسمي للمدينة الذي مضى عليه سبعون عاما، وهو ميدالية تصور رجلا أبيض في لباس الحج وهنديا في لباس يلف الحقو والكفل. وتقرأ على الختم " أول استيطان انكليزي في ولاية نيويورك " وعليه من خلفية ذلك مسند مجداف مربع والصخرة المسماة نقطة الضمير حيث هبط أول المستعمرين، من لين، ماساتشوسيتس، في العام ١٦٤٠. والختم موجود على علامات الطريق وعلى كل وثائق المدينة.

واحتجت الرئيسة السابقة لفرقة العمل، سوزانا باول قائلة: " إن الختم يمثل عرقا واحدا، وجنس الرجل فقط وجزءا واحدا من التاريخ. إن التاريخ لم يبدأ في العام ١٦٤٠ . الأمريكيون الوطنيون الأصليون كانوا هنا قبل ذلك التاريخ بوقت طويل."[41] ويضيف روبر زيللر رئيس فرقة العمل المناوئة للانحياز بالقول:إن الختم غير دقيق " لم يكونوا يلبسون ملابس الحقو هنا طوال العام، لقد كانت باردة جدا."[42] ربما يمكن تغيير الختم لوضع الهندي الشينيكوك بشكل ما حسن من محلات في ال.ال.بين

ولكنه الجنوب، وأي شيء مرتبط بالقضية الخاسرة هو اليوم

الجبهة الملتهبة للحرب الثقافية. في العام ١٨٩٨، استطاع الرئيس ماك كينلي، وهو محارب قديم من آنتيتام، أن يذهب إلى أتلانتا، ويقف مع عزف "الديكسي"، وأن يلوح بقبعته لأعدائه القدامى، وأن يوصي بالمحافظة على قبور الكونفيدرالية ـ وهي لفتة رائعة ساعدت على شفاء بلد كان على وشك أن يذهب إلى الحرب مع إسبانيا. واليوم يتهم ماك كينلي بإعطاء مسوغ أخلاقي لقضية عرقية. بعد مائة عام من هذا الموقف الكريم للرئيس ماك كينلي، تقف النخبة الثقافية في أمريكا موقف العبودية تقريبا إلى جانب هؤلاء الذين يرغبون في أن يجللوا بالعار كل راية وبالخزي كل قائد مرتبط بالولايات الكونفدرالية الأمريكية.

- في ريتشموند، وهي التي دافع عنها روبرت ئي. لي أربع سنوات بجيشه، جيش فيرجينيا الشمالية، صدر الأمر بإزالة صورة لي من معرض لمشاهير فيرجينيا، وانتهكت حرمة الصورة من المخربين العابثين.[٤٣] وعلى شارع النصب التذكاري، حيث تقف أربعة تماثيل للأربعة العظماء من أبناء الكونفيدرالية ـ لي، وجاكسون، وستيورات، وديفيز ـ يقف في وسطهم تمثال لنجم التنس الأسود آرثر آش، وقد وضع هناك ليمزق وليناقض الرمزية التي يمثلها الرؤساء. ويوم لي ـ جاكسون قطع عن يوم مارتن لوثر كينغ، ويعتقد الكثيرون بأنه سينتهي قريبا في فيرجينيا حيث يرقد كلا البطلين الكونفدراليين في قبريهما.

- بعد مقاطعة دامت مدة عقد من الزمان قادتها الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون صدر الأمر بإنزال علم المعركة الكونفدرالي من مبنى المجلس التشريعي في كارولينا الجنوبية التي ما تزال تحمل جروح القصف من جيش شيرمان الذي أحرق كولومبيا حتى الأرض. أراد سكان كارولينا الجنوبية أن يحتفظوا بالعلم حيث رفرف منذ ١٩٦٢، بعد أن حض الرئيس آيزنهاور الأمريكيين على الاحتفال بالذكرى المئوية للحرب. ولكن ما أرادته كارولينا الجنوبية لا يهم. ألغيت التقاليد المتعارف عليها. وهدد العاملون في تسلية الجمهور والرياضيون بعدم الظهور في الولاية. واستسلم المجلس التشريعي، وأنزل العلم، ونقل إلى النصب التذكاري للمعركة على أرض مبنى المجلس التشريعي في الولاية. ولكن ذلك لم يرض الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون. واستمرت المقاطعة إلى أن يختفي العلم.
- وجورجيا بعد أن هُددت بالمقاطعة ,ألغت علم الولاية الذي توجد عليه صورة طبق الأصل عن علم المعركة الكونفدرالية، وهو ما حفز رئيس بلدية أطلانطا السابق مينارد جاكسون إلى أن يشكر الحاكم " الذي قاتل في سبيل التخلص من الصليب المعكوف."[٢٤٠]
- في تكساس، وبناء على أوامر الحاكم جورج دبليو بوش، أزيلت من مبنى المحكمة العليا للولاية لوحتان عن موتى حرب

الكونفيدرالية كان قد تم الدفع لعملهما من صندوق أرامل الكونفيدرالية.[٤٥]

- في فلوريدا، في ٢ شباط/ فبراير ٢٠٠١ أزال الحاكم جب بوش علم المعركة الكونفدرالية عن قمة مبنى المجلس التشريعي في الولاية في تللاهاسي حيث رفرف هناك منذ العام ١٩٧٨.[٤٦]
- في الميسيسيبي مُنع الطلاب في أولي مس بأمر من المحكمة من التلويح بأعلام صغيرة من أعلام المعركة في الملعب. وصدرت تهديدات بالمقاطعة إذا لم يتم تغيير علم المسيسيبي لإزالة صورة علم المعركة. ولكن عندما وضعت القضية أمام تصويت واسع يشمل الولاية في نيسان /إبريل ٢٠٠١ ربح العلم القديم التصويت بنسبة اثنين إلى واحد.[٤٧] ويبدو أن السياسيين الجنوبيين من كلا الحزبيين يقومون من أجل تهدئة الأقليات واسترضاء النخبة القومية الثقافية بإهمال إرادة الشعب الذي انتُخبوا من أجل تمثيله.
- في هاريرز فري، فيرجينيا الغربية، يوجد نصب تذكاري حجري للرجل المحرر هيوارد شيبرد المسؤول عن العفش والذي كان أول رجل قتل في الإغارة الإرهابية التي قام بها جون براون على ترسانة السلاح الفيدرالية والتي سحقتها المارينز بقيادة العقيد روبرت ئي.لي والملازم جيه. ئي.بي ستيورات.[٤٨] والنصب

التذكاري وهو قرب زاوية للبوتوماك والشيناندوه كان قد وضع هناك في العام ١٩٣١ من بنات الكونفيدرالية المتحدات. وتقول الكتابة المنقوشة على النصب إن هيوارد شيبرد مثل النموذج "للشخصية وللإخلاص من آلاف الزنوج الذين وقعوا تحت العديد من الإغراءات طوال السنوات التالية للحرب. ولكنهم تصرفوا بحيث لم يبق أي لطخة في سجل هو التراث الخاص للشعب الأمريكي والإشادة الكبيرة لصالح العرقين كليهما". وبينما كان الحجر قد غطي لسنوات، فإن الجهود المتكررة لإزالته قد باءت حتى الآن بالفشل.

- "في مقبرة بوينت لوك آوت، في ميريلاند الجنوبية، هناك تقليد يوم إحياء الذكرى وذلك بوضع أعلام كونفيدرالية صغيرة على قبور الأربعة الآلاف من الجنود الجنوبيين الذين قضوا في سجن الاتحاد هناك، وقد أنهي هذا التقليد بأمر من إدارة شؤون المحاربين القدماء."[٤٩] وفي العام ١٩٩٧ أمرت ميريلاند باستعادة لوحات الرخصة التي صرفت لأبناء محاربي الكونفيدرالية، وهي لوحات حملت صورة لعلم المعركة. وكانت منظمة أبناء محاربي الكونفيدرالية هي المنظمة الوحيدة من أصل ٢١٥ منظمة غير ربحية، التي رفضت لوحاتها."[٥٠]
- في آنتيتام، تنطلق الآن حملة لمنع إقامة أي تماثيل، حتى على الممتلكات الخاصة، لقادة الكونفيدرالية في تلك المعركة التي

كانت أكثر المعارك دموية على التراب الأمريكي. ومن ١٠٤ تماثيل يوجد الآن ٤ فقط لتكريم الجنوبيين.[٥١]

- في سلمى، مدينة ألاباما التي دافع عنها الجنرال ناثان بيدفورد فوريست، هناك تمثال لأسطورة الحرب الأهلية قذف بالقمامة بشكل متكرر. ويريد مجلس المدينة إنزال التمثال. واقترح مجلس مدينة ممفيس تحويل متنزه ذكرى الكونفيدرالية وهو يضم في معالمه أيضا تمثالا لفوريست، إلى متنزه لذكرى ضحايا السرطان.[٥٢]

لقد كان فوريست أعظم قائد خيالة أنتجته أمريكا مطلقا، وعلى الرغم من أنه كان تاجر رقيق قبل الحرب، "واحتضن منظمة الكلان(*) لتكون سلاحا في قتال متوحش للبقاء الفردي والفئوي" فإن فوريست "تخلى عن منظمة [كلان] في الحال بعد أن رأى أنها آذت بدل أن تساعد أفضل مصالح الجنوب والأمة."[٥٣] ولاحقا لعملية قتل غادرة في العام ١٨٧٤ في ترينتون، تنيسي، هدد الجنرال فوريست "باستئصال القتلة"[٥٤] ومع حلول العام ١٨٧٥ كان يحض على أن من حق السود أن "يسمح لهم بالدخول في ممارسة القانون في أي مكان آخر هم قادرون على الذهاب إليه. وحتى المحرر العظيم، وهو جنوبي آخر ولد في كوخ خشبي، لم يقل ذلك أبدا...".[٥٥]

(*) كلان: كان فوريست أول زعيم لمنظمة كو كلاكس كلان ثم تخلى عنها.

وكما يكتب كاتب الافتتاحية وولتر ويليامز إن فوريست كان دائما يمتدح شجاعة الجنود السود الذين خدموا في قيادته وكان يقول: "هؤلاء الشباب بقوا معي ولم يعش كونفدراليون أفضل منهم".[٥٦] ولكن أمريكا اليوم ليست هي البلد الكبير الذي كانت عليه أمريكا عندما أدت الاحترام إلى بيدفورد فوريست بوصفه رجلا مقاتلا لا ند له.

- "غيلموز يسلم تراث فيرجينيا" هكذا جاء الخبرالرئيسي فوق موضوع الصفحة الأولى من الواشنطون تايمز.[٥٧] الحاكم جيمس غيلمور الثالث، وهو اختيار الرئيس بوش ليكون الرئيس القومي للحزب الجمهوري، قام لتوه بإلغاء شهر التاريخ الكونفيدرالي بعد أن هددت الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون بمقاطعة فيرجينيا إذا لم يلغ الحاكم هذا التقليد.

وكان العنوان الرئيسي في الصفحة الأولى للواشنطون بوست: "فيرجينيا تطرح تنويها بالكونفيدرالية".[٥٨] وكتب مراسل البوست يقول: "ضاربا على معتقد في الصميم من جماعات ذكرى الكونفيدرالية غيلمور يوسع القرار ليقول لأول مرة: "إنه لو لم يكن هناك استرقاق لما كان هناك حرب"».[٥٩] وجماعات التراث تحاجج بأن رفض لينكولن أن يترك كارولينا الجنوبية، وجورجيا، وولايات الخليج ترحل بسلام هو الرفض الذي جلب الحرب.

إن قصة البوست اقتبست من ناقد واحد فقط لكلام غيلمور وكانت محملة بوزن ثقيل من التعليقات المساندة لإنهاء شهر تاريخ الكونفيدرالية. واقترحت البوست مع هذا القرار بأن المسيرة الوظيفةالقومية لغيلمور كانت الآن في مسار صاعد المنحى:

> القادة السود عموما رحبوا بإعلان غيلمور المنقح بوصفه خطوة إيجابية يمكن أن تكون دفعة سياسية إلى الأعلى للجمهوري الأبيض المحافظ.. الذي قد تكون عينه على مقعد في مجلس الشيوخ....
>
> وقالت توني ـ ميشيل ترافيس، وهي أمريكية أفريقية تدرّس موضوع الحكومة في جامعة جورج ماسون، قالت إن أي طموحات للمنصب الفيدرالي قد يتطلع إليها غيلمور يمكن أن تتلقى الدعم بماسمته:" جهوده (أي جهود الحاكم) ليصل."[٦١٠]

- لم تبق أغنية "أرجعني إلى فيرجينيا القديمة" هي أغنية الولاية. لقد أزيلت لأنها تحتوي على تعابير "قلب الأسود" و"ماسا العجوز" على الرغم من أنها كانت قد كتبت في العام ١٨٧٥ وكتبها المؤلف الأسود جيمس بلاند، وهو نيويوركي، وهو أيضا كتب "أوه... النعل الذهبي"[٦١٠]
- وبدأ حظر الكتب. فكتاب مغامرات هكلبري فن الذي ينبثق عنه "كل الأدب الأمريكي الحديث" كما قال همنغواي، قد أزيل من قوائم القراءة المدرسية عبر أمريكا. والهجوم العظيم الساخر الذي شنه مارك توين على الرق، والنفاق، والانحياز في أمريكا

قبل الحرب الأهلية اتخذ الشخصية المركزية فيه الشخصية السوداء العبد جيم، وهو رجل ذو كرامة عظيمة وشجاعة أدبية. وأما المربي الأسود جون والاس، وهو الذي صنع مساره الوظيفي من مهاجمة الكتاب. فهو يرى أن كتاب هكلبري فن هو "أكبر مثال ناب من القمامة العرقية سبق أن أعطي لأطفالنا لقراءته... وأي أستاذ يقبض عليه وهو يحاول أن يستخدم تلك القطعة من القمامة مع أطفالنا يجب أن يطرد فورا وهو قائم مكانه، وذلك لأنه أو لأنها إما عنصري عرقي، أو بلا إحساس، أو ساذج، أو عاجز، أوكل ما سبق جميعا."[٦٢]

هيمنغواي، وتي إس إليوت، وليونيل تريللنغ اعتقدوا أن هلكبري فن أثر أدبي فذ، ولكن من هؤلاء كي يناقضوا جون والاس؟

وليس بعيدا في التسلسل في القائمة المستهدفة كتاب هاربر لي الحائز على جائزة بوليتزر وهو كتاب أن تقتل «طائر الهنبر»، الذي تقع أحداثه في الجنوب المعزول قبل الحرب العالمية الثانية، وهو الذي ألهم بعمل فلم له العنوان نفسه، وهو الفلم الذي أعطى غريغوري بك أجمل أدواره بصفة المحامي أتيكوس فينش. وبالنسبة إلى أولئك الذين يمقتون الكتاب فإن أن تقتل طائر الهنبر يمثل "العنصرية العرقية المأسسة."[٦٣]

مدرسة أوبيلوساس الكاثوليكية الثانوية في لويزيانا لها التميز

في أنها كانت أول مدرسة ثانوية في الولايات المتحدة تحظر عمل فلانري أوكونور التي ربما كانت أروع كاتبة رواية كاثوليكية في أمريكا القرن العشرين. الآباء السود وكاهن في مدرسة أوبيلوساس الكاثوليكية طالبوا بأن تزال من قوائم القراءة في المدرسة مجموعة أوكونور القصصية رجل طيب من العسير أن تجد وهي مجموعة تضم قصة قصيرة بعنوان "الزنجي الاصطناعي"[٦٤]

ولكن رون دريهر، وهو ناقد أفلام كاثوليكي، وكاتب افتتاحية في نيويورك بوست يكتب عن أوكونور ويقول إنها بإبرازها "البيض المتعصبين بصفة أبطال القصة تفضح وتشجب الكبرياء الجهنمية التي تقود هذه الشخصيات إلى طرد الناس السود بصفتهم "زنوجا" وبصفتهم "زنوج أطفال"»[٦٥] ويقول دريهر إن قصة "الزنجي الاصطناعي" التي تعتبرها أوكونور أفضل أعمالها "تقدم صورة نفاذة نفسيا للعنصرية العرقية الهشة".[٦٦]

الأسقف إدوارد أودونيل دفع في البداية الطلبات التي رغبت في حذف أوكونور من المناهج، وذلك بأن أشار الأسقف إلى أن كتب المؤلفة كانت تدرس في أكسافير، وغرامبلنغ والكليات الجنوبية وغيرها من كليات السود. ولكن نيافته استسلم بسرعة وأمر بإزالة كل كتب أوكونور من مدارس الأسقفية الكاثوليكية وأن لا يحل محل كتبها "أي كتب مشابهة."[٦٧] إن أي كتاب يحتوي على صفات عرقية

ممنوع، بغض النظر عن السياق، وهو أمر لا يحذف مارك توين، وأوكونور، وهارير لي وحسب، بل ومعهم ويليام فوكنر والكاتبان الأسودان رالف إليسون، وجيمس بالدوين. ويكتب دريهر:

> لقد كتبت مرة الروائية السوداء أليس ووكر عن أوكونور تقول: "من حيث الجوهر لا تدور أوكونور حول العرق قطعيا، وهذا هو السبب الذي من أجله تكون أوكونور باعثة للبهجة في النفس إلى هذا الحد، وهي تبزغ كما تفعل من مثل هذه الثقافة العرقية. وإذا أمكن القول إن أوكونور "حول" أي شيء فعندئذ تكون "حول" الأنبياء والنبوة، و«حول» الوحي و"حول" أثر العناية فوق الطبيعية على المخلوقات البشرية الذين لا يملكون فرصة للنمو الروحي بدون تلك العناية."[68]

ويضيف دريهر: "وإنك لتعتقد أنها مادة سامية للدراسة في مدرسة ثانوية كاثوليكية في عمق الجنوب."[69] نعم ستعتقد ذلك.

- في العام ١٩٩٩ تلقى القاضي الرئيسي ويليام أتش. ريهنكويست تحذيرا في قرار رسمي من جمعية المحاماة القومية لأنه غنى أغنية "ديكسي" في مؤتمر قضائي في محكمة الاستئناف في الدائرة الرابعة.[70] وريهنكويست يحضر سنويا ويقود الغناء العفوي الذي تؤديه الجماعة.

ومع ذلك فإن أغنية "الديكسي" كان لينكولن قد أمر بعزفها

عندما زار عاصمة الكونفيدرالية بعد أن سقطت ريتشموند بيد جيش غرانت. ولأجيال بعد الحرب الأهلية كانت أغنية «الديكسي» شائعة في اجتماعات الحزب الديمقراطي مثل أغنية «الأيام السعيدة هنا ثانية» بعد روزفلت. ومع ذلك فجمعية المحامين القومية تصر على أن الأغنية «مثال للرق والاضطهاد»[71] ونورد كلماتها في ما يلي، ليكون القارئ هو الحكم:

المقطع الشعري الأول:

أتمنى لو كنت في أرض القطن،

الأيام الخوالي هناك لم تنس،

انظر بعيدا، انظر بعيدا، انظر بعيدا، أرض الديكسي.

في أرض الديكسي التي ولدت فيها في صباح قارس،

انظر بعيدا، انظر بعيدا، انظر بعيدا، أرض الديكسي.

الكورس:

إذن أتمنى لو كنت في أرض الديكسي، مرحى! مرحى!

في أرض الديكسي سأتخذ موقفي، لأحيا وأموت في الديكسي

بعيدا، بعيدا، بعيدا، نزولا للجنوب في الديكسي .

بعيدا، بعيدا، بعيدا، نزولا للجنوب في الديكسي[72]

ليست بثقل مقاطع شعر عزرا باوند، ولكن ماذا في هذه الأهزوجة الصغيرة من علاقة بالرقيق والاضطهاد؟ في ميدان

غـازلايت في سـينت لويس في أوائل السـتـينات من ١٩٦٠، كـانت جوقة الجاز السوداء ديكسيلاند تختم كل أداء ليلي بعزف أهزوجة "ديكسي" تتبعها بأغنية "ترنيمة معركة الجمهورية." وكان جميع رعاة الحفل المحنكين يقفـون، ويغنون، ويحيّي بعضـهم بعضـا. كم كنا جميعا عديمي الإحساس!

ومع حلول العام ١٩٩٩، كان القاضي ريهنكويست قد صار من قبل ذلك مـواطنا تحت الاشتـباه من قبل شـرطة الفكر لأنه رفض إعادة تسمية حفل عيد الميلاد للمحكمة العليا على أنه حفل «يوم عطلة»[٧٣] والقاضي الرئيسي المغني يصر على ما يبدو أيضا على أخذ زمام المبادرة في أن يصدح بترانيم عيد الميلاد التي جعلها زملاؤه خارجة عن القانون من المدارس العامة الأمريكية.

- على الرغم من أن صليب القديس أندرو رفـرف فـوق مـيـادين مـعـارك الحـرب الأهليـة لمدة أربعـة أعـوام فـقط، فـإن العلم الأمـريكي رفـرف لمدة تزيد على أربعـة أجيـال فـوق بـلاد فـضل دستورها أن يستحسن الرقيق. وهكذا لابد أن يأتي دور العلم الأمـريكي، المجد القديم، كذلك. وهكذا جاء فعلا. ففي ربيع العـام ٢٠٠١، رفض الممـثل الديمقـراطي هنري بروكس عن ممفـيس، والرئيس السابق لعضوية لجنة العمل السيـاسي للجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون، رفض أن يقف في مجلس

التشريع في تنيسي في أثناء أداء عهد الولاء. وقال بروكس" هذا العلم يمثل المستعمرات القديمة التي استرقت أسلافنا."[٧٤] في الوقت الذي "لم تستجب" فيه الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون "للطلبات" التي دعتها إلى أن تعقب على تحدي بروكس، استجابت لطلبات التعقيب كاتبة الافتتاحية جوليان مالفوكس. وقالت مالفوكس: "مضحك" للأمريكيين الأفارقة أن يتلوا عهد الولاء للعلم، لأن الكلمات "ليست إلا كذبة، مجرد كذبة لا غير."[٧٥] بالنسبة لبعض الأمريكيين، فإن الوعي العرقي الآن يتضارب مع الوعي الوطني ويحل محله.

ولكن شن الحرب على الماضي ليس أمرا مفردا لأمريكا.

فعمدة لندن الجديد، "رد كين" ليفينجستون، يريد أن يزيل من قواعدها تماثيل الجنرالات البريطانيين الذين ارتبطت أسماؤهم بالإمبراطورية وبحكم الشعوب الملونة. ومن بين التماثيل التي يريد هذا العمدة المعارض للتماثيل أن ينزلها تمثال الأدميرال سير تشارلز نابير الذي استولى على السند في العام ١٨٤٣، والسير هنري هافلوك، الذي أخمد تمرد سيبوي في العام ١٨٥٧[٧٦]. ومازال نابيير يذكر بأنه هو الذي أرسل إلى قادته الرسالة المشفرة باللغة اللاتينية وتعني لقد "ارتكبت الخطيئة."

ولكن أشهر أولئك الذين لا يريدهم رد كين في لندنه هو اللواء

تشارلز الملقب "الصيني" جوردون الذي أخمد ثورة تيبنغ في الصين، وساعد على إنهاء تجارة الرقيق، ومات في السودان عندما عانت قوته الصغيرة مصير كستر، وهو يقاتل دراويش المهدي.[٧٧] وقد وضع رأس جوردون على عمود وجئ به إلى خيمة المهدي، وهو ما سبب الهلع العظيم للملكة فيكتوريا. وبعد عقدين من معركة الخرطوم تلك، أخذ البريطانيون ثأرهم في أم درمان، عندما قطعوا أحد عشر ألف درويش إربا إربا وهم يحملون حملة شعواء على البريطانيين، وذلك بالبنادق وبرشاشات مكسيم لدى الجنرال كيتشنر. ومن بين أولئك الذين صنعوا التاريخ بشن آخر هجوم عظيم للخيالة كان الشاب ونستون تشرتشل. أما الجيش الانجليزي المصري فقد خسر ثمانية وأربعين رجلا، ولمس هيللير بللوك قبعته تحية للتقانة البريطانية وقال:

مهما يحدث فلقد امتلكنا

رشاش مكسيم، وأما هم فلا [٧٨]

وتقدم كيتشنر لينتهك حرمة قبر المهدي وفكر باستخدام جمجمته محبرة، ولذلك ربما كان يجب إنزال تمثال كيتشنر كذلك. في فيلم الخرطوم للعام ١٩٦٦، لعب دور المهدي الممثل لورنس أوليفيه ولعب دور الجنرال جوردون الممثل تشارلتون هيستون، وهو حاليا في جمعية البنادق القومية. وفي الوقت نفسه، تتقدم الخطط

لتنصب في ميدان الطرف الأغر، حيث يقف نصب الأدميرال هوراشيو نيلسون، تمثالا بارتفاع تسعة أقدام لنلسون مانديللا.

وفرنسا أيضا تستضيف المعارضين للتماثيل. وعندما حاولت الحكومة أن تنظم في العام ١٩٩٦ احتفالا بالذكرى الألف والخمسمائة لتعميد كلوفيس بماء المعمودية المسيحية، وكان هو ملك الفرنجة، قام الاشتراكيون، والشيوعيون، وكل الأحزاب اليسارية ـ نصف فرنسا - بالاحتجاج على أي احتفاء بذكرى العام الذي صارت فيه فرنسا مسيحية.[٧٩]

بم تخبرنا هذه الحوادث؟ تخبرنا بأن أولئك الذين يبشرون بالتنوع بصوت عال هم في الأغلب لا يمارسونه، وأن أولئك الذين ينددون بعدم التسامح قد يكونون من بين أكثر الناس عدم تسامح. فثورتنا الثقافية، مثل طالبان مع بوذا العظيم في باميان، تنوي أن تمزق كل الأعلام والتماثيل لأمريكا القديمة التي تبغضها. ولن تسمع أي استئناف ضد ذلك.

إن اختيار الولاية أن تكرم الدكتور كينغ أو روبرت ئي لي يجب أن يكون قرارا يتخذه شعب الولاية نفسها. ولا ينبغي أن تلصق أي وصمة بأي ولاية تختار أن تكرم أحدهما، أو كلاهما، أو أن لاتكرم أيا منهما. ولكن ذلك غير مقبول. إن عدم تكريم الدكتور كينغ هو اليوم أمر لا يطاق. عندما صوتت أريزونا على ألا تكون لديها عطلة

من أجل كينغ، تلقت الولاية تهديدا بخسارة البطولة السنوية لكرة القدم الأمريكية (سوبر باول) وبمقاطعة الاتفاق معها، ووجهت لها الصحافة الوطنية اللوم.[٨٠] وكان الضغط وسوء المعاملة غير محتمل إلى درجة أن الولاية ألغت تصويتا عاما وصادقت على يوم عطلة. عندئذ فقط سمح لولاية أريزونا أن تلتحق بالاتحاد.

القلعة في كارولينا الجنوبية، وهي واحدة من كليتين في الولايات المتحدة يكون فيها جميع الطلاب المرشحين الضباط من الذكور، وهو تقليد عمره ١٥٠ مائة وخمسون عاما، كانت الكلية عرضة للتحديات المتكررة والإفلاس في المحكمة لإرغامها على قبول النساء. والقلعة تريد المحافظة على تقليدها. والنساء في القلعة _الزوجات، والأخوات، والأمهات، وبنات الخريجين _أردن المحافظة على التقليد. وهذا ما أرادته كارولينا الجنوبية ولكن ما يريده الشعب لم يبق مهماً في أمريكا. فقد أمرت محكمة فيدرالية القلعة بأن تقبل النساء في صفوف الطلاب الضباط المرشحين.

في عالمنا الأرويلي للإشراب الدعائي، التنوع يعني الانسجام. وباسم التنوع، يجب على كل مدرسة عسكرية أن تبدو متماثلة مع غيرها. لا يمكن لمدرسة أن تكون للذكور فقط، حتى لو كان ذلك هو ما يرغبه أولئك الذين يملكون المدرسة هل هذه حرية؟ هل هذه ديمقراطية؟ لا. أرويل وصل إليها بشكل صحيح: "المرء يقوم

بالثورة... ليؤسس الديكتاتورية".[٨١] إن الثورات الفرنسية والروسية والماوية وثورة الخمير روج وطالبان كلها طاحت بالآلهة القديمة وانتهكت حرمة معابدها. وهكذا هو الأمر مع ثورتنا الثقافية. إنها لا تطيق المخالفة في الرأي. فبعد أن اعتذر فقط السيناتور ماك كين عن عدم شجبه لوضع علم المعركة الكونفيدرالي فوق المجلس التشريعي لكارولينا الجنوبية، وبعد أن اعترف بالانتهازية والضعف تم استعادته إلى ألطاف الثورة ورضاها.

التاريخ الجديد

"على كل طفل في أمريكا أن يتعرف على بلاده. وحالما يفتح شفتيه، يجب عليه أن يحفظ تاريخ بلاده، يجب عليه أن يتكلم حتى وهو ما يزال يلثغ بمديح الحرية، ومديح أولئك الأبطال والسياسين النابهين الذين صنعوا ثورة من أجلها."[٨٢] هكذا قال نوح وبستر. وهكذا كنا فيما مضى نعتقد. ولكن الثورة الثقافية تقوم بتطهير التاريخ "من أولئك الأبطال والسياسين النابهين" من المدارس العامة كي تقوم بالإعداد لمنهج تعليمي جديد، لفصل الأطفال عن آبائهم في معتقداتهم، ولقطع الأطفال عن تراثهم. قال سولجينيتسين: "لتدمير شعب يجب عليك أولا أن تجتث جذوره."[٨٣] ولخلق "شعب جديد" فإن على عملاء ثورتنا الثقافية أولا أن يخلقوا تاريخا جديدا، وذلك المشروع متقدم بشكل جيد.

في العام ١٩٩٢ منحت جامعة كاليفورنيا في لوس أنجيلوس مليوني دولار من الوقف القومي للإنسانيات ومن وزارة التربية الأمريكية لتطوير معايير جديدة للتاريخ القومي للكتب المدرسية للأطفال من المرحلة الخامسة صعودا حتى الثانية عشرة.[٨٤] وفي العام ١٩٩٧ أكملت جامعة كاليفورنيا في لوس أنجيلوس واجبها المسند إليها. وفي الكتب المدرسية التي سيدرسها الأطفال الأمريكيون في المدارس العامة في المستقبل:

- لم يرد ذكر صامويل آدامز أو بول ريفير أو توماس إديسون، أو أليكساندر غراهام بل أو الإخوة رايت.
- هناك سبعة عشر إشارة إلى كيو كلاكس كلان وتسع إشارات إلى السيناتور جوزيف آر. ماك كارثي.
- أشير إلى هارييت توبمان ست مرات بينما أهمل روبرت ئي لي.
- تاريخا تأسيس نادي سييرا والمنظمة القومية للنساء زكيا من أجل الالتفات لهما بشكل خاص.
- حثت التعليمات الخاصة بتعليم الطلاب حول الخائن آلجر هس والجاسوسين اللذين أعدمهما السوفييت جوليوس وإيثيل روزنبيرغ، وهما اللذان أعطيا أسرار القنبلة الذرية إلى ستالين، حثت على "فسحة للمعلمين ليدرسوها بأي من الطريقين".
- الميثاق الدستوري لم يذكر مطلقا.

- رياسة جورج واشنطون لم تذكر، كما لم يذكر الخطاب الوداعي. وبدلا من ذلك "دعي الطلاب إلى إقامة حوار بين الزعيم الهندي وجورج واشنطون في نهاية الحرب الثورية".
- الهبوط الأمريكي في العام ١٩٦٩ على القمر لم يظهر، ولكن الاتحاد السوفييتي امتدح"للتقدم العظيم له في استكشاف الفضاء".
- الشخصية الوحيدة من الكونغرس التي ضمها المنهج كانت المتحدث باسم المجلس "تيب أونيل"، وقد ذكر لأنه دعا الرئيس ريغان "رئيس الهتافين للأنانية".
- حث المنهج المعلمين على أن يطلبوا من تلاميذهم أن يديروا محاكمة ساخرة عن جون دي. روكفللر عن شركة ستاندر أويل.
- أعطي الطلاب تعليمات ليقوموا "بتحليل إنجازات وعظمة محكمة مانسا موسا، والعادات الاجتماعية والثروة في مملكة مالي" وأن يدرسوا الأزتك من حيث "المهارات، ونظام العمل والهندسة المعمارية" ولم يرد أي ذكر للتقليد القديم الطريف للأزتك في التضحية بالإنسان.

هل معايير التاريخ القومي" اندلق عليها الماء في المرحاض"، كما أوصى بذلك رش ليمبوغ؟ لا يبدو أن الأمر كذلك. ففي كانون أول/ديسمبر ٢٠٠٠ كتبت واشنطون تايمز عن المعايير الجديدة

لولاية فيرجينيا لتعليم التاريخ.[85] طلاب المراحل الأولى سوف يجدون بوكاهونتاس تحصل على وقت مساو لوقت الكابتن جون سميث. وفي تعريف الأطفال بالحرب الأهلية أسقط المعلمون لي و" ستون وول" جاكسون. وطلاب المراحل الثالثة سوف يدرسون "مملكة مالي الأفريقية الغربية المتطورة تطورا عاليا" بلاد صديقنا القديم مانسا موسا. وسوف يوضع توكيد جديد على الكونفوشية وحضارة وادي الأندوس. منْ وماذا أسقط من المنهج لإيجاد مجال لدراسة الكونفوشية؟ بول ريفير، وديفي كروكيت، وبوكر تي. واشنطون، وجون بول جونز، وعيد الشكر، والحجاج، ويوم الاستقلال ورجل السياسة الفرجيني هاري تي بيرد. الكبير.

الحرب على ماضي أمريكا وإخراس الأطفال الأمريكيين ـ لجعل عقولهم أوعية فارغة كي يصب فيها التاريخ الجديد ـ حرب تحرز نجاحا. في استطلاع حديث للطلاب، شمل ٥٥٦ خمسمائة وستة وخمسين متقدما، واختيروا من٥٥ خمس وخمس من كليات الأمة العالية الرئيسة وجامعاتها، ووجهت للطلاب أربعة وثلاثون سؤالا من دورة من المدرسة الثانوية عن تاريخ الولايات المتحدة. أربعة من خمسة فشلوا.[86] ثلث فقط من المتقدمين في الكليات استطاعوا أن يسموا الجنرال الأمريكي في يوركتاون. و٢٣ بالمائة فقط سموا ماديسون بوصفه المؤلف الرئيسي للدستور. و٢٢ بالمائة

فقط ربطوا هذه الكلمات "حكومة من الشعب، وبالشعب، وللشعب" بخطاب لينكولن في غيتزبيرغ. والأخبار السارة - ٩٨ بالمائة عرفوا مقرعة سنوبي دوجي دوج، و٩٩ بالمائة تعرفوا على بيفيس وبتهيد.[٨٧]

قال لينكولن:"لا نستطيع أن نهرب من التاريخ"، ولكن شكرا لثورتنا الثقافية التي قد تكون الأجيال المجهولة المولد فعلتها الآن.

قبل عشر سنوات قاد جيسي جاكسون استعراضا خشنا عبر حرم باولو ألتو في ستانفورد وهم ينشدون" هيي، هيي، هو، هو، هو يجب على الثقافة الغربية أن تذهب."[٨٨] وبعد أن ووجهت بمثل هذه الحجة المقنعة قامت ستانفورد باستبدال دورتها المطلوبة في الحضارة الغربية وأحلت محلها دورة جديدة هي:" الثقافة، والأفكار، والقيم."[٨٩] واليوم ليس هناك واحدة من الكليات والجامعات النخبة الخمس والخمسين، حسبما قُيِّمت من الأخبار والتقريرالعالمي في الولايات المتحدة، من تطلب دورة في التاريخ الأمريكي لأغراض التخرج."[٩٠]

ويكتب الدكتور شليسنجر ويقول:" إن الجدل حول المنهج التعليمي هو جدل حول ما الذي يعنيه أن تكون أمريكيا. والذي هو في النهاية في خطر هو المستقبل الأمريكي."[٩١] ولكن ماذا سيكون المستقبل الأمريكي عندما يتقرر من جيل غافل عن التاريخ الأمريكي، ويعاني من أليزهايمر ثقافي؟.

في الوقت الذي صارت فيه معايير جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس منشورة للعموم، عقد المعهد السميثسوني معرضه للعيد السنوي الخمسين عن يوم ١٥/ آب يوم إعلان الحلفاء استسلام اليابان. وذلك المعرض الذي احتوى على مقعد ربان الطائرة بي - ٢٩ التي أسقطت القنبلة على هيروشيما، إن هذه الطائرة قد أشعلت انفجارا في المحاربين القدماء، وغضب الجمهور لتصويرها حرب أمريكا في الباسيفيك بوصفها حربا عنصرية عرقية. واغتنم كاتب الافتتاحية جون ليو من يو إس نيوز المناسبة ليزور المتاحف الأخرى في المول، والتي تعلم السواح وأطفال المدارس عن تاريخ أمريكا.

في متحف التاريخ الأمريكي وجد ليو معرض "العلم في الحياة الأمريكية" أنه "مهين، ونظرة محملة بالمعاني السياسية إلى العلم الأمريكي، يركز، بشكل تستحوذ عليه فكرة واحدة فقط، على الفشل والمخاطر: دي دي تي، ثري ماي ل آيلاند، وثقب الأوزون، والمطر الحمضي، وانفجار تشالنجر، وقناة الحب."[٩٢٠] وفي معرض الجو والفضاء، وجد أن الطائرة متهمة بأنها اختراع كان استخدامه الأول من أجل المجزرة الجماعية. ولكن ليو وجد في مخطوطات المستقبل، أن طياري الكاميكازي اليابانيين، الذين دمرت اصطداماتهم الانتحارية عددا مزعجا من سفن الأسطول الأمريكي والبحارة

الأمريكيين، وجد أنهم سوف يرسمون بصفة أبطال الجو. أطفال غرامشي أمسكوا بمتاحف أمريكا.

الروائي توم وولف وحده تقريبا هو الذي لاحظ الغياب المذهل لأي احتفال "بالقرن الأمريكي الأول" عند نهايته في ٣١ كانون أول / ديسمبر ١٩٩٩ عشية الألفية.

أين كنت أنا. على الصفحة الخطأ؟ والقناة الخطأ؟ وخارج عرض الموجة؟.... هل لاحظ عالم مفرد وحيد أن القرن الأمريكي الأول قد وصل الآن إلى النهاية وأن القرن الأمريكي الثاني قد بدأ؟

هل تحرك شاعر واحد ليكتب نشيدا قويا ـ وفق خطوط ماكتبه جيمس تومسون: "احكمي، بريطانيا! بريطانيا احكمي الأمواج، فالبريطانيون لن يكونوا أبدا عبيدا!: "من أجل أمريكا، وهي الأمة التي سحقت في القرن الذي وصل نهايته أخوتين قوميتين بربريتين، ألمانيا النازية والشيوعيين الروس، قطيعين في الضواري الصيادين للعبيد بطريقة منهجية، قطيعين جعلا الهون والماجيار يبدون بالمقارنة معهما مجرد أصحاب نزوات غريبة...

هل أي من البرامج الخاصة في شبكات التلفزة الأمريكية عند نهاية القرن أصابت بشكل موفق النغمة الحيوية النشيطة التي أصابها المهرجان الماسي الخمسيني للملكة فيكتوريا الذي أقيم في ١٨٩٧؟

كان انطباعي هو أن قرنا أمريكيا واحدا قد تدحرج ودخل في قرن آخر مع كل أبهة وظروف مسند فارة الحاسوب. الانتصار العظيم

لأمــريكا ألهم كل الوطنيــة والكبــرياء...كل التــوق إلى المجــد والإمبــراطورية... كل موسيقى المهرجان العسكري لطقة فأرة الحاسوب.[٩٣]

من نظر إلى الخلف بكبــرياء على كل مــا أنجــزته أمــريكا في القرن الذي انتهى حديثا؟ في كل الاحتفالات من لندن إلى نيويورك إلى طوكيو إلى بكين، من الذي نظر للخلف إلى الإنسان الذي كانت نهاية الألفي عام هي عيد ميلاده؟ لا أحد فعل ذلك تقريبا. وذلك لأنه مع مجئ الألفية الجديدة كان الأمريكيون يعيشون في حضارةٍ، وثقافةٍ، وبلادٍ هي في حياتها العامة، قد غذت السير في الطريق إلى اجتثاث المسيحية منها.

البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً صديقا لآرون. وجاسون بيفورت، البالغ من العمر السادسة والعشرين، كان أستاذ علوم ومدربا في أوغاستا هاي. وكان قد خطط أن يتقدم بالخطبة إلى المرأة التي بقيت حية وكان قد أحضر خاتما وكتابا عن كيفية عمل ذلك. ويكتب فرانك موريس في ذا وندرر: " لم يحظ جاسون بالفرصة ليتقدم بالخطبة أو يعطيها الخاتم، ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية في بلدته برات كبيرة بما يكفي لجنازته، ولذلك فقد نُقلت إلى كنيسة بروتستانتية أكبر."[٣٤] وفي الدقائق التي سبقت موت جاسون بيفورت أُجبر ذاك الرجل على أن يراقب المرأة التي أمل أن يتزوجها وهي تغتصب.

ولكن ما لم يذكره موريس هو أن جميع الضحايا كانوا بيضا وأن القتلة كانوا سودا. لو أن أعراق الطرفين قد قُلبت لكانت تلك جريمة بغضاء للعقد كله. ومع ذلك فإن هذه الفظاعة لم تصنع أبدا بروكاو، ولم تصنع أبدا ريذر، ولم تصنع أبدا جينينغز، ولم تصنع أبدا الصفحة رقم واحد في الصحافة القومية. لماذا لم تفعل؟ يكتب كاتب العمود والمؤلف ديفد هوروويتز فيقول: " القصة لم تناسب الميلودراما القومية الصحيحة سياسيا التي تحكي عن الضحية الأسود والجور الأبيض."[٣٥]

يبدو أن لدى السيد هوروويتز نقطة حرية بالاهتمام. فوفقا

الفصل الثامن

اجتثاث المسيحية من أمريكا

"خفر الدين يحجب نيرانها المقدسة وبدون إنذار تموت الأخلاق"[1]

أليكساندر بوب.

"إن شعبا بلا دين سيجد في النهاية أنه لا يملك شيئاً يعيش من أجله"[2]

تي. إس. إليوت.

في الحرب العالمية الكبرى ١٩١٤-١٩١٨ قاتلت فرنسا الكاثوليكية ضد النمسا الكاثوليكية، وقاتلت ألمانيا البروتستانتية ضد بريطانيا البروتستانتية . ومشى تسعة ملايين عسكري مسيحي إلى حتوفهم . ومع ذلك فروسيا الأرثوذكسية فقط هي التي استسلمت للثورة الشيوعية، وكانت تلك الثورة انقلابا عسكريا أكثر منها تحولا جماهيريا . واستنتج غرامشي أن ألفي عام من المسيحية هي التي جعلت روح الرجل الغربي منيعة لا تخترقها الماركسية .وقبل أن يكون بالإمكان قهر الغرب يجب أن يجتث إيمانه من الجذور، ولكن كيف؟

وجواب غرامشي هو "_مسيرة طويلة" عبر المؤسسات. يجب

على الماركسيين أن يتعاونوا مع التقدميين للاستيلاء على المؤسسات التي شكلت أرواح الشباب: المدارس، والكليات، والسينما، والموسيقى، والفنون، ووسائل الإعلام الحديثة التي دخلت إلى كل بيت بدون رقابة عليها، والراديو، وبعد غرامشي، التلفاز. بعد أن يتم الاستيلاء على المؤسسات الثقافية يستطيع يسار موحد أن يبدأ باجتثاث المسيحية من الغرب. وعندما يتم إنجاز هذا الواجب، بعد عدة أجيال، لا يبقى الغرب هو الغرب، ولكن ستكون هناك حضارة أخرى تماما. وستأتي السيطرة على الدولة لا محالة لاحقة للسيطرة على الثقافة.

ولكن، في الوقت الذي بدأت فيه المسيحية تموت في الغرب، حدث شيء آخر. لقد بدأت الشعوب الغربية تتوقف عن إنجاب الأطفال. وذلك لأن الارتباط بين الإيمان الديني وبين إنجاب العائلات الكبيرة هو ارتباط مطلق. وكلما ازداد الوازع الديني عند شعب، سواء أكان مسيحيا أم مسلما أم يهوديا كان معدل الولادة عنده أعلى. في نيو سكوير، في نيويورك، في أول مجتمع يهودي ملتزم التزاما كاملا في الولايات المتحدة، كانت الأسرة المتوسطة تضم عشرة أطفال.[٣] في كوستروما، في روسيا، فإن فلاديمير اليكسييف، أب لأسرة من ١٦ ستة عشر طفلا في صورة إعلان كبير، وامرأته الحامل تملك بيتا مليئا بالإيقونات. وقال أليكسييف

لأسوشييتد برس "حتى قبل أن نكون مؤمنين فإننا وجدنا معنى في هذا."[٤] وفي ولاية تكساس المعمدانية نجد أن معدل الولادة بين السكان البيض أعلى منه بين السكان البيض في كاليفورنيا المترفين بالملذات. حيثما تنتصر العلمانية يبدأ السكان بالانكماش والموت.

في العام ١٩٩٩، عقد البابا جون بول الثاني اجتماعا أسقفيا للمجمع الكنسي لاستشعار نبض الإيمان في القارة القديمة. ولم تكن الأخبار طيبة. وروى الأساقفة أن العلمانية "تسمم قسما كبيرا من المسيحيين في أوروبا. وهناك خطر عظيم من اجتثاث المسيحية ومن الوثنية في القارة."[٥] أقل من ١٠ بالمائة من الشباب في بلجيكا، وألمانيا، وفرنسا يحضرون إلى الكنيسة بانتظام. وليس هناك مدينة كبيرة في شمال غرب أوروبا يتم فيها تعميد نصف المواليد الجدد.

وفي العام ١٩٩٩ وجد استطلاع قامت به نيوزويك أن ٣٩ بالمائة من الفرنسيين لا يدينون بدين، وأن ٥٦ بالمائة من الإنجليز يعتقدون بإله شخصي.[٦] وفي إيطاليا، يحضر ١٥ بالمائة فقط قداس الأحد، بينما في جمهورية التشيك يكاد الحضور إلى الكنيسة في يوم الأحد لا يصل إلى ٣ بالمائة.[٧] وقد قال الرئيس التشيكي فاكلاف هافل: إن ما نخلقه هو "أول حضارة ملحدة في تاريخ البشرية."[٨] واستمر هافل في التساؤل:

> ألا تكون طبيعة حضارتنا الحالية كلها مع قصر نظرها، ومع توكيدها المتكبر على الفرد الإنساني ... ومع ثقتها اللامحدودة في قدرة الإنسانية على احتضان العام الكلي بالمعرفة العقلية، ألا تكون كلها التجلي الطبيعي لظاهرة بسيطة، وهي بتعابير بسيطة، تصل إلى فقدان الإله؟.[٩]

ولكن في الوقت الذي تنشأ فيه هذه "الحضارة الملحدة" الجديدة في أوروبا فإن الشعوب اللازمة لإدامتها قد بدأت تموت. ويبدو أن القانون حديدي: اقتل إيمان الأمة فيتوقف شعبها عن التوالد. وعند ذلك ستدخل الجيوش الأجنبية أو سيدخل المهاجرون ليملؤوا الأماكن الشاغرة. وباجتثاث المسيحية من أمريكا، وجدت الثورة الثقافية مانعا للحمل فعالا مثل فعالية حبة منع الحمل الصغيرة التي جاء بها د. روك. ولكن كيف تسمح أمة "كنسية" مثل أمريكا ومنغمسة في الثقافة المسيحية مثل الولايات المتحدة في الخمسينات من ١٩٥٠، كيف تسمح لنفسها بأن تجرد من دينها وتجتث منها المسيحية علنا بدون قتال تقريبا؟

"أمريكا أمة مسيحية" هذا ما قاله الحاكم كيرك فوردايس بشكل مشهور في ١٩٩٢.[١٠] وقبل أن يجلس حاكم مسيسيبي، كان يجري شجب أقواله بوصفه متعصبا غير متسامح لأنه لم يستخدم "يهودية - مسيحية." ومع ذلك، وكما يكتب غاري ديمار في تاريخ

أمريكا المسيحية: قصة لم تقصص، فقد كان الحاكم على حق بشأن جذور أمريكا وأول ٢٥٠ مائتين وخمسين عاما من تاريخها .

أول مستوطنات في أمريكا كانت مشاريع تجارية بروتستانتية. وكان اليهود والكاثوليك أقليات ضئيلة فقط . وعندما كان المؤلف في مدرسة أبرشية في الأربعينات من ١٩٤٠، تحدثت الراهبات بفخر كيف أن واحدا من سبعة وخمسين من الموقعين على إعلان الاستقلال كان كاثوليكيا: وهو تشارلز كارول من كارولتون، ماريلاند.

وفي أول وثيقة لفيرجينيا، فان الهدف المصرح به للمستعمرين هو "نشر الدين المسيحي للشعوب التي ماتزال تعيش في ظلام وجهل بائس للمعرفة الحقيقية وعبادة الله" وأول ست كلمات في حلف ماي فلور هي " باسم الله، آمين "ثم تستمر" بعناية الله ..... بعد أن قمنا في سبيل مجد الله وتقدم الايمان المسيحي .... "وفي الأوامر الأساسية لكونيكتكيت في ١٦٣٩ صرح المجتمعون" كلمة الله تتطلب أنه من أجل إدامة السلام والاتحاد لمثل هذا الشعب يجب أن يكون هناك حكومة منظمة ومحترمة ومؤسسة وفق ما يريد الله ... لصون الحرية ونقاء إنجيل سيدنا عيسى المسيح ".[١١]

في أثناء التأمل في هذا التاريخ في فطور صلاة من المجلس العالمي للقيادة المسيحية في العام ١٩٥٤، قال رئيس المحكمة العليا إيرل وارن:

أعتقد أنه ما من أحد يستطيع أن يقرأ تاريخ بلادنا بدون أن يدرك أن الكتاب المقدس وروح المخلص كانت منذ البداية هي عبقرياتنا الهادية ... وسواء نظرنا إلى أول وثيقة لفيرجينيا .. أو إلى وثيقة نيوإنجلاند...أو إلى وثيقة ماساتشوسيتس باي... أو إلى الأوامر الأساسية لكونيكتيكت .... فإن الغرض نفسه موجود وهو: أرض مسيحية حكمتها مبادىء مسيحية."[١٢]

ويرسخ ديمار الحقيقة بما لا يقبل الدحض . فقبْل قرنٍ من الحاكم فورديس، صرحت المحكمة العليا في الولايات المتحدة في العام ١٨٩٢بالقول: "هذه أمة مسيحية."[١٣] وقال حاكم نيوجيرسي وودرو ويلسون في العام ١٩١١: "ولدت أمريكا أمة مسيحية، ولدت لتمثل ذلك الإخلاص لعناصر التدين التي اشتقت من تنزيلات وحي الكتاب المقدس."[١٤] وفي العام ١٩٣١ أعاد القاضي جورج سذرلاند توكيد قرار المحكمة في ١٨٩٢ مسميا الأمريكيين باسم "شعب مسيحي."[١٥]

وفي بلاسنتيا باي، حيث قام روزفلت بكتابة ميثاق الأطلسي مع ونستون تشرتشل، صرح روزفلت بإن أمريكا كانت قد "أسست على مبادىء المسيحية" وقاد البحارة الأمريكيين والبريطانيين في الغناء "إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون."[١٦] وفي رسالة في العام ١٩٤٧ الى البابا بيوس الثاني عشر أكد هاري ترومان "هذه أمة مسيحية."[١٧] وفي قرار في ١٩٥١ من المحكمة العليا كتب القاضي

وليم دوغلاس: "نحن شعب متدين وتفترض مؤسساتنا مسبقا وجود موجود أعلى"[١٨] وأضاف جيمي كارتر: "لدينا مسؤولية لمحاولة أن نشكل الحكومة بحيث تمثل إرادة الله ."[١٩]

إن رد الفعل على فوردايس – وهو رد حشوي، وخشن، ومعاد – يخبرنا عن نخبتنا الثقافية أكثر مما يخبرنا عن معتقدات الأكثرية الكبرى الصامتة. ولكن الثورة الثقافية كانت تقوم بإعادة كتابة التاريخ وما تزال، وتبدل التاريخ الحقيقي لتضع مكانه تاريخا مزورا – وهو أن أمريكا لم تكن أبدا بلدا مسيحيا وأن المتعصبين فقط مثل الحاكم فوردايس يصرون على القول بذلك. وأما توكيد الرئيس كارتر أن "لدينا مسؤولية لمحاولة أن نشكل الحكومة بحيث تمثل إرادة الله." فإن ذلك، وفقا للمحكمة العليا، ممنوع بحسب التعديل الأول للدستور. فاذا كنت تريد أن تعيد تشكيل المجتمع الأمريكي من خلال القانون، حسب ما تقول المحكمة، فإن لك أن تستخدم، بصفة أدلة هادية لك، الكتب التي كتبها كارل ماركس، أو راشيل كارسون، أو بيتي فريدان، أو آل غور، ولكن ليس الكتب التي كتبها متىّ، أو مرقص، أو لوقا، أو يوحنا.

كيف اجتثت المسيحية من أمريكا؟ الجواب: استبداديا، وبمقاومة ضئيلة، وهو ما يدعو للدهشة، من شعب يرقى أسلافه ليكونوا بين أعنف الأعداء في التاريخ للحكم غير الديمقراطي.

منذ نصف قرن مضى، استولى على المحكمة العليا قضائيون عقائديون متمذهبون فهموا سلطتها الكامنة في إعادة تشكيل المجتمع. وباستخدام المحكمة لبند الإدماج من التعديل الرابع عشر، فإنها أكدت حقها في أن تفرض على الولايات كل القيود التي فرضها الدستور على مجلس الشيوخ. عند تلك النقطة، كان التعديل العاشر ميتا، وصارت ولايات الاتحاد مناطق خاضعة للمحكمة العليا.

ولأن التعديل الأول منع مجلس الشيوخ من أن يسن أي قانون "بخصوص ترسيخ دين." وطلب من مجلس الشيوخ أن يحترم "الممارسة الحرة" للدين، فإن المحكمة العليا أعادت تفسير الكلمات لتبرر الضرب الاستباقي على المسيحية. وصدر الأمر بإخراج كل الأناجيل المسيحية، والكتب، والصلبان، والرموز، والاحتفالات، والأعياد من الساحة العامة ومن المدارس العامة. فخرج آدم وحواء، ودخل قصة هيذر لها أمّان. (*) وخرجت رسوم المسيح وهو يصعد إلى السماء، ودخلت صور القردة وهي تصعد إلى الإنسان المنتصب القامة. وخرج عيد الفصح، ودخل يوم الأرض. خرجت تعاليم الإنجيل حول لاأخلاقية اللواط، ودخل اللواطيون ليعلموا عن

(*) قصة تحكي عن أسرة مثلية بين امرأتين ومعهما طفلة تحاولان أن تشرحا لها لماذا تتكون أسرتها من أم وأم وليس من أم وأب. وقد أثارت القصة جدلا أخلاقيا حادا.

لاأخلاقية كراهية اللواطيين. خرجت الوصايا العشر، ودخلت الواقيات الذكرية.

بالعودة خمسين عاما إلى الوراء، نجد أن المحكمة العليا قد أوقعت سلسلة من الهزائم التي لم تتقطع تقريبا بإيمان آبائنا. وفي العام ١٩٤٨ حكم على التعليم الديني الطوعي بأنه خارج عن القانون في المدارس العامة. وفي العام ١٩٦٢ ألغيت الصلاة في المدارس. وفي العام ١٩٦٣ أعلنت القراءة الطوعية اليومية من الإنجيل بأنها غير دستورية. وفي العام ١٩٨٠ دعا قانون في كنتاكي إلى تعليق الوصايا العشر على جدران الفصول الدراسية، ولكن القانون أسقط لأن الوصايا العشر "لا تخدم أي هدف علماني" وفي العام ١٩٨٥ أعلن في ألاباما أن "لحظة الصمت" في بداية اليوم الدراسي غير دستورية. وفي العام ١٩٨٩ أمرت المحكمة العليا بإزالة منظر ميلاد المسيح من ساحة دار المحاكم في أليغني كاونتي خارج بيتسبيرغ. وفي العام ١٩٩٢ منعت كل الصلوات في تخرج المدارس الثانوية. وفي العام ٢٠٠٠ منع الطلاب من أداء الصلاة بمكبرات الصوت في ألعاب المدارس الثانوية.

وبعد أن جلس طوال ثلاثة عقود على منصة القضاء فإن رئيس المحكمة ريهنكويست قد سمع بما يكفي وأصدر انشقاقا لاذعا. وقال ريهنكويست إن قرار هذه المحكمة:

يحفل بالعداوة لكل الأشياء الدينية في الحياة العامة..فلا التمسك بالرأي ولا لهجته مخلصة لمعنى بند التأسيس، عندما يُستحضر أن جورج واشنطون نفسه، ونزولا على طلب مجلس الشيوخ ذاته الذي أقر قانون الحقوق، أعلن يوما" للشكر العام والصلاة يجب أن يراعى اعترافا وبقلوب شاكرة بالأفضال العديدة والمشهودة من الله تعالى".[20]

والتقليد هو أخلص شكل من النفاق. فبعد أن شعرت المحاكم الدنيا بأن المسيحية مطاردة، بدأت تتفوق على المحكمة العليا. ففي العام ١٩٩٦ قضت الدائرة التاسعة بأن صليبا ضخما منصوبا بصفة تذكار حرب في متنزه عام في يوجين، في أوريغون، هو خرق للدستور. وفي العام ١٩٩٩ أمرت الدائرة السادسة هيئة التعليم في كليفلاند بأن تتوقف عن افتتاح اجتماعاتها بالصلاة، بالرغم من أن مجلس الشيوخ يفعل ذلك كل يوم. وقضت الدائرة الحادية عشرة بأن أي أدعية أو صلوات أو ابتهالات ترفع في حفلات تخرج المدرسة الثانوية هي أعمال مخالفة للقانون.

منذ العام ١٩٥٩، كانت ولاية أوهايو ترفع شعارا لها هو:"مع الله كل الأشياء تكون ممكنة." وكان هذا الشعار يستخدم على وثائق الولاية ونماذج أوراق دفع الضريبة، وهو مطبوع على لوحة برونزية في الجانب المرصوف من الشارع عند مدخل مبنى الجمعية التشريعية للولاية. في العام ٢٠٠٠ أمرت هيئة من ثلاثة قضاة من الدائرة السادسة بإزالة الشعار. لماذا؟ لأن الكلمات جاءت من العهد

الجديد. والأسوأ التعليل بأنها كلمات المسيح نفسه. لو أن أوهايو تبنت شعارا لها كلمات نيتشة "الإله ميت" أو السطر المأخوذ من دوستويفسكي من رواية الإخوة كرامازوف الذي ينص على أنه إذا كان الإله ميتا فكل الأشياء ستكون مباحة، لكان شعار أوهايو عندئذ جميلا.

ماريلين مانسون، مطلقة الصدمات قالت مرة:"يجب على كل عصر أن يكون لديه شخص شجاع واحد على الأقل يحاول أن يضع نهاية للمسيحية، وهو الأمر الذي لم ينجح به أحد [هكذا] حتى الآن."[٢١٠] افرحي يا ماريلين، فإن المحكمة العليا في صفك. ففي شهر أيار /مايو ٢٠٠١ أيدت قرار محكمة استئناف أمريكية بأمر إلكاهارت، في إنديانا، بأن تزيل من مروج قاعة المدينة عمودا من الصوان بارتفاع ستة أقدام حفرت عليه الوصايا العشر. لقد وقف العمود هناك لمدة تنوف على الأربعين عاما. ولكن بتصويت ستة مقابل ثلاثة رفضت المحكمة أن تسمع استئناف المدينة. ولكن رئيسا للمحكمة العليا مخالفاً في الرأي أشار إلى زملائه بأن صورة لموسى تحمل هذه الوصايا العشر نفسها تزين جدارا في غرفة محكمتهم العليا نفسها.[٤٥٦]

التنافس الديني هو لعبة صفر ـ كمية، (رابح - خاسر). وكل ربح لدين واحد هو خسارة من دين آخر. وكان ارتفاع المسيحية قد

نظر إليه على أنه تهديد مميت في القدس من قبل شاؤول طرسوس، الذي أمسك معاطف الرجال الذين رجموا القديس ستيفن الشهيد. وفتح الإسلام للجزيرة العربية وشمال أفريقيا أخاف أوروبا المسيحية. والإصلاح وبروز البروتستانتية كانا أزمة لروما. وحيثما انتصرت الشيوعية حوصر المسيحيون إلى جدار. وعندما منحت العلمانية رعاية مدارس أمريكا كان ذلك هزيمة ساحقة للمسيحية.

من الروضة إلى المرحلة الثانية عشرة، تشكل المدارس العامة قلوب وعقول الأطفال الأمريكيين ومستقبل الأمة. هذا هو المكان الذي يتعلم فيه الأطفال ماذا يعتقدون، وماذا يقيِّمون، وكيف يفكرون، وكيف يعيشون. والآن صدر الأمرللمسيحية، مثل بعض المتسكعين، بأن تخرج من ساحات المدارس، وهذا انقلاب آخر بلا دماء تقوم به الثورة. كم كانت هزيمة كبيرة! اقض ساعة مع البيان الإنساني الصادر في العام ١٩٧٣.

سوف تجمد هناك العقائد التي تحكم ما يجري تعليمه الآن، والذي لم يبق يجري تعليمه في المدارس العامة. "الإيمان بإله يسمع الصلاة.... هو إيمان بلا برهان وقديم فات أوانه."[٢٣] "المبادئ الأخلاقية التقليدية... تفشل في مواجهة الحاجات الملحة لليوم."[٢٤] "الوعود بخلاص الخلود أو الخوف من اللعنة الأبدية كلاهما وهم

وضار."[25] "العلم يؤكد أن الجنس البشري كان ظهورا من قوى تطور طبيعي."[26] ويتخرج الأطفال من المدارس وهم يتقبلون هذه الأفكار لأنها أفكار قدمت لهم من معلميهم في ما كان متضمناً وما كان مستبعدا من نقاشات الفصول الدراسية حيث صارت المسيحية واغلا غير مرحب به.

العلمانيون الإنسانيون لم يخفوا جدول أعمالهم. فإن بيانهم يؤكد "الحق في ضبط الولادة، والإجهاض، والطلاق" ويضيف بأن "التنوعات الكثيرة من السلوك الجنسي لا ينبغي أن تعتبر - شرا - في ذاتها."[27] "الحرية تتضمن اعترافا بحق الفرد في أن يموت بكرامة، و في القتل الرحيم، والحق بالانتحار."[28] والآن بعد أن قام طاردو الأرواح الشريرة من الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية بتطهير المدارس العامة من المسيحية، فإن هذه العقائد العلمانية يجري تعليمها للأطفال بصفتها حقائق. وهكذا، ففي الوقت الذي تبقى فيه أمريكا مجتمعا وبلدا مسيحيا بالأغلبية الكثيرة، فقد اجتثت المسيحية بشكل كامل من مؤسساتها العامة وثقافتها الشعبية.

وبشكل لافت للنظر، فإن هذا البيان قد نشر في غضون الشهور التي كان فيها ريتشارد نيكسون وسبيرو آغنيو يسجلان نصرا جارفا يضم تسعة وأربعين ولاية على اختيار الضمير

الثالث(*)، لجورج ماك كفرن، في حملة١٩٧٢ عن "الحمض، والعفو العام، والإجهاض". ولكن وبرغم الهزائم الليبرالية في ١٩٧٢، و١٩٨٠، و١٩٨٤، و١٩٨٨، و١٩٩٤، فإن البيان الإنساني ـوهو على بعد أميال خارج التيار الرئيسي في أمريكا عندما نشر لأول مرةـ يجري بالتدريج تطبيقه من طرف الحزب الديمقراطي مع تضاؤل المقاومة الجمهورية. وعلى كل حال، ففي نقطة منه يعتبر البيان خادعا. فهو يؤكد على أن "فصل الكنيسة عن الدولة وفصل الإيديولوجية عن الدولة هي أمور حتمية ضرورية."[٢٩] ولكن الإنسانية العلمانية دين، وهو دين نخبة أمريكا، وهي التي يجري فرضها بالمحكمة العليا. وربما كان أعظم نجاح لأكبر منافسة للمسيحية هو إقناع المسيحيين بأنها ليست منافسة، بل مجرد أفكار تم الوصول إليها بواسطة العقل فقط.

لقد سُلب المسيحيون بأقلية عسكرية كانت معتقداتها غريبة لأمريكا الوسط، ولكنها نجحت في جعل حلفائها يستولون على

(*) الضمير الثالث هو ضمير الجيل الذي وقف ضد حرب فيتنام وكان جورج ماكغفون ضد هذه الحرب. والضمير الأول، والثاني، والثالث تشير إلى كتاب «تخضير أمريكا لتشارلز رايخ. وقال فيه «... الضمير الأول هو النظرة التقليدية للفلاح الأمريكي... والضمير الثاني يمثل قيم المجتمع التنظيمي... والضمير الثالث هو الجيل الجديد... يفترض هذا الجيل القيمة المطلقة لكل إنسان... كل نفس إنسانية... لا يؤمن بالعقيدة العدوانية التنافسية في الحياة.» وارتبط اسم ماكغفرن، عدلا أو ظلما، بثلاث قضايا: الحمض، والعفو العام، والاجهاض.

المحكمة العليا ويفرضون جدول أعمالها بالمراسيم. ومهما يحكى ضد الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية فهو لا يعوزه الصبر والدأب. وكما قال سيرفانتيس: أعط الشيطان ما يستحقه.

المسيحيون الذين مازالوا يؤمنون أن المحكمة لم تخلق إلا ميدان لعب مستويا فقط لجميع الأديان إنما يصفرون بعد اجتياز المقبرة. المحكمة أخذت ملعبهم في حوزتها واستلمته وسلمته إلى منافسيهم. ما فقده المسيحيون لن يستعيدوه بدون صراع. في عندما تموت الأمم كان جيم نيلسون بلاك قاسيا على نحو مخصوص على البروتستانت الإنجيليين عندما قال:

> ولكن واحداً من أعظم الأسباب لانحطاط المجتمع الأمريكي طوال القرن الماضي كان ميل المسيحيين الذين يملكون الحلول العملية إلى التخلي عن المنبر لدى أول إشارة للمقاومة. لقد كان البروتستانت الإنجيليون على وجه الخصوص سريعين في الهرب وبطيئين في الوقوف إلى جانب معتقداتهم. وفي الحقيقة، معظم المسيحين قد أخلو من قبلُ "الميدان العام" للجدل الأخلاقي والسياسي بإرادتهم الحرة، قبل مدة طويلة من مجئ دعاة حرية الفكر المدنيون مع آخرين ليعيدونا إلى كنائسنا.[٣٠]

قد يكون هذا قاسيا جدا، ولكن المسيحيين يحتاجون إلى دعوة لليقظة إذا كانوا لا يريدون أن يفقدوا بلادهم، ويحتاجون إلى قادة مهيئين للقتال لإنقاذها. لقد حذر سي.إس. لويس من روح المساهلة

بالحل الوسط وهي الروح التي كانت مجرد عباءة لتغطية عري التردد في العزم والخوف وقال:

> بصفتنا مسيحيين فإننا يستهوينا أن نقدم تنازلات غير ضرورية لأولئك الذين هم من خارج الدين. إننا نستسلم كثيرا جدا .... ويأتي وقت يجب أن نظهر فيه بأننا لا نوافق. يجب أن نظهر ألواننا المسيحية إذا ما كنا نريد أن نكون صادقين مع يسوع المسيح. لا نستطيع أن نبقى صامتين ونتنازل عن كل شئ.[٣١]

بحلول القرن الحادي والعشرين، كان اجتثاث المسيحية من حياتنا العامة كاملا. واحتفالات الفصح، ومناظر ميلاد المسيح، وتراتيل عيد الميلاد، والكتب المسيحية، والقصص، ومواكب الاحتفال، وأيام العطلات كلها قد اختفت تقريبا من مدارسنا العامة و من الميدان العام. ولم تبق المدارس تدار وفق رغبات آباء الأطفال الذين يدرسون في المدارس، أو دافعي الضرائب الذين يساندون المدارس، ولكنها تدار وفقا لإملاءات المحاكم التي تفرض جدول أعمال الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية والبيان الإنساني.

في ميسوري، الجمهورية، نجح الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية وهو يترافع نيابة عن ساحرة من الدين الويكاني بأن يقطع صورة سمكة من ختم المدينة لأن "الرمز موجود في الغالب في المؤسسات المسيحية، وليس في المؤسسات غير المسيحية، ومعظم..

الناس الذين كتبوا رسائل يساندون السمكة عرفوا السمكة على أنها رمز مسيحي.[٢٢٠]

و في أيار /مايو ٢٠٠١ أقام الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية دعوى لمقاضاة المعهد العسكري في فيرجينيا نيابة عن اثنين من الطلاب، أرادا أن يضعا نهاية لتلاوة دعاء الشكر قبل وجبات المساء.

إن إنزال الله عن عرشه من الحياة العامة الأمريكية لم يتم ديمقراطيا، لقد تم ديكتاتوريا، وما كان آباؤنا ليتسامحوا أبدا بذلك. لماذا سمح شعبٌ دين كان مقاتلا في الماضي، أن يحدث هذا، في الوقت الذي كانت فيه الصلاة، وتراتيل الميلاد، وقراءة الإنجيل، وإعلان الوصايا العشر مدعومة بأكثريات ضخمة؟ لأننا نعيش تحت حكم القضاة، ومجلس الشيوخ غير راغب بالمواجهة. إذا كانت أمريكا قد توقفت أن تكون بلدا مسيحيا فهذا بسبب أنها توقفت أن تكون بلدا ديمقراطيا. هذا هوالانقلاب الحقيقي.

لقد تبجح الأمريكيون في الماضي بكل كبرياء بقولهم: " هنا، يا سيدي، الشعب هو الذي يحكم". لم يبق هذا صحيحا. فنحن لا نعيش بحكم الأكثرية في أمريكا. نحن نعيش تحت حكم الأقليات التي يشارك في رؤيتها عما ينبغي أن تكون عليه أمريكا خمسة قضاة من المحكمة العليا، و معظم هؤلاء القضاة لا يستطيع واحد من عشرة من الأمريكيين أن يسمي أسماءهم.

مع اجتثاث المسيحية من أمريكا جاءت الإطاحة بالنظام الأخلاقي القديم المستند على التعاليم اليهودية _المسيحية، وجاء تأسيس نظام أخلاقي جديد بناء على البيان الإنساني. مرة أخرى، لم يتم ذلك بالتصويت العام، بل بأمر المحكمة. كان الإجهاض جريمة، والآن هو حق. هكذا تقول المحكمة. والصلاة الاختيارية في المدرسة تخرق الآن التعديل الأول، أما الرقص العاري في النادي الليلي فلا يخرق. عندما صوتت كولورادو في استفتاء عام لوقف شرعنة اللواط، قررت المحكمة العليا أن دوافع المصوتين كانت موضع شكوك ورمت بالتصويت جانبا.

وقالت المحكمة العليا في قرارها المؤرخ في العام ١٨٩٢ كنيسة الثالوث المقدس ضد الولايات المتحدة، قالت إن: "قانوننا ومؤسساتنا يجب أن تكون بالضرورة قائمة على تعاليم منقذ الإنسانية ومتجسدة فيها." "حضارتنا ومؤسساتنا هي بشكل مؤكد مسيحية."[٣٣] أمريكا تلك قد نسخت بأوامر محكمة مختلفة. الإجماع الأخلاقي القديم قد انهار، والمجتمع الأخلاقي الذي بني على ذلك الإجماع لم يبق موجودا".

بعد أن رأت المحكمة العليا الأمريكيين وهم ينحنون لإرادتها، صارت واثقة بشكل عال في انقلابها. وفي قرار صحافة ريتشموند نيوزبيبرز (١٩٨٠) وصف القاضي وليام جيه. برينان النظام

الجديد، فكتب يقول: القضاة "ليسوا مجرد حكام، ولكنهم في ميدانهم صناع القانون."[٣٤] وفي ١٩٨٥ أخبر مدرسة القانون في جورجتاون بقوله " عملية دعاة الأغلبية لها إغراء تحت بعض الظروف، ولكني أعتقد أنها في النهاية لن تنفع. "إن دور المحكمة "هو إعلان أن بعض القيم تسمو على كل شئ، و هي أبعد من أن تصلها الأغلبيات السياسية الموقتة."[٣٥] ما عناه القاضي برينان هو أن قيمه الشخصية كانت تسمو على كل شئ، ولو كان ذلك إرادة الأغلبية الأمريكية.

ويكتب البروفسور ويليام كويرك المؤلف المشارك في كتاب الدكتاتورية القضائية "إن المحكمة، لا الشعب، هي الآن عامل التغيير في المجتمع الأمريكي". وهذا يتناقض مع ما سماه جيفرسون "المبدأ الأم" وهو أن "الحكومات تكون جمهورية فقط بنسبة ما تجسد هذه الحكومات إرادة الشعب وتنفذها."[٣٦]

انتصر وارن، ودوغلاس، وبرينان، وبلاكمون.لم نبق نملك جمهورية. والمسيحية، بعد أن طردت من الميدان العام، تفقد الآن ببطء قبضتها. وفي استطلاع غالوب في ١٩٩٩، فإن ٦٢ اثنين وستين بالمائة من البالغين الشباب قالوا إن الدين كان يفقد تأثيره في الحياة الأمريكية."[٣٧] وأظهرت دراسة أخرى أن "أمريكا فيها من الملاحدة واللاأدريين أكثر مما فيها من المورمون أو اليهود أو

المسلمين."[٣٨] و من أصل أربعة عشر مليون غير مؤمن فإن النصف من جيل غير محدد و ٣١ واحد وثلاثون بالمائة من جيل ازدهار المواليد. و٤٢ اثنان وأربعون بالمائة فقط من الأمريكيين ما يزالون يعتقدون أن المسيحية هي الدين الصحيح.[٣٩] وفي استطلاع برينستون في العام ١٩٩٦ فإن ٦٢ اثنين وستين بالمائة من البروتستانت و ٧٤ أربعة وسبعين بالمائة من الكاثوليك قالوا إن جميع أديان الإيمان جيدة بشكل متساو."[٤٠] وتبقى أمريكا أكبر أمة "متمسحة" في الغرب، ولكن المسيحية فيها بالنسبة للملايين ليست هي الدين القديم الملحاح المقاتل. وماكان تنبأ به الأسقف الإنجيلي الكاثوليكي فولتون جيه. شين في العام ١٩٣١ قد جاء وحدث، فنحن، كما قال شين، ننتج:

> مجموعة من المتساهلين بالدين من الجهلة الأدعياء الذين يحسبون أنه لا يوجد فرق بين الله بوصفه العلة وبين الله بوصفة "انعكاسا عقليا"، والذين يعادلون بين المسيح وبوذا، وبين القديس بطرس، وجون ديوي، وبعد ذلك يوسعون عقليتهم الواسعة إلى تركيب ساحق لا يقول فقط بأن فئة مسيحية معينة هي تماما بنفس الدرجة من الخير. مثل فئة أخرى، بل يقولون أيضا إن دينا عالميا معينا هو تماما بنفس الدرجة من الخير مثل دين آخر.[٤١]

ومع ذلك فما من محكمة أصدرت أمرا لأي كنيسة أن تعيد كتابة صلواتها، أو تراتيلها أو أناجيلها لتتلاءم مع كتاب التعليم

الديني العلماني الجديد. وهذا ما فعلته الكنائس، وبشكل طوعي بل بشكل راغب. لماذا؟ لأكثر الأسباب إنسانية.

فبما أن العديد من الرهبان الشباب والقسيسين أنفسهم لم يبقوا يوقنون بعصمة الحقائق التي كانوا يتعلمونها، وهم لا يريدون أن يُتركوا خلف الآخرين في الوقت الذي يغادر فيه الشباب، فقد حاول الرهبان والقسيسون المستحيل: أن يصالحوا المسيحية مع الثقافة المضادة. ولكنهم في محاولتهم اليائسة لجعل أنفسهم لازمين، لم يعملوا إلا أن جعلوا أنفسهم موضع السخرية فقط.

"فضل عجيب! كم كان حلوا ذلك الصوت الذي أنقذ شقيا مثلي"، كان هذا هو سطر الافتتاح لما قد تكون أشهر الترانيم كلها، وكتبها جون نيوتن في العام ١٧٧٩ وهو القبطان التائب لسفينة عبيد. وفي بعض كتب الترانيم جرى تغيير ذلك إلى "الذي أنقذني وقواني"، أو "الذي أنقذني وحررني."[٤٢] لماذا؟ ليبتعد عن الفكرة غير المريحة عن خطيئة الإنسان وحاجته إلى أن يقبل عيسى المسيح بوصفه مخلصه.

الفقرة الشعرية "أمريكا الجميلة" التي تحتوي على سطور "أيتها الجميلة لأقدام الحجيج/ يا من تباريحها الفياضة بالعواطف المرهفة / هي درب من أجل سنن الحرية..." قد أسقطت من بعض كتب الترانيم وكتب الأغاني.[٤٣] لماذا؟ لأن "الرجل الأبيض داس فوق

الهندي ليطرق ذلك المسار إلى الحرية."[٤٤] كما يقول المحترم رجل الدين هارولد جاكوبس من قبيلة لمبي الهندية.

"أبيض من الثلج يا إلهي العزيز/ اغسلني الآن.." وهي من "اسلك طريقك الخاص، يا إلهي" هي الآن تؤدى في بعض كتب الترانيم على الشكل التالي "اغسلني الآن فورا، يا إلهي/ اغسلني الآن فورا"[٤٥]، ويبدو أن "أبيض من الثلج" تحوي على مضامين عرقية. وكلمات "الأب، والابن، والروح القدس" يجري استبدالها ووضع "الخالق، المخلص، المساند" لجعل التعبير أكثر حيادية من جنس الذكر والأنثى.[٤٦] وتفضل كنيسة ريفرسايد في نيويورك "الأب، والابن، والنفس المقدسة، إله واحد، أم لنا جميعا." [٤٧]

صلٍّ من أجلنا.

"إلى الأمام، أيها الجنود المسيحيون" و "أنا جندي للصليب" هذه الجمل قد شجبت بصفتها متطرفة في الروح العسكرية. "هو يقودني" و "إلهي العزيز وأب الإنسانية"، كلام تعصبي قومي". الله يريحكم أيها السادة المرحون" هي تعبير إقصائي. "دين آبائنا" تعبير من الطبيعي أن يكون تحت النار. والذين يحبون الترنيمة، ولكنهم لا يحبون الإيقاع قد يستخدمون "أمهاتنا" أو "أسلافنا". ولذلك فإن "إله آبائنا" صارت "إله العصور". وبدل "ابن الإنسان" بعض جماعات المصلين يفضلون "الواحد الإنساني".

في العـــام ١٩٨٠، أسس المجلس الوطني للكنائس لجنة من الأكاديميات النساء لكتابة كتاب نبذات تقرأ في الصلوات وتكون غير مميزة بين الجنسين الذكر والأنثى. "إله" استبدل بها قول "الواحد السيد" و"ابن الله" صارت "طفل الله" وإرادة الله في أن يخلق حواء لآدم أعيدت كتابتها لتقرأ "إنه ليس طيبا أن يكون المخلوق البشري وحيدا، سأجعل له رفيقة تتناسب مع المخلوق."[48]

وعندما ظهر المجلد الأول من نبذات للصلوات الشاملة اللغة، في العام ١٩٨٣ كما كتب مايكل نيلسون وهو بروفسور العلوم السياسية في كلية رودس: "بعد أسبوع، أو ما يقارب، من غضب ومرح طائش متبادل، أهملته الكنيسة الكبيرة ليتراكم فوقه الغبار."[49]

على فراش موته قال الملحد فولتير"لم أصل لله أبدا إلا صلاة واحدة، يا إلهي اجعل أعدائي يبدون مدعاة للسخرية. وقد أجاب الله دعاءه."[50] لم تقم أي محكمة بإجبار هذه الكنائس على أن تجعل نفسها حمقاء. لقد أرادوا أن يكونوا لازمين لهم علاقة. وجعلوا أنفسهم غير لازمين ولا علاقة لهم. وقبل توبيخ ذوي الأعمار ممن يبلغون خمسة عشر عاما بسبب الخضوع لضغوط أقرانهم في الجنس والمخدرات، انظروا كما كانت لا تغيير في أداء رؤسائهم الأخلاقيين.

والآن الاستفزازات

في المعجم الشيوعي، لم يكن التعايش السلمي يعني السلام. كان يعني استمرار الصراع بوسائل غير الحرب. وهكذا، أيضاً، فإن الصراع من أجل الهيمنة الأخلاقية لن ينتهي إلا عندما يهزم طرف وينتصر الطرف الآخر. فإذا كان التقليديون يعتقدون أنهم يستطيعون أن يتعايشوا سلمياً مع الثورة الثقافية فإن بإمكانهم أن يعيدوا الزيارة إلى المجادلات التي تحدث في الوقف الوطني للفنون عن معظم الأعمال المتصلة بتدنيس الصور المسيحية والإهانات المتعمدة للنظام الأخلاقي المسيحي....[51]

"الفن هو ما تستطيع أن تهرب به." هذا ما قاله آندي وورهول، ولكن بيكاسو رأى الفن بصفته يمتلك هدفاً أكثر رصانة. وقال: "الفن ليس لتزيين الشقق. الفن سلاح للثورة.."[52] وويلر ويليامز، وهو واحد من أعظم النحاتين في أمريكا "اعترف أن الغرض من الفن الحديث كان تدمير إيمان الإنسان بتراثه الثقافي."[53] وبكلمات أخرى، الفن مجرد جبهة أخرى للحرب الضروس التي تشنها الثورة الثقافية على المسيحية.

في العام ٢٠٠١، استضاف متحف بروكلين رسم عشاء يو ماما الأخير لرينيه كوكس، وفيه صورة عارية تماما لمز كوكس بصفتها

المسيح، مع أحد عشر صديقا أسود بصفتهم رسلا مع رجل أبيض بصفته يهوذا.[٥٤] وعندما شجب العمدة جيولياني "النمط المعادي للكاثوليكية في متحف بروكلين" وأعلن عن هيئة لتضع "معايير للحشمة" قال فيرناندو فيرير رئيس حي برونكس: إن الاقتراح "يبدو مثل برلين في ١٩٣٩."[٥٥]

في الحقيقة، إن الإساءة الفاحشة البذيئة التي تُراكمها مستعمرة الفنون فوق الكاثوليك وأقدس رموزهم تستدعي برلين ١٩٣٩ فعلا، خصوصا صحيفة دير ستورمر لجوليوس ستريتشر التي عاملت اليهود ومعتقداتهم بطريقة مابلثورب، وسيرانو، وكوكس في معاملة الكاثوليك ومعتقداتهم. والفرق؟ معاداة الكاثوليكية، ومعاداة السامية من المفكرين، هي التعصب اليومي للمؤسسة الثقافية. وذلك التحامل ليس محصورا بعواصمنا الثقافية.

في مطلع ٢٠٠١، عرض متحف الفن الشعبي العالمي في سانتا فيه صورة محوسبة مختلطة بلصق الورق على الخيش باسم سيدتنا من غوادالوب، وهي عارية إلا من بيكيني من الورود، ومرفوعة إلى أعلى من قبل ملاك عاري الصدر.[٥٦] وعندما اعترض الأسقف مايكل جيه. شيهان ووصل المتظاهرون الغاضبون، قال توماس ويلسون مدير المتحف في الولاية: "لم نتوقع قطعيا حدوث أي شئ مثل هذا."[٥٧] ودهش القيم على المعرض تي ماريانا نن، وأخبر

نيويورك تايمز بأن "إعادة تصوير" سيدتنا من غوادالوب، وهي أقدس أيقونة عند الكاثوليك المكسيكيين أمر شائع تماماً، والأم العذراء قد سبق تصويرها مثل لعبة باربي، وراكلة كاراتيه، وسحاقية موشومة.[58]

يقال إن الفن هو مرآة الروح. ودعا تي.اس. إليوت الفن بأنه تجسيد دين الشعب. فإذا كان ذلك صحيحا، فمن أو ماذا يسكن في أرواح هؤلاء "الفنانين"؟ ماذا يمكن أن يحدث لو أنهم هَزِئوا بالمحرقة اليهودية بعرض صور محوسبة مختلطة لآن فرانك عارية تلهو مع قوات وحدات الحماية في أوشفيتز؟ أو وضع عرض ساخر لمغن متجول يهزأ بالدكتور كينغ؟

نحن نعرف الجواب، عندما استخدمت الشركة الفرنسية ألكاتل، بإذن من أسرة كينغ، فيلم خطاب كينغ في ذكرى لينكولن في إعلان تلفازي، قال جوليان بوند من الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون: "هناك بعض الأشياء التي يجب أن تكون مقدسة."[59] في الوثنية الجديدة تكون صورة فاضحة لمريم العذراء المقدسة أمرا مسموحا، وأما كلمات الدكتور كينغ فلا تدنس لحرمتها.

منذ سنوات، عندما ظهر فيلم النبي الذي كان يعرض فيه وجه محمد ﷺ، وهو كفر في الإسلام، رفضت دور العرض أن تعرض الفيلم خوفا من الانتقام العنيف. وعندما نشر سلمان رشدي آيات

شيطانية، وهي رواية صدر الحكم عليها بأنها إساءة بذيئة من وجهة نظر الإسلام، قضى المؤلف سنوات وهو مختبئ نتيجة الفتوى، وحكم الإعدام الذي فرضه آية الله الخميني. والآن، إن الفتاوى، والقنابل المتفجرة ليست هي الطريقة الأمريكية للاحتجاج، ولكن المقاطعات الاقتصادية والعقاب السياسي طرق أمريكية. وعندما قيل للمسيحيين أن "يديروا الخد الآخر"، فقد كان ذلك للإهانات الشخصية الموجهة لهم، وليس للإهانات الموجهة ضد الله. المسيح نفسه استخدم السوط ليخرج صرافي المال من المعبد.

في العام ١٩٩٠، قام جيمس اف كوبر محرر فصلية الفنون الأمريكية بوضع إعلان عن احتياج. ومثلما سبق لهوراس غريلي أن حرض محاربي الحرب الأهلية بأن "اذهب للغرب، أيها الشاب!" فإن كوبر حرض محاربي الحرب الباردة، "استردوا السيطرة على الثقافة!"[٦٠] أيها المحافظون، وقال:

> يبدو أنهم لم يقرؤوا أبداً ماوتسي تونغ بشأن شن الحرب الثقافية على الغرب. مقالات (ماو) كانت قراءة موصى بها لجيل هربرت ماركيوز في الستينات من١٩٦٠، وهو الجيل الذي يدير الآن مؤسساتنا الثقافية... المحافظون كانوا غير مدركين للحقيقة التي هي ... إن الفن الحديث - بعد أن انفصل طويلا عن مثالية مانيت، وديغاس، وسيزان، ورودين - قد تحول إلى مغذ للإيديولوجية المدمرة، المنحدرة، القبيحة، الفضائحية، الماركسية، المعادية لأمريكا.[٦١]

وعلى هذه الهجمات على إلههم، ومعتقداتهم، ورموزهم المقدسة، وأبطالهم القديسين، وبطلاتهم من سيرانو، ومابلثورب، وكوكس وجماعتهم كان جواب المسيحيين ضعيفا بل كان محزنا. وكما يحب ريجيس فيلبن أن يقول: "هل ذلك هو جوابكم النهائي؟".

حقوق الشاذين والحقوق المدنية؟

الصراع من أجل روح أمريكا لن يتلاشى. ففي ربيع العام ٢٠٠٠، رفعت طالبة سحاقية في جامعة تُفْتس دعوى بوجود التفرقة، وكانت دعواها ضد فرع الحرم الجامعي للرابطة المسيحية بين الجامعات، وذلك لرفض الفرع السماح لها بأن تخدم في مجلس قيادة الفرع. ورد قائد الفرع في الدفاع عنه بالقول: "عندما تطلب منا أن نترك الإنجيل فإنك تطلب منّا أن نتخلى عن قلب ديننا".[٦٢]

النتيجة: محكمة طلاب أمرت بأن يسحب الاعتراف من الرابطة المسيحية في تفتس، وألا تمول، وتحرم من الحق في الاجتماع في الحرم الجامعي. وقيل للفرع، أن يسقط تفتس من اسمه. وحيّت أكثرية من الطلاب تلك المحكمة. وقالوا: إن عدم معاملة اللواطيين بالتساوي هو تعصب. وبعد أن أخذت الرابطة المسيحية في تفتس قضيتها إلى العلن، ربحت إلغاء الحكم، ولكن هذا نذير لما هو قادم.

ما حدث في تفتس كان صداماً للأديان. تعاليم الثورة تعلم بأن اللواطية تفضيل وليس خطيئة، وأن الذين يعاملون الشاذين والسحاقيات معاملة مختلفة هم متعصبون يجب أن يفضحوا ويعاد تثقيفهم. وفي المسيحية الإنجيلية، اللواط غير طبيعي وغير أخلاقي. وهذا هو قلب حرب الثقافة: معتقدات مَنْ سوف تكون هي أساس القانون؟ في تفتس، الإيمان الجديد باختصار حل محل القديم، وتوجه الأمر إلى المسيحين بأن ينسجموا أو أن يغادروا. الثورة سوف تتعايش حتى تصل إلى السيطرة. فإذا هيمنت سوف تملي إملاء.

ولكن أي القولين هو الصحيح؟ هل اللواطية اضطراب أخلاقي أم هي نمط حياة أخلاقي ومشروع؟ إن الدكتور تشارلز سوكارايدس مؤلف لعدد من الكتب وحائز على جائزة الأستاذ المتميز لجمعية علماء نفس التحليل النفسي للخدمة الصحية البريطانية، وعالج اللواطين طوال أربعين سنة. لقد ساعد ثلث مرضاه على أن يعيشوا حياة طبيعية عادية بالزواج وبإنجاب الأطفال. ويصف الدكتور سوكرايدس كيف أن الثورة الثقافية غيرت ما كان "مرضا" إلى "نمط حياة". ويكتب الدكتور فيقول: هؤلاء "المغيِّرون":

> لم يلاحقوا رجال الدين في الأمة. لقد استهدفوا أعضاء من رجال الكهنوت الدنيويين، جماعة العلاج النفسي، وحيدوهم بإعادة تعريف

اللواطية نفسها بشكل جذري. في العام ١٩٧٢، و١٩٧٣، تعاونوا مع قادة جمعية العلاج النفسي الأمريكية ومن خلال سلسلة من المناورات، والأكاذيب، ومخادعات مفضوحة "شفوا" اللواطية بين عشية وضحاها - بالأمر العشوائي. لقد جعلوا جمعية العلاج النفسي الأمريكي تقول إن مثلية الجنس "ليست اضطرابا" إنها مجرد "حالة" وهي حيادية مثلما أن الكتابة باليد اليسرى حيادية.[٦٣]

وقال الدكتور سوكرايدس: "والذين لم يتماشوا منا مع إعادة التعريف السياسي، أسكتوهم في الحال في اجتماعاتنا المهنية. وألغيت محاضراتنا في الوسط الأكاديمي وخفضت أوراق البحث التي نقدمها للمجلات العلمية المتخصصة. وأسوأ الأشياء كانت ستتبع في الثقافة على وجه العموم."[٦٤] ما هي؟

بدأ منتجو التلفزة والسينما بعمل قصص تروج اللواطية بصفتها نمط حياة مشروع. وقالت هيئة مراجعة شاذة لهوليوود كيف ينبغي أو لا ينبغي لها أن تتعامل مع اللواطية. والناشرون من التيار العام قللوا من الكتب التي اعترضت على ثورة الشذوذ. والشاذون والسحاقيات أثروا على التربية الجنسية في مدارس أمتنا ودعاة تحرر الشواذ والسحاقيات سيطروا سيطرة واسعة على لجان هيئة التعليم في كليات أمتنا. ومجالس التشريع لمستوى الولاية ألغت قوانين كانت سارية ضد السدومية.[٦٥]

في فيلادفيا، صور توم هانكز محاميا يحمل الإيدز مضطهدا وضحية لزملائه المتعصبين. وهوليوود أعطت هانكز جائزة أوسكار لقاء أدائه الصحيح سياسيا. ولكن سوكرايدس، الذي يزعم معدلا للشفاء للواطيين على نفس معدل جودة الشفاء في عيادة بيتي فورد، لم يستسلم قط، كما لا ينبغي للتقليديين أن يستسلموا. وذلك لأن اللواطية ليست تحريرا، بل هي عبودية. وهي ليست نمط حياة، بل هي نمط موت. ومع بدء مرض الإيدز، كان مرضى الدكتور سوكرايدس يقولون له: يا دكتور، لولا أنني الآن قيد العلاج لكنت قد مت".[٦٦]

إن الذين يعتقدون أن حركة حقوق الشواذ هي حركة الحقوق المدنية للقرن الحادي والعشرين يغيب عنهم فرق أساسي. إن قضية الحقوق المدنية تستطيع بنجاح أن تستحضر الإنجيل، والقانون الطبيعي، وتوماس جيفرسون نيابة عن العدالة المتساوية أمام القانون. أما حركة حقوق الشواذ فلا تستطيع ذلك. جيفرسون اعتبر اللواطية أسوأ من الحيوانية. وبصفته حاكم فيرجينيا في العام ١٧٧٩ حض على أن يكون عقاب الفعل السدومي مثل عقاب الاغتصاب.[٦٧] ويرى الإنجيل، والعقيدة الكاثوليكية، والقانون الطبيعي أن هذا الفعل بغيض وأن المجتمع الذي يحتضنه مجتمع منحط. وعلى المسيحيين أن يصلحوا مثل هذه المجتمعات أو أن ينفصلوا عنها.

كتب مارتن لوثر كينغ في رسالة من سجن بيرمنغهام يقول: "القانون العادل هو نظام من صنع الإنسان ينسجم مع القانون الأخلاقي أو مع قانون الله. والقانون الظالم هو نظام غير منسجم مع القانون الأخلاقي. ولوضع ذلك بكلمات القديس توماس الأكويني: القانون الظالم هو القانون الذي لا جذور له في القانون الخالد والقانون الطبيعي."[68] ولكن قوانين حقوق الشواذ لا تنسجم مع "قانون الله"، وهي ليس "لها جذور في القانون الخالد أو القانون الطبيعي." وبشروط الدكتور كينغ، تكون قوانين حقوق الشواذ قوانين ظالمة "غير منسجمة" مع القانون الأخلاقي. وعندما تفرض هذه القوانين سوف يقاومها المسيحيون. وهي قلما تكون صيغة مناسبة من أجل الوحدة القومية.

الطريقة الوحيدة التي تستطيع من خلالها حركة حقوق الشواذ أن تنجح في جعل المجتمع يقبل اللواطية بوصفها طبيعية، وعادية، وأخلاقية، وصحية هي أن تعمل تلك الحركة أولا على اجتثاث المسيحية من ذلك المجتمع. ولا يمكن الإنكار بأنهم يحرزون تقدما.

التجربة العظيمة

ما نحاول أن نعمله جرئ حقاً. فمثل إبليس وآدم (عليه السلام) قرر الإنسان الغربي أنه يستطيع أن يعصى الله بدون عواقب وأن يصير هو إله نفسه. ويرمي الإنسان الغربي للمسيحية يكون لسان حاله يقول: "من خلال العلم الطبي وعلم الحياة، تعلمنا كيف نمنع الحياة، وكيف نطيل الحياة، وكيف نخلق الحياة، وكيف نستنسخ الحياة. ومن خلال التقانة العسكرية نعرف كيف نربح الحروب الآن بدون خسارة جندي واحد. ومن خلال فهمنا للسياسات المالية والنقدية نعرف كيف نمنع الركود الاقتصادي، وقريبا سوف نعرف كيف نمنع الكساد الاقتصادي. واقتصادنا العولمي يَعِدُ بالرفاهية للجميع من خلال الأسواق الحرة والتجارة الحرة. والديمقراطية العولمية ستجلب لنا السلام العالمي، وسيكون لنا مكانها مؤسسات حكومة عالمية. الزمن والنوايا الطيبة ستأخذنا هناك. الله كان مدرب طيران جيد، أما الآن فلم نبق بحاجة إليه. سوف نتسلم منه."

اجتثاث المسيحية من أمريكا مقامرة كبيرة، رمية تدحرج حجر الزهر، وحضارتنا هي موضع الخطر. أمريكا ألقت البوصلة الأخلاقية من سفينتها في البحر، وهذه البوصلة الأخلاقية هي التي وجهت الجمهورية طوال مائتي عام، وهي الآن تبحر بالتخمين الملاحي. العقل وحده، بدون الوحي، يحدد مسارنا. وقد حذر الآباء

المؤسسون من أن هذا كان جسرا بعيدا جدا. ما من بلد يمكن أن يبقى حراً ما لم يكن ذا فضيلة، هكذا قالوا، ولا يمكن أن توجد الفضيلة في غياب الإيمان. وقال واشنطون في الخطاب الوداعي لا "تتساهلوا مع الافتراض أن الأخلاق يمكن أن تصان بدون دين." وقال: "من بين كل النزعات والعادات التي تقود إلى الرفاهية، يكون الدين والأخلاق هما المساندين اللذين لا غنى عنهما."[٦٩] ووافق جون آدمز على ذلك وقال: "دستورنا لم يوضع إلا لشعب أخلاقي متدين فقط. إنه لا يكفي بشكل كامل لحكومة أي شعب آخر."[٧٠] تمعن في ما حدث لمجتمعنا مع الإطاحة بالنظام الأخلاقي القديم.

- واحد من كل أربعة أطفال يولدون للنساء البيض هو خارج الزواج. في العام ١٩٦٠ كانت النسبة ٢ بالمائة.[٧١] ثلاث من كل أربع نساء من البيض غير المتزوجات كان لهن علاقات غرامية مع بلوغهن سن التاسعة عشرة. في العام ١٩٠٠ كان الرقم ٦ بالمائة.[٧٢] حالات انتحار المراهقين دون العشرين ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في مطالع الستينات من ١٩٦٠، [٧٣] وعلامات الامتحان لطلاب الثانوية العامة هي الآن من بين أخفض العلامات في البلاد الصناعية.
- عدد حالات الإجهاض في الولايات المتحدة الآن تصل إلى ١,٢-١,٤ مليون إجهاض في كل عام، وهذا أعلى معدل في الغرب، منها

٤٠ أربعون مليون حالة إجهاض تمت منذ قضية رو ضد ويد. عدد الولادات للنساء المتزوجات في الولايات المتحدة بلغ ٤ أربعة ملايين ولادة في العام ١٩٦٠. وهبط إلى ٢.٧ مليون ولادة في ١٩٩٦.[٧٤]

- معدل الطلاق في الولايات المتحدة الأمريكية ارتفع ٣٥٠ بالمائة منذ العام ١٩٦٢، وثلث جميع الأطفال الأمريكيين يعيشون الآن في بيوت فيها أحد الوالدين فقط.[٧٥]
- مليونان من الأمريكيين تقريبا موجودون في الحجز أو السجن، و٤,٥ مليون في فترة تجريبية أو مطلق السراح بشرط حسن السلوك. في العام ١٩٨٠ كان مجموع من هم في السجن والحجز ٥٠٠,٠٠٠ خمسمائة ألف نزيل.[٧٦]
- هناك ستة ملايين مدمن مخدرات في الولايات المتحدة.[٧٧]
- في مجتمع الأمريكيين الأفارقة، ٦٩ بالمائة من كل الولادات تتم خارج الزواج. وثلثا الأطفال يعيشون في بيوت فيها أحد الوالدين فقط، و٢٨,٥ بالمائة من الأولاد يستطيعون توقع قضاء حكم في الحجز أو السجن.[٧٨] في المدن الكبرى أربعة من كل عشرة من الذكور السود من ذوي الأعمار بين السادسة عشرة والخامسة والثلاثين هم في الحجز أو السجن أو هم في مدة تجريبية أو مطلقو السراح بشرط حسن السلوك. المخدرات مستوطنة.

والأطفال لا يدرسون في المدارس. الأطفال الأمناء وبضمير يخوّفون ويضربون. والفتيات يجري التحرش بهن من أعضاء في عصابات بتكرار عال باستخدام المخدر والضرب.

هذه إحصاءات مجتمع منحط وحضارة تموت، وهي الثمار الأولى للثورة الثقافية التي تجتث المسيحية من أمريكا. وعندما يقرأ المرء هذه الإحصاءات فإنه يتذكر ويتيكر تشامبرز في الشاهد: "التاريخ يغص ببقايا مبعثرة من حطام الأمم التي أصبحت غير مبالية بالله وماتت."[٧٩] ومرة أخرى جيم نيلسون بلاك يقول:

لايهم إلى أي مدى تنظر بعيدا إلى الخلف، وستجد أن الدين كان دائما أساسيا للمجتمعات العظيمة. وسواء أكان ذلك في الهند أو الصين أو فلسطين أو اليونان أو قرطاجة أو أفريقيا أو حضارة جنوب أمريكا، وأمريكا الوسطى، فإن القصة دائما هي ذاتها: الحضارة تنشأ من الدين، وعندما تتآكل المعتقدات التقليدية لأمة من الأمم، فإنها تموت."[٨٠]

لقد بدأت أوروبا تشبه الولايات المتحدة. بين العام ١٩٦٠و العام ٢٠٠٠ حلقت عاليا نسبة الولادات خارج الزواج في كندا من ٤ بالمائة إلى ٣١ بالمائة، وفي المملكة المتحدة من ٥ المائة إلى ٢٨ بالمائة، وفي فرنسا من ٦ بالمائة إلى ٣٦ بالمائة.

وقال الكاردينال كورماك ميرفي أوكونور، رئيس أساقفة

ويستمينستر مخبراً جمعاً من الكهنة في أيلول /سبتمبر ٢٠٠١: إن المسيحية بصفتها دليلاً للحياة الأخلاقية للناس في بريطانيا قد "قهرت". وقال الكاردينال: إن الناس الآن يبحثون عن السعادة في الكحول، والمخدرات، والكتابات الفاضحة، والجنس المسلي، هكذا قال الكاردينال وهو يردد صدى رئيس أساقفة كانتبري الدكتور جورج كاري الذي لاحظ قبل عام مضى أن "إلحادا ضمنيا يسود. وأن الموت يُفترض بأنه نهاية الحياة. وأن تركيزنا على هنا والآن يجعل فكرة الخلود غير ذات موضوع."[٨١]

ولكن ما هو خزان فضلات لإنسان معين يكون الحوض الساخن لإنسان آخر. فلماركسي مخلص تكون كوبا كاسترو جنة إذا ما قورنت بكوبا الخمسينيات من ١٩٥٠ وتكون مجتمعا أكثر عدلا وحشمة مما خلقه المنفيون في ميامي. ولنخبتنا الثقافية فإن الطلاقات، والإجهاضات، ولغو المفاهيم المسيحية المتقادمة العهد مثل الزواج الكنسي قد ينظر لها على أنها صوى في طريق الحرية.

ولكن كيف نخلق أمة أخلاقية ومجتمعا جيدا إذا لم نتفق حتى على ماهو أخلاقي و ما هو جيد؟.

عندما صار الكشافة متعصبين

قال عالم اللاهوت هنري فان تيل: "الثقافة هي الدين وقد برز للخارج وصار صريحا". وكتب رسل كيرك، وهو يردد أصداء المؤرخ كريستوفر داوسون، يقول: إن الثقافة كلها ذات جذور في "الشعائر"، أي، في الدين. ويحاجج بروس فروهنن ويقول: "هذا لم يبق مجرد لعب بالكلام." وبروس فروهنن هو الزميل الكبير في مركز رسل كيرك للتجديد الثقافي:

> الثقافة والشعائر تشتركان في جذر واحد في اللاتينية يعني يفلح الأرض ويحرثها ويربي، مثلما هو المعنى في فلاحة الإنسان لحديقته أو في تربية الإنسان لشخصيته... وكانت نقطة داوسون هي أن الشعب ينمو معا من عبادته المشتركة. ومثلما ينمي الشعب عادات الطقوس المشتركة_سواء أكانت طقوسا رسمية أو غناء بسيطا للتراتيل _فهو أيضا ينمي عادات اجتماعية تخص أشياء مثل المطبخ، والفن، والشعائر اليومية. هذه العادات المشتركة تربط أفراد الشعب معا في ثقافة مشتركة. وهذه العادات المشتركة تربط أيضا، إلى الأبد، ثقافة الشعب مع دينه المشترك.[٨٢]

إن هدف العلمانيين هو قطع الروابط بين ثقافتنا وبين "الدين المشترك." فإذا حدث ذلك تموت الثقافة. ومرة أخرى الدكتور كيرك:

> كل الثقافة تنشأ من الدين. وعندما يفسد الإيمان الديني، لابد أن تتدهور الثقافة، على الرغم من أن الثقافة تبدو غالبا وكأنها تزدهر

لفترة من الزمان بعد أن يكون الدين الذي كان قد غذاها قد غرق في تكذيب الإيمان. ولكن لا يستطيع الدين أن يعيش إذا بتر عن ثقافة صحية، كما لا ينبغي للشخص المثقف أن يبقى غير مبال للتآكل الذي يصيب إدراك المتعالي. [٨٣]

إن كون هذه الحرب الثقافية بهذا الشكل حرباً دينية يمكن رؤيته في المناوشة الأخيرة - معركة الكشافة. وحسب كتاب الطلاب الكشافة الصادر في ١٩١١. "ما من شاب يستطيع أن يكبر ليكون أفضل نوع من المواطنين بدون أن يعترف بالتزامه نحو الله." [٨٤] وينص وعد الطالب الكشاف، "أتعهد بشرفي بأني سوف أؤدي واجبي نحو الله ونحو بلادي." [٨٥] وينص الموقف الرسمي للكشافة «السلوك اللواطي يتناقض مع المتطلبات الموجودة في قسم الكشاف التي تطلب أن يكون الكشاف "مستقيما أخلاقيا"» [٨٦]

ومنذ تشكيل كشافة أمريكا تمسكت بصدق بهذه المبادئ. ولكن بينما بقي الكشافة صادقين مع معتقداتهم، قام الرأي الدارج على الموضة بعملية تنكيس. فما كان استقامة أخلاقية في ١٩٨٠ صار تعصباً لا يطاق في ٢٠٠١. وبحسب نيويورك تايمز فإن كشافة اليوم هم "شيء قريب الشبه إلى جماعة بغضاء." [٨٧] وإما أن يقوم الكشافة بالانسجام مع النظام الأخلاقي الذي تغير من جراء الثورة الثقافية، وإلا فإن الكشافة سوف تعزل اجتماعيا، ولاتمول، وتدمر.

ببساطة لا تستطيع الثورة أن تتعايش مع منظمة كشافة ضخمة ومحترمة ومحبوبة، ولكنها تشكل أرواح الشباب بطرق تجدها الثورة طرقا بغيضة. وهكذا فعلى الطاولة طلب غير قابل للتفاوض: يمكن للكشافة أن تستعيد مكانها المحترم في المجتمع إذا ما أسقطت فقط معتقدات أساسية معينة ووضعت مكانها المعتقدات المضادة. وبشكل محدد، فإن الملاحدة واللواطيين يجب أن يسمح لهم بأن يكونوا كشافة ورؤساء فرق كشافة.

قال دون كورليون: "نقدم له عرضا لا يستطيع أن يرفضه" الثورة تعرض على الكشاف عرضا لا يستطيع الكشاف أن يرفضه وهو: اخضع، وغير معتقداتك وإلا سندمرك.

وإذا ما أخذنا في الاعتبار ما حدث للكنيسة الكاثوليكية، وهو فشل عملية الفرز في اقتلاع الرهبان الذين يحتمل أن يميلوا جنسيا إلى الأطفال، وهو ما أدى إلى فواجع لأولاد المذبح وفضائح للكنيسة، فإن سياسة عدم السماح للواطيين بحضور مخيمات الكشافة وأشبال الكشافة تبدو حكما متعقلا حصيفا بسيطا. ولكن الإيديولوجية قد شلت الحكم الحصيف. والاتحاد الأمريكي للحريات المدنية يدافع اليوم عن حقوق الشواذ في قيادة فرق الكشافة وحق جمعية حب الرجل للطفل في شمال أمريكا في أن تنشر كتيبات عن كيفية اختيار أطفال والتهرب من الشرطة - أي، كيف تعمل

لمساعدة الميالين للأطفال جنسيا للإفلات من تهمة الاغتصاب المنصوص عليها في القانون. ومقدمو الدعوى في قضية ضد جمعية حب الرجل للطفل في شمال أمريكا هم الآباء لصبي يبلغ من العمر عشرة أعوام وقد اغتُصب وقُتل بيد أحد أعضاء تلك الجمعية.[88]

أين تقف معركة الكشافة؟

برفض المحكمة العليا في نيوجيرسي ادعاء الكشافة بأنها منظمة خاصة، وبالتالي فهي تستثنى من قوانين الدولة عن التمييز، فإن تلك المحكمة أمرت الكشافة بأن تقبل الشاذين باسم هدف أسمى وهو: "استئصال سرطان التمييز."[89] وهكذا، ساوت المحكمة بين مبادئ الكشافة والعقيدة المسيحية بأن اللواطية "ليست استقامة أخلاقية" وبين "سرطان" في المجتمع الأمريكي.

في قرار خمسة ضد أربعة، أعفت المحكمة العليا للولايات المتحدة الكشافة من أن يقرروا ما إذا كان يجب عليهم أن يكونوا صادقين مع معتقداتهم المتركزة على الله أو أن ينكسروا بسلطة الدولة. ولكن شجاعة الكشافة تكلفهم مليون دولار في التمويل. في نيويورك، وكاليفورنيا، وماساتشوسيتس، ومنيسوتا، قطعت مجالس إدارة المدارس علاقاتها مع الكشافة وحرمتهم من الوصول إلى منشآت المدارس. وقامت الحكومات المحلية في ميامي بيتش وفورت لودرديل بشجب موقف الكشافة. وقطع اثنان وثلاثون فرعا من

منظمة الطريق المتحد اتصالاتهم مع الكشافة. وأنهت مساندتها للكشافة مؤسسات ليفي شتراوس، وولز فارغو، وتكسترون. وأرسل اتحاد التجمعات العبرية مذكرة للمنظمات المنضوية تحته يحثها على قطع العلاقات مع الكشافة. واستقال مخرج الأفلام ستيفن سبيلبرغ من الهيئة الاستشارية للكشافة الأمريكية مع بيان يقول: "السنوات الأخيرة في الكشافة أحزنتني حزنا عميقا لأني أرى كشافة أمريكا تساهم بنشاط وبشكل علني بالتمييز. إنه لعار حقا."[90] وعندما شاركت كشافة الصقر في احتفالات الافتتاح في المؤتمر الديمقراطي في لوس أنجيلوس صفرت البعثات لهم. وكتب المراسل فاليري ريتشاردسون يقول:

> تحت الظروف العادية، يكون الاستهزاء بالأطفال هو نوع من السلوك الذي يلقى عقوبة من المبعوثين، هذا إذا لم يطرد المبعوث طردا تاما من المؤتمر. ولكن أي شخص يتوقع من القيادة الديمقراطية أن توبخ منتقدي الكشافة يكون حاضرا في المؤتمر الخطأ.
>
> لقد صارت مساندة حقوق الشاذين جزءا لا يتجزأ من العقيدة الديمقراطية، وهي منيعة على الهجوم مثل مناعة الموافقة على حق الاختيار بيت الإجهاض و الحمل أو المبادئ الأساسية للحزب في الحقوق المدنية.[91]

في نيسان/أبريل ٢٠٠١ أيقظت الثورة الثقافية مدفعية الحصار عندها، وفي برنامج ستين دقيقة في محطة سي. بي. اس، وفي ما

سماه كاتب الافتتاحية نات هنتوف "هجوما" و "الإخبار المؤذي" قصف الكشافة بسبب التعصب."[٩٢] ومن أجل الدفاع اقتبس هنتوف قول أليكسيس دوكفيل في الديمقراطية في أمريكا الذي يقول: "حق التجمع هو حق لا يمكن التصرف به مثل حرية الفرد."[٩٣]

ولكن مثل هذه الحقوق هي ضحايا مبكرة في حرب ثقافية لن يكون فيها أي هدنة. التقليديون يستطيعون أن يهربوا، ولكنهم لا يستطيعون أن يختبئوا. ومع اجتثاث المسيحية من مدارسنا العامة، ومن الميادين العامة، فإن مدارسنا الخاصة ومؤسساتنا الخاصة ستكون هي التالية في دورها. ومن خلال طعم المال العام سيُجعل الجميع بلا إله، وسيُجبر الجميع على الانسجام مع تعاليم الثورة التي تصرح وتقول بشكل لا يخطئ: "جميع أنماط الحياة متساوية". ومن يَقُلْ غير ذلك فدعوه ليكن ملعونا. ما هو إذن مستقبل الغرب؟ مرة أخرى من إليوت:

> إذا ذهبت المسيحية فكل ثقافتنا ستذهب معها. وبعد ذلك يجب أن تبدؤوا ثانية بداية مؤلمة، ولا تستطيعون أن تنتجوا ثقافة جديدة جاهزة الصنع. يجب عليكم أولا أن تنتظروا العشب لينمو ليطعم الغنم التي تعطي الصوف الذي سوف يصنع منه معطفكم الجديد. يجب أن تمروا عبر قرون عديدة من البربرية. ولن تعيشوا لتروا الثقافة الجديدة، ولن يعيش ليراها أحفاد أحفاد أحفاد أحفادنا، وإذا لم نعش نحن، فإن واحدا منا سيكون سعيدا فيها.[٩٤]

الفصل التاسع

الأكثرية المذعورة

قوانين الحقوق المدنية لم تسن لحماية حقوق البيض ولا تنطبق عليهم.[1]

ماري بري، رئيسة هيئة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة.

لماذا سمح المسيحيون بأن يطرد إلههم ودينهم من معابد حضارتهم؟ ولماذا كانت مقاومتهم ضعيفة بهذا الشكل؟

قال نابليون: إن الله إلى جانب الكتائب الكبيرة. ولكن في أمريكا كان المسيحيون هم الكتائب الكبيرة، وكانوا على ما يفترض إلى جانب الله. ومع ذلك فقد هزموا-الخيالة، والمشاة، والفيالق. في كتابه المسيرة الطويلة يعيد روجر كيمبول، وهو محرر في الكرايتيريون، الهزيمة النكراء على الجبهة الثقافية إلى حركة محافظة فاشلة.

المسيرة الطويلة لثورة أمريكا الثقافية نجحت إلى أبعد ما تصورته أشد الأحلام جموحا من الجميع عدا الطوباويين الذين يعيشون في الأوهام والأحلام. والمفارقة الكبيرة هي أن هذا النصر وقع في

وسط انزياح كبير إلى مركز اليمين في السياسات الانتخابية. والحقيقة المذهلة والمحزنة شيء أن الانتصارات المحافظة المفترضة في الانتخابات لم تفعل تقريبا أي شيء لتتحدى هيمنة مواقف وأفكار التحرريين من جناح اليسار في ثقافتنا. وعلى العكس من ذلك، ففي ما يسمى "حروب الثقافة" كان المحافظون خاسرين بارزين.[٢]

وعلى الرغم من التبجحات الفارغة لبعض المحافظين بأننا "ربحنا" حرب الثقافة، فإن الصراحة تجبر المرء على أن يذعن ويقر بأن كيمبول على حق. ولكن لماذا يكون التقليديون في تراجع؟ فالمسيحيون والمحافظون لم تعوزهم المنابر أو الميكروفونات، من أحاديث الإذاعة إلى تلفاز الكيبل، ومن الإنترنت إلى المجلات. بعد ١٩٦٨، ربح الجمهوريون معارك أكثر مما خسروا ولم تعوزهم السلطة السياسية. وأظهرت الاستطلاعات أن البلاد كانت إلى جانبهم ومن جهتهم من المتاريس في حروب الثقافة: الأمريكيون عارضوا وجود النساء في الحرب، والإجهاض عند الطلب، والتفضيلات العرقية، وفضلوا وجود الصلاة في المدارس العامة وعرض الوصايا العشر في ملصقات. وأرادوا أن تنخفض الهجرة وأن تكون اللغة الإنجليزية هي لغة أمريكا. ومع ذلك، ففي الجبهات الأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية، كان الجمهوريون والمحافظون، والمسيحيون في تراجع مستمر تقريبا وهم اليوم كذلك، إلى حد كبير، كثرة خائفة.

لقد رفض البيت الأبيض أن يتدخل في أثناء تعرض جون آشكروفت للضرب حتى الإدماء من تيدي كينيدي ومن الديمقراطيين في اللجنة القضائية. ولم يحضر لا السيد بوش ولا قرينه المرشح مؤتمر عام ٢٠٠٠ للتحالف المسيحي. السيد بوش أرسل شريطا مسجلا. ولكنه خصص وقتا في برنامج حملته يتقابل فيه مع الشاذين الجمهوريين من نادي لوغ كابن. وعندما صار علم المعركة الخاص بالكونفدرالية جدلا مشتعلا، قال الحاكم بوش. إن الأمر عائد للكاروليناويين الجنوبيين ليقرروا. ولكن حالما انتهت الانتخابات المبدئية لمرشح الرياسة، أمر بوش بإنزال اللوحات التذكارية للكونفدرالية من المحكمة العليا لتكساس.

ما من متحدث في المؤتمر الجمهوري في فيلادلفيا كان مسموحا له أن يدافع عن موقف الحزب في الدفاع عن المسألة الأخلاقية للحياة. ومع ذلك، فإن كولن باول أعطي وقتا رئيسيا ليحاضر الحزب عن نفاقه المفترض في معارضة سياسات برنامج العمل الإيجابي، وابتسم الجمهوريون المتطهرون بأدب من خلال دهائهم العام. في القضايا الاجتماعية والأخلاقية التي حددت الريغانية فيما سبق هرب الحزب من الميدان.

وكان مدار المؤتمر على "أنه حزب جمهوري مختلف". نعم، إنه كذلك، مع إرضاء الموضة في فيلادلفيا. سيء القصد الفطن السيد

بل ماهر استهزأ بالقول: "إن آخر مرة وجد لدى الجمهوريين مثل هذا العدد من السود على المسرح، هي عندما كانوا يبيعونهم".[٢] وعندما سعى السيد بوش "للوصول" إلى الجمعية الوطنية الأمريكية لتقدم الشعب الملون بمخاطبة مؤتمرها، ردت الجمعية بإعلان هجومي يصور ابنة جيمس بيرد(*)، وهذا يعني أن معارضة السيد بوش لقانون جرائم البغضاء كان يعني أن بوش لم يأبه بقتل والدها قتلا استبداديا. وكلما طلب النقاد أن يصل الجمهوريون لأولئك الذين عضوا يد الجمهوريين مرة تلو الأخرى كان الحزب يتواصل معهم مطيعاً، وكان يُعض ثانية ـ وهي تسلية لمعذبيه لا تنقضي. ولخصت ناشيونال ريفيو نجاح سياسات الاسترضاء فقالت:

> حاول بوش، أكثر من أي مرشح جمهوري سابق، الا يسيئ إلى الحساسيات الليبرالية في موضوع العرق. واحتضن الهجرة، وساند

(*) عازف أسود كان عائدا إلى بيته فهاجمه ثلاثة شبان بيض وقتلوه بطريقة وحشية (١٩٩٨). ضرب حتى فقد الوعي، ورش عليه في وجهه بالدهان الأسود، وربط بسيارة، وجرد من ملابسه وجر جسمه وهو حي أكثر من ميلين ونصف وجروه حتى تمزق في منطقة سوداء وهي منطقة جاسبر في تكساس وتركوه وجلده ودمه وذراعاه ورأسه وأعضاؤه الأخرى من جسمه ملاقاة على الطريق العام ثم وضعت بقاياه أمام مقبرة للسود. وكان حاكم تكساس هو جورج بوش الابن، الرئيس الأمريكي الحالي، وبعد أن أدان جريمة قتل بيرد بدون اهتمام كبير رفض دعوة في أن يزور منطقة جاسبر شخصيا ليظهر شجاعته بشأن القتل العرقي بدافع الكراهية. وكان بهذا لا يرغب في إضعاف مركزه لدى التجمع المسيحي للجماعات اليمينية المتطرفة الذين كان يعتمد عليهم للوصول إلى الرياسة في عام ٢٠٠٠م.

التعليم ثنائي اللغة، وجعل موقفه في التفضيلات العرقية غامضا، وظهر أمام الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون، وقسّم الخلاف على جرائم البغضاء، وجعل كولن باول يهز الإثم في المؤتمر الجمهوري. فكانت جائزته: ٣٥ بالمائة من الصوت الهسباني وحصة أصغر من الصوت الأسود هي أقل من الحصة التي حصل عليها بوب دول في ١٩٩٦.[٤]

المحافظون فقدوا اليقين الأخلاقي الذي ملكوه عندما كانوا شبابا وكان إيمانهم إيمانا مقاتلا. والآن، يبدون قلقين بشكل يائس ليعيدوا التوكيد للجمهور بأنهم ليسوا متعصبين في الحقيقة، ولكنهم في كل جزء منهم أصحاب قلوب ودودة ومقاصد حسنة مثل متهميهم. وبعد أن اختار السيد بوش وزارته، قال رئيس الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون جوليان بوند إن بوش "اختار مرشحين من جناح الطالبان في السياسات الأمريكية، واسترضى الشهية التعيسة لجناح اليمين المتطرف واختار مسؤولي الوزارة الذين يعتبر إخلاصهم للكونفيدرالية تقريبا كإخلاص الكلاب في التعاطف غير الانتقادي".[٥]

كتب ريتشارد آرمي قائد الأكثرية في المجلس النيابي إلى رئيس الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون كوازي مفيوم يقول له إن مثل هذه اللغة كانت "عرقية ومكارثية" وهي "طُعم عرقي معكوس"[٦] وقال

آرمي: "سواء أكانت هذه الممارسة متعمدة أم لا فإنها إن تركت بدون تحد لها فسوف تستمر في تقسيم أمتنا." [٧] وطلب آرمي عقد اجتماع، ولكن بوند استبعد رسالته بصفتها "شكوى نموذجية من أولئك الذين يعارضون العدل والإنصاف". [٨]

الحادثة مفيدة في تعليمنا. فواحد من أعلى الرتب من الجمهوريين في الأمة طلب عقد اجتماع مع الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون التي قام قادتها بتلطيخ حزبه والقدح بالرئيس المنتخب، فعامله بوند بازدراء. إن حزبا جمهوريا واثقا من نفسه أخلاقيا كان سيمزق جلد بوند، ويطلب أن تنظر مصلحة الدخل الداخلي في شأن الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون لتتأكد من أنها لم تكن تخرق استثناءها من الضريبة بانغماسها في هجمات حزبية، وسيطلب قطع التمويل الفيدرالي المبني على حرية الاختيار والتقدير للجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون إلى أن يتم طرد بوند، وكان سيكتب إلى المؤسسات المانحة الكبرى للجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون لتسألها ما إذا كانت تساند الهجمات الفوضوية على الرئيس، وكان سيعدل قوانين الضريبة لمعاقبة مؤسسات مثل فورد التي تمول، بدولارات معفاة من الضرائب، الهراء ضد الرئيس والحزب الجمهوري. كيف ينبغي للمحافظين أن يتعاملوا مع الجمعية الوطنية للشعب الملون؟ بالطريقة ذاتها التي يتعامل بها الديمقراطيون الليبراليون مع اليمين المتدين.

بدلا من أن يفعل السيد آرمي ما تقدم طالب بالحوار. الرد بالهجوم في حرب الثقافة صار غير متناسب مع الصورة الجديدة للجمهوري. ومنذ أن غادر رونالد ريغان، همست وسائل الإعلام في الآذان الجمهورية: "القضايا الأخلاقية والاجتماعية خاسرة. أسقطوها أو اهبطوا إلى الهزيمة". والجمهوريون تسلموا الرسالة وصاروا معترضين واعين في حرب الثقافة.

وأمريكا، أيضا، فقدت على ما يبدو يقينها الأخلاقي. ففي الخمسينيات من ١٩٥٠، أخرج الرئيس آيزنهاور دفعات من الغرباء غير الشرعيين في عملية عرفت باسم الظهر المبتل (ويتباك) ولم يعتذر لأحد عن دفاعه عن حدود الولايات المتحدة والأمر على الواغلين المتسللين فيها أن يعودوا إلى بلادهم. الجمهوريون اليوم لن يطلبوا ولا حتى أن نقفل الحدود التي يحاول ١.٥ مليون من الغرباء أن يخترقوها ويجتازوها في كل عام. ما من أحد يريد أن يُسمى قطريا محليا. وعندما قابلت المجلة الأسبوعية المحافظة هيومان إيفنتس سبعة عشر عضوا من المجلس ومن الكونجرس، وسألت ما إذا كانوا يساندون الغرباء غير الشرعيين الذين كسروا قوانيننا ودخلوا بلادنا، قال اثنان فقط نعم بشكل مطلق.[٩] وذلك لأن الأمريكيين الهسبان يمكن أن يردوا بالانتقام ضد أعضاء الكونجرس الذين يطالبون بتطبيق قوانيننا في مجال الهجرة،

والكونجرس لن يصر على الرئيس لتطبيق هذه القوانين. مثل هذا الجبن يمكن أن يكلفنا بلادنا . لقد كان هناك إنهاك مزعج لإرادتنا في أن نفعل ما هو ضروري لصون الأمة الفريدة التي كانتها أمريكا في الماضي.

في تلك الانطلاقة في ولاية بورتلاند حيث قال السيد كلينتون إنه في غضون خمسين عاما لن يكون هناك "أي أكثرية عرقية باقية في أمريكا"، انفجر الطلاب في هتاف عفوي."[10] من المؤكد، أنه لأمر نادر في التاريخ أن شعبا يصطف ويهتف لأخبار تقول له إنه وأطفاله في القريب سيجردون من امتلاكهم لميراثهم بصفتهم أكثرية في الأمة التي بناها أسلافهم.

والفساد الأخلاقي أكثر انتشارا في أوروبا منه في أمريكا. فالأمم التي حشدت في ميادين الحرب في القرن العشرين جيوشاً ضمت ملايين الرجال هي اليوم أمم تعوزها الإرادة لتجنيد ما يكفي من القوات لتوفر دفاعها هي عن نفسها . ويفضلون أن يتركوا للأمريكيين أن يقوموا بذلك. سكان أوروبا ينكمشون، وأممها تنقسم إلى أجزاء، ولكن القلة هي التي تهتم بذلك على ما يبدو. والألمان، وهم مفعمون بالإحساس بالذنب، يريدون على ما يبدو أن يفقدوا أنفسهم داخل الشرنقة الدافئة في أوروبا متحدة. والأمم الأخرى أيضا تبدو منهكة من الكفاح لتكون مستقلة وحرة، وهم يستعدون

لقبول إملاءات الدول الكبرى الأوروبية. قال سولجنيتسين "الأمم هي ثروة الإنسانية، وهي شخصياتها العامة: أصغر الأمم لها ألوانها الخاصة بها، وهي تجسد وجها خاصا من مقاصد الله، وإن اختفاء الأمم سوف يفقرنا ليس بأقل مما لو أن كل الناس خلقوا متشابهين، بشخصية واحدة، ووجه واحد."[11] ومع ذلك يبدو أن أمم أوروبا قد تصالحت مع الواقع الحقيقي الذي يوحي بأن زمانهم على الأرض قد يكون في طريقه إلى النهاية.

القادة الذين يريدون أن يحفظوا هويتهم وشخصيتهم الوطنية الفريدة يوصمون بأنهم عنصريون عرقيون وكارهون للأجانب كرها مرضيا. في الدانمارك، وزيرة الداخلية كارين جيسبيرسن، وهي راديكالية في الستينيات من ١٩٦٠، أشعلت عاصفة من الامتعاض عندما اقترحت أن يوضع المهاجرون أصحاب السجل الإجرامي في "جزيرة معزولة." وقالت إنها "لا ترغب في أن تعيش" في أمة متعددة الثقافات "حيث تعتبر الثقافات متساوية."[12]

الدانمارك صارت خلية للاجئين السياسيين، ولكن الضيافة الدانماركية يجري استغلالها من عصابات إجرامية من أذربيجان، وأرمينيا، وأكرانيا. وتعليق جيسبيرسن حول تفضيلها لثقافتها الخاصة تبعته سلسلة من أعمال الاغتصاب تقوم بها عصابات من مهاجري الشرق الأوسط لنساء دانماركيات، وطلبات بأن تصير

القوانين الدانماركية منسجمة مع الشريعة الإسلامية، مع تحديدات على النساء، وعودة إلى عقوبة الإعدام، والقطع عقوبة للسرقات.

ذهلت أوروبا لما قالته مز جيسبيرسن. وكانت ردود الفعل "سريعة وغاضبة"، حسب ما كتب هنريك بيرنغ في بوليسي ريفيو.[١٣] وكان المركز الأوروبي للمراقبة على العنصرية العرقية وكراهية الأجانب مهتما فوريا بقضيتها. ولكن نظرا لأن ٣٣ بالمائة من الميزانية الاجتماعية للدانيمارك تذهب إلى ٤ أربعة بالمائة من سكان الأمة المكونة من مهاجرين غير غربيين، فإن الدانيماركيين بدؤوا لا ينصتون لأوروبا وينصتون إلى كارين.

شيء حيوي ما قد غادر أوروبا. في انتحار الغرب الذي كتب في ١٩٦٤، اكتشف الخبير بإستراتيجية الحرب الباردة جيمس بيرنهام حالة عقلية، هي تصالح الشعوب الغربية مع موت امبراطورياتهم وكسوف حضاراتهم. وسمى بيرنهام ذلك "إيديولوجية الانتحار الغربي."[١٤] ويبدو الآن أن المرض قد تحول إلى وباء.

لماذا لم يتصرف المحافظون بشكل أكثر حسما لرد الثورة التي تهدد حضارتهم وثقافتهم؟ هناك عديد من الأسباب.

السبب الأول هو أن أتباع باري جولد ووتر ورونالد ريغان انجروا إلى سياسات جلبتها القناعة بأن أمريكا كانت تخسر الحرب الباردة. وكانت حركتهم غير مستعدة، غير مجهزة، غير مدربة

لحرب ثقافية. وبانتخاب رونالد ريغان، وسقوط جدار برلين، وانهيار الامبراطورية السوفييتية، زال السبب الكبير الذي كان قد وحدهم.

وزيادة على ما تقدم، فإن العديد من المحافظين في السياسات، والصحافة، والإذاعة هم أفضل معرفة بكثير في الاقتصاد والسياسة الخارجية منهم في التاريخ، أو الفلسفة، أو اللاهوت. وكما لاحظ أحد النابهين، "الجمهوريون وضعوا على هذه الأرض ليخفضوا الضرائب". وفي بعض الأحيان، يبدو أن ذلك السبب هو السبب الوحيد الذي وضعوا من أجله على أرض. والعديد منهم، من الذين لم يدرسوا قضايا الأخلاق والثقافة يشعرون بعدم الارتياح مع مثل هذه القضايا، وليس لهم اهتمام بها، ولا يعتقدون أنها تنتمي إلى السياسات. وكانت هذه التحفظات في ذهن المتوفى ريتشارد ويفر عندما كتب يقول: "الكثير من المواقف التقليدية في عالمنا لم تعان بسبب خلل موروث بقدر ما عانت بسبب الغباء، والخرق والبلادة الفكرية لأولئك الذين.... يفترض أنهم يتحملون مسؤولية الدفاع عن تلك المواقف."[١٥]

إذا ما ووجه هؤلاء المحافظون بقضايا أخلاقية، أو اجتماعية، أو ثقافية، فإنهم يتحركون بسرعة بعيدا عنها إلى الضرائب والدفاع، حيث يشعرون أنهم يقفون على أرض صلبة. ولكن على

الرغم من رغبة جمهورية متحمسة أن تمر هذه الحرب الثقافية بعيدا، فهي لن تمر بعيدا، وذلك، كما قال تروتسكي: "قد لا تكون مهتما بالحرب، ولكن الحرب مهتمة بك."[١٦]

السبب الثاني، بالسيطرة على المؤسسات التي يقضي فيها الشباب معظم ساعات اليقظة-تلفاز الموسيقى وساعات البث المسائي الرئيسية، والأفلام السينمائية والمجلات، والمدارس والكليات - تكون الثورة قادرة على أن تشكل قيم الشباب، ومعتقداتهم، ومواقفهم. والفنانون، والممثلون، والكتاب المسرحيون، وكتاب الأغاني، والمطربون المشهورون يقفون كلهم تقريبا في الجانب الآخر. والمعلقون في الصفحات الأولى المواجهة للافتتاحيات الذين يناقشون الشؤون الشخصية، وضيوف الأحاديث في الراديو والتلفاز لا يستطيعون أن يكونوا ندا لقوة هذه النيران الثقافية. الترسانات غير متساوية. وزيادة على ما تقدم، فإن التسلية التي تمتلكها الثورة الثقافية لتقدمها للشباب هي تسلية أكثر جاذبية وغواية، وهكذا، فالعديد من أبناء المحافظين يهربون. على الرغم من أن الكثيرين منهم بعد أن يكبروا ويتقدموا في العمر، يصيرون بنات وأبناء نادمين تائبين ويعودون آسفين إلى بيوت آبائهم.

قبل نصف قرن، كان الناقد الأدبي ليونيل تريللنغ يستطيع أن يكتب، "في الولايات المتحدة في هذا الوقت ليست الليبرالية هي المهيمنة

فقط بل التقليد الفكري الوحيد في الحقيقة. وذلك لأن الحقيقة الناصعة هي أنه لا توجد في هذه الأيام أفكار محافظة أو رجعية في التداول العام."[١٧] وعلى الرغم من أن هذه مبالغة حتى بمقاييس ذلك الزمان، فإن خط تريللنغ مع ذلك يحتوي على لبابٍ من الحقيقة. ومنذ الستينيات من ١٩٦٠، كان هناك انفجار سكاني بين صانعي الثقافة ومشكلي الفكر _المفكرون، والنقاد الاجتماعيون، والمعلمون، والصحفيون، والكتاب، والبيروقراطيون، والفنانون. وفجأة، لم يتفوق الآخرون على المحافظين في العدد وحسب بل لقد اكتسحوهم.

ويكتب كرين برنتون في كتاب تشريح الثورة أن إحدى علامات "المجتمع غير المستقر بصورة واضحة" هي الظهور المفاجئ لحشد ضخم من المفكرين:

> فهم يهاجمون بمرارة المؤسسات الموجودة، ويرغبون في إحداث تغييرات كبيرة في المجتمع، والأعمال التجارية والحكومة. وبشكل رمزي محض، يمكننا أن نقارن المفكرين من هذا النوع بكريات الدم البيضاء، حارسات تيار الدم. ولكن يمكن أن تكون هنا زيادة مفرطة من هذه الكريات البيضاء، وعندما يقع ذلك يكون عندك حالة مرضية.[١٨]

بتعريف برنتون، أمريكا على ما يبدو قريبة من تلك "الحالة المرضية."

السبب الثالث، خلافا للسياسات العادية، التي يمكن أن توجد فيها عادة أرض متوسطة ويمكن الوصول فيها إلى حل وسط، فإن حرب الثقافة هي لعبة «ربح أو خسارة». ربحُ أحد الطرفين هو خسارة الآخر. فالإجهاض، والانتحار المعان، والزواج الشاذ هي مسائل أخلاقية تدعو إلى نعم أو لا من السياسيين الذين يفضلون أن يشقوا الخلاف ويتقابلوا في الوسط المعتدل. الجمهوريون، ومعظمهم لا يرون في السياسة رياضة فيها قتل، ليسوا مستعدين للقتال في غير المكان المحدد الذي تستلزمه النظرية النقدية ببلاغتها المتوحشة وسياساتها الهجومية.

في السياسة القديمة، متقلدو المناصب "أشاروا بكبرياء" والمتحدون "نظروا بخوف." في حرب الثقافة، الثورة دائما في حالة هجوم، والتقليديون دائما في حالة دفاع. "القوة لا تكمن في الدفاع بل في الهجوم"، هكذا كتب الثوري الثقافي الصاعد الذي كان اسمه أدولف هتلر.[١٩]

تمعن في حرب الثلاثين عاما من أجل السيطرة على موقع القيادة في حرب الثقافة، وهي المحكمة العليا. اثنان من مرشحي السيد نيكسون، القاضيان الفيدراليان كليمنت هينزورث، وجي. هارولد كارزويل، جُلدا بالنقد ورُفضا. واثنان من مرشحي رونالد ريغان، القاضيان الفدراليان روبرت بورك، ودوغلاس جينزبيرغ،

عُقرا بالنقد ورُفضا، الأخير من أجل عدم التبصر بسلوكه بشأن الماريجوانا بوصفه أستاذا للقانون. أما اسم بورك فصار فعلا في اللغة، وصار يعني تمزيق سمعة المرشح إربا إربا قبل رميه جانبا. ومرشح جورج بوش، كلارنس توماس، كان عليه أن يمر بين صفوف الإروكواي ليتلقى ضرباتهم.

قارن مجزرة الزقاق الخلفي هذه للقضاة المحافظين مع المعاملة التي قدمت إلى مرشحي كلينتون ستيفن بريير وروث بادرجنزبيرغ اللذين عوملا كما لو أنهما كانا في وجبة المساء مع الشاي. كلاهما قدم باحترام وثبت بسهولة. إن الدوائر الأساسية الانتخابية للحزب الديمقراطي تفهم حرب الثقافة، بينما يبدو العديد من الجمهوريين هانئين غير واعين بوجود حرب من هذا القبيل في الحقيقة.

"السياسة تقف عند حافة الماء" و "الحزبية تنتهي عندما تغيب الشمس" هذه كانت الكليشيهات في الأمس الماضي. أما حرب الثقافة فهي ما دعاها ماو "الثورة الدائمة". إذا نزل علم المعركة الكونفيدرالي في كارولينا الجنوبية، وجورجيا، وفلوريدا فسوف تتحرك الجبهة إلى الميسيسيبي. وعندما تنزل كل الأعلام، تتلوها التماثيل والصور، ثم أسماء المدارس، حتى يكون الاحترام العام المبذول لأبطال الديكسي قد انمحى إلى الأبد.

السبب الرابع، ثلاثون عاما من القصف الثقيل سحق المعنويات المسيحية. خلافا لعصر فيلم أجراس قديس ماري و فيلم أغنية بيرناديت، يجري الآن تصوير الرهبان والوعاظ المبشرين في أغلب الحالات، في الأفلام السينمائية وفي التلفاز بوصفهم منافقين أو فاجرين أو غير متسامحين ومتخلفين. من يريد أن يدافع عن قيم الأسرة عندما يكون الثمن هو السخرية العامة؟ والكنائس مثل كل مؤسسة، كانت تحت النيران المستمرة وتظهر عليها علامات إعياء المعركة. والكنائس محفوفة بالانشقاقات حول الإجهاض والشذوذ، ومصابة بمرض الفضائح من تصوير شهوانية رجال الدين العاملين في التلفاز إلى الرهبان الميالين إلى الأطفال، إنها ليست الكنائس التي كانت في الماضي. إن السلطة الأخلاقية مثل النسيج العضلي، إذا لم يتمرن يضمر ويموت. إن مراقبة الشيوخ الكاثوليك، بدون إذن رسمي من قبل أساقفتهم، يدعم اعتراض بل كلينتون على المنع الموجه إلى إجهاض الولادة الجزئي "_قتل الأطفال" بالنسبة للشيخ موينيهان _معناه أن تنظر إلى أي مدى في المنحدر انزلقت الكنيسة القديمة وتعثرت منذ الأيام الواثقة للبابا بيوس الثاني عشر.

التهم المستمرة بالعنصرية العرقية، والتمييز بين الجنسين، وكراهية الشواذ والتعصب، قد نالت الكثير من معنويات التقليديين. وتكلفة الاستمرار في القتال تبدو عالية على نحو لا يمكن التسامح

به. الكثيرون استسلموا للانهزامية واليأس والأنين مثل نجوم هوليوود ونجيماتها الذين يهددون بترك البلاد بدل أن يعيشوا في أمريكا جورج بوش. وهكذا، فالمسيحيون يوفرون اعتراضهم لخصوصية حجرة التصويت، ولكن أولئك الذين ينتخبونهم لا يمتلكون في الغالب الميل إلى هذه المعركة أكثر مما يفعلون.

تحدث القاضي كلارنيس توماس عن ثمن المقاومة في عشاء معهد المشروع الأمريكي في ٢٠٠١ وقال: "المواطنون النشيطون يخضعون في الغالب لهجمات شريرة حقا، فهم يوصمون بأنهم حقودون، وعنصريون عرقيون، وانتهازيون، وسود، وكارهون للشواذ، ومميزون بين الجنسين"[٢٠] وأضاف القاضي، تحت مثل هذه الهجمات "نحن نراقب أنفسنا. وهذا ليس أدباً، هذا جبن."[٢١] وبوصفه مسؤولا فيدراليا، تساءل توماس عن الحكمة من العمل الإيجابي وعن نقل الطلاب بالسيارات من أجل التوازن العرقي. اتهمه القادة السود "بالخيانة" لشعبه. وكان الغرض من التهمة كما قال توماس هو "التخويف."[٢٢]

فشل المخوِّفون مع كلارنيس توماس ولكنهم نجحوا مع بعض المحافظين الذين لم يبقوا يصدرون الطلبات وصاروا مثل الشعوب المهزومة، يريدون أن يصرِّفوا أمورهم ليس غير. ولكن، في حرب الثقافة، حيث يقوم الجانب الآخر دائما بإصدار الطلبات، والجانب

الآخر دائما جاهز للقتال، فإن هذا الموقف يترجم إلى تراجعات لا تنتهي وإلى هزيمة في نهاية المطاف.

السبب الخامس، شعب الله والبلاد نشأ على أن يحترم ويطيع حكامه. القضاة الثوريون مثل ورن، ودوغلاس، وبرينان، اعتمدوا على المحافظة الداخلية للأكثرية الصامتة عندما فرضوا جدول أعمالهم الراديكالي. كثير من الأمريكيين غضبوا، ولكنهم شعروا بأن عليهم أن يطيعوا. فبعد كل شئ، كانت هذه المحكمة العليا. وطالما اعتقد الأمريكيون أن حكومتهم تتصرف بشكل دستوري فهم سيطيعون وبالتعريف، المحافظون ليسوا ثوارا. ولكن الآباء المؤسسين لم يكونوا ثوارا كذلك حتى دفعوا إلى الجدار.

السبب الأخير، أن جيلا جديدا هو الآن كبير لا يعتبر الثورة الثقافية بالنسبة له ثورة قطعيا، ولكنها الثقافة التي ولد فيها وعرفها أبناء الجيل طوال حياتهم. الشذوذ العلني، والكتابات الفاضحة، والإجهاض، والكلام الهراء في التلفاز والأفلام السينمائية، والأغاني القذرة في الموسيقى الشائعة كلها كانت حول هذا الجيل من قبل أن يستطيعواالتذكر.

ليس أمراً مهما. الكثيرون صاروا يقبلون أحكام الحداثة حول كم كانت شريرة أمريكا القديمة. إن الثقافة التقليدية هي التي يجدونها غريبة. لقد مروا عبر المدارس والجامعات، واستهلكوا

الوجبة، وصاروا يعتقدون ما كانوا قد تعلموه عن الأبطال القدامى لبلادهم وعن تاريخها. وصاح الراديكاليون في الستينيات من ١٩٦٠في أمريكا الوسط: "سوف نسرق أطفالكم" وقد فعلوا.

ومع نخبة ثقافية جديدة غير متسامحة صاعدة الآن، فإن نقطة الضعف في المحافظين هي أنهم محافظون. في السبعينيات من ١٧٧٠، جاء وقت أدرك فيه رجال محافظون أمثال واشنطون وجون هانكوك أنهم هم، أيضا، يجب أن يصبحوا ثائرين مثل باتريك هنري وسام آدمز. وعندما كانت الثورة الفرنسية في مسيرتها في أشخاص روبسبير وبونابرت، كان جيدا أن يكون هناك إدموند بيرك، ولكن المرء احتاج أيضا إلى نيلسون وإلى الدوق الحديدي(*) قال الدكتور سام فرانسيس: "إن أول شيء يجب علينا أن نتعلمه حول القتال في حرب الثقافة وكسبها هو أننا لا نقاتل "لنحفظ" شيئا ما، نحن نقاتل لنطيح شيئا ما."[٣٣] والدكتور سام فرانسيس هو كاتب افتتاحيات تنشر في عدد من الصحف وهو مؤلف كتاب الثورة من الوسط.

> يجب أن نفهم بوضوح وحزم أن السلطات المهيمنة في ... المؤسسات الكبرى، ووسائل الإعلام، والمدارس، والجامعات، ومعظم نظام

(*) الدوق الحديدي لقب الدوق ولينغتون (١٧٦٩-١٨٥٢). قائد وسياسي بريطاني. قاد القوات البريطانية في معركة واترلوا وهزم نابليون بونابرت (١٨١٥).

الثقافة المنظمة، بما فيها الفنون والتسلية - لا تفعل شيئا من أجل المحافظة على ما يراه معظمنا طريقة حياتنا التقليدية ولم تكتف بذلك، بل سعت تلك السلطات في الحقيقة إلى تدميرها أو هي غير مبالية ببقائها. إذا كانت ثقافتنا سوف تحفظ، فإننا نحتاج عندئذ إلى إطاحة السلطات المهيمنة التي تهددها. عن عرشها.[٢٤]

نحن - التقليديين - الذين نحب الثقافة والبلاد، نشأنا في أجواء تفرض علينا أن نتعامل مع هذا السؤال: هل نقوم ببساطة بالمحافظة على البقية الباقية من الثقافة، أو نحاول أن نسترجع الثقافة؟ هل نحن محافظون، أو يجب أن نصير مضادين للثوريين ونطيح الثقافة المهيمنة؟

الأمريكيون الذين ينظرون إلى هذه الثورة الثقافية على أنها سياسة كما هو المعتاد لا يفهمونها. إنها تعني أن تضع نهاية للبلد الذي نحبه. إنها لا يمكن استرضاؤها. إنها لا رحمة فيها، وإن الاستخدام المتهور لألفاظ مثل متطرف، ومميز بين الجنسين، وعنصري عرقي، وكاره للشواذ، وقطري محلي، وكاره للأجانب، وفاشيستي ونازي يؤكد مدى الجدية التي تأخذ بها هذه الثورة الصراع وتؤكد الكيفية التي تنظر فيها إلى أولئك الذين يقاومونها. بالنسبة إلى المؤمنين الحقيقيين بالثورة، فإن اليمين ليس خطأ وحسب بل اليمين هو الشر.

ههنا جيسي جاكسون، الصوت الأول لأمريكا السوداء، بعد انتصار الحزب القديم الكبير (الجمهوري) ١٩٩٤ يقول:"الكراهية والأذى في نجاح مستمر في أمريكا. لو أن ما كان يحدث هنا كان يحدث في أفريقيا الجنوبية، لكان يجب أن يدعى تمييزا عنصرياً عرقياً. ولو كان يحدث في ألمانيا، لكان يجب أن ندعوه نازية. وفي إيطاليا يجب أن ندعوه فاشية. هنا نسميه المحافظة."[٢٥] ونظراً إلى أن فريق السيد بوش كان يربح معركة العدد في فلوريدا، فإن جاكسون عاد إلى القول: "إذا نجح السيد بوش، فسيكون نجاحه بالتكتيك النازي..." سوف نخرج إلى الشوارع الآن فورا . سوف ننزع شرعية بوش، ننزع الثقة من الثقافة، نفعل كل ما يلزم ولكن لن نقبل به."[٢٦]

بالنسبة إلى جوليان بوند، فإن نقاد العمل الإيجابي هم "فاشيون جدد."[٢٧] وبالنسبة إلى عمدة أطلانطا السابق مينارد جاكسون، فإن علم المعركة الكونفيدرالية هو "صليب معكوف،"[٢٨] ولعضو الكونجرس ماكسين ووترز، فإن جون أشكروفت "عنصري عرقي."[٢٩] وقال عضو الكونجرس عن ميسوري ويليام كلاي عن قرار السيد بوش لتسمية اشكروفت" هذه هي "الطريقة التي عمل بها أعضاء منظمة كوكلاكس كلان لتحسين العلاقات العرقية- فهم أيضا وصلوا إلى السود بالأنشوطات والصلبان المحروقة."[٣٠]

مساواة المحافظين بالنازيين وأعضاء منظمة كلان يعود تاريخها على الأقل إلى الوراء إلى الدكتور كينغ، وهو الذي اعترف بأنه كان يرى في حملة جولد ووتر "علامات خطر الهتلرية."[31] هذه الفرية شائعة الآن، لأن التكلفة مجانية. وصحافيون قلائل سيستدعون القادة السود للحساب، لأن بعض الصحافيين يشاركهم عداءهم ضد المحافظين، بينما هناك آخرون يتفقون مع ماركيوز الذي دعا إلى عدم التسامح نحو المحافظين لنزع الشرعية عن اليمين لأنه أبعد من أن يُشبه السياسات التي يمكن القبول بها.

إن رمي الخصوم بكلمات النازيين، والفاشيين، والكلانيين، عندما لا تحمل هذه التهم أي عقوبة، يمكن أن يكون لها مردود مجز. إنها تضع الخصم خارج صحبة الرجال المحترمين، وتنزع الثقة مقدما عما يقوله، وتجبره على أن يدافع عن شخصيته أكثر مما يدافع عن مواقفه. وهناك مردود نفسي. فبعد كل شيء، فإذا كان المرء يقف في وجه النازيين أو ركاب الليل، فإن هذا بالتأكيد أكثر بطولة من الوقوف في وجه دينيّ هاستيرت أو ديك آرمي. وكلما زاد المرء في شيطنة عدو زاد في منح نفسه "بطولة".

في شيطنة اليمين هناك أيضا توهمات خيالية من اليسار. السيد كلينتون تحدث بقوة عن حرق كنائس السود على يد العنصريين العرقيين في أركنساس التي عرفها في شبابه، ولكن

ذلك لم يحدث مطلقا. والسيد غور يستطيع أن ينفجر باكيا وهو يروي كيف قطع عهدا بأن يقاتل توباكو الكبير(*) حتى آخر خندق عندما راقب أخته الحبيبة وهي تموت من سرطان الرئة. ولم نعلم إلا مؤخرا أن السيد غور كان ما يزال يلف مع توباكو الكبير لمدة طويلة بعد موت أخته. والتوهمات الخيالية هذه من وولتر ميتي تشرح كيف أن آل غور اخترع الإنترنت، واكتشف قناة الحب، ورأى أن علاقته الغرامية الساخنة مع تبّر(**) تلهم كتابة قصة حب. في عقل غور، قد تكون حدثت بتلك الطريقة تماما. وعندما يقارن جيسي جاكسون معركة فلوريدا القانونية مع معركة سلمى(***)، فهو لا يلقي بالمحامين الجمهوريين بوصفهم قوات حملة الهراوات لـ

(*) هذا لقب شركات الدخان الخمسة الكبرى التي تجني بلايين الدولارات وتحصد بأضرارها ملايين الأرواح.

(**) السيدة تبر الغور زوجة نائب الرئيس الأمريكي السابق. تزوجا في ١٩٧٠ وأنجبا ٤ أطفال.

(***) مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية بقيادة مارتن لوثر كنغ وآخرين قامت بسلسلة من الاحتجاجات والمسيرات من أجل الحقوق المدنية للسود. وفي ١٩٦٣م في بيرمنغهام في ألباما قامت احتجاجات شاملة في المدينة ضد العزل العنصري ولكن المسؤولين في الشرطة بقيادة يوجين "بل" أوكونور استخدموا الكلاب البوليسية وخراطيم المياه العالية الضغط لتفريق المحتجين. وفي ١٩٦٥ في سلمى في ألباما قامت احتجاجات وحاول المحتجون المسير إلى العاصمة مونتغمري، فواجهتهم قوات الولاية والشرطة الراكبة بوحشية وقسوة وهاجمت المحتجين خارج سلمى ومنعتهم من الذهاب إلى العاصمة ويعرفون هذا اليوم باسم "الأحد الدامي".

"بُلْ" كونور مع كلاب الهجوم الخاصة بهم ـ ولكن يلقي نفسه هو بوصفه بطل جسر سلمى.

في قصيدة للشاعر تي. اس. إليوت ينتحب جيه. ألفرد بروفروك فيقول: "قست حياتي بملاعق القهوة."[٢٢] وكذلك أيضا فعلت نخبنا الثقافية. ولكنهم في عقولهم يرفعون يوميا سيف الملاح ضد النازيين، والفاشيين، والكلانيين الذين لولا ذلك لكانوا هاجموا الأقليات المضطهدة التي لا دفاع لها. لم لا ينبغي للمرء أن يشعر شعورا طيبا عن نفسه؟ بالنسبة إلى التقدمي هذه الأيام، فإن الجناح الغربي للرئيس جوسياه بارتليت هو العالم الحقيقي.

إن سياسات الموقف لا تستدعي أي ألم. تمعن ثانية في قول مز سونتاغ: "العرق الأبيض هو سرطان التاريخ الإنساني... العرق الأبيض وهو وحده.. يستأصل الحضارات ذات الحكم الذاتي حيثما انتشر."[٢٣]

أعد كتابة تلك الجملة مع "العرق اليهودي" في مكان "العرق الأبيض" وسوف يكون النص مناسبا بشكل جميل لكتاب كفاحي. لو أن سونتاغ مزقت الشعب اليهودي بهذه الشراسة، لكان مسارها قد انتهى هناك. ولكن نقدها اللاذع ضد "العرق الأبيض" لم يؤد إلى تضاؤل مكانتها أكثر مما أدت زيارتها إلى هانوي في ١٩٦٨، عندما كان الفيتناميون الشماليون يعذبون أسرى الحرب الأمريكيين.

سونتاغ بعد ذلك ربحت منحة العبقرية من مؤسسة ماك آرثر، ووجد استطلاع عام حديثٌ سونتاغ بأنها أكثر مفكري زماننا احتراما. ومع ذلك، فإن توم وولف، ذا الشهرة من الراديكالي الأنيق، ورواية نار الغرور، عندما سأل عن سونتاغ:

> من كانت هذه المرأة؟ من وماذا؟..ماكس ويبر...آرنولد توينبي. في الواقع كانت مجرد كاتبة أخرى لكتابات تافهة أمضت حياتها توقع من أجل اجتماعات احتجاج وتتباطأ في المشي إلى المنبر، يعرقلها أسلوبها في النثر الذي يحمل لاصقة سيارة معوقين يصلح في دورية بارتزان ريفيو.[٣٤]

بدت سونتاغ، حسب ما قال وولف "متحمسة لإيضاح" الحقيقة التي قالها ماكلوهان في ملاحظته إن "التذمر الأخلاقي هو أسلوب يستخدم لمنح الأحمق كرامة."[٣٥]

في نهاية المطاف فإن حلم كل ضحية هو أن يتبادل مواقعه مع جلاده، كما كتب يقول فرانز فانون الثوري.[٣٦] ورؤية فانون هذه تساعد في تفسير تحول حركة الحقوق المدنية، من حركة اجتماعية حسب التقاليد الأمريكية لحق النساء في الانتخاب والعمل، إلى ذراع للثورة.

في الخمسينيات من ١٩٥٠، كان ما يزال بالإمكان أن يوصف الأمريكيون الأفارقة بأنهم محافظون اجتماعيا، ووطنيون،

ومسيحيون باعتزاز. ما أرادوه، وما طالبوا به هو أن يكونوا أعضاء كاملين ومتساوين من أسرتنا الوطنية، وهي الأسرة التي قدموا لها كل حياتهم هم وشعبهم. وقالت أمريكا لهم نعم. السود والبيض معا، أمريكا خرجت ودفنت جيم كرو(*) كنا نبدو في الطريق إلى أن نكون بلاداً أكثر وحدة. ولكن عندما تم تصحيح المظالم الحقيقية وتمت الاستجابة للمطالب المشروعة بحقوق متساوية أمام القانون، تحرك انتباه أمريكا إلى مكان آخر. الحقوق المدنية صارت قصة الأمس.

ولإعادة السيطرة على انتباه الأمة تحتم اختراع مطالب جديدة، وعندما تمت الاستجابة لها، اخترعت مطالب جديدة أخرى. إزالة العزل العنصري لم يبق كافياً الآن. وبدأت المطالبة بالعمل الإيجابي، والحصص، ومخصصات النساء والأقليات، والمساواة في النتيجة في الوظائف والراتب، والدخل، وإعادة رسم المناطق التشريعية ومناطق الكونجرس لضمان حصة "عادلة" من مقاعد السلطة. وكان يجب إنجاز التوازن العرقي في فصول المدارس، حتى لو كان ذلك يعني النقل الإلزامي بالسيارات للأطفال البيض إلى مدارس خطرة داخل المدن. وصيحة المعركة القديمة من أجل الحرية، استسلمت لمطالب جديدة "مطالب غير قابلة للتفاوض" للقوة السوداء.

(*) اسم يرمز لممارسة التمييز المنهجي ضد السود واضطهادهم.

في العام ١٩٧١، استمعت المحكمة العليا إلى قضية كان يحتج فيها طالب أبيض يدرس القانون ضد فشله في أن يسمح له بالدخول إلى محكمة أريزونا بالرغم من أنه حصل على علامات أعلى في اختبار القضاء من الطلاب السود الذين سمح لهم بالدخول إلى تلك المحكمة. وفي أثناء مناقشة المحكمة، التفت القاضي ثيرغود مارشال إلى زميله ويليام دوغلاس وقال: "أنتم مضى عليكم سنوات وأنتم تميزون. الآن جاء دورنا."[٣٧]

حركة الحقوق المدنية اختلطت بالثورة الثقافية، وصار للقادة المتعسكرين مزيد من مطالب أحدث. فأغنيات مثل "الديكسي" يجب إلى أن تغنى علنا قطعيا، وروبرت ئي. لي يجب ألا يكرم بعد الآن. ونظرا إلى أن واشنطون كان مالكا للعبيد، فاسمه وأسماء ملاك العبيد السابقين جميعا يجب أن تزال من المدارس التي يدرس فيها أطفال السود. كتب مارك توين تحتوي على إهانات عرقية، أخرجوها من المناهج. علم المعركة الكونفيدرالي رمز للعنصرية العرقية. النسخ المأخوذة طبق الأصل عنه يجب أن تزال من أعلام الولاية كلها، وإلا فإن المقاطعة سوف تُفرض على من يرفض. وقوانين الهجرة يجب أن تضع شعوب العالم الثالث في المركز الأول في الصف لزيادة "التنوع". ونحتاج أيضا إلى قوانين بغضاء جديدة تُفرد البيض الذين يهاجمون السود بعقوبات خاصة وبإعادة تثقيفهم. والآن نحب أن نجلس ونناقش التعويضات عن أضرار العبودية.

قالت بربارا توكمان: "إن كل ثورة ناجحة تلبس في الوقت المناسب ثوب الطاغية الذي أطاحته." [38] وأضاف إريك هوفر، إن كل قضية سياسية تتحول في نهاية المطاف إلى عمل تجاري وبعد ذلك تنحط إلى مستوى الابتزاز والاتجار بالمال. والحقوق المدنية تحولت إلى ابتزاز. جميع الأمريكيين من ذوي النوايا الحسنة يمكن أن يمدوا يد العون لتخفيف الكارثة الاجتماعية في صفوف الأمريكيين السود. وذلك لأن الأمريكيين الأفارقة، بعد كل شئ، هم أبناء الله نفسه ومواطنون للجمهورية نفسها. ولكن من هم أمثال جاكسون وشاربتون، وبوندز لا يريدون مساعدتنا. يريدون إغواءنا، واستفزازنا، وشيطنتنا، وذلك لأن هذه هي الكيفية التي يستبقون بها القِدر تغلي، ومنتجي التلفاز ينادون، والمنح الفيدرالية والمؤسساتية منصبة عليهم. فإذا كان ثيودور بيلبو وبُل كونور قد ماتا وقضيا، فيجب أن يوجد عنصريون عرقيون بيض جدد، ولو كان يجب في الحقيقة اختراع مثل هذين الميتين، من مثل جون آشكروفت وجورج دبليو. بوش. وقد أنذر بوكر تي. واشنطون أمريكا لتكون حذرة من المبتزين العرقيين هؤلاء:

> هناك طبقة من الناس الملونين الذين يجعلون تجارتهم هي استبقاء الاضطرابات، والمظالم، والمصاعب للعرق الزنجي أمام الجمهور. فبعد أن علموا بأنهم قادرون على أن يكسبوا معيشتهم من اضطراباتهم، فقد نشؤوا على العادة المستقرة وهي الإعلان عن

مظالمهم _ في جزء من ذلك إنهم يريدون التعاطف، وفي جزء آخر فإن ذلك يدر عليهم دخلا. بعض هؤلاء الناس لا يريدون الزنجي أن يفقد شكاواه، لأنهم لا يريدون أن يفقدوا وظائفهم.[٣٩]

صحيح من أعلى إلى أسفل المدخنة يا دكتور واشنطون.

عندما تدور المناقشة حول قضايا العرق، يصاب الجمهوريون بالاهتزاز. ويبدون خائفين إلى درجة الشلل. لماذا؟

إنهم بوصفهم أناساً من ذوي العقول المنصفة ومعظمهم من المسيحيين يعترفون ولو بتردد بأن هناك حقيقة في اتهام ماضي أمريكا. فآباؤنا شاركوا في الاسترقاق. ونحن مارسنا العزل العرقي العنصري. ومعاملتنا للهنود لم تكن ما ينبغي أن يتوقعه الإنسان من شعب كانت له الموعظة على الجبل أمرا إلهيا. ولكن هؤلاء الجمهوريين بعد أن أدخلوا في قلوبهم إحساسا بالذنب يأكل أرواحهم، وهم في طلبهم طوال حياتهم للنقاء، صاروا فريسة سهلة لرجال الثقة من أمثال جاكسون وشاربتون الذين يديرون الخداع الكبير.

والحقيقة؟ في قصة الرق وتجارة الرقيق، كان الرجل الغربي من بين أشرار عديدين، ولكن الرجل الغربي كان البطل الوحيد أيضا، لأن الغرب لم يخترع الرق، ولكنه ألغى الرق وحده. ولولا الغرب، لكان حكام أفريقيا ما يزالون يتاجرون بلحم أقاربهم.

والأرقاء كانوا، بعد كل شيء، المحصول النقدي الرئيسي لأصدقاء مانسا موسا. أمريكا كانت مجتمع عزل عنصري عرقي، ولكن ما كان هناك من أمة يتمتع فيها الناس بحرية أعظم، وبالفرصة، وبالرفاهية مما هو هنا في الولايات المتحدة.

زمن الاعتذارات مضى. ولكن إذا كان وسط أمريكا يعتقد أن الاستسلامات والتعويضات سوف تشتري السلام في زماننا، فهو يخدع نفسه. وإذا لم يبق هناك أي مزيد من المطالب، فإن تجار الابتزاز العرقي سيجدون خطأً جديداً للعمل. ولكن طالما أن الأكثرية الصامتة مستمرة في التنازل والموافقة على هذه المطالب منهم، فإنهم سيستمرون في تقديمها. حان الوقت لقول لا ليس إلا.

إن الانحطاط بالحقوق المدنية ودمج تلك الحركة مع الثورة الثقافية يعقد مخاطر بلقنة أمريكا. وذلك لأنه في الوقت الذي كان فيه تحالف الصفقة الجديدة (نيوديل) لروزفلت قد بني على الاقتصاد، أي، الذين يملكون مقابل الذين لا يملكون، فإن التحالف الديمقراطي الجديد مبني على تصويت الكتلة والسياسات العرقية.

إذا فقد الحزب سيطرته على أمريكا السوداء، فلن يكون ممكنا قيام أي سيطرة ديمقراطية على الرياسة. هذه حقيقة سياسية في الحياة. وهكذا، فلدى الديمقراطيين خطر ضخم في إدامة الخوف والنفور من الجمهوريين بين الأمريكيين الأفارقة. في كل انتخابات

من التسعينيات من ١٩٩٠، تم اللعب ببطاقة العرق، وذلك بإذكاء نار الخوف من أن الكنائس السوداء ستحرق أو أن الناخبين السود سوف يسلبون حق مواطنتهم وتصويتهم. في انتخابات العام ٢٠٠٠، ذهب السيد غور إلى كنيسة سوداء في بيتزبيرغ لتقديم تأملاته عن منافسه:

> عندما يقول خصمي، الحاكم بوش، بأنه سوف يعين بنائيين صارمين في المحكمة العليا، فإني أفكر غالبا بالمعنى البنائي المحدد بصرامة والذي استخدم عندما كتب الدستور وكيف أن بعض الناس حسبوا على أنهم ثلاثة أخماس المخلوق البشري.[٤٠]

كان السيد غور يضمر أن السيد بوش ليس لديه مشكلة حقيقية مع الرق. مفرّق؟ نعم. ولكنها ربحت. فالأمريكيون الأفارقة تحولوا بأرقام قياسية في العديد من الولايات وصوتوا بنسبة أحد عشر إلى واحد في صالح ألبرت غور. إذا كان البيت الأبيض هو الجائزة فلماذا يتخلى الديمقراطيون عن بطاقة العرق الذي هو ورقة اللعب الأولى الرابحة في اللعب بالورق في أمريكا الحضرية؟ ماذا يفعل آل شاربتون وجيسي جاكسون في لعبة بوكر عالية المخاطر حيثما تكون بطاقة اللعب العرقية قد سقطت من شدّة ورق اللعب؟

وهناك أسئلة أكثر إثارة للاهتمام: لماذا يستمر الجمهوريون،

انتخابات، بعد انتخابات في تكريس مثل هذه الطاقة والجهد في محاولة صدع أصلد كتلة يملكها الحزب الديمقراطي؟ لماذا لا يذهبون "إلى الصيد حيث يوجد البط"؟ إن أضخم كتلة تصويت للجمهوريين وأكثرها ولاء هي أكثرية أمريكا. في العام ١٩٧٢، كسب السيد نيكسون ٦٧ بالمائة من الأصوات البيضاء، وفي ١٩٨٤ كسب السيد ريغان ٦٤ بالمائة. والسيد بوش كسب ٥٤ بالمائة، ولكن كان منهم ٦٠ بالمائة من الذكور البيض. وبما أن البيض ما يزالون يشكلون ٨٢ بالمائة من بطاقات الانتخاب، وإذا كان الجمهوريون يستطيعون أن يرفعوا حصتهم من ذلك التصويت من ٥٤ بالمائة إلى ٦٠ بالمائة، فلا حاجة تقريبا لأي أصوات أخرى.

الذكور البيض هم ضحايا الحصص، وبرنامج العمل الإيجابي، ومخصصات الأقليات والنساء، والتمييز المعكوس. إنهم الأهداف المفضلة للإساءة من طرف الأكاديميين، والصحافيين، ودعاة حقوق المرأة، و أمثال جاكسون، وشاربتون، وبوندز. ومع ذلك، ما من واحد من مهاجميهم محبوب في وسط أمريكا. فإذا كان الحزب العظيم القديم سيأتي بنهاية للتفضيلات العنصرية العرقية وبتأجيل للهجرة، ومناشدة للأكثرية الصامتة، مثلما يقوم الديمقراطيون بمناشدة الأقليات، فإن حظوظ الحزب في الانتخابات القومية لا يمكن إلا أن تتحسن.

ويستذكر المرء أن الرئيس بوش الأول فاز بالبيت الأبيض بأن لف إذن نهاية الأسبوع، الذي منحه دوكاكيس للقاتل ويللي هورتون، ولف بطاقة عضويته في الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية، لفهما حول عنق دوكاكيس. وخسر بوش الأول البيت الأبيض برفع الضرائب وتوقيع قانون الحصص " ـ ليصل" إلى المنشقين الذين أعادوا الدفع للجمهوريين بشكل ثابت بقفاز رطب في الوجه.

الأمريكتان

عندما تصل إلى مفترق في الطريق اتبعه، هكذا قال اللاعب يوجي بيرا.

والحزب الجمهوري هو عند مفترق في الطريق. والقرار الذي يتخذ سيكون قرارا حاسما بقدر ما كان حاسما القرار الذي اتخذه الحزب في سان فرانسيسكو كاو بالاس في العام ١٩٦٤، عندما اختار الحزب باري غولدووتر في ذلك الوقت عندما كان يصدق قول الشاعر:

"أن تكون حيا في ذلك الفجر فهو النعيم

أما أن تكون شابا فهي الفردوس بنفسها."[٤١]

وكما يكتشف المعلقون من اليسار و اليمين، صار العرق والثقافة حاسمين في السياسات الرياسية. فالأمريكيون السود، والهسبان،

واليهود صوتوا بشكل ساحق لغور. ولكن نسبة السيد بوش البالغة ٦٠ بالمائة من الأصوات بين الذكور البيض هي التي جعلت السيد بوش رئيسا .إن الخريطة الانتخابية مقاطعة مقاطعة تبين أن أمريكا تصبح أمتين. آل غور اكتسح المقاطعات الساحلية من واشنطون، وأوريغون، وكاليفورنيا، ولكنه لا يكاد بشق الأنفس يحمل مقاطعة مفردة شرق الساحل. من ٢٣٠ مقاطعة في نيفادا، ويوتاه، وايداهو، ووايومنغ، ونبراسكا، وكنساس حمل غور ثلاثة. ولكن غور عمل بشكل جيد صعودا في وادي نهر الميسيسيبي من نيوأورلينز إلى باتون روج، وممفيس، و سينت لويس، وقاد سيتيز، وسينت بول. و أما وراء مدن النهر وضواحيها، فقد انسحق غور في هذه الولايات في وسط أمريكا. و كما كتب المؤرخ رالف ريكو يقول: تستطيع أن تسوق سيارتك عبر أمريكا بأي طريق تقريبا بدون الذهاب عبر أي مقاطعة واحدة حملها غور.[٤٢] ولكن من المستحيل تقريبا أن تسوق عبر أي ولاية، باستثناء رود آيلند، بدون أن تعبر المقاطعات التي ذهبت إلى بوش.

ما الذي يحدد سياسات القرن الحادي والعشرين؟ وبحسب ما تقول الواشنطون بوست هو الأخلاق والثقافة:

> المعارك التي تدور حول الإجهاض، وضبط الأسلحة والقيم الثقافية الأخرى هي التي تعيد تشكيل السلوك الانتخابي بشكل مذهل لدى

> الناخبين الأمريكيين، وهي تحول الطبقة العاملة البيضاء الديمقراطية منذ وقت طويل إلى جمهوريين وتحرك الكثير من البيض الأغنياء من الحزب القديم الكبير إلى حزب روزفلت... القضايا العرقية مثل نقل طلاب المدارس في حافلات النقل المختلط، وبرنامج العمل الإيجابي، كلها دفعت المنتخبين ذوي الياقات الزرقاء إلى الحزب القديم الكبير، وفي الوقت ذاته فإن تلك القضايا الثقافية، خصوصا حقوق الإجهاض، قد بنت ولاء ديمقراطيا بين المهنيين البيض.[٤٣]

بين الأمريكيين الذي يكسبون خمسين ألف دولار في السنة أو أكثر، وكانوا يوما ما ناخبين جمهوريين صلبين، هبط هامش بوش إلى ٧ بالمائة. جمعية المحامين الأمريكيين، والجمعية الطبية الأمريكية، كانتا في الماضي قاعدتين جمهوريتين. لم تبقيا كذلك. والآن تعتبران إقطاعيتين معاديتين. وعن وسائل الإعلام، كان هذا صحيحا منذ وقت طويل. ويكتب المحلل تِرّي تيتشاوت ليلة الانتخابات: "كان ينبغي أن يُحذّر موظفو السي إن إن... لئلا يهتفوا عندما أعلن مذيعو الشبكة أن الغور قد أعلن رابحا للولاية خشية أن يسمع المشاهدون هتافاتهم."[٤٤]

ولكن إذا كانت النخب المهنية تتحرك نحو اليسار، فالبيض الفقراء يتحركون نحو اليمين. والذي يحدث هو تبادل الناخبين. وقد اكتشف توم إدسول من البوست أنه "في تسع من أفقر

المقاطعات العشر في كنتاكي...، وهي أماكن حزب هاري إس ترومان الديمقراطي عاملت المقاطعات بفظاظة خصوم الجمهوريين، فاز جورج دبليو. بوش مرارا بهوامش تعكس صورة فوز غور في أغنى المقاطعات وأفضلها ثقافة."[٤٥]

غور خسر كل قطاع للدخل من أمريكا البيضاء، باستثناء الذين يكسبون تحت مبلغ خمسين ألف دولار في السنة، وقسم هذا الصوت مع بوش بنسبة ٤٩ إلى ٤٦، وهذه خسارة مذهلة للولاء في صفوف البيض الفقراء لحزب الشعب. وقد قال رجل كونجرس من أوكلاهوما لهذا الكاتب منذ سنوات قليلة مضت: "القضايا الثلاث الوحيدة في مقاطعتي هي: الله، والشواذ، والأسلحة!"

إذا وضعنا العرق جانبا، فإن تكرار الحضور إلى الكنيسة صار هو تقريبا أفضل مؤشر عن الكيفية التي سوف يصوت بها الشخص. فالذين يذهبون إلى الكنيسة أسبوعيا وأكثر يصوتون للجمهوريين بأغلبية ساحقة. والذين يحضرون إلى الكنيسة نادرا أو لا يحضرون قطعيا يصوتون للديمقراطيين. نعم، فيرجينيا، نحن بلدان.

في انتخابات العام ٢٠٠٠، ذهبت تذكرة الجمهوريين بعيدا عن قضايا العرق، والثقافة، والحياة، مفترضين، على نحو صحيح، أن العداوة لكلينتون وغور بل والكراهية لهما اضافة لذلك ستُفهم المحافظين الاجتماعيين حقيقة الأمر. لقد كانوا على حق. ولكن

هامش الفرق في الأصوات، وهو ثلاثة ملايين صوت، لصالح غور - نادر على بوش - تشيني، قد تكون آخر دعوة لليقظة سيتلقاها الحزب الجمهوري.

وإذا لم يدافع السيد بوش وبيته الأبيض عن قضية الحياة، والمجتمع المصاب بعمى الألوان، والقيم التقليدية، فإن هذه القضايا سوف تضيع. وإذا رفض الحزب الجمهوري، بعد أن صار في السلطة، أن يقدم القيادة للمحافظين الأخلاقيين والثقافيين، وللاقتصاديين المحافظين كذلك، فإن الكثيرين سوف يتخلون عن الحزب، وعن السياسة كذلك. وبالنسبة إلى السيد بوش فإن الاختبار الحاسم هو المحكمة العليا. فإن ترشيح قاض موافق على حق الاختيار للنساء في الإجهاض سوف يثبط عزيمة اليمين ويوهن معنوياته. وإذا ترك الرئيس المقعد التالي يذهب إلى جناح المحكمة الذي فيه سوتر ـ ستيفنز ـ جينزبيرغ ـ برير، فإن المحاججة الوحيدة الباقية للحزب القديم الكبير هي القول إنه أقل الشرين، وهذا ليس كافيا. ما قاله جو لويس عن متحديه للوزن الثقيل الخفيف بيللي كون يصح عن الرئيس في حروب الثقافة: "يستطيع أن يهرب، ولكنه لا يستطيع أن يختبئ."

لا يهم ما قد يرغب فيه "المحافظون الرحماء"، فإن حرب الثقافة والنزاع العرقي لن يزولا. الكثيرون لهم منفعة خاصة.

الأمريكيون الأفارقة والهسبان هم ربع سكاننا. وكلاهما يصوت بصفته كتلة واحدة في الانتخابات الرياسية. ووسائل إعلامنا، أيضا، لها نصيب في النزاع العرقي. فالتقديرات ودولارات الإعلان التي تتدفق منها تتطلب نزاعا، وليس هناك من نزاع _باستثناء الحرب نفسها _ أكثر جاذبية من النزاع العرقي. محاكمة أو. جيه. قد تكون قسمت واستقطبت أمريكا، ولكنها ضمنت عاما ناجحا لشبكة سي إن إن.

و الميزانيات المنتفخة للوكالات الفيدرالية_هيئة الفرص المتساوية للتوظيف، وهيئة الحقوق المدنية، وأقسام الحقوق المدنية في العدل، والتعليم، والصحة، والخدمات الإنسانية _كلها تتطلب تزويدها باستمرار "بضحايا" جدد للعنصرية العرقية. وكلما ازدادت النقود التي تستلمها هذه الوكالات ازداد عدد المخالفين والضحايا الذين يجب أن تجدهم. وحسب قانون باركنسون فإن العمل يتوسع ليملأ الوقت المخصص له.

و الحقوق المدنية اجتذبت أيضا محامي المحاكمة. إن تقريرا إخباريا بأن زبونا أسود قد تم التطاول عليه أو أن طالبا للغداء أسود منعت عنه الخدمة، هو مثل ربح بطاقة يانصيب. فلكونها بطيئة في تقديم الخدمة لستة من عملاء الخدمة السرية السود في آنابوليس، كان على الشركة الأم لشركة ديني أن تدفع ٥٤ مليون دولارٍ إلى

٢٩٥,٠٠٠ مدعٍ ومحاميهم، وأن توقع على اتفاقية مع الجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون لتستأجر المزيد من الأمريكيين الأفارقة وترعى المزيد من شركات الموردين المملوكة للأقليات.[٤٦]

مقاطعة حضرة المحترم جاكسون في الثمانينيات من ١٩٨٠ لشركة آنهوسر ـ بوش حُلت بطريقة ودية فصار ابناء يوسف وجوناثان في العام ٢٠٠٠ يديران أضخم توزيع لأنهوسر ـ بوش في شيكاغو. وتروي جريدة شيكاغو صن ـ تايمز أنه بعد توجيه جاكسون "بالتهديد بالاحتجاجات" ضد دمج مؤسسة جي تي تي مع بل أتلانتيك، وإيه تي آند تي مع سي تي آي عاد "فغير نغمته" عندما "تبرعوا" للمجموعات التي يقودها جاكسون و "وافقوا على طلبات (جاكسون) بإعطاء عقود لمالكي الأعمال التجارية من الأقليات ـ على الأقل بعض مَنْ قدمهم جاكسون لرؤساء المؤسسة."[٤٧] الطرق التي تبقي الأمل حيا لا تحصى.

الموظفون السود من التحالف المسيحي، الذين يزعمون أنهم لم يدعو إلى حفلة عيد الميلاد، وكان عليهم أن يخدموا في عشاء تدشين أكثر من أن يجلسوا مع الموظفين الآخرين، قد أقاموا دعوى ضد الأضرار التي أصابت نفوسهم واحترامهم لأنفسهم. والمبلغ المطلوب ـ ٦٢١ مليون دولار.[٤٨]

الابتزاز العرقي لن يزول، وهو يصير ابتزازا معولما. ففي

ديربان، في أفـريقـيـا الجنوبيــة، في أيلول / سـبـتـمـبـر ٢٠٠٠، استضـافت الأمم المتحدة المؤتمر العالمي ضد العنصرية العرقية، والتمييز العنصري، وكراهية الأجانب، وما يتعلق بذلك من عدم التسامح. والغرض: هو انتزاع اعتذار رسمي من الولايات المتحدة عن "الرق عبر الأطلسي" والحصول على التزام بعشرة بلايين "تعويضات" للأمريكيين الأفارقة عن جريمة الأمة التاريخية هذه التي كانت "جريمة ضد الإنسانية".

حضرة المحترم جاكسون وحلفاؤه في منتداه الأسود أملّوا أن يكون كولن باول حاضرا معهم ليضمنوا تغطية عالمية، في الوقت الذي يجري فيه اتهام بلاده وإدانتها، وشجبها وأمرها بأن ترد الحق الشرعي لأصحابه من أحفاد العبيد الأفارقة. ولكن إدارة بوش، على كل حال، رفضت الدور المحدد لها، وطلب كولن باول أن يعفى من الذهاب، وانفجر المؤتمر بعد أن خطفته الدول العربية وحولته إلى محكمة عسكرية تعقد والمعركة جارية لمحاكمة إسرائيل على "العرقية العنصرية" وعلى "التفرقة والعزل العنصري." وانسحب وفد الولايات المتحدة المنخفض المستوى، ولكن هذا ليس آخر ما سيسمعه الأمريكيون عن "التعويضات" عن الرق، وذلك لأن الذين سيكونون هم المستفيدين من هذا الأمر سيكون لديهم حصة ضخمة جدا في إدارة الغش والاحتيال.

وسـوف يكون علينا أن نحـتـمل ذلك مع وسـائل الاتصـال الجمـاهيـري، ومع الحـزب الديمقـراطي، ومع البـيـروقـراطيـة الفيدرالية، ومحامي المحاكمات، والأمم المتحدة، ومع العالم الثالث لأنهم جميعهم يملكون استثمارا ضخما في السياسات العرقية، سوف يكون علينا أن نحتمل ذلك إلى أن تقرر الأمم الغربيـة أنهم تحملوا ما يكفي ثم يخرجون من اللعبة. ولكن ذلك قد يكون أكثر بكثير مما نتوقعه من شعب خائف.

الفصل العاشر

البيت المنقسم

"كانت هذه البلاد طيبة جداً، ولا أستطيع أن أفهم ما الذي دهاها."[1]

- جاك نيكلسون، ١٩٦٩
فلم الراكب السهل

"العالم مكان جميل، ويستحق القتال من أجله."[2]

- أرنست همنغواي، ١٩٤٠
لمن تقرع الأجراس

تستطيع الحضارات، والأمم، والدول أن تموت بطرق عديدة. تستطيع أن تتعرض للغزو وتعرض على السيف لتقبل به، وذلك مثلما حدث للقسطنطينية في ١٤٥٣. وتستطيع أن تمتصها الإمبراطوريات مثلما فعلت روما للدول المدن في اليونان القديمة، ومثلما فعلت بروسيا للمقاطعات الألمانية. وتستطيع الأمم أن تتفرق، وتذوب، وتتصدع لأجزاء مثلما فعلت يوغوسلافيا، والاتحاد السوفيتي، وتشيكوسلوفاكيا، على الرغم من أن الكثيرين يحاجون بأن هذه الأمم كانت دائماً أمما مصطنعة.

وتستطيع البلاد والحضارات أن تمر في تحولات من دين إلى آخر وأن تخلق شعباً جديداً مثلما حدث لأيرلندا مع القديس باتريك، ولجزيرة العرب مع محمد صلى الله عليه وسلم. وفي "الإنسانية والنظام الجديد، " رأى المؤرخ كريستوفر داوسون، منذ سبعة عقود خلت، أن هذه التحولات تحدث للغرب:

> طوال قرون تستمر الحضارة في السير في الطريق نفسه، وتعبد الآلهة نفسها، وتحافظ على الأفكار نفسها، وتقر المعايير الأخلاقية والفكرية ذاتها. وبعدئذ بغتة يأتي التغيير، وتجف ينابيع الحياة القديمة، ويستيقظ الناس فجأة على عالم جديد، عالم يبدو فيه أن المبادئ التي كانت حاكمة في العصر القديم قد فقدت صحتها وصارت غير قابلة للتطبيق أو صارت بلا معنى... ويبدو أننا نعاني شيئا ما من هذا النوع في أوروبا اليوم.[٣]

وتستطيع الحضارات أيضاً أن تخفق في تكاثر نسلها فيكتسحها المهاجرون غير المبالين لثقافتهم. وقد كتب ول ديورانت يقول: "روما لم يقهرها غزو البرابرة من الخارج فقط، ولكن قهرها تكاثر نسل البرابرة من الداخل ... الجرمان المتوالدون بسرعة لم يستطيعوا أن يفهموا الثقافة الكلاسيكية، ولم يقبلوها، ولم ينقلوها لمن بعدهم، والشرقيون المتوالدون بسرعة كان معظمهم يرون تدمير تلك الثقافة، والرومان المالكون لها، ضحوا بها إلى ملذات العقم."[٤]

الغرب هو أكثر حضارة متقدمة في التاريخ وأمريكا هي أكثر أمة متقدمة، فهي الأولى في الاقتصاد، وفي العلم، والتكنولوجيا، والقوة العسكرية. ولا توجد قوة عظيمة أخرى تنافسها. أوروبا، واليابان، وأمريكا تتحكم بثلثي ثروة العالم، ودخل العالم، والقدرة الإنتاجية في العالم.

ولكن أمريكا والغرب يواجهان أربعة أخطار واضحة وحاضرة. الأول هو سكان يموتون. والثاني هو الهجرة الجماعية لشعوب من ألوان مختلفة، ومعتقدات مختلفة، وثقافات مختلفة، وهي تغير شخصية الغرب إلى الأبد. والثالث هو الظهور، إلى حد الهيمنة، لثقافة معادية للغرب في الغرب، وهي معادية عداء مستحكما لأديانه، وتقاليده، وأخلاقياته، وهي قد بدأت قبل الآن تصدع الغرب. والرابع هو تمزيق الأمم ومروق النخب الثقافية لتنحاز إلى حكومة عالمية وهو الأمر الذي تتلوه، إذا ما برز، نهاية الأمم.

الغرب لا تعوزه القدرة أو القوة على صد هذه المخاطر، ولكن الغرب على ما يبدو، تعوزه الرغبة أو الإرادة لاستدامة نفسه بوصفه حضارة حيوية، منفصلة، فريدة. ومثلما كتب جيمس بيرنهام وهو تروتسكي سابق وجيوستراتيجي منذ ما يزيد على ثلث قرن مضى:

> لا أعرف سبب انحطاط الغرب بسرعة غير عادية، وهو ما يظهر أبعد ما يكون غوراً في تعمق فقدان قادة الغرب ثقتهم بأنفسهم

> وبالصفة الفريدة لحضارتهم الخاصة، ويظهر بتلازم ضعف الإرادة الغربية للبقاء. السبب أو الأسباب لها صلة، على ما أعتقد، بانحلال الدين، وبالإفراط بالترف المادي، وأفترض لها علاقة بالوصول إلى التعب، والإعياء، مثلما يحدث للأشياء الدنيوية.[5]

إن الصراع الذي يدور للابقاء على المعتقدات القديمة، والثقافات، والبلدان الغربية هو خط التقسيم بين اليسار واليمين، وهذا الصراع هو الذي سيحدد ما الذي يعنيه أن يكون المرء محافظاً. وهذه هي قضية القرن الحادي والعشرين وجدول أعمال المحافظة طوال ما تبقى من حياتنا.

في دراسة أي إستراتيجية من أجل الإبقاء على ثقافتنا وبلدنا هناك حاجة إلى تقويم توازن القوى. فليست المؤسسات الثقافية للغرب هي التي تم الاستيلاء عليها فقط، بل تم الاستيلاء كذلك على المراكز الكبرى للسلطة. ومثلما أن العولمة هي نقيض الوطنية تماما، فإن المؤسسة العابرة للقوميات هي خصم طبيعي للتقليد. وبقابليتها للتلاؤم ولا أخلاقيتها، فهي لا تملك الجذور، وتستطيع أن تعمل في أي نظام. وبكون الكفاءة هي مبدأها الحاكم، فهي لا تملك الولاء للعمل ولا الانتماء لأي أمة. وبكون سعر الحصة وخيارات السندات هي أسباب وجودها، فهي تضحي بأي شيء وبكل شخص

على مذبح الربح. الرأسمالي العولمي والمحافظ الحقيقي هما قابيل وهابيل. ولكن السلطة المتنامية للرأسمالي العولمي لا يمكن إنكارها. وإذا ما حسبت بالدخل المحلي الإجمالي فإن ٥٢ من أقوى مائة اقتصاد في العالم هي شركات، و٤٨ هي بلاد.[٦]

الحزب الديمقراطي هو قضية خاسرة في حرب الثقافة، والعديد من الجمهوريين هم محاربون مترددون. وإذا أوشكت المعركة على النشوب وكانت الخسائر متوقعة، فإنهم يتلاشون من المعسكر قبل ارتفاع الشمس. وفي النزاع الثقافي لا يكون جمهوري دافوس ندا لديمقراطي سان فرانسيسكو.

ونظراً لأن الثورة الثقافية استغرقت أجيالاً لتنتصر، فسوف تستغرق أجيالاً لتنحسر. والمعارك الكبيرة لن تكون سياسية، بل أخلاقية، وفكرية، وروحية. وذلك لأن الخصم ليس حزباً آخر، بل هو دين آخر، وطريقة أخرى في رؤية الله والإنسان. والنتيجة سوف تحسم في مجلس الشيوخ بمرات أقل في الغالب من المرات التي تحسم فيها في المدارس ووسائل الإعلام، والمحكمة العليا. وذلك لأن الجائزة التي يجري التنافس عليها هي أرواح الشباب. وقد تبجح الشاعر ألن جينزبيرغ بالقول"سوف نصل إليكم من خلال أطفالكم." وهو في هذا يردد أصداء ثوري ثقافي آخر هو آدولف هتلر: إذا لم يذهبوا معنا، فهذا لا يهم. فنحن من قبل الآن نملك أطفالهم.[٧]

ما نحتاج إليه لتحقيق النصر ليس روحاً محافظة فقط للدفاع عما هو صحيح بشأن أمريكا والغرب، بل نحتاج كذلك إلى روح ثورية مضادة من أجل استرداد الأرض المفقودة. فكي يحفظوا حقوقهم، ويحفظوا حقهم ليعيشوا كما رغبوا، كان على الآباء المؤسسين أن يتحولوا إلى ثوار. وهذا ما يجب أن نفعله نحن.

كتب جان – فرنسوا ريفيل، "الثورة تكتب المسرحية التي يمثل فيها القادة السياسيون فيما بعد."[٨] ذلك هو ما تدور حوله هذه الثورة وما تزال تدور: السيطرة على الثقافة، ومع الثقافة السيطرة على السلطة لكتابة المسرحية التي يمثل فيها القادة السياسيون أدوارهم.

أنظمة الحكم غير ذات الجذور في الثقافات لا تستطيع أن تتحمل وتدوم. الأنظمة الستالينية في الأمم الأسيرة في أوروبا الشرقية لم تضرب بجذورها في الثقافة. وعندما زال تهديد الدبابات الروسية زالت الأنظمة. كذلك الجمهوريون اليوم يتخلون عن الأرض الأخلاقية التي دافعوا عنها بثقة في عهد ريغان لأنهم يستشعرون اليوم أن الثقافة تحولت إلى العداء. وربما كانوا في هذا على حق. وربما يوجد "منهم أكثر مما يوجد منا." وهكذا، فالمحافظون يحتاجون إلى عمل تحالفات مع أي قوى تقف معهم. فليس كل ليبرالي يريد أن يرى حضارتنا تنهي أيامها في أسر بابلي جديد، وليس قلة من "المحافظين" كدسوا أسلحة في حرب الثقافة.

هذا هو الصراع الذي يتبع الحرب الباردة وسوف يستهلك ما بقي من حياتنا. وفي الوقت الذي قد لا يعيش أحد منا ليرى الأرض الموعودة، فإن النصر في نهاية المطاف نصر مؤكد. وذلك لأننا نعرف ذلك في أعلى المصادر الموثوقة أن الحقيقة التي تُسحق حتى تسوى بالأرض ترتفع فوقها ثانية.

من الأخطار الأربعة الواضحة الحاضرة تعتبر أزمة السكان في الغرب هي أكثرها إلحاحا وخطراً.

يعلمنا التاريخ أن الترابط بين القوة والسكان ليس مطلقاً. فبضعة ملايين بريطانيين قهروا ربع العالم. والبرتغال وهولندا الصغيرتان استوليا على أراضٍ وزرعوا مستعمرات في بلاد هي أكبر بكثير منهما وأكثر سكاناً: البرازيل، والهند، والصين، وأفريقيا، والإنديز. ولكن السكان مكون من مكونات القوة. فعسكري مقابل عسكري، كانت الكونفيدرالية مساوية للاتحاد، ولكن لم يكن هناك ما يكفي من الكونفيدراليين الجنوبيين، وكان هناك وفرة من اليانكي في الشمال. جنون العظمة والاضطهاد الفرنسي بشأن عدد السكان الألمان المتصاعد بعد معاهدة فرساي كان له ما يبرره كما ثبت لاحقا. فجيش هتلر قد يكون متفوقاً في التسليح على الجيش الأحمر، ولكن ٨٠ ثمانين مليون ألماني منظمين بلا رحمة تحت هتلر لا يستطيعون هزيمة ١٩٧ مليون سوفيتي منظمين بلا رحمة تحت

ستالين. واتحاد سوفيتي من ٢٩٠ مليون نسمة يستطيع أن يسيطر على إمبراطورية عالمية. وروسيا الشائخة، المنكمشة، التي تموت بعدد ١٤٥ مليون نسمة ستكون محظوظة أن تحافظ على ما في يديها. والحقيقة أن المرء واقع تحت ضغط ليحاول أن يجد في التاريخ أي مثال لأسرة أو قبيلة، أو شعب، أو أمة، أو حضارة بلغ سكانها من العمر عتيا وبدأت أعدادهم تنكمش ثم لم يأخذ التاريخ منها ما سبق لها أن أخذته من الآخرين.

قد يكون موت الغرب صار مخبوزا في الكعكة. فازدهار المواليد الذي بدأ في ١٩٤٦ وانتهى في ١٩٦٤ أنتج أضخم جيل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن هذا الجيل أخفق في تجديد نفسه. فأكبر أبنائه عمراً الآن بلغ الخامسة والخمسين، وأفتاهم عمرا بلغ السابعة والثلاثين، وبهذا فذلك الجيل قد انتهى تقريبا من إنجاب الأطفال. وأكبر أبناء هذا الجيل عمراً بدأ ينظر إلى التقاعد، عندما تدفع الأسر الديون، وتحد من الصرف، وتخفض الاستهلاك.

اليابان، التي يزيد فيها العمر المتوسط خمس سنوات على العمر المتوسط في الولايات المتحدة، تضرب الجدار في ١٩٩٠. فأسواق العقارات والأسهم والسندات انهارت، ولم تستعد نشاطها بعد. وفي تشرين أول/ أكتوبر ٢٠٠١م، كانت الأسهم

والسندات الحكومية أقل من قيمتها، التي بلغت ذروتها في ١٩٨٩، بنسبة ٧٥ بالمائة، وكان الاقتصاد الياباني نائما مثل نمو اليابان السكاني.

وسكان أوروبا قد بدؤوا بالانكماش. وترافق ذلك مع دخول أطفال أقل إلى القوة العاملة، ومع ارتفاع أعداد كبار السن والشيوخ. يجب على أوروبا أن ترفع الضرائب وأعمار التقاعد وتقطع الإعانات المقدمة لكبار السن، أو أن تستورد عمالاً جدداً. وستجرب أوروبا الأمرين معا. وبما أن الأوروبيين سوف يجبرون على العمل لمدة أطول مقابل دخل أقل، ليعيلوا الشيوخ العاطلين، فإن التوتر بين الأجيال سوف يزداد، ولأن العرب، والأفارقة يتدفقون، فإن التوترات الاجتماعية سوف ترتفع. الشغب العرقي في مدينة لانكشاير ميل من أولدهام، وفي ليدز، وفي بيرنلي، وفي برادفورد، والشجارات بين الأسبان والمغاربة في إل ئيخيدو، والمعارك الدامية بين الفرنسيين وشباب من الجزائريين في باريس، وهجمات حليقي الرؤوس على المهاجرين والأتراك في ألمانيا، هي كلها حوادث تنذر بفصول "صيف حارة وطويلة" قادمة إلى أوروبا. ولكن إذا ما رفضت أوروبا المهاجرين، ورفضت النساء الأوروبيات أن ينجبن أطفالا، فإن القارة عندئذ سوف تحدّق بالهرم في وجهها.

وتواجه أمريكا المسائل نفسها. فإذا قررت عشرات الملايين من

الفتيات الأمريكيات والنساء الشابات ألا ينجبن أطفالا، أو قررن أن ينجبن طفلا واحدا لا أكثر، فإن أمريكا إما أن تقبل الهجرة الكبيرة أو أن تقبل مصير اليابان وأوروبا. ولكن أمريكا لديها متسع من الوقت لتتصرف. فإذا كان الأمريكيون يرغبون في حفظ حضارتهم وثقافتهم فيجب على الأمريكيات أن ينجبن المزيد من الأطفال. وفي الوقت الذي لا يوجد فيه أي ضمان بأن تستطيع الحوافز الحكومية أن تغير عقلية النساء، فإن بالإمكان بناء الانحياز نحو الأسرة ونحو الأطفال وإعادة ذلك الانحياز إلى السياسة القومية. فأي شيء أهم من إدامة الأمة الأمريكية والشعب الأمريكي؟

- قانون الحقوق المدنية يجب أن يعدل ليسمح لأرباب العمل بأن يدفعوا أجورا أعلى للآباء أكثر مما يدفعون للعزاب، لتمكين أحد الزوجين من المكوث في البيت مع الأطفال الرضع وغير القادرين على المشي وأن يكون موجودا عندما يعود الأطفال من المدرسة. ويجب أن ينطبق هذا على الآباء المفردين والأمهات المفردات.
- بدلاً عن تخفيض الضريبة مقابل الرعاية النهارية، كي تستطيع الأمهات أن يعدن إلى العمل، يجب رفع حساب الضريبة الفيدرالية عن كل طفل إلى ثلاثة آلاف دولار. وهذا قد يستأصل ضرائب الدخل الفيدرالية للعائلات الكبيرة والعائلات الفقيرة على حد سواء. امنحوا النساء الحرية ليخترن ما إذا كن يرغبن في البقاء في بيوتهن مع أطفالهم- وينجبن المزيد من

الأطفال. أمريكا لا تحتاج إلى المزيد من العمال، أمريكا تحتاج إلى المزيد من الأطفال.

- يجب منح أرباب العمل حوافز ضريبية ليدفعوا أجورا أعلى للوالدين. نحن نحتاج إلى إنعاش فكرة أجر العائلة، حيث يكون دخل واحد كافيا لتوفير حياة آمنة مريحة لأسرة متزايدة.
- عبء الضرائب التي تفرض على المؤسسات يجب أن يحول بعيداً عن الأعمال التجارية الأسرية والمزارع الأسرية إلى المؤسسات الكبرى. وكما كان رونالد ريغان يقول: المؤسسات الكبيرة لا تدفع ضرائب، الناس هم الذين يدفعون. المؤسسات تجمع الضرائب فقط. دعوا الشركات الخمسمائة، أغنى الشركات، حسب مجلة فورتش تقوم بعملية الجمع.
- "ضرائب الموت"(*) يجب أن تلغى فورا عن الأعمال التجارية الأسرية، والمزارع الأسرية، والعقارات الأسرية التي تقل قيمتها عن خمسة ملايين دولار.
- إذا دعت الحاجة إلى عائدات لدفع هذه الحسوم في الضرائب الأسرية، يمكن الحصول عليها من خلال ضرائب على الاستهلاك والرسوم الجمركية على المستوردات. وإذا كانت

(*) ضريبة الموت: هي ضريبة المواريث تفرض على تلقي ملكية عن طريق الميراث أو الانتقال القانوني. وتقدر حسب قيمة الأملاك الآيلة للوارث.

أمريكا تعاني من أزمة، فهي ليست ناجمة بالتأكيد عن نقص السلع الاستهلاكية المستوردة في السوق.

في هذه الأيام، نجد أن قيم حركة مساواة المرأة والثقافة المضادة هي قيم حركة مبنية في ثنايا سياساتنا الاجتماعية والنظام الضريبي. ويجب على المحافظين أن يعملوا لإزالة هذه القيم. إن المجتمع الحر لا يستطيع أن يجبر النساء على إنجاب الأطفال، ولكن المجتمع الصحي يستطيع أن يكافئ النساء اللواتي يحفظن المجتمع بالإنجاب.

طوال عقدين من الزمن، والجمهوريون ينادون بالمنافع المتصلة مع "جانب – التوريد" من التخفيضات في معدلات ضرائب هامشية. وقد ثبت أنهم على حق. والتخفيضات الضريبية خير إيجابي. ولكن ما هو في خطر الآن أهم بكثير مما إذا كان اقتصادنا ينمو بمعدل ٣ أو ٤ بالمائة. ما هو في خطر هو بقاء حضارتنا، وثقافتنا، وبلادنا.

ومع ذلك، فإن تخفيض أعباء تربية الأطفال ليس بديلا عن إحياء الإيمان الديني. لأن الإيمان القوي والعائلات الكبيرة يسيران يداً بيد. وبين الأمريكيين البيض، اليوم ليس مفاجأة أين نجد أعلى معدل للولادات – في يوتاه.

الاستيعاب

في مـلاحظات مـاديسـون من المؤتمـر الدسـتوري اقـتبـاس عن الحاكم موريس أنه قال: "كل مجتمع، بدءاً من الأمة العظيمة ونزولا حـتى النـادي، يملك الحق في أن يصــرح بالشــروط التي ينبــغي بموجبهـا قـبول الأعضـاء الجدد."[٩٠] ولوقف الغـزو الحـالي للولايات المتحدة واسـتيعـاب ٢٨,٤ مليـون أمـريكي ولدوا أجـانب، يجب على أمريكا، وبدون أن تعتذر، أن تمارس ذلك الحق.

- يجب أن ترجع الهـجـرة الشـرعـيـة إلى (٢٥٠,٠٠٠) مـائتين وخـمـسين ألفـاً في السنة. ومنـافع الرعـاية يجب أن تحـدد بالأمـريكيين. ويجب أن تعاد كتابة قوانين الهجـرة لإنهاء "سلسلة الهجرة" التي تسمح للمهاجرين الجدد أن يستقدموا عـائلاتهم الممـتدة. وباخـتصـار، يجب أن تعـاد كـتـابة قـوانين الهـجـرة مع التوكيد على ما هو الأفضل لأمريكا.
- برنامج هـ-ل ب (H-1B) الذي توسّع لفـائدة وادي السـيليكون، والذي بموجبـه يُستقـدم (٢٠٠,٠٠٠) مـائتـا ألف عـامل فني في العام، يجب أن يوقف. في العام ٢٠٠٠ و ٢٠٠١ فقد عمال التقنية العـالية الأمريكيون عشرات آلاف الوظائف. وخريجو الكليات لا يجـدون الوظائف التي ظنوا أنهم سـيـجـدونهـا هنـا . فـاسـتـقـدام العمال الأجانب ليتنـافسوا مع مواطنينا الذين يقفون بلا وظائف

هو خيانة لعمالنا ولعائلاتهم. يجب أن نوظف الأمريكيين أولا.

- إن عفوا جديدا للغرباء غير الشرعيين، كما اقترح الرئيس فوكس، سوف يدعو عشرات الملايين زيادة على ما سبق ليكسروا القوانين الأمريكية للهجرة ويدخلوا إلى بلادنا متوقعين الأمل بعفو آخر يأتي. وسيكون ذلك مشابها لإعلان الحدود مفتوحة. معارضة العفو هو أمر واجب.
- يجب على الولايات المتحدة أن تستجمع الشجاعة الأدبية لترحيل الغرباء غير الشرعيين. وإذا لم يكن هناك أي عقوبة على التسلل إلى الولايات المتحدة بشكل غير شرعي، فما هو المعنى من وجود قوانين الهجرة؟ وإذا غضضنا النظر عما يحدث على حدودنا، فإن شريحة ضخمة من العالم الثالث سوف تصل إلى هنا في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين. لأن الكلام المنتشر يقول إن متجر الحلوى مفتوح والشرطي لم يبق قادراً على أن يغطي منطقته بمشيته.
- الأعمال الوحشية المرعبة التي حدثت في مركز التجارة العالمي والبنتاغون، وغيرها من أعمال الإرهاب التي وقعت، يجب أن تكون دعوات ليقظة هذا الجيل تنبهه إلى ما خطورة تمسكنا الساذج "بالحدود المفتوحة." العالم ليس وفق ما نشتهي أن يكون، ولكنه عالم فيه بعض نظم الحكم والحكام والإرهابيين المرتدين الذين يحملون البغضاء القاتلة لأمريكا. وبسبب من سياساتنا في الهجرة، صار

أعداؤنا داخل الأبواب. ولصون أمن شعبنا وحريته، يجب علينا أن نطاردهم ونزيلهم من بين ظهرانينا، ونحمي حدودنا بأفضل مما فعلنا في العقود الحديثة. إن بقاء المجتمع الحر يعتمد على ذلك.

- الأطفال المهاجرون يجب أن يستوعبوا ويغمسوا باللغة الإنجليزية من اليوم الذي يدخلون فيه إلى فصل دراسي أمريكي. معظم الآباء المهاجرين يريدون ذلك لأطفالهم، وأهم من ذلك، أن الأمة تحتاج إلى ذلك. والاستيعاب يجدي، كما تروي نيويورك تايمز:

> بعد عامين من تصويت أهل كاليفورنيا لإنهاء التعليم ثنائي اللغة وإجبار مليون طالب يتكلمون الأسبانية على غمس أنفسهم في اللغة الإنكليزية كما لو كانت حماماً باردا، بدأ هؤلاء الطلاب يتحسنون في القراءة وفي المواضيع الأخرى بمعدلات هي في الأغلب مدهشة، وفقا لعلامات الاختبار المقنن المعياري.[١٠]

كين نونان، وهو مؤسس جمعية كاليفورنيا لمربي ثنائية اللغة، كان من بين أعلى المعارضين ضجة للاقتراح ٢٢٧، الذي كان الغرض منه إنهاء التعليم الثنائي اللغة. ولكن، بعد عامين من هزيمته، كان نونان يغني المدائح للاقتراح ٢٢٧: "حسبت أنه كان سيؤذي الأطفال. وحدث العكس تماماً، وهو أمر غير متوقع لي بالكلية. بدأ الأطفال يتعلمون، لا يلتقطون، بل يتعلمون اللغة الإنجليزية الرسمية: الشفهية والتحريرية، بأسرع بكثير مما حسبت أنهم يستطيعون."[١١]

وتابع نونان، وهو الكاليفورني الذي لم تتعلم أمه المكسيكية اللغة الإنجليزية قطعيا، يقول: "أنت تقرأ البحوث وهي تخبرك أنها تستغرق سبع سنوات. وها هنا أطفال؛ وفي غضون تسعة أشهر في العام الأول، تعلموا حرفيا وبالنص أن يقرؤوا."[٥٨٨]

إذا ما كنا نريد أن نبقى أمة واحدة وشعباً واحدا، فإن نهاية التعليم الثنائي أمر جوهري، لأن وجود لغتين يعني وجود ثقافتين بل وجود بلدين في نهاية الأمر. والشعب الأمريكي يعرف هذا. اللغة الإنجليزية يجب أن تصبح هي اللغة الرسمية للشعب الأمريكي.

- سعي الحزب الجمهوري لجعل بورتوريكو ولاية يجب أن يهزم. لأن بورتوريكو، مثل كوبا وكوستاريكا، بلد منفصل وله لغته، وعاداته، وثقافته. وحق شعبها في الاستقلال وفي تكوين أمة في نهاية الأمر لا ينبغي أن ينتزع منها.
- دورية الحدود الأمريكية يجب أن تحصل على القوة البشرية التي تحتاج إليها لتقوم بأعمال الشرطة في كل حدودنا، والأمريكيون وحدهم هم الذين ينبغي أن يقرروا إن كان يجب أن تتوسع عائلتنا القومية ومتى يكون ذلك. وإذا كان الرئيس فوكس يريد حدودا مفتوحة فليفتح هو حدوده مع غواتيمالا.
- الأعمال التجارية التي تستأجر بشكل متكرر الغرباء غير الشرعيين لتتجنب دفع الأجور وتوفير المنافع والحمايات المقررة

في التشريع للعمال الأمريكيين يجب أن تلاحق قضائياً.

- يجب معارضة أي توسع لمنطقة التجارة الحرة لشمال أمريكا (نافتا). ومثلما تطورت الجماعة الاقتصادية الأوروبية بعناء من اتحاد جمركي إلى اتحاد سياسي، فإن الاتحاد الاقتصادي الأمريكي المكسيكي خطوة قاتلة نحو الاتحاد السياسي للولايات المتحدة والمكسيك، أي، نهاية الاستقلال الحقيقي والأمة. فإذا كان السيد بوش غير واع لهذا الأمر، فإن الرئيس فوكس واع له. تاريخ المكسيك وثقافتها لا تنفصلان عن تاريخ وثقافة بلادنا في الجنوب الغربي، ولكننا نبقى أمتين منفصلتين متميزتين-جاران، لا أخوين. ومثلما كتب روبرت فروست، أكثر الشعراء أمريكية: "السياجات الجيدة تصنع جيرانا جيدين." دعونا "نمش على الخط/ ونقيم الجدار بيننا مرة أخرى."[١٣٠]

مسألة السيادة

في جدول أعماله من أجل مجتمع عالمي كان البيان الإنساني لعام ١٩٧٣ تقريباً ينطق كالنبوءة تقريباً. فقد صرح البيان بأن على الأمريكيين "أن يتساموا بحدود السيادة القومية ويتحركوا ... نحو بناء المجتمع الدولي... نحن ننظر إلى... نظام عالمي يقوم على حكومة فيدرالية فوق قومية."[١٤] وبكلمات، فهذا يردد صدى

غرامشي وصدى تخضير أمريكا، ويستفيض البيان بالثناء الحسن والحماسة:

> الثورة الحقيقية تحدث... في المفصل الحاضر من التاريخ، يكون الالتزام نحو البشرية كلها هو أعلى التزام نحن عليه قادرون، إنه يسمو على الولاءات الضيقة للكنيسة، أو الدولة، أو الحزب، أو الطبقة أو العرق في التحرك نحو رؤية أوسع... فأي هدف للإنسانية أجرأ من أن يتحول كل شخص، في المثال مثلما هو في الممارسة، إلى مواطن في المجتمع العالمي.[١٥]

هذه الفكرة عن نهاية الأمم وخلق حكومة عالمية، كانت حلم المفكرين منذ الفيلسوف كانت. وعلى الرغم من أنها طوباية، فإنها تتكرر في كل جيل. وهي بدعة كفر مسيحية. عندما تنكَّر فلاسفة التنوير للكنيسة، احتاجوا إلى بديل لوعد الكنيسة ورؤية السماء. وهكذا اختلقوا رؤية جديدة لكل الإنسانية لتعمل معا لتخلق سماء هنا على الأرض. إن مبادلة الآن بالآخرة هي الصفقة التي دخل فيها عيسو عندما باع يعقوب حق الميلاد في مقابل طاس من الحساء. وأطفال التنوير هم الآن قد قطعوا مسافة بعيدة مع مشروعهم. وفي الوقت الذي تموت فيه المسيحية في الغرب، فإن أساسات الطابق الأول من الحكومة العالمية قد وضعت في مكانها من قبل ذلك.

الأمم المتحدة هي التي تشكل برلمان الحكومة العالمية، ومجلس الأمن هو المجلس الأعلى لها (وحق الاعتراض يجب أن يلغى)، والجمعية العامة هي المجلس الأدنى لها. ومحكمة الجنايات الدولية، والمحكمة الدولية، ومنظمة التجارة العالمية سوف تكون فروعها القضائية. وصندوق النقد الدولي هو الاحتياط الفيدرالي. والبنك الدولي وإخوته بنوك التطوير هي وكالات العون الأجنبي. ومنظمة الغذاء والزراعة للأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية هما من بين وكالاتها للرعاية. وبروتوكول كايوتو عن الاحترار العالمي يخلق اتحاد المدفوعات الأوروبي العولمي. والنموذج والنذير السابق هو الاتحاد الأوروبي. وقد وصف ستروب تالبوت، وهو زميل كلينتون في الغرفة في أكسفورد، ومهندس سياسته الروسية، وصف في عمود في التايم النظام الذي سيحكم في العقود الأخيرة من القرن العشرين فقال:

> جميع البلدان هي في الأساس ترتيبات اجتماعية... ولا يهم كم تبدو دائمة أو كم تبدو مقدسة في أي وقت بعينه، وفي الحقيقة هي جميعها مصطنعة وموقتة... وفي غضون السنوات المائة القادمة... ستكون الأمة كما نعرفها متقادمة العهد، وجميع الدول سوف تعترف بسلطة مفردة عولمية. والتعبير الدارج باختصار في أواسط القرن العشرين - "مواطن من العالم" - سيكون قد نال معنى حقيقيا مع نهاية القرن الحادي والعشرين.[١٦]

وفي رؤية تالبوت فإن منظمة التجارة العالمية، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي هي "وزارات نموذجية للتجارة، والمالية، والتطوير لعالم موحد."[١٧]

روماني برودي، رئيس الهيئة الأوروبية، قال مرعدا أمام البرلمان الأوروبي في شهر شباط/فبراير في العام ٢٠٠١: "هل هو واضح لدينا جميعا أننا نريد أن نبني شيئاً ما يستطيع أن يطمح إلى أن يكون قوة عالمية، وليس مجرد كتلة تجارية ولكنها كيان سياسي؟ هل ندرك أن دولنا-الأمم، إذا أخذت فرادى، ستجد، الأمر أصعب، إلى حد بعيد، أن تؤكد وجودها وهويتها على المسرح العالمي؟"[١٨]

أوروبا منذ ما قبل الآن وهي تقف وجهاً لوجه مع "المسألة القومية." هل أممها العظيمة - بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، وروسيا- ودولها القديمة، مع تاريخها الرائع وتراثها - البرتغال، وإسبانيا، والنمسا، وهنغاريا، وبولندا، واليونان، وسائر الدول الباقية - ترغب في أن تعيش بوصفها شعوبا منفصلة وفريدة؟ هل يملكون الإرادة للبقاء مثلما هم كائنون؟ أم أنهم منهكون من الاستقلال؟ هل سيفضلون الموت الرحيم القومي داخل دولة كبيرة اشتراكية وحياة بصفتهم تابعات معتمدات على بيروقراطية بروكسل؟

الحرب الأهلية الأوروبية العظمى دامت من ١٩١٤ إلى ١٩٨٩، وسحقت خلالها الفاشية والبولشفية. ولكن ذلك ليس نهاية التاريخ.

ومع إنهاء الحرب ضد الشيوعية الدولية، فإن صراعا جديدا، ضد الاشتراكية الدولية قد بدأ. هذا هو النزاع الحاسم للقرن الحادي والعشرين. وهو الذي سيقرر هل ستبقى الثقافات الفريدة للغرب أم ستصير ثقافات فرعية لقارات متعددة الثقافات. وهو الذي سيقرر هل ستبقى أمم أوروبا مستقلة وحرة، أم سوف تتحول إلى مقاطعات لدولة أوروبية كبيرة حيث ستصبح ممارسة حقها الموروث في حفظ هويتها الفريدة أمرا خارجا عن القانون وإلى الأبد.

اليوم، يجري إعلام شعوب أوروبا بأن الحشمة، والعدالة، والتعويض الحقيقي عن خطيئاتهم الماضية تستدعي منهم أن يفتحوا أبوابهم ويتقاسموا أوطانهم القومية مع أحفاد الشعوب التي قام آباء الأوروبيين بإساءة حكمها واضطهادها، مهما يكن عدد الذين يرغبون بالمجيء. هل تستطيع أمم أوروبا أن تقاوم المطالب غير القابلة للتفاوض التي يطلبها الثقافيون الماركسيون؟ لأن ما يطلب منهم هو ما لا يقل عن توقيع الانتحار السكاني، والقومي، والثقافي لبلادهم - لصالح الإنسانية.

وهكذا صرح البيان الإنساني، "الالتزام نحو البشرية كلها هو أعلى التزام نحن عليه قادرون، إنه يسمو على الولاءات الضيقة للكنيسة، أو الدولة، أو الحزب، أو الطبقة، أو العرق في التحرك

نحو رؤية أوسع." ولكن بعضنا منا مع ذلك يعتقد أن ولاءنا لأسرنا الخاصة، وبلادنا، وكنيستنا، وثقافتنا يأتي أولا. وهكذا فالخطوط مرسومة في معركة القرن. الوطنية أو العولمة. الأمة-الدولة أو نظام عالمي جديد. «والاستقلال إلى الأبد!» أو الحكومة الكونية.

إن الاستقلال أثمن من السلطة، والبلاد تستحق القتال من أجلها. ولأن الناس لن يعطوا الحب أو الولاء إلى الاتحاد الأوروبي، أو الأمم المتحدة، أو منظمة التجارة العالمية، أو أي "مجتمع دولي"، فإننا نستطيع أن نكسب القتال من أجل الاستقلال إلى الأبد، إذا وحد الوطنيون من كل الأمم جهودهم معا ولم يفقدوا الشجاعة. وذلك لأن ما قاله جيمس بيرنهام عن الليبرالية يصدق على العولمة. "إنها لا تمنح الناس العاديين حوافز دافعة مقابل المعاناة الشخصية، والتضحية والموت... إنها تقترح مجموعة من الأمور المجردة الشاحبة وبلا دماء- شاحبة وبلا دماء للسبب نفسه الذي من أجله لا تمتلك أي جذور في الماضي، ولا في المشاعر العميقة، ولا في المعاناة."[١٩٠]

لأن العولمة هي مشروع النخب، ولأن مهندسيها غير معروفين، وغير محبوبين، فإنها سوف تتحطم مصطدمة على الشعاب الصخرية للحاجز المرجاني العظيم للوطنية. هذا هو اعتقادنا، وفي هذا الاعتقاد أملنا.

الأمم قد تتقسم، وبعضها قد يسلم سيادته ليتلاشى داخل دولة أوروبية عظيمة، ولكن الشعب سوف يثور، مثلما فعل ضد الإمبراطورية السوفيتية، ويعيد خلق البلاد التي جاء منها.

قد يكون السيد غور أفلت من بروتوكوله، بروتوكول كايوتو بالجمارك، وقد يكون السيد كلينتون قد وقعنا على محكمة الجنايات الدولية التابعة للأمم المتحدة، ولكن السيد بوش تنصل من كايوتو وهو يعارض محكمة الجنايات الدولية. وبالنسبة إلى منظمة التجارة العالمية فهي مشلولة، بالشجارات التي تقوم عبر المحيط الأطلسي، وخارج دافوس، والمعجبون بها قلة. وكما أظهرت معركة مدينة سياتل فإن العاطفة والنار، سواء أكانت من مساندي العمال، أو من أنصار نادر، أو من أقصى اليمين، كانتا خارج القاعة في الشارع.

شعوب أوروبا تزداد حذراً من العالم الشجاع الجديد الذي يجري إعداده لها من أمثال ستروب تالبوت وروماني برودي. ففي قمة الجماعة الأوروبية في مدينة نيس أجفلت وتأخرت الدول الصغيرة من التسليمات الجديدة للسيادة القومية. الدينماركيون رفضوا اليورو. وفي شهر آذار/مارس٢٠٠١ صوت ٧٧ بالمائة من السويسريين وصوت كل كانتون بمفرده بلا في الاستفتاء الذي طرح تحت شعار "نعم لأوروبا" والذي كان سيؤدي إلى مفاوضات فورية

لدخـول الجـمـاعـة الأوروبيـة."[20] وفي بعض الكانتـونات النـاطقـة بالألمانية وصل صوت "لا" إلى ٨٥ بالمائة.[21]

وعندما تجاهلت أيرلندا تعميما موجها من الجماعة الأوروبية وخفضت الضرائب، جرى تأديب دبلن. وقال الرئيس برودي "آسف، ولكن يجب على المعلم أحيانا أن يعاقب أفضل تلميذ."[22] ورد النيران وزير الخارجية الأيرلندي، الذي كان اقتصاده ينمو بنسبة ٨ بالمائة، وقال: "ربما عندما يكون لدى البلاد الأوروبية الأخرى نوع النجاح (الذي حـقـقـتـه أيرلندا)، فـإني سـوف آخـذ ذلك بالمزيد من الاعـتـبـار."[23] والناخبون الايرلنديون المصوتون عندئذ نسفوا بالطوربيد اتفاقية نيس وتوسع الجماعة الأوروبية، رافضين أن يكون ذلك مخففاً لصوت دبلن في أوروبا وتهديداً للسيادة الأيرلندية.

وانتخب الإيطاليون حكومة من وسط اليمين الجديد وهي تنوي أن تضع إيطاليا أولاً. والألمان المسيحيون الديمقراطيون صريحون بفظاظة وبشكل متزايد حول رغبتهم في استبقاء هويتهم القومية وثقافتهم. والمحافظون البريطانيون انحدروا إلى الهزيمة، ولكن القضايا التي رعوها – الاحتفاظ بالأمة وإنقاذ الجنيه – تمتلك مساندة الأغلبية. إن المقاومة المتصاعدة في أوروبا تحتاج إلى استماع الصدى من هذا الجانب من الأطلسي.

عندما تتوسع الجماعة الأوروبية نحو الشرق، ستأتي المواجهة الحاسمة. إن جماعة أوروبية من خمسة وعشرين أمة لا يمكن أن تُحكم من بروكسل، ما لم تحصل بروكسل على السلطة التي تمارسها حكومة الولايات المتحدة فوق خمسين ولاية. ولأن الحرب الباردة ضد الشيوعية العالمية قد تم ربحها، فإن الصراع ضد الاشتراكية العولمية لم تتم خسارتها.

يجب على الأمريكيين أن يقاوموا أي تسليم للسيادة، ولا يهم أي رئيس أو حزب يحبذ ذلك، ويجب عليهم أن يصطفوا مع الوطنيين من أوروبا مثل مارغريت تاتشر وغير الموافقين من الأوروبيين الذين يقومون بالإمساك بالجنيه البريطانية ويستبقون الخط الأحمر من الوطنية. إن الاختيار قادم لجميع البلدان: الاختيار بين التحدي القومي وبين الفناء القومي. ولا نستطيع نحن أن نذهب لطفاء إلى تلك الليلة السعيدة.

كيف يمكن للأمريكيين الانخراط في هذه المعركة؟

- عارضوا التمويل الجديد لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي. فهاتان الوكالتان بذّرتا ملايين البلايين من دولارات الضرائب على قروض كان يمكن أن تضع معظم المصرفيين في السجن. ولكن صندوق النقد الدولي الآن يمتلك خطافا ذهبيا في عشرات البلدان لإجبارها على الانسجام مع إملاءات النخبة العولمية. وهذا الخطاف يحتاج إلى إزالة.

- اضغطوا على الرئيس ليقوم بإرسال الاتفاقية المؤسسة لمحكمة الجنايات العالمية التي وقعها السيد كلينتون. وبروتوكول كايوتو التي رفضها السيد بوش، إلى مجلس الشيوخ مع توصية بأن يتم التصويت عليهما وضدهما. ويجب مقاومة أي محاولة من الأمم المتحدة لتتولى سلطات حكومية، خصوصا أي ضرائب لاستخدام الأمم المتحدة بشكل خاص أو أي خطط لإنشاء جيش للأمم المتحدة.
- وينبغي أن يكون هدف أمريكا النهائي هو إبطال منظمة التجارة الدولية والعودة إلى اتفاقات التجارة الثنائية التي تلتزم بها الولايات المتحدة وشركائها التجاريين، ونهاية لهذه المحكمة العالمية التي تمتلك فيها أمريكا صوتا واحدا ويمتلك الاتحاد الأوروبي خمسة عشر صوتا.
- عارضوا أي توسع لحلف الناتو. هذا الحلف كان في السابق حلفا دفاعيا للأمم الحرة لصد أي غزو لأوروبا الغربية من إمبراطورية ستالين، وانقلب حلف الناتو إلى كتلة إمبريالية جديدة، وهي الآن تؤكد حقاً سيادياً لمهاجمة وغزو أمم صغيرة مثل صربيا باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان. والآباء المؤسسون كانوا سيشعرون بالخزي مما فعله كلينتون وأولبرايت للصرب. هذه الأمة الصغيرة لم تهاجمنا، ولم تهددنا، ولم تسع للحرب معنا. ومع ذلك فنحن سحقنا صربيا بشكل مرعب يشبه

ما فعله هتلر، لأنهم تحدوا طلبنا لحق المرور غير المقيد في بلادهم، لتمزيق مهد بلادهم كوسوفو.

ساندوا انسحابا كاملا للقوات البرية الأمريكية من أوروبا وآسيا ومراجعة كل الضمانات الاتفاقية التي يعود تاريخها إلى الحرب الباردة التي انتهت منذ عقد من الزمان. والحلفاء القدامى مثل كوريا الجنوبية يجب أن يبدؤوا بتوفير القوات وبدفع التكاليف عن دفاعهم الخاص. إن كل إمبراطورية عظيمة في القرن الماضي اندثرت للسبب نفسه وهو فرط الامتداد، فكل واحدة منها ورطت نفسها في حروب بعيدة فيما وراء أفق مصالحها القومية الحيوية الخاصة. دعونا نتعلم من التاريخ.

- في الوقت الذي تعتبر اليقظة ضد الإرهاب والدفاع ضد هجمات الصواريخ من الدول المارقة هي أسبقيات قومية، فإن أفضل طريقة لتجنب أي هجوم على أمتنا أو على قواتنا المسلحة هي إبعادها عن طريق الأذى، وذلك بفك اشتباك الولايات المتحدة من النزاعات الأيديولوجية، أو الدينية، أو الأجناسية، أو التاريخية أو الأرضية التي ليست من عمل أمريكا.

إن ما جرى في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، كان نتيجة مباشرة لسياسة أمريكية تدخلية في عالم إسلامي ليس فيه تهديد لمصالحنا الحيوية يبرر تدخلنا الكثيف. نحن جمهورية ولسنا إمبراطورية. وإلى

أن نستعيد السياسة الخارجية التي حضّنا عليها آباؤنا المؤسسون - بأن نبقى بعيدين عن نزاعات الأمم الأخرى- فإننا لن نعرف نهاية للحرب ولن نعرف الأمن أو السلام في وطننا نفسه.

حرب الثقافة

كتب جيمس كيرث في ناشيونال إنترست متحدياً نظرية البروفسور صامويل هنتنغتون عن "صراع الحضارات" القادم، فقال كيرث أن بطاريات مدفعية هنتنغتون مثل مدافع سنغافورة موجهة في الاتجاه الخاطئ:

> إن الصراع الحقيقي للحضارات لن يكون مستقبلاً بين الغرب وبين واحد أو أكثر من البقية. سيكون بين الغرب وما بعد - الغرب داخل الغرب نفسه. هذا الصراع قد بدأ من قبل داخل مخ الحضارة الغربية، داخل الطبقة الفكرية الأمريكية. إنه الآن ينتشر من ذلك المخ إلى الجسم السياسي."[٢٤]

وبالضبط. مثل سرطان القولون، فالخطر الطويل المدى على الغرب يكمن عميقا في الداخل، وهل سيبقى الغرب سؤال سيتوجب على الشعوب الغربية أن تجيب عنه. وكما قال بوجو: "لقد لقينا العدو، والعدو هو نحن."

وهكذا فالثورة انتصرت إلى حد بعيد، ولكن مدة توليها، مثل

مدة دانتون وروبسبير، قد تكون قصيرة. لأن الحضارة التي تخلقها لا تستطيع أن تدوم. إنها مثل الهروين، يعطي نشوة عالية جيدة، ولكنه يتغلغل أعمق مما ينبغي فيقتل. مات ستمائة من الأمريكيين من الإيدز في ١٩٨٣ عندما حض هذا المؤلف البيت الأبيض على أن يتصدى للأزمة الطبية في افتتاحية في عمود اختتم فيه القول: "الشاذون المساكين، أعلنوا الحرب على الفطرة الطبيعية، والفطرة تتقاضى منهم الآن وتفرض قصاصاً مرعباً."[٢٦] وهكذا كان. مئات الآلاف ماتوا منذ ذلك الوقت. ومئات الآلاف الذين يحملون فيروس أتش آي في لم يبقوا أحياء إلا بفضل "خلطات" يومية من الأدوية التي تصل إلى حد المعجزة.

لقد بدأت الثورة الجنسية تفترس أطفالها. فالإحصاءات عن الإجهاض، والطلاق، وانهيار معدلات الولادة، والبيوت القائمة على والد واحد، وانتحار المراهقين، وإطلاق النار في المدارس، واستخدام المخدرات، والإساءة إلى الأطفال، والإساءة إلى الأزواج، وجرائم العنف، ومعدلات الإيداع في السجون، والزنا بالعديد من النساء، وهبوط علامات الاختبارات كلها توضح كيف أن هذا المجتمع، الذي تتصاعد فيه الثورة الثقافية، هو في حالة تحلل وفناء. حضانات الأطفال الفارغة وغرف الانتظار المزدحمة خارج مكاتب أطباء العلاج النفسي تشهد بأن الجميع ليسوا على ما يرام.

ولكن قبل أن تسير هذه الثقافة المريضة في مسارها فإنها قد تأخذ الغرب إلى الهاوية معها.

لماذا لا تستطيع الثقافة الجديدة والحضارة الجديدة أن تدوما؟

أولاً: لأن النخبة التي أنتجتها غير محبوبة ولا تتمتع بأي ولاء. وفي الحقيقة، إنها ممقوتة بسبب عدم تسامحها ولا أخلاقيتها، وبسبب ما فعلته للأبطال التقليديين والإيمان القديم. والابتهاج الشعبي حول الخزي الذي لحق بالسيد كلينتون في فضيحة العفو تعكس احتقار الجمهور للثقافة المضادة التي صار السيد كلينتون يجسدها.

ثانيا: لأن أيديولوجية الثورة تتصادم مع قوانين الطبيعة البشرية وفطرة الله. وهكذا، فإن المجتمع الجديد مبني على الرمال. النساء لسن مثل الرجال، والقول بذلك لا يجعلهن مثلهم. النساء مختلفات اختلافاً عميقاً، ولهن أدوار اجتماعية منفصلة ومتميزة وهذه الأدوار غير قابلة للتبادل مع أدوار الرجال، برغم الأوامر القضائية. لا تستطيع النساء أن يعشن مثلما يعيش الرجال بدون آثار كارثية على الأسرة، والمجتمع، والبلاد.

الشذوذ الجنسي ليس خلاصا وفداء، إنه إدمان. وبالطريقة نفسها التي يعرفون بها أنفسهم فإن هؤلاء الشواذ يقتلون أنفسهم،

جسديا، وأخلاقيا، وروحيا. هكذا قال أغسطين والأكويني ومراكز أطلانطا للسيطرة على المرض، وهكذا قالت التوراة، والعهد الجديد، والقرآن. من يقول غير ذلك؟

بل إن إلقاء نظرة على صفحات الوفيات تشهد بأن الشذوذ الجنسي لا يتناسب مع الحياة الطويلة. ومجتمعنا، مثل المجتمعات الأخرى، يكتشف أن الله تعالى، قبل أن يكتب وصاياه على الحجر، احتاط فكتب نسخة منها على القلب الإنساني. أنكِر أن قوانينه تعالى ليست ملزمة، ثُر ضدها، فإنك مع ذلك لا تستطيع أن تهرب من نتائج العيش خارج قوانين الفطرة الطبيعية وفطرة الله.

ربما نستطيع أن نُشرِب الأطفال في قلوبهم الاعتقاد بأن الفروق بين الذكر والأنثى لا توجد إلا في العقل، وأن كل الحضارات، والثقافات، والأديان، والأمم متساوية. ولكن العالم سوف يعلمهم بأنهم قد كُذِبوا. فبينما "تؤكد نسبيتنا الحالية مساواة كل الثقافات" يكتب كينث مينوغ في نيو كرايتيريون،

> ما من أحد، طبعا، يعتقد بهذا اعتقادا جادا. فبعيدا تماما عن التقانة، فإن عدم المساواة الأخلاقية بين الثقافات بارز للعيان في مركز النساء في الثقافات المختلفة. إن الغرب فقط هو الذي منع الرق. ولكنها العلامة على اللياقة - ربما لتجنب "الروح الانتصارية" المخيفة - هي ما يجعلنا لا نعلن أي تفوق في الحضارة الأوروبية،

على الرغم من أنها المكان الوحيد الذي يرغب الملايين بالدخول إليه.[٣٦]

في خاصة قلوبهم، من هم الذين يعتقدون حقا بتساوي كل الحضارات، والثقافات، والأديان؟ هل أتباع النبي يعتقدون أن المسيحية دين مساو لدينهم؟ هل شهداء أمريكا الشمالية الذين ماتوا ليستقدموا الدين الكاثوليكي إلى الإروكواي يعتقدون أن الأديان الهندية كانت مؤهلة لتلقى احتراما مساويا؟ هل كان يعتقد كورتيس وبيزارو أن كل الحضارات متساوية عندما انطلقا ليغزوا ويهديا الأزتك والإنكا؟ هل كل الثقافات أنتجت أعمالا متساوية في العظمة في الشعر، والنثر، والرسم، والنحت، والموسيقى، والمعمار؟ هل يعتقد أي شخص بذلك، أم أن ذلك مجرد ثرثرة مؤدبة في المتروبوليتان وفي متحف الفن الحديث؟

هل كل الأمم متساوية؟ لماذا إذن يفر اللاجئون من كل أنحاء العالم نحو الغرب؟ هل كل الشعوب متساوية؟ في أمريكا لدينا حقوق متساوية أمام القانون. ولكن فكرة الكرامة الذاتية لكل مخلوق بشري والعدالة المتساوية أمام القانون ليست إنتاجا من الصين، أو اليابان، أو أفريقيا أو جزيرة العرب. لقد جاءت من الغرب. هل ملكية الرقيق شر؟ نعم، ولكن أي دين بدأ أولا في تعليم ذلك، وأي أمة بدأت باستئصال الرق؟ ألم تكن المسيحية والأمة البريطانية؟

بموجب تعديلنا الدستوري الأول، يكون لكل الأفكار والأديان حق متساو في أن تُسمع، ولكنه من غير المنطقي واللامعقول أن نستنتج بموجب ذلك أن كل الأفكار والأديان متساوية. كل الحضارات ليست متساوية. لقد أعطى الغرب إلى العالم أفضل ما جرى التفكير به وتعلمه. الحضارة والثقافة الغربيتان أعلى تفوقا. ديمقراطية الشخص الواحد، والصوت الواحد ليس مبدأ لا ينتهك، إنها فكرة نفعية. وعلى أساس كوني لن تعمل. والأمريكيون وهم ٤ بالمائة من سكان العالم ومع ٣٠ بالمائة من ثروة العالم الاقتصادية وقوته العسكرية، يجب أن يكونوا آخر شعب على الأرض يغمغم ويهذر بشأن مساواة الأمم، وآخر شعب يسلم أونصة واحدة من السيادة إلى برج بابل على خليج السلحفاة.

الحكومة العالمية التي تمتلك فيها كل الأمم والشعوب صوتا متساويا في تقرير مصير الإنسان هي حكومة غير معقولة. الطيار هو الذي يطير بالطائرة، وليس الركاب، والآباء لا يعطون الأطفال الذين لم يبلغوا المشي صوتا وانتخابا في قرارات الأسرة. وهذه ليست دعوة إلى التبجح، ولكنها دعوة إلى يقين أخلاقي جديد وثقة بالنفس من طرف أولئك الذين أعطيت لهم ا لحقيقة.

في مقالة نشرها الأسقف فولتون شين في ١٩٣١ بعنوان «مرافعة في سبيل عدم التسامح» استهجن الأسقف "الافتقار إلى

العمود الفقري الفكري" الذي يؤدي بالواعظ أن "يتفحج على ثور الحقيقة وعلى حمار الجهل."[٢٧] ونحو بعض الأشياء، وبّخنا الأسقف شين، وقال: يجب على الناس، الأخلاقيين أن يكونوا "غير متسامحين."[٢٨] وقال:

> التسامح ينطبق على الأشخاص فقط، ولكنه لا ينطبق على الحقيقة... أو على المبادئ. وحول هذه الأمور يجب أن نكون غير متسامحين... الحق هو الحق وإن لم يكن أي شخص على الحق، والخطأ هو الخطأ وإن يكن كل شخص على خطأ. وفي هذه الأيام والعصر نحن نحتاج، كما يخبرنا السيد تشيسترتون، "لا إلى كنيسة تكون على حق عندما يكون العالم على حق، بل إلى كنيسة تكون على حق عندما يكون العالم على خطأ."[٢٩]

الثورة ستكون حياتها قصيرة، وذلك بسبب أن روح الشك التي ولدتها في الشباب سوف تنقلب ضدها. سوف تحطم أيقوناتها على يد البرابرة الذين فرختهم. والنظرية النقدية هي لعبة يستطيع الجميع أن يلعبها. وسياسات التدمير الشخصي التي استخدمت على جون تاور وروبرت بورك هي الآن سلاح في ترسانات كلا الجانبين في حرب الثقافة. ومع وجود الثورة في السلطة، فإن الستينيات الموقف الشكاك الذي كان في شعار الستينات - «لا تثق بأي شخص فوق سن الثلاثين» - يمكن أن يُقلب ضدها بسهولة. وبعد أن تكون الثقافة الغربية، وهي الجهاز المناعي لحضارتنا، قد

نزعت منها الثقة ولحق بها الضرر، فإن أمريكا الجديدة تكون بلا دفاع مثلها مثل أمريكا القديمة.

عندما كانت دبابات البانزر الألمانية على أبواب موسكو، اكتشف ستالين أن قلة كانوا على استعداد أن يموتوا في سبيل البولشفية، ولكن شعب روسيا كان مستعدا للقتال لوقف اغتصاب الوطن الأم روسيا. الوطنية أنقذت الوطن الأم، ولكن الوطنية الأمريكية قد تم تأليبها بأيدي جنود سلاح الهندسة في حرب الثقافة. وعندما ذهبت مادلين أولبرايت، ووليام كوهين، وساندي بيرغر إلى ولاية أوهايو لقرع طبول الدعم لتجديد قصف العراق، وجدوا أن الأجيال غير المحددة لم تبق متحمسة بعد ذلك بشأن حروب كلينتون بأكثر مما كان بل كلينتون نفسه ورفاقه في وودستوك متحمسين للقتال في "حرب نيكسون."

تساءل رودني كينغ بشكوى "هل نستطيع جميعا أن ننسجم معا وحسب؟" وذلك عندما ثارت أعمال الشغب في لوس أنجيلوس، بعد أن برأت المحكمة الشرطة الذين جلدوه في مدينة وادي سيمي. لو أننا فقط نستطيع. ولكن الحقيقة المؤلمة هي: أننا لا نستطيع "جميعا أن ننسجم معاً وحسب، " لأننا ذاهبون عبر حرب أهلية للروح، صراع يدور حول من نكون نحن، وماذا نعتقد، وما الذي نعنيه بصفتنا شعبا؟ إنه صراع غير مسؤول، لأنه يدور حول الأشياء

الأولى. وأولئك الذين ينكرون أن حرب الثقافة هي في جذورها حرب دينية لم يحفروا عميقا إلى جذورها. إنه خداع للنفس أن نعتقد أنه سيكون بالإمكان وجود سلام متفق ومتفاوض عليه. هذه الثورة سوف تخرق أي هدنة نتفق عليها، لأنها تدور حول السلطة المطلقة، وحول التدمير الكامل لأمريكا القديمة.

المحافظون والتقليديون يدعون بالعنصريين العرقيين، والفاشيين، والمتعصبين، والمتطرفين، والكارهين للغرباء، والنازيين والسبب بالنسبة إلى الثورة هو أننا هذا ما نحن عليه وهذا ما نكونه. والهجمات على تاريخنا وأبطالنا لن تنتهي، والسبب هو أنه بالنسبة إلى الثورة الثقافية تلك هي الطريق إلى تنقية أمريكا من إرث بغيض وجعلها أمة طيبة.

انظر إلى ما يجري طلبه من الله ومن شعب البلاد. يقسر أطفالهم على أن ينهلوا من ثقافة يرون أنها منحطة، إن لم تكن شيطانية. والحكومة تستخدم دولارات ضرائبهم لتمول ما يعتقدون أنه مجزرة للأطفال الذين لم يولدوا. ويجب عليهم أن يرسلوا ناشئتهم إلى مدارس يعتقدون أنها تعرض إيمانهم للخطر. ويقال لهم كفوا عن المحاولة لخلق أمة ربانية، تنسجم مع القانون الإنجيلي، لأن ذلك ممنوع الآن بالدستور. هذا هو الثمن المطلوب للسلام في حرب الثقافة، وبالنسبة إلى ملايين المسيحيين، فإن هذا الثمن عال جداً.

إن مجتمعا منحدراً في الكتابات الفضائحية، فيه الزواجات المثلية مباركة من رجال الدين، وإن مجتمعا تم تفريغه من كل الرموز المسيحية والاحتفالات المسيحية، هو مجتمع لم يبق أفراده راغبين بعد الآن في أن يعيشوا فيه. وبالنسب إلية الأكثرية الصامتة، فإن الحكومة تفقد شرعيتها. وهم لم يقاوموا بعنف، لأنهم ليسوا شعباً عنيفاً. ولكنهم شعب تُفرض عليه الأعباء، شعب بدأ يرى الحكومة بوصفها "هم"، لا بوصفها "نحن"، شعب يبحث عن طرق لينفصل عن ثقافة منحطة مهيمنة.

في ذهب مع الريح، فإن ريت بتلر الذي يحس بالمرارة، وقد نفد صبره، يستأذن لآخر مرة من تارا. وتبكي سكارلت المهزوزة خلفه، ويجيب ريت: "ولكن ماذا سأفعل؟ وبصراحة يا عزيزتي لا يهمني أدنى اهتمام."[٢٠]

ويبدو أننا نحن، الأمريكيين، لا نعير أدنى اهتمام لما يحدث للجانب الآخر من حرب الثقافة. نحن نريد الخروج من هذا الزواج فقط. إننا ننجرف مع التيار نحو نقطة الانكسار. هل آن الوقت أن نمزق البطانية وأن نعترف بحقيقة الحكم الذي قاله دوس باسوس، "حسنا، نحن أمتان"؟[٢١]

منذ سنوات قليلة، كتبت مجلة محافظة جديدة في افتتاحيتها تقول إنك لا تستطيع أن تحب بلدك وتمقت حكومتها في الوقت

نفسه. ولكن واشنطون لم يكره إنجلترا عندما ذهب إلى الحرب معها للإطاحة بحكم البرلمان والملك. وروبرت ئي. لي لم يكره البلد الذي قاتل من أجله في المكسيك، إنه رغب فقط في أن يكون حراً من حكومتها. أو ليس روزفلت وتشارلز لندبيرغ كانا يمقتان روزفلت، ولكنهما أحبا أمريكا ولم يريدا لها أن تنجر إلى حمام دم أوروبي آخر، كانا يعتقدان أنه لم يكن يخوض حرب أمريكا. يستطيع المرء أن يحب بلاده ويمقت حكومة قادها السيد كلينتون. وملايين فعلوا ذلك.

إذا كانت أمريكا قد توقفت أن تكون البلد الطيب الذي نشأنا نحن فيه، فبم ندين للحكومة؟ الجواب يقع في متّى ٢٢، ٢١: "٣٣ لذلك أعط لقيصر الأشياء التي تخص قيصر وأعط لله الأشياء التي تخص الله." يجب على التقليديين أن يتشبهوا بالرومان الذين اهتدوا. فالإمبراطور مازال يستحق ولاءهم، ولكنهم صاروا يرون الثقافة منحطة. الهرب كان أساسيا. وهكذا عزلوا أنفسهم عن قدامى الرفاق والتقاليد وخلقوا ثقافة مسيحية جديدة في عائلاتهم الخاصة وداخل زمالتهم بين المهتدين ومعهم. لقد بقوا موالين للإمبراطورية الرومانية، ولكنهم انفصلوا عن ثقافتها الوثنية.

الانفصال عن هذه الثقافة يمكن أن يأخذ أشكالاً متعددة - بدءا من ترك أفلام السينما والتلفاز، إلى الشطب والتعتيم على القنوات، إلى التعليم في البيت، إلى الاحتجاج خارج مستوصفات

الإجهاض، إلى الانتقال إلى بيئات أقل تلوثا. الأميش انفصلوا من وقت طويل. واليهود الأرثوذكس انفصلوا. والمورمون انفصلوا مع سفر شباب بريغهام إلى سولت ليك الكبيرة. الكاثوليك في القرن التاسع عشر نقلوا أطفالهم من المدارس العامة ليضعوهم في مدارس الأبرشيات. في الثمانينيات من ١٩٨٠، بدأ الإنجيليون والمسيحيون الأصوليون يخلقون ثقافة بديلة ومؤسسات موازية - مدارس مسيحية، وعروض تلفازية، ومجلات، ومحطات إذاعية، وشبكات عمل، ومخازن كتب، ودور نشر. ملايين من الأطفال يدرسون في مدارس كاثوليكية ومسيحية، وأكثر من مليون طفل يدرسون في بيوتهم. ويكتب جيمس كي. فيتزباتريك، وهو كاتب افتتاحية في وندرر، مخاطبا التقليديين الكاثوليك: "سوف يتوجب علينا أن نلائم حياتنا بصفتنا ثقافة فرعية تحتية مع كل ما يتضمنه ذلك... والبديل هو صنع سلامنا مع أمريكا التي يجري تشكيلها على أيدي تجار الكتابات الفضائحية في هوليود... هذا الاستسلام أمر لا يمكن للعقل أن يقبله."[٣٢]

يستطيع البالغون أن ينفصلوا عن الثقافة المهيمنة بشراء الكتب، والأشرطة، والأقراص المدمجة. المخزن المحلي لبيع أشرطة الصور (الفيديو) قد يقوم بتسويق "أفلام البالغين،" ولكن سجل الأعمال المتفوقة يحمل أجمل الأفلام التي سبق أن أنتجت، ما

أنتجته هوليود بالأمس لا ما تنتجه هوليود اليوم. أفلام الأمس مجدت البطولة، والشرف، والوطنية. المصارع، والوطني، و١٣ يوما، وهي الأفلام التي كرمت وشاعت في أفلام ٢٠٠٠، وكانت أفلاما إيجابية. وعندما قام معهد الأفلام الأمريكي في العام ١٩٩٩ بإعداد قائمته عن أعظم مائة فلم سينمائي أمريكي كان فيها فلم واحد فقط أنتج بعد العام ١٩٨٢ في أول خمسين فلم في القمة.[٣٤]

وأفلام الخمسينيات من ١٩٥٠ التي كثيرا ما يُسخر منها كان منها سبعة أفلام في أول عشرين فلم في القمة: على جبهة الماء، الغناء في المطر، شارع الغروب، جسر نهر كيوى، البعض يفضلونها ساخنة، كل شيء عن حواء، المملكة الأفريقية.[٣٥] ومن بين أفلام الخمسينيات من ١٩٥٠ في أعظم مائة فيلم كان: الظهيرة العالمية، النافذة الخلفية، عربة اسمها الرغبة، من هنا وإلى الأبد، ثائر بلا قضية، فيرتيجو، أمريكي في باريس، شين، بن-هور، عملاق، مكان تحت الشمس، الباحثون.[٣٦]

في العام ١٩٩٨، عرضت هيئة المكتبة الحديثة اختيارها لأفضل مائة رواية في القرن العشرين. ومع أن الثقافة المضادة كانت ممثلة، فإن القائمة مع ذلك احتوت على أربعة من أعمال كونراد، وتشمل: لورد جيم، وقلب الظلام، ومزرعة الحيوان، و١٩٨٤ لأرويل، وعالم شجاع جديد لهكسلي، وظلام في الظهيرة لكوستلر، وجميع رجال

الملك لروبرت بن وارين، ولورد الذباب لغولدينغ، ومرتاد السينما لووكر بيرسي، وكيم لكيبلنغ.[٣٧] والكتب المائة من غير الروائية كان فيها ميلا نحو اليسار، ولكن تي. إس. إليوت، واتش إل. مينكن، وشيلبي فوت، وتوم وولف، وونستون تشرشل، وبول فسيل، ومؤرخ الحرب البريطاني جون كيغان صنعوا المسار والنموذج.[٣٨]

لن يكون من الصعب على التقليديين أن يضعوا معاً دورة قراءة لطلاب المدارس الثانوية والكليات، زائدا مكتبة أفلام، كلها تُعّرف شباب أمريكا على أفضل ما سبق أن كتب، ونطق، ووضع على الشاشة الفضية. إذا كان يجري صب مياه المجاري الأولية في خزان مياه الشرب، فعليك أن تشتري ماء في زجاجات. وتنطبق القاعدة على الثقافة الملوثة.

تستطيع الانترنيت أن تجمع معاً جماعات ذات معتقدات سياسية ودينية. يستطيع الكبار أن يجدوا ما يريدون في السيرة، والتاريخ، والسياسة، والأخبار، ليس فقط في الكتب بل في تلفاز الكيبل. ويحمل المذياع كلاما هراء، ولكنه يحمل أيضا كلاما مسيحياً ومحافظاً، وموسيقى كلاسيكية وشعبية، مثلما يحمل موسيقى روك مخدرات الهلوسة، والروك القاسي، والروك الشيطاني، وموسيقى الشوارع في قاع المدينة وموسيقى العصابات.

بالنسبة إلى الأطفال، يكون الهروب أصعب بكثير إلى حد

بعيد. فمبدأ اللذة الفردية ينتشر في الموسيقى التي يسمعونها، وفي السينما التي يشاهدونها، وفي تلفاز الموسيقى، وساعات البث الرئيسية. والمبدأ نفسه في المجلات وفي الكتب التي يقرؤونها. ليس هناك من طريق للخروج من هذه الأجواء. وربما يكون أفضل ما يعمله الآباء هو أن يغرسوا في أذهان أطفالهم قيماً يعيشون بها ويدعون الله أن يمكن هذه القيم من جعلهم يتبصرون ولا ينخدعون بالمظاهر في المستنقع الكبير للثقافة العامة الأمريكية في القرن الحادي والعشرين.

السياسة

ولكن إذا كنا نستطيع أن ننفصل عن الثقافة المهيمنة، فإننا لا نستطيع أن نهرب من السياسة. والإقدام على ذلك هو الاستسلام والسماح للثورة الثقافية أن تتصرف كما يحلو لها بأمريكا. فأين نذهب إذن من هنا؟

من الواضح، أن البيت الأبيض يريد لكأس حرب الثقافة أن تختفي. والسيد بوش كأنه قال ذلك عندما تأكد انتصاره في فلوريدا:

> أعتقد أن الأشياء تحدث لسبب، وأنا آمل أن الانتظار الطويل للأسابيع الخمسة الأخيرة سوف يزيد من الرغبة في أن نتحرك

إلى ما بعد المرارة والحزبية في الماضي القريب. يجب على أمتنا أن ترتفع فوق البيت المنقسم. الأمريكيون يشتركون بآمال، وأهداف، وقيم هي أهم بكثير، إلى حد بعيد، من أي خلافات سياسية؟[٣٩]

"أليس جميلا أن نفكر هكذا؟" هذا ما قاله جيك في السطر الأخير الحزين من الشمس تشرق ثانية".[٤٠] ولكن الحقيقة هي أن أمريكا بيت منقسم، والأمريكيون لا "يشتركون بآمال وأهداف وقيم." ذلك هو ما تدور حرب الثقافة حوله. وكما يكتب تشيلتون ويليامسون الصغير في كرونيكلز، الثورة "ليست راغبة في أن تعيش وأن تدع الآخر يعيش."[٤١]

أمريكا القديمة ترفض لأمريكا الجديدة مطالبها في الإجهاض، والزواج المثلي، ومطالب معينة أخرى هي في حرب مع القانون الطبيعي والأخلاقيات التقليدية. وأمريكا الجديدة ترفض لأمريكا القديمة أي مطلب في أي شيء تجد أنه لا ينسجم مع جدول الأعمال التقدمي المعد لليوم: التبغ، والكحول، والطعام السريع، واللحم الأحمر، وتربية طيور في الأقفاص، والصيد، والروديو، ورياضة إطلاق النار، والصلاة في ألعاب كرة القدم. وخطابات البغضاء، والكلام الحر، وحرية الاجتماع، والشاحنات رباعية دواليب القيادة، والبنادق.[٤٢]

ويكتب ويليامسون: "مدينة شايان في ولاية وايومنغ، تستطيع أن تتسامح بوجود مدينة نيويورك ومدينة لوس أنجيلوس، ولكن لوس

أنجيلوس ومدينة نيويورك ستي لا تستطيعان أن تحتملا معرفة بأنه توجد هناك في الخارج على السهول وفي الجبال من الصحراء الأمريكية الكبرى توجد أمريكا أخرى تعيش وجودا يناسب ظروفها المعينة الخاصة، وتقاليدها، وتفضيلاتها."[٤٣]

حرب الثقافة لن تزول، لأنها لم تنته معنا بعد. في نهاية الأمر، حتى السيد بوش، وهو محارب متردد، سوف ينجر إلى الدخول فيها.

هناك أشياء عديدة تستطيع أن ترفض أن تفعلها مع رجل. تستطيع أن ترفض العمل له، أو أن تتناول غداء معه، أو أن تتحدث إليه. ولكن إذا أراد أن يقاتل، فيجب عليك أن تجبره. القادة غير معفون من القتال في حرب الثقافة إلا بالخروج من الميدان أو برفع العلم الأبيض. منذ الستينيات من ١٩٦٠، ما من رئيس كان قادرا على أن يهرب. وفي نهاية المطاف، كان على الجميع أن ينحازوا إلى جانب، ودفع الجميع ثمنا.

ولكن إلى أن يتسلم السيد بوش منصبه، يحتاج التقليديون إلى أن يقوموا بعمل جرد للأرض التي فقدوها. وكما قالت دوروتي: "بالكلية، لا أعتقد أننا في كنساس الآن."[٤٤] هذه ليست أمريكا رونالد ريغان. شريحة ضخمة تم كَلْنَتَتُها [نسبة إلى كلينتون]. "وقال روش ليمبوغ، بعد الانتخابات "قد يكون هناك منهم أكثر مما حسبت." ولو أن انتخابات أجريت بين كلينتون وريغان اليوم، فإن ٩٠

بالمائة من نخبتنا الثقافية يمكن أن تنسى العفو وتصوت لصالح كلينتون. هل يستطيع ريغان أن يحمل كاليفورنيا اليوم كما سبق أن فعل أربع مرات؟ هل يستطيع مرشح رئاسي مع خيار الحياة ضد الإجهاض أن يكتسح تسعاً وأربعين ولاية مثلما فعل نيكسون في العام ١٩٧٢ ومثلما فعل ريغان في العام ١٩٨٤م.

لا تستطيع السياسة أن تشد الغرب لتخرجه من أزمته، لأن هذه الأزمة ليست أزمة عن الأشياء المادية، ولكنها أزمة الروح. إن رفض النساء الغربيات أن ينجبن أطفالا، وإن احتضان المجتمع الغربي لمبدأ اللذة الشخصية واحتضانه للمادية- هي أمور لن يتم إلغاؤها والتراجع عنها على يد توم ديلاي، أو ترينت لوت، أو السيد بوش. ولكن السياسة ليست خارجة عن الموضوع لا صلة لها به. روزفلت دعا الرياسة بأنها "فوق كل شيء مكان للقيادة الأخلاقية."[٤٥] ويمكن اتخاذ خطوات لإعاقة الثورة وتقديم اليوم الذي يبدأ فيه، مثلما كان الحال مع "إمبراطورية الشر"، نكوص تلك الثورة.

- الهيئة القضائية المهيمنة. إعادة صوغ شكل المحكمة العليا أمر حاسم لأي إستراتيجية للنصر في حرب الثقافة، وذلك لأن المحكمة هي كبش هدم الأسوار الذي تستخدمه الثورة. يجب إعادتها إلى الدستورية، ويجب أن يترك الناس وحدهم ليخلقوا المجتمع الذي يرغبون في العيش فيه وأن ينجبوا أطفالهم

ليكبروا فيه. إذا كانت أمريكا ما تزال مجتمعاً حراً، فهذا هو حق الناس. يقول الرئيس بوش: "لا أملك اختبارا مثل اختبار عباد الشمس" من أجل العدالة، ولكن المحافظين يملكون اختبار عباد الشمس: لا يحتاج الناشطون القضائيون الليبراليون إلى أن يطبقوه. إن مرشحين من أمثال المرشح الذي اختاره أبوه، وهو ديفيد سوتر، أو الذي اختاره الرئيس فورد، وهو جون بول ستيفن، سيكونون خطأ فاحشا لا سبيل إلى إصلاحه.

وفي نهاية المطاف، يجب أن تُقلب رأساً على عقب، عقيدة الدمج التي فرضت بموجبها على الولايات جميع القيود المفروضة على مجلس الشيوخ بموجب الدستور، من خلال التعديل الرابع عشر. ابتداء من ميراندا(*) إلى رو ضد ويد، فهذه هي السلطة التي بموجبها تملي المحكمة املاءاتها على الأمة.

في شهر تشرين ثاني/ نوفمبر١٩٩٦، قام الأب ريتشارد جون نوهوس، محرر مطبوعة الأشياء الأولى، بإدارة ندوة بعنوان، "نهاية الديمقراطية؟ الاغتصاب القضائي للسياسة." وقد بنيت الندوة،

(*) قضية ميراندا ضد أريزونا. ونص فيها الحكم على أن من واجب الشرطة أن يخبروا المتهم بأن من حقه ان يبقى صامتاً وأن أي كلام يقوله قد يستخدم ضده. وأن من حقه أن يبقى صامتاً حتى يقابل محامين، وأن الولاية تعين له محامياً إن لم يستطع هو أن يفعل، وكان المدعى في هذه القضية أرنستو ميراندا.

وهي التي ولدت من الغضب والإحباط من الأحكام التي أصدرتها المحكمة مؤخراً، بنيت على هذه المقولة:

> حكومة الولايات المتحدة لم تبق تحكم بموافقة المحكومين... والمسألة الموضوعة هنا موضع الاستكشاف هي هل وصلنا أو نحن نصل الآن النقطة التي لم يبق عندها المواطنون أصحاب الضمير الحي قادرين على إعطاء الموافقة الأخلاقية للنظام الموجود.[٤٦]

كتب الأب نوهوس، قام المؤلفون "بفحص ردود الفعل الممكنة على القوانين التي لا يستطيع المواطنون أصحاب الضمائر الحية أن يطيعوها." وتمتد ردود الأفعال هذه من "عدم الإذعان إلى المقاومة إلى العصيان المدني إلى الثورة المبررة أخلاقيا."[٤٧] وكان من بين المسهمين روبرت بورك، الذي كتب يقول: "عندما جاء القرار بشأن معهد فرجينيا العسكري(*) قالت زوجتي إن القضاة كانوا يتصرفون مثل "عصبة من الخارجين على القانون" ... والخارج عن القانون هو شخص يقسر الآخرين بدون مسوغ من القانون. ذلك هو بالضبط ما تفعله الأغلبية الحالية في المحكمة."[٤٨] وقد اقترح القاضي السابق في المحكمة الاستئنافية الأمريكية أنه ربما يكون آن الأوان

(*) معهد فرجينيا العسكري كان مخصصا للرجال فقط، ولكن المحكمة العليا قضت بجعله للجنسين.

أن يبدأ المسؤولون العامون بتحدي المحكمة العليا:

> ربما سيقوم مسؤول منتخب يوما ما بكل بساطة برفض الانصياع لقرار المحكمة العليا.
>
> سوف ينظر إلى الاقتراح على أنه مثير للصدمة، ولكن لا ينبغي أن يكون كذلك. وفي وجه الاعتراض والقول إن رفض سلطة المحكمة سيكون عصيانا مدنيا، سوف يكون الجواب هو أن المحكمة العليا التي تصدر الأوامر بدون سلطة تشترك في شكل مساو في الخطورة من أشكال العصيان المدني.[٤٩]

العديد من المحافظين الجدد صدمتهم الفرضية التي تقول إن حكومة الولايات المتحدة هي «نظام» فقد «شرعيته»، وسموا الندوة «انفجار ضد الطريقة الأمريكية». واستقالت قلة من هيئة مديري الأشياء الأولى. ولكن الندوة برهنت على أنها مفيدة. وحركت المسألة إلى مناقشة الفعل. فإذا افترضنا أن المحكمة قد تولت سلطات ديكتاتورية فوق جمهورية ديمقراطية، فماذا نفعل حيالها، إلى جانب أن نستهجنها؟

أحدى الإجابات هي مساندة المسؤولين العموميين الراغبين في تجاهل أوامر المحكمة والراغبين في أن يدفعوا الثمن الذي تفرضه المحكمة. قاضي ألاباما روي مور، من جهته، قال إن الولايات المتحدة سيكون عليها أن ترسل قوات عسكرية لإزالة لوحة كتبت

عليها الوصايا العشر عن جدار في غرفة محكمته. وهو سيرفض أن يتم إنزالها، ولا يهم من الذي أمره بذلك.

وملجأ آخر هو الطلب بأن يقوم أعضاء مجلس الشيوخ باستخدام سلطتهم الدستورية لتحديد الصلاحية القضائية للمحكمة العليا وسن تشريعات من شأنها أن تمكن الأمريكيين بأن يستدعوا ويعزلوا القضاة الفيدراليين بتصويت الأغلبية، مثلما هو الحال في كاليفورنيا حيث يستطيعون عمل ذلك. ويمكن فرض حدود على المدة على القضاة الفيدراليين بسن التشريع لذلك. إذا توافرت الإرادة، فليس هناك نقص في الطرق الدستورية التي يستطيع بها الشعب أن يعيد الاستيلاء على حقوقه في أن يحكم نفسه.

- اطردوا الجنرالات القدامى. في أثناء حرب فيتنام، توجهت تحية إلى السيناتور جورج أيكن على دعابته إذ قال: "دعونا نعلن النصر ونخرج."[٥٠٠] كان أيكن يحثنا على قبول الهزيمة وعلى كل ما كان يعنيه ذلك للفيتناميين والكامبوديين الذين وضعوا حياتهم وثقتهم فينا. لقد كانت طريقة إيكن الذكية في قول: "دعونا نقطع ونهرب، ونقول ربحنا." ولكن الفكاهة فاتت بعضنا. ومع ذلك فإن مدخل إيكن يبدو أنه قد وجد تفضيلا اليوم لدى بعض المحافظين الجدد في حرب الثقافة. لقد قال إيرفنغ كريستول بعد أن ألقيت خطابي في مؤتمر هيوستون: "يؤسفني أن أخبر

بات بوكانان بأن تلك الحروب [الثقافية] قد انتهت وأن اليسار قد ربح."[51] وكتبت جرترود هيميلفارب [السيدة ايرفنغ كريستول] في أمة واحدة، ثقافتان:

> دعنا راضين بمعرفتنا بأن ثقافتين تعيشان معا مع درجة ما من التوتر والانشقاق ولكن بدون صراع مدني أو فوضى. أمريكا تملك تراثا طويلا من التسامح... الذي يخدم بصفة قوة تتوسط بين ثقافتين، وهي تسكّن الطباع، وتهدّئ العواطف، بينما تحترم في الوقت نفسه الاختلافات الحقيقية جدا، والمهمة جدا بين الثقافتين."[52]

مع كل الاحترام للسيدة كريستول، هل ينبغي أن تهدأ العواطف عندما يتم قتل مليون طفل سنويا، وعندما يكون قتل الأجنة شرعيا، وعندما تدنس الرموز الكاثوليكية، وعندما يتم تعليم الأطفال ملذات الانحراف الجنسي في المدارس العامة، وعندما تسمم ثقافتنا، ويمرغ أبطالنا في الوحل؟ هل ينبغي أن نكون "راضين" بمثل هذه الحالة؟ هل هذه هي أنواع "الاختلافات" التي يجب أن نحترمها؟

بعد أن دخل النازيون إلى باريس بدون إطلاق طلقة واحدة، كتب أندريه جيد يقول: "أن تتصالح مع عدو الأمس ليس جبنا ولكنه حكمة، مثلما هو الحال في قبول ما ليس منه بد."[53] جيد كان مخطئاً.

ولكن إذا كان آل كريستول أخذوا سطر إيكن، فإن المحافظ الجديد نورمان بودهوريتز أبحر إلى يالطا. ففي احتفائه بنفسه قصة حبي مع أمريكا يرى بودهوريتز الحرب الثقافية منحلة إلى "انسجام لم يجر حتى الآن التفوه به والمصادقة عليه بين طرفين... هدنة أمر واقع على الأرض."[٥٤] ويقتبس موافقة من شخص اسمه مارك ليللا حول شروط الهدنة "الأمريكيون... لا يرون تناقصا في تولي وظائف في النهار في السوق العولمية غير المقيدة - الحلم الريغاني، وكابوس اليسار- وقضاء عطلات نهاية الأسبوع منغمسين في عالم أخلاقي وثقافي شكلته الستينيات من ١٩٦٠."[٥٥] ولكن "العالم الأخلاقي والثقافي المتشكل بالستينيات من ١٩٦٠" كان أنبوب تصريف المجاري.

ويذكر بودهوريتز مثالا للدور شخصية هيو ويلدون، وهو الذي أدار محطة تلفاز مؤسسة الإذاعة البريطانية بي بي سي، وسمح للكتاب وللمنتجين "أن يكونوا أحرارا باستخدام لغة فاحشة وأن يصوروا بالأفلام لقاءات جنسية قاربت مستوى الجنسي الفضائحي المكشوف."[٥٦] كيف تعامل ويلدون مع هؤلاء الذين حطوا من قدر الثقافة؟ حذرهم من أن عروضهم قد "تفشل في أن تجتذب أو تستبقي عددا كبيرا من المشاهدين."[٥٧] فلا عجب أننا نخسر. هذه هي الاستسلامية في معركة من أجل ما عرّفه تي. إس. اليوت بأنه "ذلك الذي يجعل الحياة مستحقة للعيش."[٥٨]

بودهوريتز يرجع أصداء قول هنري كيسنجر المشهور في الأسابيع الأخيرة من محادثات باريس حول فيتنام، "السلام في متناول اليد، " وهو تعبير من المؤكد أن هنري نفسه لابد أن يأسف عليه. ويكتب بودهورينز "ومع اقتراب القرن العشرين من نهايته، يتكون لدي انطباع... بأن نوعا ما من السلام كان في متناول اليد."[٥٩]

قل هذه للكشافة! فلمثل هذه المواقف، صارت المحافظة الجديدة معروفة، حسب تعبير سام فرانسيس، "الإقناع غير المؤذي." ال كريستول وأمثال بودهوريتز هم جنود أوقات فصل الصيف للحرب الثقافية، ولكن أمريكا تحتاج إلى رجال ونساء لهم المزيد من الكلية، والطحال، والقلب إذا أريد للصراع، من أجل روح أمريكا، ألا يكون قد ضاع بشكل لا يمكن استرداده.

- افتحوا التحدي لبرنامج التصحيح السياسي. رد الفعل الصحيح لعدم التسامح الذي تبديه الأرثوذكسية الجديدة هو المقاومة الشجاعة، والسخرية، والهجوم المضاد. الخصوم السياسيون الذين يستخدمون كلمات من مثل نازي، وفاشي، ولا سامي، ومحلي، وكاره للشواذ، ومتعصب، وكاره للأجانب، ومتطرف يكونون قد بدؤوا بالقتال ويجب التعامل معهم.

الشجاعة تُعدِي، ويستطيع التحدي أن يقود إلى استرجاع الإرادة. والأمريكيون يحبون الضعفاء، والثوار، والمقاتلين، وقد سئموا من كونهم يُشيطنون ويُملى عليهم إملاء. والموعظة القديمة - تحدث بالحقيقة إلى السلطة!- سوف توقفنا في موقف جيد.

في ٢٠٠١، وضعت إعلانات استفزازية في العديد من العناوين الرئيسية لصحف الكليات: "عشرة أسباب تعلل لماذا تكون التعويضات عن العبودية فكرة سيئة- وهي عنصرية أيضا."[٦٠] والذي وضعها هو ديفيد هوروويتز، وحاجَجَت الإعلانات بأن السود مدينون لأمريكا بأكثر مما تدين أمريكا للسود. في هارفرد وكولومبيا، رفض المحررون الاعلانات. وفي براون استولى الطلاب على الطبعة الأولى من الصحف. وبدولارات قليلة، انكشفت الهزة الأخلاقية الناشئة، ونالت البلاد نظرة جيدة على المكان الذي يمكن أن يوجد فيه في أمريكا عدم التسامح.

- مواجهة دعايات جرائم البغضاء بالحقيقة. بدل القيام بمجرد معارضة قوانين جرائم البغضاء المصممة لشيطنة الذكور البيض، على المحافظين أن يصروا على أن تقوم وزارة العدل بتقديم تقارير سنويا عن كل جرائم العنف بين الأعراق، بما في ذلك هجمات العصابات والاغتصابات التي تقوم بها العصابات، وذلك حسب العرق، والضحية، وتقسم كل الجرائم الجنسية ضد

الأطفال إلى جرائم غير مثلية وجرائم شاذة مثلية. فإذا كان صحيحا أن الذكور البيض يرتكبون حصة لا تتناسب مع عددهم من الجرائم بين الأعراق، فيجب علينا أن نعلم بذلك. وإذا كان ذلك غير صحيح، فدعونا نجد من هو الذي يفعلها.

ويجب على وزارة العدل أن تقدم التقارير كذلك عن جميع الهجمات العنيفة الموجهة ضد المهاجرين وجميع الهجمات العنيفة التي يقوم بها المهاجرون. إن التقارير الإخبارية على ما يبدو تؤكد الحالة الأولى وتهمل الثانية. مرة أخرى، دعونا نعلم الحقيقة، وكما قال آل سميث، دعونا نخرجها إلى العلن، لأنه "لا شيء غير أمريكي يمكن أن يعيش في ضوء الشمس."

- قوانين مؤيدة لخيار الحياة. ١٧ إلى ١٩ بالمائة فقط من الأمريكيين يفضلون جعل كل الاجهاضات خارجة عن القانون.[٦١] ولكن عدد الذين يدعون أنهم مؤيدون لخيار الحياة ارتفع من ٣٣ إلى ٤٣ بالمائة في خمس سنوات، وهناك ٥١ بالمائة يعتقدون بأنه يجب أن يكون هناك بعض القيود.[٦٢] هذا دعم كاف لمساندة مجلس الشيوخ لجعله يصوت على أمرين: جعل إجهاض الولادة غير المنصف خارجاً عن القانون، ومنع كل الإجهاضات للأطفال الذين يمكن أن يعيشوا خارج الرحم. ومثل هذا القانون يستطيع أن يحشد كل الكنائس التي ما تزال ترى أن "الحياة" هي المسألة الفائقة الأهمية. ويمكن

الضغط على الأساقفة الكاثوليك ليطالبوا بالدعم من المشرعين الكاثوليك، بمن فيهم الشيوخ دود، وليهي، وهاركن، وداشل، وكيندي، وهم الذين يحتاجون إلى التذكير بكلمات بيوس الحادي عشر في منشوره البابوي في العام ١٩٣٠ "عن الزواج المسيحي":

> أولئك الذين يمسكون بزمام الحكومة يجب ألا ينسوا أن من واجب السلطة العامة... أن تدافع عن حياة الأبرياء... ومن بين هؤلاء فإننا يجب أن نذكر في المقام الأول الأجنة الخبيئة في أرحام الأمهات. وإذا كان القضاة العامون... لا يدافعون عنهم، وإنما يقومون بموجب قوانينهم ومراسيمهم بإسلامهم خيانة إلى الموت على أيدي الأطباء وآخرين غيرهم، فعليهم أن يتذكروا أن الله هو الحكم والمنتقم للدم البريء الذي يصرخ من الأرض إلى السماء."[٦٣]

كلمات البابا الراحل يمكن أن تقرأ من منبر الوعظ في قداس الأحد في أسبوع التصويت.

ومنذ أن قلبت المحكمة العليا رأساً على عقب منعاً صدر في ميسوري لإجهاضات الولادة - غير المنصفة، كان مجلس الشيوخ مترددا في أن يصدر منعا فيدراليا. ولكن الوقت قد حان لمجلس الشيوخ وللرئيس ليمارسوا الحقوق المخولة لهم بموجب الدستور، وليقودوا المحكمة ويرجعوها إلى المكان الضيق المخصص لها في الدستور.

- مقاطعات المواطن. مقاطعة الحافلات العامة لنقل الركاب في مونتغمري(*) أشارت إلى ميلاد الحركة الحديثة للحقوق المدنية. ومقاطعة من الجمعية الأمريكية لتقدم الشعب الملون أدت إلى أن يقوم قادة الأعمال التجارية بالمناشدة بأن يزال علم المعركة الكونفدرالي عن قمة دار الحكومة في كارولينا الجنوبية. ويمكن استخدام المقاطعات أيضا لمعاقبة أولئك الذين يهاجمون القيم التقليدية كما يمكن للمقاطعة أن تخدم لتكون وسائل للتجنيد من أجل إقامة تحالف التقليديين.

إن مقاطعة المعمدانيين لديزني لم تفشل إلا لنقص التركيز فقط. كانت إعلانا للحرب الاقتصادية على إمبراطورية إعلامية واسعة ومتنوعة تشمل كلا من تي أس بي أن، وأيه بي سي، وعالم ديزني، وقناة التاريخ، وآناهيم اينجلز. ولكن هذا السلاح الديمقراطي المشروع وهو مقاطعة المستهلك يمكن أن يستخدم لإعطاء نتيجة جيدة إذا قام الناس الطيبون بالتركيز على منتج مفرد لمعلن مفرد. عندما بدأ رونالد ريغان بطي الإمبراطورية السوفيتية ودحرها، لم يرسل جيوش الناتو لتسحق أوروبا الوسطى،

(*) كانت سيارات النقل العام للركاب تفرض على السود الجلوس في مقاعد خلفية، وتفرض عليهم القيام وإعطاء مقاعدهم للبيض وكانت المقاطعة بداية حركة الحقوق المدنية وأجبرت الولايات على منع التمييز والعزل العنصريين.

ولكنه بدلاً عن ذلك اجتاح غرينادا(*) الصغيرة. وتستطيع إستراتيجية غرينادا أن تعمل. كيف؟ بالطريقة ذاتها التي كسب بها سيزار شافيز الاعتراف لعمال المزارع في كاليفورنيا من خلال قيادة مقاطعة أعناب الطاولة. لو توحد التقليديون والجمهوريون، واختاروا منتجاً مفردا يجري الإعلان عنه في عرض تلفازي واحد هجومي محدد وله تقديرات ضعيفة، وكان كل فرد يقاطع ذلك المنتج الفرد بعينه، لوجدوا، أنهم يستطيعون إجبار المعلن على سحب إعلاناته. ثم يتابعون ضد المنتج التالي، حتى لا يكون أحد راغباً في دفع تكاليف الإعلان في عرض تلفازي هجومي مؤذٍ لعدد كبير من الناس. إذا عمل السلاح لصالح سيزار شافيز ولصالح الجمعية الأمريكية لتقدم الشعب الملون، فليس هناك من سبب تجعله لا يستطيع أن يعمل لصالح التقليديين.

- مبادرات واستفتاءات عامة. مباشرة بعد أن أنزلت كارولينا الجنوبية علم المعركة وألغت جورجيا علم الولاية الذي يحتوي على صليب القديس آندرو، جاء دور الميسيسيبي. فبعد التخبط بالمشكلة كمن يحمل البطاطا الساخنة لشهور، قذف مشرعو

(*)غرينادا: جزيرة في الإنديز الغربية في البحر الكاريبي. ٨٤٪ من سكانها الذين يبلغون مائة ألف نسمة هم من السود جاء بهم الفرنسيون والبريطانيون رقيقاً للعمل في مزارع السكر. استقلت في ١٩٧٤ وبعد سلسلة من الانقلابات غزتها الولايات المتحدة ١٩٨٣ للتخلص من الحكم اليساري المتأثر بكوبا.

الميسيسيبي بها إلى الشعب ليقرر في استفتاء عام: هل كانوا يرغبون في المحافظة على علم الولاية وعليه زهرة المغنولية مع نسخة من علم المعركة الكونفيدرالي أو أن يلفظوه ويستبدلوه؟ لقد اصطف الحاكم، والصفحات الأولى، ومجتمع الأعمال التجارية وراء إلغاء العلم القديم وحافظ الشيوخ الجمهوريون ترينت لوت وثاد كوتشران على الصمت الحصيف. وفي ١٧ نيسان/إبريل ٢٠٠١م، صوت شعب الميسيسبي ٦٥ إلى ٣٥ للمحافظة على علمهم القديم الذي مضى عليه ١٠٤ أعوام.[٦٤]

نداء التقاليد هزم أمر النقود. وحتى بعض المقاطعات القليلة للأقليات صوتت بشجاعة للعلم القديم. والرسالة: في قضايا الثقافة والأخلاق، يجب على التقليديين أن يتخذوا القرارات بعيدا عن المسؤولين المنتخبين وأن يعيدوا القرارات إلى الشعب. وآخر أفضل أمل لحفظ وإحياء الثقافة اليهودية-المسيحية يستند إلى المواطنين المنيعين ضد سلطة المال وغير المهتمين بعدم موافقة وسائل الإعلام الجماهيرية.

لقد آمن واعتقد مؤلف دستورنا بحق الشعب في أن يحكم نفسه. وكتب ماديسون: "ولأن الشعب هو المنبع الوحيد الشرعي للسلطة، فإن العودة إلى السلطة الأصلية نفسها تبدو متفقة بشكل صارم مع النظرية الجمهورية وذلك في كل مرة قد يكون من

الضروري أن توسع سلطة الحكومة، أو تقلل، أو تشكل من جديد.»[٦٥]

ليست كل القرارات هي مما يمكن أن تتخذ بالتصويت العام. وليست كل القرارات التي يتخذها الشعب سوف تستقبل بحرارة من التقليديين. فبعد كل شيء لقد قامت الثقافة المضادة بغارات عميقة. ولكن الاستفتاء العام هو على الأقل محكمة للاستئناف الأخير من القضاة المستبدين ومن المشرعين الرعاديد.

- إنهاء تمويل الثورة الثقافية. إذا كان بالإمكان أن يقتنع الجمهوريون بأنهم لا يملكون خيارا آخر غير أن يخوضوا حربا ثقافية فرضت عليهم، فإنهم يستطيعون أن يخربوا ويعيثوا فسادا في كل أعمال معذبيهم. وذلك لأن الحكومة الفيدرالية هي اليوم وزارة المالية للثورة الثقافية. فإذا استطاع مجلس شيوخ جمهوري أن يحدد وينهي كل الأرصدة الفيدرالية الاختيارية المقدمة للمنظمات مثل الأبوة المخططة، والجمعية الأمريكية لتقدم الشعب الملون، ويغلق وكالات مثل الأوقاف من أجل الفنون والإنسانيات، ووزارة التعليم، وهيئة الحقوق المدنية، فإن الشيوخ بذلك يستطيعون أن يسرحوا جيوشاً كاملة من خصومهم. ولسوء الحظ، فإن الجمهوريين خائفون من أن يوصموا بأنهم "مفرقون".

ومع ذلك، فإن على بعض الباحثين الشجعان أن يعملوا قائمة تشمل جميع المؤسسات التي لها ذراع في المَعْلف الفيدرالي، ويجب أن يطلب من البيت الأبيض ومجلس الشيوخ أن ينهيا تمويل جميع هذه المؤسسات، يساراً أو يميناً، وهي التي تلعب سياسة بدولارات الضريبة. وكما كتب جيفرسون: "أن تجبر إنساناً على أن يقدم إسهامات من المال من أجل الدعاية للآراء التي لا يؤمن بها ويمقتها أمر خاطئ واستبدادي."

- يجب على مجلس الشيوخ أن يلغي يوم الرؤساء ويستعيد يوم ميلاد واشنطون لتكريم الأب الروحي لبلادنا.

- مبادرة الحقوق المدنية في كاليفورنيا التي أقرها الناخبون المصوتون بستين إلى أربعين، جعلت التمييز العرقي أو المحاباة من حكومة الولاية أمراً خارجاً عن القانون. يجب أن يوجد شيخ من مجلس الشيوخ يضع لغة مبادرة الحقوق المدنية في كاليفورنيا، وقد كتبها وورد كونرلي من مجلس إدارة الأوصياء لجامعة كاليفورنيا، في تشريع، ويجعل مجلس الشيوخ يصوت عليه بالموافقة أو بعدمها بوصفه قانون الحقوق المدنية للعام ٢٠٠٢. ونص الكلمات واضح:

> إن الولاية لن تميز ضد، أو تمنح معاملة تفضيلية لأي فرد أو جماعة، على أساس العرق، أو جنس الذكر أو الأنثى، أو اللون، أو

الإثنية أو الأصل القومي في تشغيلها للتوظيف العام، أو التعليم العام، أو التعاقد العام."[66]

وعندما سئل السيناتور جوزيف ليبرمان المرشح نائبا للرئيس غور، عن رأيه في هذا النص، أجاب: "لا أرى كيف يمكن أن أكون معارضاً له... إنه أساساً نص يعبر عن القيم الأمريكية... ويقول يجب علينا ألا نميز مفضلين شخصا ما بناء على الجماعة التي يمثلها."[67] وفي الحقيقة، فإن الكلمات تحدد مجتمعا فيه عمى ألوان. وإذا كان مجلس الشيوخ لا يستطيع أن يقبل هذه اللغة، التي هي لغة متفقة مع روح قانون الحقوق المدنية لعام ١٩٦٤م، فنحن نحتاج إلى مجلس شيوخ جديد.

- توزيع السلطة. في بريطانيا، عنى توزيع السلطة نقلها من البرلمان في لندن إلى سكوتلندا، وويلز، وألستر. وتوزيع السلطة قد يكون هو الإنقاذ للتقليدية.

من بين الانتصارات التاريخية للإنسانية العلمانية كان قيام المحكمة العليا بطرد كل الآثار الباقية للمسيحية من المدارس العامة. ونظرا إلى أن ما يقارب الاحتكار لتعليم أطفال أمريكا من قبل المدارس العامة لم يبق يخدم الأغلبية، فإن ذلك الاحتكار يجب أن يكسر. يجب أن يمنح الاستقلال والحرية لهيئات مديري المدارس، والمديرين، والمعلمين ليقرروا ماذا يتعلم الأطفال، وما

الكتب المستخدمة، وما العطلات التي تراعى، وما الشخصية التي ستكون عليها المدرسة؟ ويجب السماح للوالدين أن يوجهوا دولارات الضريبة المخصصة لتعليم أطفالهم إلى مدارس من اختيارهم سواء أكانت عامة أم خاصة، علمانية أم دينية. حسابات الضريبة تُفضل على مستندات الصرف التي يمكن أن تخدم لتكون أنف الجمل لحكومة تتدخل في المدارس الدينية. دعوا المدارس العامة تعكس تنوع شعبنا، وتعني مدارس كل الأبناء، ومدراس كل البنات، ومدارس التعليم المختلط الذي يعكس كالمرآة القيم الدينية والثقافية للآباء الذين يدرس أطفالهم فيها.

فإذا رغبت إحدى المدارس أن تحتفل بذكرى يهودية (هانوكاه)(*)، ومدرسة أخرى بعيد الميلاد، ومدرسة ثالثة بذكرى أفريقية (كوانزا)(**)، فدعوا الحرية ترن وليختف التطابق. دعوا المجتمع المحلي يقرر، بالتصويت الديمقراطي. نحن شعب متباين نختلف تقريبا على كل شيء. دعوا هذه الاختلافات تنعكس في مدارسنا إن تحطيم الاحتكار التعليمي هو أكثر حيوية بكثير لصحة مجتمعنا من كسر أي احتكار سبق أن أقامه بيل غيتس على برامج الحاسوب.

(*) هانوكاه: أو عيد الأنوار لدى اليهود. يحتفلون ثمانية أيام بانتصار الموكابيين في ١٦٥ق.م) واستعادة معبد أورشليم.

(**) كوانزا: احتفال أفريقي ثقافي لمدة سبعة أيام. وربما كان مأخوذا من السواحيلي بمعنى أول ثمار الحصاد.

ومما يؤسف له، أن كلا الحزبين يتحرك نحو التأميم. وعندما يدعو السيد كلينتون إلى الأزياء المدرسية الموحدة، ويتحدث السيد بوش عن الكيفية التي نرفع بها علامات الاختبار لطلاب الدرجة الثالثة، نكون ذاهبين في الطريق الخاطئ .

الرقابة. في التسكع باتجاه عمورة(*)، يثير روبرت بورك مسألة قد حان وقتها، إذا ما أخذنا بالحسبان "الفن" القذر، المنحط التي يجري دفعه في وجه الشعب الأمريكي. هل يجب علينا أن نتسامح مع هذا القذر باسم التعديل الأول؟ يكتب بورك:

يبدو أننا متخوفون من أن نقرر أن الصور التي يرسمها مابلثورب وسيرانو لا ينبغي أن تعرض للعموم، كائناً من كان من يدفع لهما. يجب علينا أن نتغلب على ذلك التخوف إذا ما أريد لثقافتنا ألا تنحدر نحو المزيد مما هي عليه... وستكون الصور على نفس الدرجة من الأذى والنفور ولو كان قد مول عرضها بليونير مهمل بلا فكر.[٦٨]

وحينما تكون رقابة الدولة غير مسموحة، فإن الرقابة الأخلاقية للمجتمع تصبح أمرا واجبا. وتحتاج الأمة إلى محكمة عليا تفهم أن الدستور يسمح للولايات وللمجتمعات بتأسيس وفرض

(*) عمورة مدينة فاسقة دمرها الله مع سدوم بذنب أهلها (وهم قوم لوط) عليه السلام.

معايير للحشمة. ويكتب جاك بارزون، إنه لأمر غير معقول أن الأمم "تستهجن العنف، والعلاقات الجنسية المحرمة مع أكثر من امرأة بين الشباب، ولكن العري الفاضح والعنف في الأفلام والكتب، والمحلات والنوادي، وفي التلفاز وفي الانترنيت، وفي الأغاني في الموسيقى الشعبية، لا يمكن إخمادها، وذلك من أجل مصالح "السوق الحر للأفكار."[٦٩]

ويضيف المؤرخ المذكور: "عندما يقبل الناس اللاجدوى واللامعقول بوصفه عاديا، فالثقافة منحطة."[٧٠] وإن تخليص الثقافة الأمريكية من التسمم أهم إلى حد بعيد من أي تفسير مطلق للتعديل الأول.

- تعليم التاريخ. شباب أمريكا يظهر جهلا مثيرا للعجب بالتاريخ الأمريكي. والاختبارات تؤكد ذلك. وهذا مأساة، إضافة إلى أنه خطر معا. فإذا كانت المحكمة العليا لا تسمح بغمس الأطفال في إيمانهم الديني في المدارس العامة، فإنها لا تستطيع أن تمنع غمس الأطفال في ماضي بلادهم. ويجب على الآباء والمعلمين أن يتأكدوا من أن التاريخ الأمريكي يُعلّم في كل سنة مدرسية، ومن أن كل كتاب يعلم منه التاريخ يجب أن يقرأه الآباء للتأكد من أنه يحتوي على أفضل ما قاله الأمريكيون وأفضل ما فعلوه طوال القرون. ما من أمة عندها تاريخ ينافس تاريخنا. والشعوب

في كل أنحاء العالم تعرف ذلك، وهكذا يجب على الأمريكيين أن يعرفوا. وكل طفل تقريبا يكون منغمسا في التاريخ الأمريكي سيبرز وطنياً.

يجب أن يدعى إلى مؤتمر البيت الأبيض عن التاريخ الأمريكي من قبل الرئيس بوش لنكرم ولنسمع أفضل مؤرخينا. والغرض من ذلك: لفت الانتباه القومي إلى النقص التاريخي الفضائحي بين شباب أمريكا، ولتشجيع قراءة وتعليم التاريخ الأمريكي في كل عام مدرسي وطوال عمر المواطن. ويجب أن يحصل مشروع التاريخ على الاستعجال الذي حصلت عليه دعوة الرئيس ايزينهاور من أجل التوكيد على العلوم واللياقة البدنية بعد أن أيقظ السوفيت جيلنا بالقمر سبوتنيك.

إن مساجلة تاريخية قومية وفق خطوط مساجلتنا القومية في ضبط التهجئة يمكن أن تجر عشرات الآلاف من الأطفال إلى دراسة أعمق لماضي أمتهم. وكلما تعلم الطفل أكثر من التاريخ الأمريكي كان هو الأفضل في تكذيب أولئك الذين يشنون حرباً على الماضي الأمريكي. وعلى الدرجة نفسها من الأهمية، يمكن أن يبقى الباب إلى الماضي مفتوحا لهؤلاء الأطفال طوال العمر. وإنه لعالم باهر مذهل للزيارة والاستكشاف.

بعد هزيمة البريطانيين في ساراتوغا، كتب صديق إلى آدم سميث: إن فقدان المستعمرات الأمريكية لابد أن يدمر بريطانيا. ورد سميث وكتب: "هناك قدر فادح من الدمار في الأمة."[71] وما عناه سميث هو أن الأمم العظيمة تحتمل الهزائم، وتحمل حتى الاقتطاعات، وهكذا دواليك. والكثير من أجمل ساعاتها من الطرف الأغر وواترلو إلى دنكيرك ومعركة بريطانيا كانت ما تزال أمام بريطانيا وإمبراطوريتها في العام ١٧٧٧.

ولكن ما هي إمكانيات قيام نهضة في الغرب؟

الصراحة تلزم المرء أن يعترف بأن التنبؤ بالتطورات المستقبلية للمرض غير جيدة. قد يكون الرجل الغربي يعيش الفصل الأخير من مأساة بدأت منذ خمسة قرون مضت. في ذلك الوقت، على الرغم من أن دار المسيحية انقسمت بصدع بين الكنائس الأرثوذكسية والكنائس الرومانية، وتمزقت بالإصلاح، فإن المسيحية انفجرت وخرجت من أوروبا لتتغلب على العالم وتقهره. ولكن مع مجيء القرن الثامن عشر جاء تحد من الداخل أعمق غورا في جذريته، لا لسلطة روما فقط، بل للمسيحية نفسها وللنظام الثقافي والسياسي الذي ولدته المسيحية. وكان فولتير يوقع رسائله: "امسحوا الشيء القبيح!" - الكنيسة."[72] وصرح ديدرو "الإنسانية لن تكون حرة حتى يشنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس."[73] وقال روسو:

"الجنس الإنساني ولد حرا ولكنه في كل مكان مقيد بالسلاسل."[٧٤]

وقامت فرنسا واتبعت الكتبة. وهوت الملكية محطمة. وذهب لويس السادس عشر وماري أنطوانيت، والأرستقراطية إلى المقصلة. والكنيسة جردت من ممتلكاتها ونهبت. وانتصر العقل على الإيمان وأنتج مجازر أيلول/سبتمبر، والرعب، وروبسبير والديكتاتورية، وبونابرت، والإمبراطورية، وربع قرن من الحروب الأوروبية التي لم تستعد فرنسا بعدها أبداً وحدتها أو مرتبتها الأولى.

ثم جاء دارون ليشرح أننا كلنا منتوجات للتطور، ولسنا خلقا، وجاء ماركس ليصرح بأن الدين هو "أفيون الشعب،" وجاء نيتشه بالشجاعة ليمسك بخيط النقاش ويأخذه إلى نهايته المنطقية: "الله ميت... ونحن قتلناه."[٧٥] وإذا كان الله ميتاً، كما قال أليوشا في الإخوة كارامازوف، فكل الأشياء تكون مسموحة. وإذا كان الله ميتاً، فالمنطق يقودنا إلى استنتاج آخر: المسيحية خدعة لتمنح السلطة لطبقة من الطفيليين الكهنوتيين وتستحق المحو السريع من أجل القرون التي عاشتها من الخداع والجرائم ضد الكرامة والتقدم الإنسانيين. ثم، بعد أن تكون المسيحية قد ألغيت، نستطيع أن نتبع العلم والعقل ونخلق العالم الأفضل من بين العوالم الممكنة هنا على الأرض، وهو العالم الوحيد الذي سنراه مطلقا.

ولكن إذا كانت المسيحية هي التي ولدت الغرب وهي التي قمطت نظامه الأخلاقي والسياسي، فهل يستطيع الغرب أن يبقى بعد موت المسيحية؟ ول ديورانت يقول "لم نستطع أن نجد أي نموذج مهم في التاريخ، قبل زماننا، لمجتمع يصون بنجاح حياة أخلاقية بدون مساعدة دين."[٧٦] وفي القول المأثور عن بللوك(*)" :الإيمان هو أوروبا. وأوروبا هي الإيمان."[٧٧] ولكن إذا كان ذلك الإيمان يموت، فما هو نظام الاعتقاد، وما هو المبدأ الموحد، وما هو مصدر السلطة الأخلاقية التي تمسك الغرب معا؟ ما الذي يجعل الغرب فريدا؟ ما هي الروابط التي تضمه؟

بعضهم يقول التضامن العرقي. ولكن السنوات الخمسمائة الأخيرة كانت سجلا لا نهاية له من ذبح الشعوب الأوروبية أحدها للآخر، وكانت الحربان العالميتان الأولى والثانية هما الذروة للرعب. وفي أثناء نصف الألفية الماضية، كان أكبر الأعداء للإيمان الغربي، والثقافة الغربية، والحضارة الغربية قد خرجوا من الغرب. إضافة إلى ذلك، فإن أمريكا اليوم أمة متعددة الإثنيات، والأعراق، وأمم أوروبا ستكون مثلها في المستقبل.

تحدث لينكولن عن شعب يتماسك معاً "بالأوتار السحرية

(*) هيلير بللوك (١٨٧٠-١٩٥٣) كاتب بريطاني ولد في فرنسا. وكان برلمانيا ومؤرخا محافظا وله العديد من المؤلفات.

للذاكـرة."[٧٨] ولكن اسـأل الإنجليـز، والفـرنسـيين، والبـولنديين هل يشـتـركـون "بالأوتار السـحـرية للذاكـرة" مع الألمان والروس؟ عندمـا يستذكر الأمـريكيون تاريخهم، يجده بعضهم مجيدا، ويجده آخرون سـافلاً ومـخـجلاً. ومع قيام أمريكا وأوروبا بفتح أبوابهمـا للمـلايين من بلاد ومن قـارات سبق للأمـريكيين ولـلأوروبيين أن أخـضـعـوها واستعمروها، فإنّ من المحتمل للأوتار السـحـرية للذاكرة أن تقسمنا بقدر ما هو محتمل أن توحدنا.

تبـدو الديمقـراطية بأنهـا هي الفكرة العظيـمة الموحدة المتفق عليها. الديمقـراطيـة، والأسواق الحـرة، والقيم الأمـريكيـة – هـذا هو مبدؤنا وسنقاتل من أجله. ولكن هذا لن يكفي. مـعظم الأمريكيين لا يمـكن أن يكون اهتـمـامهم أقل مما هو بشـأن الكيـفيـة التي تحكم بهـا الأمم الأخـرى نفسهـا. إن الاعـتـقـاد المشـتـرك بالديمـقـراطيـة هو قـضـيـة أضعف من أن تسند تضامن الغـرب. إنهـا تصـور فكري ولكنه لا يمسك بالقـلب. الرجــال يقـــاتلون من أجل العـــائلة، والأصدقــاء، والإيمان، والحـرية، والوطن البلد– لكن الديمقـراطيـة؟ عندمـا قـال جـورج بـوش، إنه عنـدمـا كـان يعوم مبتعدا عن جزيرة يابانيـة، بـعـد أن أسـقطت طائـرته وفـقـد الطيـارَ المشـارك مـعـه، ذهبت أفكاره إلى "فصل الكنيسة والدولة"، ضج الناس. إذا حـدث غداً أن حكومة الهند، أو فرنسـا أو إيطاليا أو البرازيل سقطت بيد

انقلاب عسكري، فكم من الأمريكيين سيفكرون أنها مسألة تستحق التصحيح على حساب تكلفة من آلاف الأرواح من الأمريكيين؟

الديمقراطية ليست كافية. كان ييتس على حق: إذا ما ذهب الإيمان، "فالأشياء تسقط مبعثرة، والمركز لا يتماسك."[٧٩] ولذلك فقد يكون أن زمن الغرب قد حان، مثلما يحين زمن كل حضارة، وأن موت الغرب مقدر، وأنه ليس هناك أي معنى في وصف عقاقير جديدة أو التوصية بمعالجات مؤلمة جديدة، لأن المريض في نزع الموت ولا يمكن عمل شيء. غَيِّب إحياء الإيمان أو غَيِّب يقظة عظيمة، فإن رجال الغرب ونساءه قد يقضون حياتهم، بكل بساطة، حتى يصبحوا قلة لدرجة تجعلهم لا يهمون.

عندما كبرنا عرف المرء أن الحرب الباردة كان بالإمكان أن تربح. وعلى الرغم من أن قلة منا أدركت كم كان الجانب الآخر ضعيفا، وكيف أن عدم الرحمة في حكام ذلك الطرف أخفت كالقناع الطبيعة الجوفاء للنظام، بل إن قلة أقل توقعت الانهيار المفاجئ الشامل الذي وقع ١٩٨٩، فإننا كنا مع ذلك، ما نزال نؤمن بأننا كنا نستطيع أن نربح الحرب، إذا ما امتلكنا الإرادة، والدأب، والقيادة التي تقوى على الصمود.

ولكن الثوريين الثقافيين ينجحون حيث أخفق اللينينيون. لقد

توقفت الشيوعية عن اكتساب منضمين إلى صفوفها في الغرب قبل جيلين من سقوطها. ولكن الثورة الثقافية تكسب منضمين إلى صفوفها حتى إلى الآن. والديمقراطية وحدها لا تستطيع أن تهزمها، لأن الديمقراطية تقف بلا دفاع يدافع عنها ضد أيديولوجية لها غاية خاصة بها وهي تحويل الديمقراطية بواسطة نخبة فكرية جديدة، وإيمان جديد، ونظام جديد. وفي الحقيقة إن الديمقراطية تسهل الثورة، كما أدرك مستغلو الديمقراطية وأعداؤها مثل ماركيوز. لقد أظهر هتلر أي نوع من المقاومة المثيرة للشفقة التي تبديها الديمقراطية للمؤمنين الحقيقيين الذين يستطيعون قلب عقائد الجماهير للتخلص منها. وهذا هو ما عناه إليوت عندما كتب في العام ١٩٣٩:

> كلمة "ديمقراطية" كما سبق أن قلت مرة بعد أخرى، لا تحتوي على ما يكفي من المضمون الإيجابي لتقف وحدها ضد القوى التي تبغضها- فهم يستطيعون بسهولة أن يحولوها. فإذا لم تملك إلها هو الله (وهو إله غيور)، فإنك ستقدم احتراماتك لهتلر وستالين."[٨٠]

بعد أن تكون إيديولوجية ما قد أمسكت بالمجتمع، فلا تستطيع أن تطردها إلا قوة أعلى أو أيديولوجية أعلى. كي تهزم إيمانا يجب أن تمتلك إيمانا. ما هو، غير المسيحية، الإيمان البديل للغرب؟ مرة أخرى من إليوت: "بما أن الفلسفة السياسية تشتق مبدأها من الأخلاق، وتُشتق الأخلاق من حقيقة الدين، فبغير العودة فقط

إلى المصدر الخالد للحقيقة لا نستطيع أن نأمل في أي تنظيم اجتماعي لن يتجاهل، حتى تدميره النهائي، بعض النواحي الجوهرية للواقع."[81]

ولكن إذا كانت المسيحية قد فقدت جاذبيتها، "وإذا لم تكن خيارا، " فإن الثورة سوف تتسارع حتى تصطدم بالجدار الحاجز في الواقع. ربما كان سيريل كونوللي محقا عندما كتب، قبل نصف قرن، "إن الوقت وقت إغلاق في حدائق الغرب."[82]

أمريكا متناقضة في الظاهر. فهي تبقى أعظم أمة على الأرض، وهي أرض الفرص، وتمتلك الحيوية والطاقة على غير مثال أي أمة من تلك الأمم الأخرى. نحن أسعد شعب على الأرض. علمُنا، وثقافتنا، وطبنا هي مكان حسد الجنس الإنساني. بعضنا اليوم حي بسبب الإجراءات الجراحية فقط، والوسائل الطبية، والأدوية المعجزة التي لم تكن موجودة عندما كنا شبابا. لدينا الكثير الذي ينبغي أن نكون شاكرين من أجله، ونحن جميعا مدينون لأمريكا. وعلى الرغم من أنه ما من أحد يستطيع أن ينكر خشونة مسلكياتها، أو انحطاط ثقافتها، أو المرض في روحها، فإن أمريكا ما تزال بلدا تستحق أن نقاتل من أجله وهي آخر أفضل أمل للأرض.

عندما كان يجلس في كفنه في العربة التي كانت تحمله عبر

ريف فيرجينيا إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام فيه، سُمع داعية تصفية الرقيق العجوز جون براون يقول بصوت هادئ لطيف: "هذه بلاد جميلة."[830] وإنها حقا لذلك. وهذا هو السبب الذي يجب علينا من أجله ألا نتوقف أبدا عن محاولة استرجاعها.

الخاتمة

أما بعد

فمنذ أن نشر كتاب موت الغرب في كانون الثاني /يناير٢٠٠٢ صارت الأخطار الأربعة التي تهدد بقاء الحضارة الغربية، والتي حددها الكتاب بغزوات المهاجرين من العالم الثالث، وانقراض الشعوب الأوروبية، وخطر التعددية الثقافية، ونشوء دولة كبرى عالمية اشتراكية، صارت هي القضايا التي تحتل العناوين الرئيسة من ملبورن إلى موسكو. وهذه القضايا الكبرى هي التي ستهيمن على حياتنا بالقدر نفسه من الشمول الذي هيمنت فيه الحرب الباردة على حياتنا، وكذلك فإن الكيفية التي نتدبر بها هذه القضايا هي التي ستقرر هل ستبقى أمريكا، وهل سيبقى الغرب.

ولكن مع ذلك، أبان لنا ربيع ٢٠٠٢ كم كان الساسة الغربيون بعيدين عن الاتصال بالشعب. ففي ربوع أوروبا أذهلت أحزاب اليمين الشعبي مرة تلو المرة أركان مؤسسة الحكم.ففي الجولة الأولى من الانتخابات الفرنسية أهان جان ماري لوبان رئيس الوزراء الاشتراكي ليونيل جوسبان واستبعده من الانتخابات وفي أجواء الهستيريا والبغضاء التي تلت أداء لو بان اغتيل القائد الهولندي بم

فورتوين، وهو الذي خاض حملة الانتخابات من أجل إيقاف الهجرة إلى هولندا التي تعتبر البلد الأكثف سكانا في أوروبا.

عندما رست سفينة شحن في صقلية قبل عيد الفصح وهي تحمل ٩٠٠ من الأكراد الباحثين عن اللجوء السياسي أعلنت الحكومة الإيطالية حالة الطوارئ. وصرح رئيس الوزراء سيلفيو برليسكوني بالقول: " إن التفتيشات التي تقوم بها الشرطة ضرورة تدعو إليها الحاجة وإلا فسوف نُرمى خارج بلادنا التي تخصنا بهذا الوصول الضخم من المهاجرين السريين." وقال الشريك في التحالف الحكومي أمبرتو بوسي من العصبة الشمالية:" إذا لم نستخدم القوة لوقفهم فإن الحشود الغفيرة ستصل وستمحو كل ما تجده، وتفرض قواعدها ودينها."

ويقول الآن المحافظ البريطاني إيان دنكان سميث عن الغرباء غير الشرعيين : " لا ينبغي أن يسمح ... ولو لواحد أن تطأ قدمه أرض بريطانيا." وحتى حزب العمال فهم الرسالة . ويقول طوني بلير:" نحن لا ندعو إلى - أوروبا القلعة - ، ولكن ما نقوله هو أنه ينبغي أن يكون هناك بعض الحدود وبعض القواعد التي تدخل إلى النظام."

وبحسب ما تقوله صحيفة الغارديان فإن حكومة بلير تنظر في استخدام الأسطول الملكي لاعتراض مهربي اللاجئين في البحر

الأبيض المتوسط واستخدام طائرات النقل لدى القوات الجوية الملكية للترحيل الجماعي. ويبدو أن تلك الأرقام في نسبة العشرين بالمائة التي حققها أداء الحزب القومي البريطاني في أقصى اليمين في بعض بلدات الطبقة العاملة في ميدلاند، يبدو أنها ركزت العقول السياسية البريطانية تركيزا رائعا .

وعندما كنت أكتب هذه الصفحات أيضا، أدى انفجار معدل المواليد بين الشعوب العربية عموما، وبين الفلسطينيين على وجه الخصوص، أدى إلى أزمة وجودية لإسرائيل، وهي مشكلة تزداد بوجود القواذف الانتحارية من حماس. وكان بول كيندي، وهو الذي كتب عن سقوط الأمم ،قد نظر في البيانات السكانية نفسها مثلما فعلت أنا وتعجب بصوت عال إن كانت الدولة اليهودية تستطيع أن تبقى إلى ما بعد منتصف القرن.

وفي أستراليا كان رئيس الوزراء جون هوارد مرشحا ضائعا إلى أن اتخذ موقفا صلبا ضد الزوارق الممتلئة بحمولات من الغرباء التي تهبط على الشاطئ الشمالي من بلاده.وعندما أعادهم من حيث أتوا، أعيد انتخابه. وفي أيار /مايو حذر وزير الصحة الياباني شيكارا ساكاغوشي من أن عدد سكان الأمة البالغ ١٢٧ مليون نسمة في جزر الوطن سوف يبدأ بالانكماش مع حلول العام ٢٠٠٨. وحذر ساكاغوشي من أنه ما لم ينقلب معدل الولادة رأسا على عقب "فإن

العرق الياباني سوف ينقرض. وأظهرت الأرقام الحديثة أن عدد الأطفال اليابانيين الذي تقع أعمارهم تحت ١٥ عاما قد هبط طوال واحد وعشرين عاما متصلة.

وفي الولايات المتحدة أثارت دعوة الرئيس بوش لمجلس الشيوخ بأن يمنح العفو للغرباء غير الشرعيين القادمين من المكسيك أثارت عاصفة من النار صدمت البيت الأبيض، مثلما صدمه الكشف عن أن إدارة الهجرة والجنسية تحت إدارته كانت قد منحت تأشيرة طالب لمحمد عطا، وبعد ستة أشهر صدم تلك الطائرة المخطوفة بمركز التجارة العالمي.

وفي أيار/مايو وجدت دراسة لبيانات الإحصاء السكاني لكاليفورنيا الجنوبية قامت بها لوس أنجلوس تايمز أن الهجرة الجماعية في التسعينيات من القرن العشرين، الشرعية منها وغير الشرعية القادمة من الحدود الجنوبية قد رفعت معدلات الفقر بنسبة ٢٨ إلى ٦٨ بالمائة في لوس أنجلوس ومقاطعاتها المجاورة. ونسبة ٤٤ بالمائة فقط من عدد السكان البالغ ٩,٥ مليون نسمة الذين يعيشون في لوس أنجلوس العملاقة ومقاطعاتها المجاورة يتحدثون اللغة الإنجليزية بوصفها لغتهم الأولى في بيوتهم الخاصة.

من الناحية الاقتصادية تتحول أمريكا إلى أمتين . وأما من الناحية الاجتماعية والثقافية والعرقية فنحن نتحول إلى أمتين، ثلاث

أمم، عدة أمم لا يربطها إلا الأقل فالأقل بين إحداها والأخرى. وهذه القضايا مطروحة للنقاش بلا نهاية حول طاولات المطبخ، وعلى مقاعد البارات، وفي المطاعم وغرف الحاجيات ولكن التفتيش الحديث الذي يأتي من التصحيح السياسي يملي على السياسيين أن يبقوا صامتين، وإلا فإنهم سيخرجونهم من صحبة الرجال المحترمين.

بيد أننا إذا لم نناقش هذه القضايا فلن نستطيع أن نعالجها، وإذا لم نعالجها فإن حضارتنا ستموت و بلادنا سوف تتمزق، وسوف نفقد آخر افضل أمل للأرض وكما قال الأسقف بتلر: "إن الأشياء والأفعال هي ما هي، و سوف تكون عواقبها هي ما ستكون عليه، فلماذا إذن ينبغي أن نرغب في أن نخدع ؟"

في غضون أيام من نشره كان كتاب موت الغرب على المستوى القومي من أفضل الكتب مبيعا وفي غضون أسابيع، وقعت العقود لنشره في الخارج، في الروسية، وفي الصينية، والإسبانية. والشعب الأمريكي الذي يحب بلاده ويقدر أن هذه الحضارة هي الأعظم من بين كل الحضارات يريد معالجة هذه القضايا، ويقدر أن الوقت قد حان لتقوم نخبنا بمعالجتها. وذلك أنهم إذا لم يفعلوا، فعندئذ، كما حذر لينكولن، فإن هذه أيضا ستموت . ونحن لا نستطيع أن ندع ذلك يحدث.

باتريك جيه. بوكانان حزيران/يونيو ٢٠٠٢

Homogeneity Through Population Exchange," *Armenian Reporter*, March 20, 1999, p. 4.

14. Teachout, p. 29.

15. Donald M. Rothberg, "Bush's One-Time Primary Challenger Endorses President, Blasts Democrats," Associated Press, August 17, 1992.

16. United Nations Secretariat, Department of Economic and Social Affairs, Population Division, *World Population Prospects: The 1998 Revision. Vol. 1: Comprehensive Tables*, November 24, 1998, pp. 100, 118, 152, 158, 164, 182, 202, 224, 240, 258, 268, 338, 350, 352, 366, 368, 376.

17. Gustave Le Bon, *The Crowd* (New York: The Viking Press, 1960), p. 13.

Chapter One: Endangered Species

Author's Note: Unless otherwise specified, all the statistics in this chapter were published by the Population Division of the United Nations in *World Population Prospects: The 2000 Revision, Highlights*, released on February 28, 2001, *Replacement Migration: Is It a Solution to Declining and Ageing Populations?*, released March 21, 2000, or *World Population Prospects: The 1998 Revision, Vol. 1*. All remaining figures that are not otherwise specified are from the *New York Times 2001 Almanac*.

1. *London Times*, January 16, 2000. http://www.childrenforthefuture.org/fertility%20rate%20by%20education.htm

2. Peter F. Drucker, *Management Challenges for the 21st Century* (New York: HarperBusiness, 1999), p. 44.

3. Population Division, Department of Economic and Social Affairs, United Nations, *World Population Prospects: The 2000 Revision, Highlights*, February 28, 2001, p. 1.

4. Joe Woodard, "Look Out Below!: The Plummeting Birth Rate Will Have a Profound Impact on Boomers as Well as Gen-Xers in the Next Century," *Calgary Herald*, September 12, 1999, p. A12.

5. Ben Wattenberg, "Très Gray: The Birth Dearth in Europe," *Intellectualcapital.com*, January 24, 1999.

6. Cheryl Stonehouse, "A Taxing Time for the Village with No Babies," *Express*, November 26, 1999.

7. James K. Robinson and Walter B. Rideout, eds., *A College Book of Modern Verse* (Evanston, Ill.: Row, Peterson and Company, 1960), p. 370.

8. Count Harry Kessler, *Walter Rathenau: His Life and Work* (New York: Howard Fertig, 1969), p. 271.

9. Alistair Horne, *To Lose a Battle: France 1940* (Boston: Little, Brown & Co., 1969), p. 10.

10. Joseph Chamie, director, United Nations Population Division, "Letter to Author," January 17, 2001.

11. Toby Helm, "Stoiber Pins Poll Hopes on Cash for Babies Plan," *Daily Telegraph*, January 3, 2001, p. 17.

12. Ellen Hale, "Graying of Europe Has Economies in Jeopardy," *USA Today*, December 22, 2000, p. A14.
13. Ibid.
14. Nicholas Eberstadt, "The Population Implosion," *Wall Street Journal*, October 16, 1997, p. A22.
15. Gregg Easterbrook, "Overpopulation Is No Problem—in the Long Run," *New Republic*, October 11, 1999, p. 22.
16. "The Rise of the Only Child," *Newsweek*, April 23, 2001, p. 50.
17. Ibid.
18. Hale, p. A14.
19. Ibid.
20. Jonathan Steele, "Europe Confronts the Unthinkable," *Manchester Guardian Weekly*, November 8, 2000, p. 14.
21. Jonathan Steele, "The New Migration: Affluent, Controversial," *Guardian*, October 30, 2000, p. 17.
22. Michael Specter, "The Baby Bust," *New York Times*, July 10, 1998, p. A1.
23. Amelia Gentleman, "Wanted: More Russian Babies to Rescue a Fast Dying Nation," *London Observer*, December 31, 2000; Robert Leqvold, "Russia's Uninformed Foreign Policy," *Foreign Affairs*, September/October 2001, p. 63.
24. Julia Duin, "Former Abortion Providers Find Peace, Solace in Therapy: Many See Religion as Integral to Change," *Washington Times*, February 22, 2001, p. A2.
25. Gentleman, "Wanted: More Babies to Rescue a Fast Dying Nation."
26. Chamie, "Letter to Author."
27. Paul Craig Roberts, "Hearing the Bell Toll," *Washington Times*, December 10, 2000, p. B4.
28. Anthony Browne, "UK Whites Will Be Minority by 2100," *London Observer*, September 2, 2000.
29. Anthony Browne, "Focus: Race and Population: The Last Days of a White World," *Observer*, September 3, 2000, p. 17.
30. "British Birth Rate Drops to Record Low," *Xinhua News Agency*, May 10, 2001.
31. Peggy Orenstein, "Parasites in Prêt-a-Porter," *Sunday New York Times*, Section 6, p. 31.
32. Ibid.
33. Ben Wattenberg, "Counting Change in Euroland," *Washington Times*, January 28, 1999, p. A18.
34. "Remarks by Mother Teresa of Calcutta, India, National Prayer Breakfast, Washington Hilton, Washington, D.C.," *Federal News Service*, February 3, 1994.
35. "Joan Ganz Cooney: Creator of 'Seasame Street,'" *Fort Worth Star Telegram*, September 26, 2000, p. 1.

Chapter Two: Where Have All the Children Gone?

1. Ben J. Wattenberg, *The Real America* (Garden City, N.Y: Doubleday & Company, 1974), p. 158.
2. Ibid., p. 159.

3. Ibid.

4. Allan Carlson, "The Natural Family Faces a New World Order: The Case of Population," *The Family in America*, The Howard Center for Family, Religion, and Society, October 1999, p. 4.

5. Ibid., p. 5.

6. James Kurth, "The American Way of Victory," *National Interest*, Summer 2000, p. 5.

7. Theodore Caplow, Louis Hicks, and Ben J. Wattenberg, *The First Measured Century* (Washington, D.C.: AEI Press, 2001), p. 38.

8. Eleanor Mills, "Too Busy to Have a Baby," *Spectator*, September 16, 2000.

9. Ibid.

10. Ibid.

11. Allan Carlson, "The Changing Face of the American Family," *The Family in America*, The Howard Center for Family, Religion, and Society, January 2001, p. 2.

12. Ibid.

13. Friedrich Engels, *The Origin of the Family, Private Property, and the State* (New York: International Publishers, Inc., 1972), p. 137.

14. Carlson, "The Changing Face of the American Family," p. 2.

15. Ibid.

16. Ibid., p. 3.

17. Ibid.

18. Ibid., p. 4.

19. Ibid., p. 5.

20. H. Arthur Scott Trask, "The Rise and Fall of Orestes Brownson," *Southern Partisan*, Summer 2001, p. 25.

21. Father C. John McCloskey, "Book Review: American Abundance," http://www.catholicity.com/cathedral/mccloskey/kudlow.html

22. Christopher Cerf and Victory Navasky. *The Experts Speak: The Definitive Compendium of Authoritative Misinformation* (New York: Pantheon Books, 1984), p. 299.

23. Jacqueline R. Kasun, "Population Control Today—and Tomorrow?" *The World and I*, No. 6, Vol. 16, p. 50.

24. Ibid.

25. Ibid.

26. Joseph Collison, "Weaving the Tangled Web," *New Oxford Review*, January 2001, p. 16.

27. George Grant, *Grand Illusions* (Brentwood, Tenn.: Wolgemuth & Hyatt, 1988), p. 59.

28. Andrea Dworkin, *Pornography: Men Possessing Women* (New York: G. P. Putnam's Sons, 1981), p. 9.

29. Kathleen Parker, "Moms Need to Admit Dad Isn't Disposable," *Orlando Sentinel*, November 6, 1996, p. E1.

30. Robin Morgan, ed., *Sisterhood Is Powerful* (New York: Random House, 1970), p. 573.

31. Valerie Solanis, *SCUM Manifesto* (London: Phoenix Press, 1968), p. 1.

32. Fr. Ted Colleton, "Family Is Key to Social Integration," *Interim*, May 1998, p. 1.

33. Vivian Gornick, *Daily Illini*, April 25, 1981.

34. Lynn Langway and Nancy Cooper, "Steinem at 50: Gloria in Excelsis," *Newsweek*, June 4, 1984, p. 27.

35. Paul Greenberg, "American Satire, from Bland to Worse," *Chicago Tribune*, November 18, 1991, p. 19.

36. Bonnie Angelo, "The Pain of Being Black," *Time*, May 22, 1989, p. 120.

37. Stephen Chapman, "Concern for Family Provokes Backlash from Feminists," *Chicago Tribune*, July 24, 1994, p. 3.

38. Wade Horn, "Supporting Men as Dads Can Benefit Everyone," *Washington Times*, February 8, 2000, p. E2.

39. Caplow, Hicks, and Wattenberg, p. 72.

40. Eric Schmitt, "For First Time, Nuclear Families Drop Below 25% of Households," *New York Times*, May 15, 2001, p. A1.

41. Katarina Runske, *Empty Hearts and Empty Houses* (Britain: Family Publications, 1990), p. 21.

42. Rudyard Kipling, "Gods of the Copybook Headings," 1919. http://www.kipling.org.uk/poems_copybook.htm

43. David A. Noebel, *The Legacy of John Lennon: Charming or Harming a Generation?* (Nashville, Tenn.: Thomas Nelson, 1982), p. 53.

44. Ibid.

45. Ron Lesthaeghe, "A Century of Demographic and Cultural Change in Western Europe: An Exploration of Underlying Dimensions," *Population and Development Review*, Fall 1983, p. 429.

46. *Humanae Vitae: Encyclical of Pope Paul VI on the Regulation of Birth*, July 25,1968. http://www.vatican.va/holy_father/paul_vi/en . . . /hf_p-vi_enc_25071968_humanae-vitae_en.htm

47. "Gay Times," *Washington Times*, July 28, 2000, p. A2.

48. John Leo, "Have It Your Way Is the New Moral Order," *Conservative Chronicle*, August 15, 2001, p. 6

49. J. M. and M. J. Cohen, eds., *The New Penguin Dictionary of Quotations* (London: Penguin Books, 1992), p. 314.

50. Will Durant, *Caesar and Christ* (New York: Simon & Schuster, 1944), p. 666.

51. Ibid.

52. Ibid.

53. Ibid.

54. Robert Debs Heinl, Jr., *Dictionary of Military and Naval Quotations* (Annapolis, Md.: United States Naval Institute, 1966), p. 317.

Chapter Three: Catechism of a Revolution

1. C. S. Lewis, *God in the Dock: Essays on Theology and Ethics*, Walter Hooper, ed. (Grand Rapids, Mich.: William B. Eerdmans Publishing Company, 1972), p. 220.

2. American Humanist Association, *Humanist Manifesto II*, 1973. http://www.humanist.net/documents/manifesto2.html

3. Robert Nisbet, *Prejudices: A Philosophical Dictionary* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1982), p. 101.

4. Phyllis Schlafly, "Secular Humanists Give Dunphy Another Platform," *Education Reporter*, November 1995. http://eagleforum.org/educate/1995/nov95/dunphy.html

5. Percy Bysshe Shelley, "A Defense of Poetry," *Selected Poetry and Prose*, Kenneth Neill Cameron, ed. (New York: Rinehart & Company 1958), p. 490.

6. John Lennon, "Imagine," *Imagine* (1971). http://beatleslyrics.tripod.com/lennon/imagine.htm

7. David A. Noebel, *The Legacy of John Lennon: Charming or Harming a Generation?* (Nashville, Tenn.: Thomas Nelson, 1982), p. 11.

8. Ibid., p. 47.

9. Joan Acocella, "The Hunger Artist: Is There Anything Susan Sontag Doesn't Want to Know?" *New Yorker*, March 6, 2000, p. 68.

10. Susan Sontag, *Partisan Review*, Winter 1967, p. 57.

11. Myron Magnet, *The Dream and the Nightmare* (New York: William Morrow and Company, Inc., 1993), p. 203.

12. Camille O. Cosby, "America Taught My Son's Killer to Hate Blacks," *USA Today*, July 8, 1998, p. 15A.

13. "Unrelenting Hostility," *Washington Times*, October 8, 1998, p. A2.

14. Magnet, p. 207.

15. Magnet, p. 205.

16. "How Minorities Are Damaged," *Newsday*, September 10, 1989, p. 1.

17. James K. Robinson and Walter B. Rideout, eds., *A College Book of Modern Verse* (Evanston, Ill.: Row, Peterson and Company, 1960), p. 354.

18. Allan Bloom, *The Closing of the American Mind* (New York: Simon & Schuster, 1987), p. 56.

19. Carol Innerst, "Multiculturalists Push Their Agenda; Want 'Far Right' School Board Ousted," *Washington Times*, August 10, 1994, p. A4.

20. Ibid.

21. Larry Rohter, "Battle over Patriotism Curriculum," *New York Times*, May 15, 1994, p. 22.

22. Ibid.

23. Ibid.

24. Ibid.

25. Ike Flores, "Board Demands Schools Teach American Superiority, Teachers Say Bias," Associated Press, May 25, 1994.

26. Ibid.

27. Ibid.

28. Ike Flores, "Candidates Who Backed 'Cultural Superiority' Defeated at Polls," Associated Press, October 7, 1994.

29. Ronald Radosh, "Mumia and the Historians," *FrontPageMag.com*, February 2, 2001.

30. Thomas Jefferson, "Letter to John Adams," October 28, 1813, in Albert Fried, *The Essential Jefferson* (New York: Collier Books, 1963), p. 517.

31. Lewis Carroll, *Alice's Adventures in Wonderland* (Franklin Center, Pa.: The Franklin Library, 1980), pp. 30–31.

32. David Dennett, *Darwin's Dangerous Idea: Evolution and the Meaning of Life* (New York: Touchstone Books, 1995), p. 516.

33. Ibid.

34. David A. Lieb, "Two Men Accused of Murder, Rape of 13-Year-Old Boy," Associated Press, November 2, 1999.

35. L. Brent Bozell III, "No Media Spotlight on Sex Killing of Boy," *Washington Times*, November 2, 1999, p. A14.

36. Andrew Sullivan, "The Death of Jesse Dirkhising," *Pittsburgh-Post Gazette*, April 1, 2001, p. E1.

37. Frank Morriss, "Compassion and Forgiveness Do Not Negate Justice," *Wanderer*, January 4, 2001, p. 4.

38. David Horowitz, "Racial Witch-Hunt," *Salon.com*, January 22, 2001.

39. William J. Bennett, *Index of Leading Cultural Indicators* (New York: Broadway Books, 1999), p. 17.

40. William Wilbanks, "Frequency and Nature of Interracial Crimes," submitted for publication to *Justice Professional*, November 2, 1990, pp. 2–9.

41. Robert Stacy McCain, "Hate Crimes Not Big Problem in Race Relations, Study Finds; Black-on-White Crime More Frequent and More Damaging," *Washington Times*, June 1, 1999, p. A2.

42. John Woods, "Race and Criminal Cowardice," *Right Now!*, October 2000, p. 11.

43. McCain, p. A2.

44. Ibid.

Chapter Four: Four Who Made a Revolution

1. Michael Loewy, *Georg Lukács from Romanticism to Bolshevism* (Patrick Caniller, Translator (London: NLB, 1979), p. 112. Cited by Raymond V. Raehn, "The Historical Roots of Political Correctness," The Free Congress Research and Education Foundation.

2. "We Won't Be Slaves to Enemies of the Truth," *Milwaukee Journal Sentinel*, October 3, 1999, p. 5.

3. Barbara Tuchman, *The Proud Tower: A Portrait of the World Before the War: 1890–1914* (New York: Ballantine Books, 1993), p. 462.

4. Loewy, p. 93.

5. Ibid., p. 151.

6. Gerald L. Atkinson, "What Is the Frankfurt School?" August 1, 1999, p. 2. http://www.newtotalitarians.com/FrankfurtSchool.html

7. Arnold Beichman, "In Search of Civil Society," *Washington Times*, February 3, 1993, p. G4.

8. Charles A. Reich, *The Greening of America* (New York: Bantam Books, 1971), p. 2.

9. John Fonte, "Why There Is a Culture War," *Policy Review*, December 2000 and January 2001, p. 17.

10. "Transcript #2077: War Powers Debate," *The MacNeil/Lehrer NewsHour*, September 13, 1983.

11. Raehn, p. 2.

12. Reich, p. 148.
13. Ibid.
14. Charles J. Sykes, *A Nation of Victims* (New York: St. Martin's Press, 1992), p. 54.
15. Ibid.
16. Patrick J. Buchanan, "Americans Need Not Fear United Germany," *Toronto Star*, October 16, 1989, p. A18.
17. Stephen Goode, "Radical Leftovers," *Insight on the News*, November 22, 1999, p. 10.
18. Sykes, p. 54.
19. Christopher Lasch, *The True and Only Heaven: Progress and Its Critics* (New York: W. W. Norton & Company, 1991), p. 447.
20. Jim Nelson Black, *When Nations Die* (Wheaton, Ill.: Tyndale House Publishers, 1994), p. 77.
21. William Lind, "Turn Off, Tune Out, Drop Out: A Cultural Conservative's Strategy for the 21st Century," *Against the Grain*, Free Congress Foundation, Washington, D.C., 1998.
22. Fonte, p. 16.
23. Reich, p. 276.
24. William Lind, "Origins of Political Correctness," Address to Accuracy in Academia's Annual Summer Conference, George Washington University, July 10, 1998.
25. John Leo, "Where Double Standards Are Accepted," *Washington Times*, August 5, 2000, p. A12.
26. Herbert Marcuse, *The Carnivorous Society*; cited by Raehn, p. 3.
27. Roger Kimball, *The Long March* (San Francisco, Calif.: Encounter Books, 2000), p. 15.
28. "Declaration by the Pontifical Council for the Family on Decrease of Fertility in the World," February 27, 1998, p. 3.
29. John Burgess, "Remembering Wren," *Washington Post*, June 14, 1998, p. E1.
30. Gertrude Himmelfarb, "Two Nations or Two Cultures? Party Differences Not as Stark as Cultural Differences," *Commentary*, January 1, 2000, p. 29.
31. F. O. Matthiessen, ed., *The Oxford Book of American Verse* (New York: Oxford University Press, 1950), p. 415.
32. Peter Hitchens, *The Abolition of Britain* (San Francisco, Calif.: Encounter Books, 2000), p. viii.
33. Ibid., p. 3.
34. Linda Massarella, "Angry Pope Slams Rome's Gay Fiesta as a Bitter 'Insult,'" *New York Post*, July 10, 2000, p. 20.
35. Ibid.
36. Patrick J. Buchanan, "Dehumanization of Dissent," *Washington Times*, February 8, 1999, p. A16.
37. Lionel Van Deerlin, "The Dynasty of Huey Long," *San Diego Union-Tribune*, February 28, 1985, p. B1.
38. Julien Benda, *La Trahison des Clercs: The Treason of the Intellectuals* (New York: W. W. Norton & Company, 1969).
39. Broadcast of American Dissident Voices, "The NEA's Anti-American Agenda Threatens Our Nation," March 13, 1993.

40. Walter Adolphe Roberts, "Birth Control and the Revolution," *Birth Control Review*, June 1917, p. 7.

41. Robert Nisbet, *Prejudices: A Philosophical Dictionary* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1981), p. 22.

42. Travis LeBlanc, "Western World Not Doomed After All," *University Wire*, November 3, 1997.

43. Eric Hoffer, *First Things, Last Things* (New York: Harper & Row, 1971), p. 71.

44. Laurence Barrett, "Can the Right Survive Success?" *Time*, March 19, 1990, p. 16.

45. Ibid.

46. James F. Cooper, "The Right Agenda: Recapture the Culture," *American Arts Quarterly*, Spring/Summer 1990, p. 3.

47. Ibid.

48. Ibid.

49. Ibid.

Chapter Five: The Coming Great Migrations

1. Robert J. Samuelson, "The Specter of Global Aging," *Washington Post*, February 28, 2001, p. A25.

2. Population Division, Department of Economic and Social Affairs, United Nations Secretariat, *Replacement Migration: Is It a Solution to Declining and Ageing Populations?* March 21, 2000, p. 139.

3. Ibid., p. 137.

4. Peter G. Peterson, *Gray Dawn: How the Coming Age Wave Will Transform America and the World* (New York: Times Books, 1999), p. 18.

5. "The Population Vacuum: Though Humanity Is Imploding, Demographers Refuse to Urge Women to Have More Babies," *Report Newsmagazine*, June 5, 2000, p. 43.

6. Jonathan Steele, "The New Migration: Affluent, Controversial," *Guardian*, October 30, 2000, p. 17.

7. London Observer Service, "British Whites to Be Minority by Year 2100," *Houston Chronicle*, October 8, 2000, p. 34.

8. Roger Cohen, "Illegal Migration Increases Sharply in European Union," *New York Times*, December 25, 2000, p. A1.

9. Molly Moore, "Smuggling of Humans into Europe Is Surging," *Washington Post*, May 28, 2001, p. 1.

10. Nicholas Eberstadt, "The Population Implosion," *Wall Street Journal*, October 16, 1997, p. 22.

11. Steele, p. 17.

12. Roger Cohen, "From Germany's East to West, Conservatives Try to Span Gulf," *New York Times*, June 1, 2001, p. A1.

13. Ibid., pp. A1, A8.

14. John O'Mahony, "A People Skating on Thin Ice," *Guardian*, February 3, 2001, p. 1.

15. Ibid.

16. Robert Cortell, "Islands of Contention," *Financial Times*, August 27, 2001, p.10.
17. "The Population Vacuum: Though Humanity Is Imploding, Demographers Refuse to Urge Women to Have More Babies," p. 43.
18. Sarah Karush, "Government Seeking Ways to Overcome Roots of Low Birth Rate," Associated Press, May 6, 2001.
19. Ibid.
20. Patrick J. Buchanan, "America Loses an Opportunity, and Russia as Ally," *Augusta Chronicle*, February 19, 1998, p. A4.
21. Thomas Babbington Macaulay, *Lays of Ancient Rome*, Horatius, xxvii.
22. American Humanist Association, *Humanist Manifesto II*, 1973. http://www.humanist.net/documents/manifesto2.html
23. Nat Hentoff, "Expanding the Culture of Death," *San Diego Union-Tribune*, January 1, 2001, p. B6.
24. Rita Marker, "Dutch Parliament Votes to Legalize Euthanasia," *International Anti-Euthanasia Task Force Update*, Fall 2000, p. 2.
25. Ibid., p. 3.
26. Ibid.
27. "Netherlands Parliament Legalizes Euthanasia," www.euthanasia.com, November 2000.
28. Marker, p. 3.
29. Licia Corbella, "Euthanasia Law an Open Door to 'Evil,' " *London Free Press*, April 24, 2001, p.A8.
30. Philip Pullella, "Pope Christmas Speech Laments 'Culture of Death,' " Reuters, December 25, 2000.
31. Ibid.
32. Hentoff, p. B6.
33. Marker, p. 7.
34. Marker, p. 8.
35. John Jacobs, "Richard Lamm's Hard Choices," *Sacramento Bee*, July 11, 1996, p. B6.
36. Paula Span, "Philosophy of Death; Bioethicist Peter Singer's Views on Euthanasia Foment Debate," *Washington Post*, December 9, 1999, p. C1.
37. Jacqueline R. Kasun, "Population Control Today—and Tomorrow?" *The World and I*, No. 6, Vol. 16, June 1, 2001, p. 50.
38. Wesley J. Smith, "Peter Singer Gets a Chair," *FrontPageMag.com*, October 22, 1998, p. 4.
39. P. J. King, "Lessons from History: Euthanasia in Nazi Germany," *Pregnantpause.org*, September 9, 2000.
40. Ibid.
41. Ibid.
42. Walker Percy, *The Thanatos Syndrome* (New York: Farrar, Straus Giroux, 1987), p. 360.
43. Terence Kealey, "Don't Blame Eugenics, Blame Politics," *Spectator*, March 17, 2001, p. 10.
44. Dorothy Thompson, "Review of *Mein Kampf*," from Adolf Hitler, *Mein Kampf* (New York: Reynal & Hitchcock, 1939), Introduction.
45. Kealey, ibid.

46. "Nazi Euthanasia," *The History Place: World War Two in Europe*. http://www.historyplace.com/worldwar2/timeline/euthanasia.htm

47. Ibid.

48. Kasun, op. cit.

49. John W. Wright, ed., *The New York Times Almanac: The Almanac of Record* (New York: Penguin Reference Books, 2000), pp. 470–72.

50. Warren H. Carroll, *The Building of Christendom: A History of Christendom*, vol. 2 (Front Royal, Va.: Christendom College Press, 1987), p. 280.

51. Barry Bearak, "Over World Protests, Taliban Are Destroying Ancient Buddhas," *New York Times*, March 4, 2001, p. 10.

52. William Wallace, "Europe, the Necessary Power," *Foreign Affairs*, May/June 2001, p. 24.

53. Ibid.

54. J. C. Willke, "Global Population: A Reality?" *Life Issues Connector*, January 1998. http://www.lifeissues.org/connector/98jan.html

55. Otto Scott, "The Shape of Events," Speech to the 15th Annual Meeting of the Committee for Monetary Research and Education, November 6, 1989. http://www.fortfreedom.org/h18.htm

56. Roland H. Bainton, *The Horizon History of Christianity* (New York: American Heritage Publishing, 1964), p. 143.

57. Thomas Hobbes, *Leviathan*, Michael Oakeshott, ed. (New York: Macmillan Publishing Company, 1962), p. 80.

Chapter Six: La Reconquista

1. *Excelsior*, Mexico City, 1982. http://www.americanpatrol.org/ADS/Reconquista Reelectio970719.html

2. Walter A. McDougall, *Promised Land, Crusader State: The American Encounter with the World Since 1776* (New York: Houghton Mifflin, 1997), p. 131.

3. Lewis Lapham, "God's Gunboats," *Harper's Magazine*, February 1993, p. 10.

4. Joseph A. D'Agostino, "Government Deports Only About 1% of Illegal Aliens," *Human Events*, March 23, 2001. http://www.humaneventsonline.com/articles/03-26-01/dagostino.html

5. Glenn Garvin, "Loco, Completamente Loco: The Many Failures of Bilingual Education," *Reason Online*, January 1998, p. 19.

6. Bill Baskervill, "Eugenics Gone but Effects Linger," Associated Press, March 13, 2000.

7. Samuel P. Huntington, "Reconsidering Immigration: Is Mexico a Special Case?" *Center for Immigration Studies Backgrounder*, November 2000, p. 5.

8. Ibid.

9. Ibid.

10. Adam C. Kolasinski, "How Republicans Can Approach the Minority Vote," *FrontPageMag.com*, January 26, 2001, p. 2.

11. Ben Wattenberg, *The First Universal Nation: Leading Indicators and Ideas About the Surge of America in the 1990s* (New York: The Ftee Press, 1991).

12. Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations* (New York: Simon & Schuster, 1996), p. 305.

13. Tamsin Carlisle and Joel Baglole, "In Western Canada, a Rising Sense of Grievance," *Wall Street Journal*, March 20, 2001.

14. George Szamuely, "Mexican Merger: United We Fall," Antiwar.com, August 31, 2000. http://www.antiwar.com/szamuely/sz083100.html

15. OECD, "GDP Per Capita, 1999." http://www.oecd.org/std/gdpperca.html

16. Patrick J. Buchanan, "Anti-Americanism in L.A.," *New York Post*, March 7, 1998, p. 13.

17. Lynda Gorov, "A War of Words in Texas Town: Government's Spanish-Only Policy Ignites Controversy," *Boston Globe*, August 28, 1999, p. A16.

18. S. U. Mahesh, "Lawmaker Suggests Racism to Blame After New State Name Axed," *Albuquerque Journal*, February 14, 2001, p. A6.

19. Samuel Francis, "Multiculturalists Preach Hatred of Whites and America," *Las Vegas Review-Journal*, February 27, 1998, p. 17B.

20. "Professor Predicts Hispanic Homeland," Associated Press, February 1, 2000.

21. "Immigration: Threatening the Bonds of Our Union," produced by American Patrol. http://www.americanpatrol.org/_SPECIAL/transcript3.html

22. Ibid.

23. Alan and Suzanne Nevling, "Mexico's Plans for Its Newest Colony: Inevitable Response to U.S. Abdication," *savetheusa.net*, July 11, 2000.

24. Sam Howe Verhovek, "Torn Between Nations, Mexican-Americans Can Have Both," *New York Times*, April 14, 1998, p. A12.

25. Ed Mendel, "Speaker-elect Product of Humble Past, Fiery Ascent," *San Diego Union-Tribune*, February 13, 1998, p. 13.

26. James Lubinskas, "Expressions of Ethnic Animosity," *FrontPageMag.com*, November 24, 1999. www.frontPageMag.com/archives/racerelations/lubinskas11-24-99.htm

27. Sam Dillon, "Mexico Woos U.S. Mexicans, Proposing Dual Nationality," *New York Times*, December 10, 1995, p. 16.

28. El Plan Espiritual de Aztlan, http://www.panam.edu/orgs/MEChA/aztlan.html

29. Ibid.

30. Ibid.

31. Ibid.

32. Ibid.

33. Ibid.

34. Movimento Estudiantil Chicano de Aztlan, National Constitution. http://www.panam.edu/orgs/MEChA/aztlan.html

35. Mark Levin, *FrontPageMag.com*, March 10, 2000. http://frontPageMag.com/archives/leftism/levin03-10-00p.htm.

36. Linda Wertheimer, "Mexico and the United States Agree the Problem of Accidental Border Incursions Must Be Dealt With," *All Things Considered*, March 31, 2000.

37. Robert Collier, "NAFTA Gives Mexicans New Reasons to Leave Home," *San Francisco Chronicle*, October 15, 1998, p. A11.

38. "An Unlikely Mexican Foreign Minister," *New York Times*, May 12, 2001, p. A26. Jorge Castaneda, "Ferocious Differences: Differences Between Mexico and the U.S.," *Atlantic Monthly*, July, 1995, p. 68.

39. San Quinones, "Mexico to Give Survival Kits to Border Jumpers," *San Francisco Chronicle*, May 17, 2001. www.sfgate.com/cgibin/article.cgi?file

40. William H. Frey. "Regional Shifts in America's Voting-Aged Population: What Do They Mean for National Politics?" Population Studies Center, 2001, p. 1.

41. Ken Ringle, "Ellis Island, the Half-Open Door; For a Nation That Struggled to Make Room in Its Heart, a New Monument to Immigrants," *Washington Post*, September 7, 1990, p. B1.

42. Arthur M. Schlesinger, Jr., *The Disuniting of America: Reflections on a Multicultural Society* (New York: W. W. Norton & Company, 1992), p. 118.

43. Carol Morello, "Living in Fear on the Border: Little Desert Town Is New Immigration Battleground," *USA Today*, July 21, 1999, p. 1A.

44. Nancy San Martin, "Unwelcomed Visitors: Arizonans Angry over Flood of Immigrants They Accuse of Damaging Their Property," *Dallas Morning News*, April 25, 1999, p. 53A.

45. Jonathan Aitken, *Nixon: A Life* (Washington, D.C.: Regnery Publishing, 1993), pp. 247–48.

46. George Will, "Blaming the Voters," *Washington Post*, September 24, 2000, p. B7.

47. Jim Yardley, "Non-Hispanic Whites May Soon Be a Minority in Texas," *New York Times*, March 25, 2001, p. A22.

48. Ibid.

49. Todd J. Gillman, "Latinos in U.S. Grow Diverse," *Dallas Morning News*, May 10, 2001, p. 7A.

50. Peter Brimelow, "Time to Rethink Immigration?" *National Review*, June 22, 1992. http://www.vdare.com/time_to_rethink.htm.

51. Stephen Glover, "Are the Tories the Stupid Party Again?" *Daily Mail*, December 5, 2000, p. 13.

52. Laura Parker, "U.S. Hispanics' Youth Assures More Growth," *USA Today*, May 10, 2001, p. 3A.

53. Walter V. Robinson, "Immigrant Voter Surge Seen Aiding Gore," *Boston Globe*, November 4, 2000, p. A1.

54. Ibid.

55. Ibid.

56. Ibid.

57. Ibid.

58. Ron Unz, "California and the End of White America," *Commentary*, November 1, 1999, p. 17.

59. George Borjas and Lynette Hilton, "Immigration and the Welfare State, Working Paper Series #5372," National Bureau of Economic Research, December 1995. http://www.fairus.org/html/04105611.htm

60. Dr. Donald Huddle, "The Net Costs of Immigration: The Facts, the Trends, and the Critics," Rice University, October 22, 1996. http://www.fairus.org/html/04105611.htm

61. Maria L. LaGanga, "California Grows to 33.9 Million, Reflecting Increased Diversity," *Los Angeles Times*, March 30, 2001, p. 1.

62. Robin Fields, "White Exodus Attributed to Economic Slump," *Los Angeles Times*, March 31, 2001, p. 22.

63. "California Census Confirms Whites Are in Minority," *New York Times*, March 30, 2001, p. 1.

64. Ibid.

65. Ken Ward, "The Double-Talk About Diversity," *Las Vegas Review-Journal*, October 11, 2000, p. 9B.

66. Georgie Anne Geyer, "Creative Politics on Alien Conflict," *Washington Times*, August 22, 1999, p. B4.

67. Charley Reese, "Truth Is, George W. Is No Match for Gore in Gaffe Department," *Orlando Sentinel*, November 16, 1999, p. A12.

68. Steven A. Camarota, "Immigrants in the United States, 2000: A Snapshot of America's Foreign-Born Population," *Center for Immigration Studies Backgrounder*, January 2001, p. 7.

69. D'Agostino, ibid.

70. U.S. Census Bureau, "The Foreign-Born Population in the United States," January 2001, p. 4.

71. Ibid., p. 5.

72. Ibid., p. 6.

73. Federation for American Immigration Reform, "Issue Brief: Immigrants on Welfare," June 1999, p. 1.

74. Federation for American Immigration Reform, "Issue Brief: Immigrants and the Economy," April 1999, p. 1.

75. Federation for American Immigration Reform, "Issue Brief: Government Studies on Criminal Aliens," April 1996, p. 2.

76. Federation for American Immigration Reform, "Issue Brief: Criminal Aliens," December 1998, p. 1.

77. Ibid., p. 2.

78. "Business Sets Strategies for Legislation and the 2002 Congressional Races," *Wall Street Journal*, May 18, 2001, p. 1.

79. Ibid.

80. Werner Sollors, *Beyond Ethnicity* (New York: Oxford University Press, 1986), p. 4.

81. Dan Schweikert, "Cultural Wars: A General Ignorance of Language, Logic, and Philosophy," *ENewsViews*, June 27, 1999, p. 1.

82. John Jay, *The Federalist*, No. 2, October 31, 1787.

83. Will Herberg, *Protestant, Catholic, Jew: An Essay in American Religious Sociology* (Chicago: University of Chicago Press), 1983 reprint.

84. Jeff Jacoby, "The Role of Religion in Government: Invoking Jesus at the Inauguration," *Boston Globe*, February 1, 2001, p. A15.

85. Ibid.

86. "Text of Bush's Inaugural Speech," Associated Press, January 20, 2001.

87. Schlesinger, p. 134.

88. John Stuart Mill, *Considerations on Represenative Government* (London: Everyman, 1993), p. 233

Chapter Seven: The War Against the Past

1. Otto Scott, "The Shape of Events," Speech to the 15th Annual Meeting of the Committee for Monetary Research and Education, November 6, 1989. http://www.fortfreedom.org/h18.htm

2. "Prepared Text of President Reagan's Farewell Address to the Nation," Associated Press, January 12, 1989.

3. George Orwell, *1984* (New York: Signet Classics, 1961), p. 32.

4. Marvin Seid, "Stories That Shaped the Century; Cold War First Turned Hot in Korea," *Los Angeles Times*, November 6, 1999, p. B4.

5. Karen Turni, "Scholars Fighting Battle of Myths," *Times Picayune*, January 9, 1994, p. A1.

6. Luke 17:2, *Holy Bible*, King James Version.

7. Arthur M. Schlesinger, Jr., *The Disuniting of America* (New York: W. W. Norton & Company, 1992), p. 52.

8. Ibid.

9. Mike Feinsilber, "499 Years Later, His Reputation Is as Tattered as His Sails," Associated Press, October 7, 1991.

10. Elisabeth Hickey, "500 Years After Discovery/Encounter, Columbus Is Up for Bashing," *Washington Times*, September 8, 1991, p. D4.

11. Lynda Hurst, "The First Immigrant," *Toronto Star*, October 12, 1991, p. D1.

12. Barbara Vobejda, "Which Legacy? Explorer's Image Changes with the Times," *Washington Post*, October 11, 1992, p. A1.

13. George Szamuely, "The Real Shame of the West," *American Outlook*, Winter 1999, p. 69.

14. John Noble Wilford, "Discovering Columbus," *New York Times Magazine*, August 11, 1992, p. 25.

15. Carmen Radedaugh, "Berkeley Holiday Honors Indigenous People," *University Wire*, October 10, 2000.

16. Robert Mercer Taliaferro Hunter, "Origin of the Late War," *Southern Historical Society Papers, vol. 1*, January 1876. http://www.civilwarhome.com/warorigin.htm

17. Robert Novak, *Completing the Revolution* (New York: The Free Press, 2000), p. 62.

18. Theodore Caplow, Louis Hicks, and Ben J. Wattenberg, *The First Measured Century* (Washington, D.C.: AEI Press, 2001), pp. 210–11.

19. Ibid.

20. David A. Yeagley, *FrontPageMag.com*, May 18, 2001.

21. Ibid.

22. James Verniere, "War Is Me!; Say You Want a Revolution?" *Boston Herald*, June 28, 2000, p. 51.

23. Ann Hornaday, "Freedom from Logic Defeats 'The Patriot,' " *Baltimore Sun*, June 28, 2000, p. E1.

24. Jam! Showbiz/Sun Wire, "Spike Lee Blasts 'Patriot' over Slavery," *Ottawa Sun*, July 7, 2000, p. 28.

25. Jonathan Foreman, "The Nazis, er, the Redcoats Are Coming!" *Salon.com*, July 3, 2000. http://www.salonmag.com/ent/movies/feature/2000/07/03/patriot/

26. Ibid.

27. Ibid.

28. Ibid.

29. Ibid.

30. Ibid.

31. Kevin Sack, "Un-Naming Names; Today's Battles Topple Yesterday's Heroes," *New York Times*, November 17, 1997, p. 5.

32. "Will State Dems Back Declaration?" *Wisconsin State Journal*, December 28, 2000, A1.

33. Andrea Billups, "Black Legislators Stall Bill on Independence Pledge," *Washington Times*, March 1, 2000, p. A3.

34. Florida American Indian Movement, "Press Release: Florida AIM Rejects Desperate Compromise to Keep Hitler Prototype in Springtime Tallahassee Parade," March 7, 2000.

35. "Indians Target Highway Named After Jackson," *Middle American News*, June 2001, p. 7.

36. Michael Rust, "Remembering Faces of Heroism," *Insight on the News*, July 19, 1999, p. 47.

37. "Schools Aren't Eager to Give Up Indian Nicknames, Tradition," Associated Press, April 19, 2001.

38. John Cummins, "Taking the Offensive Against Indian Nicknames," *Salt Lake Tribune*, August 6, 1994, p. A13.

39. Brian Bergstein, "Statue of Flag-Planting Mayor Causes Decade of Controversy in San Jose," Associated Press, October 15, 2000.

40. Peter Guinta, "The Flap About Ponce," *St. Augustine Record*, October 22, 2000, p. A12.

41. Elizabeth Kiggen Miller, "Anti-Bias Task Force Says No to a Pilgrim," *New York Times*, October 10, 1999, p. 16.

42. Ibid.

43. Bob Lewis, "Ex-Confederate Capital Still Struggles with Questions of Race," Associated Press, July 19, 2000.

44. Ralph Z. Hallow, "New DNC Chairman Enters Ring Swinging," *Washington Times*, February 4, 2001, p. A1.

45. Christy Hoppe, "Confederate Plaques Are Taken Down; Governor's Office Makes Quiet Change at Courts," *Dallas Morning News*, June 13, 2000, p. 1A.

46. "Florida Capitol Retires Confederate Flag," Associated Press, February 12, 2001.

47. Emily Wagster, "Confederate Emblem to Stay on Flag," Associated Press, April 18, 2001.

48. Randy Kraft, "Harpers Ferry History Involves Much More than John Brown," *Morning Call* (Allentown), March 28, 1998; Otto Scott, *The Secret Six: John Brown and the Abolitionist Movement* (New York: Times Books, 1979), pp. 288–91.

49. Steve Vogel, "New Controversy Under Old Banner; Prisoners' Descendants Want Confederate Flag in Cemetery," *Washington Post*, October 18, 2000, p. B1.

50. Fern Shen, "Group Rebels over Recall of Auto Tags; Confederate Flag Logo at Center of Maryland Fight," *Washington Post*, January 4, 1997, p. B1.

51. David L. Greene, "Civil War Buff Stands His Ground as Antietam Proposal Draws Fire," *Baltimore Sun*, September 24, 2000, p. 1B.

52. "Plan to Change City's Confederate Park into Cancer Memorial Draws Complaints," Associated Press, May 10, 1999.

53. Jack Hurst, *Nathan Bedford Forrest: A Biography* (New York: Vintage Books, 1994), p. 361.

54. Ibid., p. 385.

55. Ibid.

56. Walter Williams, "Overlooked Black Confederates," *Washington Times*, January 31, 2000, p. A13.

57. Stephen Dinan, "Gilmore Surrenders Virginia's Heritage," *Washington Times*, March 21, 2001, p. A1.

58. R. H. Melton, "Va. Scraps Tribute to Confederacy," *Washington Post*, March 21, 2001, p. A1.

59. Ibid.

60. Ibid.

61. "Carry Me Back, RIP," *Richmond Times Dispatch*, February 26, 1997, A12.

62. Justin Kaplan, "Selling 'Huck Finn' Down the River," *New York Times*, March 10, 1996, p. 27.

63. Linda Grant, "In Search of Harper Lee," *Independent*, December 15, 1991, p. 36.

64. Rod Dreher, "Banning Flannery; Down and Out in Louisiana," *Weekly Standard*, September 11, 2000, p. 33.

65. Ibid.

66. Ibid.

67. Ibid.

68. Ibid.

69. Ibid.

70. "African-American Lawyers Criticize Rehnquist for Singing 'Dixie,' " Associated Press, August 12, 1999.

71. Ibid.

72. Craig Timberg, "Rehnquist's Inclusion of 'Dixie' Strikes a Sour Note," *Washington Post*, July 22, 1999, p. B1.

73. Ibid.

74. Robert Stacy McCain, "Black Leaders Refuse to Pledge Allegiance to Flag; Call Stars and Stripes Symbol of Slavery," *Washington Times*, June 22, 1001, p. A1.

75. Ibid.

76. Paul Kelso, "Mayor Attacks Generals in Battle of Trafalgar Square," *Guardian*, October 20, 2000.

77. Ibid.

78. Gregory M. Grant, "What If It Becomes Desert Sword?" *Chicago Tribune*, September 20, 1990, p. 29.

79. Otto Scott, "The War Against the Past," *Compass*, October 1, 2000, p. 11.

80. "Super Bowl Closer After Arizona Vote," *USA Today*, November 5, 1992, p. 1C.

81. Orwell, p. 217.

82. Wilbert Bryant, Secretary of Education, "The Necessity of Civic Education," Speech to South Brunswick High School, Southport, North Carolina, November 10, 1998. http://www.seced.state.va.us/speechfiles/vetspch-web.htm

83. Scott, "The Shape of Events," op. cit.

84. Hugh Dellios, "Battle over History May Itself Prove Historic," *Chicago Tribune*, October 30, 1994, p. 1.

85. Vaishali Honawar, "Early Grades to 'Simplify' History; Keller, Pocahontas Replace Southern Generals in Lessons," *Washington Times*, December 31, 2000, p. A10.

86. Scott Veale, "History 101: Snoop Doggy Roosevelt," *New York Times*, July 2, 2000, p. 7.

87. Ibid.

88. Phil Kent, "The Tragic Decline of U.S. College Education," *Augusta Chronicle*, April 7, 1996, p. A4.

89. Ibid.

90. Andrea Billups, "History a Mystery to Collegians," *Washington Times*, February 21, 2000, p. A3.

91. Arthur Schlesinger, Jr., "Speaking Up," *Los Angeles Times*, February 7, 1992, p. B2.

92. John Leo, "The National Museums of PC," *U.S. News & World Report*, October 10, 1994, p. 21.

93. Tom Wolfe, "The Tyranny of Theory," *Guardian*, July 8, 2000, p. 1.

Chapter Eight: De-Christianizing America

1. *The Oxford Dictionary of Quotations* (London: Oxford University Press, second edition, 1966), p. 381.

2. Russell Kirk, *Eliot and His Age* (Peru, Ill: Sugden, 1971), p. 390.

3. Lawrence Auster, "Scam Artists or Victims? The Hasidic Defendants of New Square," *NewsMax.com*, January 31, 2001, p. 1.

4. Sarah Karush, "Couple with 16 Kids, and Counting, Defies Russia's Population Trend," Associated Press, April 28, 2001.

5. Peter Ford, "Churches on Wane in Europe," *Christian Science Monitor*, October 25, 1999, p. 1.

6. "Has Christianity Lost Its Identity in Europe?" *Classical Christian News*, October 8, 1999. http://www.prayerbook.ca/pblam699.htm

7. Ibid.

8. Nadia Rybarova, "Czech President Vaclav Havel: Man May Have Lost God," Associated Press, September 4, 1997.

9. Ibid.

10. Larry Witham, " 'Christian Nation' Now Fighting Words; Fordice Fumbles in PC Territory," *Washington Times*, November 23, 1992, p. A1.

11. Gary DeMar, *America's Christian History: The Untold Story* (Atlanta: American Vision, 1995), pp. 51–58.

12. Ibid., p. 1.

13. Ibid., p. 12.
14. Ibid., p. 3.
15. Ibid., p. 11.
16. Ibid., p. 2.
17. Ibid.
18. Ibid., p. 11.
19. Ibid., p. 3.
20. "Excerpts from Supreme Court Opinions on Prayer," *New York Times*, June 20, 2000, p. A22.
21. Marina Zogbi, "Marilyn Manson—a Controversial Conversation with the Irreverent Reverend," *Metal Edge*, July 1996. http://www.cfnweb.com/manson/press/me796.htm
22. Charles Lane, "High Court Lets Ruling on Church, State Stand," *Washington Post*, May 30, 2001, p. A3.
23. American Humanist Association, *Humanist Manifesto II*, 1973. http://humanist.net/documents/manifesto2.html
24. Ibid.
25. Ibid.
26. Ibid.
27. Ibid.
28. Ibid.
29. Ibid.
30. Jim Nelson Black, *When Nations Die* (Wheaton, Ill.: Tyndale House Publishers, 1994), p. xix.
31. C. S. Lewis, *God in the Dock: Essays on Theology and Ethics*, Walter Hooper, ed. (Grand Rapids, Mich.: William B. Eerdmans Publishing Company, 1972), p. 262.
32. "ACLU Asks Judge to Reel in Republic's Fish Symbol," Associated Press, May 6, 1999.
33. Bishop Norman McFarland, "A July 4 Meditation on the Faith of the Founders: One Nation Under God," *Orange County Register*, July 2, 1995, p. J1.
34. *Richmond Newspapers, Inc., et al., Appellants v. Commonwealth of Virginia et al.*, 448 U.S. 555, No. 79-243, Supreme Court of the United States, Concurring Opinion. Argued February 19, 1980. Decided July 2, 1980.
35. J. William J. Brennan, Jr., "To the Text and Teaching Symposium," Georgetown University, Washington, D.C., October 12, 1985. http://www.politics.pomona.edu/dml/LabBrennan.htm
36. William J. Quirk and R. Randall Bridwell, *Judicial Dictatorship* (New Brunswick N.J.: Transaction Publishers, 1995), p. xiii.
37. The Gallup Organization, Princeton, N.J., Poll taken August 12-13, 1997. http://www.gallup.com/poll/indicators/indreligion.asp
38. Christie Storm, "Communities of Faith," *Arkansas Democrat-Gazette*, October 30, 1999, p. H2.
39. Theodore Caplow, Louis Hicks, and Ben J. Wattenberg, *The First Measured Century: An Illustrated Guide to Trends in America, 1900-2000* (Washington, D.C.: AEI Press, 2001), p. 117.
40. Ibid., p. 116.

41. Fulton J. Sheen, "A Plea for Intolerance," 1931.

42. Patricia Rice, "Singing Out: Revisions Steal Poetry, Meaning from Hymns, Professor Says," *St. Louis Post-Dispatch*, June 21, 1997, p. 31.

43. Marjorie Hyer, "Discord on Hymn Changes; United Methodists Aim to Delete Sexism, Racism from Songs," *Washington Post*, March 1, 1986, p. B6.

44. Ibid.

45. John H. Adams, "Inclusive Language for God Is 'Battleground' in PCUSA," *Layman Online*, October 24, 2000. http://www.layman.org/layman/news-from-pcusa/inclusive-language-is-battleground.htm

46. "Debating Baptismal Language," *The Christian Century*, September 27, 1995, p. 880.

47. Sen. Robert Byrd, "Polytheism in Modern Garb," Speech to Senate, July 22, 1992. http://www.senate.gov/~byrd/speech-polytheism.htm

48. Richard N. Ostling, "O God Our [Mother and] Father; New Translations Seek to Rid Bible of 'Male Bias,' " *Time*, October 24, 1983, p. 56.

49. Michael Nelson, "Language Revision Sings; Methodist Hymnal Shows Amazing Grace in Rooting Out Hints of Sexism, Racism," *Commercial Appeal*, September 29, 1991, p. B6.

50. "Quotes from Nontheists." http://memberstripod.com/~Rhatheist/quotes.html

51. Patrick J. Buchanan, "Yes, Mario, There Is a Culture War," *Chicago Tribune*, September 14, 1992, p. 17.

52. David A. Noebel, *The Legacy of John Lennon: Charming or Harming a Generation?* (Nashville, Tenn.: Thomas Nelson, 1982), p. 38.

53. Ibid., p. 39.

54. "In the Bosom of Jesus: Yo Mama's Last Supper," *Nation*, May 28, 2001, p. 30.

55. Elizabeth Bumiller, "Affronted by Nude Last Supper, Giuliani Calls for Decency Panel," *New York Times*, February 16, 2001, p. A1.

56. Michael Janofsky, "Uproar over Virgin Mary in a Two-Piece Swimsuit," *New York Times*, March 31, 2001, p. A11.

57. Ibid.

58. Ibid.

59. Justin Bachman, "Critics Say King Heirs Are Selling Out His Image," Associated Press, March 30, 2001.

60. James F. Cooper, "The Right Agenda: Recapture the Culture," *American Arts Quarterly*, Spring/Summer 1990, p. 3.

61. Ibid.

62. Jay Lindsay, "Christian Group Says Tufts Decision to Cut Funding Threatens Religious Freedom," Associated Press, May 3, 2000.

63. Charles Socarides, "How America Went Gay," *America*, November 18, 1995, p. 20.

64. Ibid.

65. Ibid.

66. Ibid.

67. Harry V. Jaffa, *Homosexuality and Natural Law* (Montclair, Cal.: Claremont Institute for the Study of Statesmanship and Political Philosophy, 1990), p. 31.

68. Martin Luther King, Jr., "Letter from a Birmingham Jail," April 16, 1963. http://www.tcf.ua.edu/courses/Jbutler/T112/King-BirminghamJail.htm

69. George Washington, "Farewell Address," Philadelphia, Penn., September 17, 1796. http://www.virginia.edu/gwpapers/farewell/transcript/html

70. David Limbaugh, "On a Mission for Marriage," *Creators Syndicate*, September 7, 2000.

71. William J. Bennett, *Index of Leading Cultural Indicators* (New York: Broadway Books, 2000), p. 48.

72. Caplow et al., p. 70.

73. Bennett, p. 145.

74. Bennett, p. 52.

75. Bennett, p. 69.

76. Bennett, p. 27.

77. Bennett, p. 35.

78. Bennett, pp. 50, 27.

79. Anthony Harrigan, "The New Anti-Civilization," *Chronicles*, June 2001, p. 44.

80. Jim Nelson Black, *When Nations Die* (Wheaton, Ill.: Tyndale House Publishers, 1994), p. 8.

81. Ruth Gledhill, "Christianity Almost Beaten Says Cardinal," *London Times*, September 6, 2001.

82. Bruce Frohnen, "T. S. Eliot on the Necessity of Christian Culture," Witherspoon Lectures, Family Research Council. http://www.frc.org/papers/witherspoon/index.cfm?get=WT01&arc=yes

83. Russell Kirk, *Eliot and His Age* (New York: Random House, 1971), p. 324.

84. Boy Scouts of America, *Handbook for Boys* (Boyscouts of America, 1911), p. 215.

85. Jeffrie A. Herrman, "BSA Supports Spiritual Direction in Life," *Sun-Sentinel*, October 16, 2000, p. 25A.

86. Boy Scouts of America, "Position Statement on Homosexuality and the BSA," February 15, 1991. http://www.religioustolerance.org/bsa_0.htm

87. Peter Ferrara, "The Battle over the Boy Scouts," *Weekly Standard*, June 11, 2001, p. 21.

88. Transcript, "Should the ACLU Defend NAMBLA?" *The O'Reilly Factor*, January 2, 2001; Bill O'Reilly, "Corrupters Setting the Standards," *Washington Times*, May 21, 2001, p. A16.

89. Superior Court of New Jersey, Appellate Division, A-2427-95T3, *James Dale v. Boy Scouts of America*, Argued December 8, 1997, Decided March 2, 1998. http://diana.law.yale.edu/Diana/db/4298-36.html

90. "Spielberg to Quit Boy Scouts Board," Associated Press, April 17, 2001.

91. Valerie Richardson, "Democratic Delegates Boo the Boy Scouts of America," *Washington Times*, August 18, 2000, p. A1.

92. Nat Hentoff, "Scouts Honor? '60 Minutes' Coverage Biased and Unfair," *Washington Times*, April 16, 2001, p. A17.

93. Ibid.

94. T. S. Eliot, "Notes Towards the Definition of Culture," *Christianity and Culture* (New York: Harcourt, Brace, 1967), p. 200.

Chapter Nine: Intimidated Majority

1. James Lubinskas, *FrontPageMag.com*. http://www.FrontPageMag./RaceRelations/lubinskas11-24-99.htm

2. Roger Kimball, *The Long March* (San Francisco: Encounter Books, 2000), pp. 274–75.

3. Transcript. "Larry King Live," *CNN*, August 4, 2000.

4. "Taking Stock," *Nationalreview.com*, November 15, 2000. http://www.nationalreview.com/daily/nr111500.shtml

5. Jim Abrams, "Armey Expresses Concern About 'Racial McCarthyism,'" Associated Press, February 23, 2001.

6. Ibid.

7. Ibid.

8. Ibid.

9. Joseph D'Agostino and Timothy Carney, "Congressmen: Illegals Here to Stay," *Human Events*, April 2, 2001, p. 3.

10. "Transcript of Clinton Remarks at Portland State University Commencement," U.S. Newswire, June 15, 1998.

11. Peter Brimelow, *Alien Nation: Common Sense About America's Immigration Disaster* (New York: Random House, 1995), p. 233.

12. Henrik Bering, "Denmark, the Euro, and Fear of the Foreign," *Policy Review*, December 2000, p. 6.

13. Ibid.

14. James Burnham, *Suicide of the West* (New York: The John Day Company, 1964), p. 26.

15. Richard Weaver, *The Southern Tradition at Bay: A History of Post-Bellum Thought* (New Rochelle, N.Y.: Arlington House, 1968), p. 18.

16. George F. Will, "A Summons to Gratitude," *Newsweek*, August 17, 1998, p. 70.

17. Lionel Trilling, *Liberal Imagination: Essays on Literature and Society* (New York: Harcourt Brace, 1979 reprint), intro.

18. Crane Britton, *Anatomy of Revolution* (New York: Vintage Books, 1952), p. 45.

19. Adolf Hitler, *Mein Kampf* (New York: CPA Books, 2000), p. 191.

20. "Be Not Afraid; Justice Thomas on Courage and Civic Principles," *Washington Times*, February 15, 2001, p. A17.

21. Ibid.

22. Ibid.

23. Samuel Francis, *Revolution from the Middle* (Raleigh, N.C.: Middle American Press, 1997), p. 174.

24. Ibid.

25. Transcript, "This Week with David Brinkley," *ABC*, July 2, 1995.

26. Transcript, "Hannity and Colmes," *FOX NEWS*, December 20, 2000.

27. Steve Miller and Jerry Seper, "NAACP Tax Exempt Status Questioned; Critics Say Group Oversteps Bounds with Democratic Leanings," *Washington Times*, February 6, 2001, p. A1.

28. Richard Lezin Jones, "Georgia Is the Latest Battlefield in the Stars and Bars War," *Knight Ridder News Service*, February 6, 2001.

29. Richard Lowry, "'Conservative' and 'Racist': The Ashcroft Nomination and the Left's Foulest Card," *National Review*, February 5, 2000, p. 2.

30. John Sawyer, "Bush Says Scrutiny of Missouri Voters Validates Ashcroft," *St. Louis Post Dispatch*, January 14, 2001, p. A1.

31. David Garrow, *Bearing the Cross* (New York: William Morrow & Company, 1999), p. 351.

32. James K. Robinson and Walter P. Rideout, eds., *A College Book of Modern Verse* (Evanston, Illinois: Row, Peterson, and Company, 1960), p. 549.

33. Joan Acocella, "The Hunger Artist: Is There Anything Susan Sontag Doesn't Want to Know?" *The New Yorker*, March 6, 2000, p. 68.

34. Tom Wolfe, "The Tyranny of Theory," *Guardian*, July 8, 2000, p. 1.

35. Ibid.

36. Dinesh D'Souza, "Racism Is Not the Problem: Why Martin Luther King Got It Half Right," Accuracy in Academia Address, Georgetown University, 1999. http://www.conservativeuniversity.org/lecturehall/index.htm

37. Paul Craig Roberts and Lawrence M. Stratton, Jr., "Color Code," *National Review*, March 20, 1995, p. 48.

38. Barbara Tuchman, Conservativeforum.org, http://www.conservativeforum.org/authquot.asp?ID-622

39. Walter Williams, "Scholastic Expectations," *Washington Times*, November 18, 2000, p. A12.

40. Walter Williams, "Race Hustling Chorus," *Washington Times*, December 22, 2000, p. A20.

41. Stephen Gill, "The French Revolution: A Tale of Two Cities," *Independent*, June 14, 1989.

42. Chilton Williamson, "Democracy and the Art of Handloading," *Chronicles*, February 2001.

43. Thomas Edsall, "Voter Values Determine Political Affiliation," *Washington Post*, March 26, 2001, p. A1.

44. Terry Teachout, "Republican Nation, Democratic Nation?" *Commentary*, January 2001, p. 25.

45. Edsall, op. cit.

46. Amy Martinez, "Fighting Discrimination with What Business Fears: Big-Dollar Lawsuits," Cox *News Service*, March 4, 2001.

47. "The Truth About Jesse," *New York Post*, April 1, 2001, p. 52.

48. "Black Employees Sue Christian Coalition," *Washington Times*, February 24, 2001, p. A2.

Chapter Ten: A House Divided

1. Michael Blowen, "Jack Nicholson Roles Often Contradict His Life," *Des Moines Register*, April 30, 1998, p. 3.

2. J. Donald Adams, "Worth Fighting For," *New York Times*, October 6, 1996, p. 55.

3. Francis Beauchesne Thornton, ed., *Return to Tradition* (Fort Collins, Colo.: Roman Catholic Books), p. 304.

4. Will Durant, *Caesar and Christ* (New York: Simon & Schuster, 1944), p. 666.

5. James Burnham, *Suicide of the West* (New York: The John Day Company, 1964), p. 301.

6. Donna Nebenzahl, "Why the Globalization Pot Is About to Boil," *Gazette*, April 2, 2001, p. E4.

7. Norman Podhoretz, "My War with Allen Ginsberg," *Commentary*, August 1997. http://www.commentarymagazine.com/9708/norman.html

8. Roger Kimball, *The Long March: How the Cultural Revolution of the 1960s Changed America* (San Francisco: Encounter Books, 2000), p. 8.

9. Madison Grant and Charles Stewart Davison, *The Founders of the Republic on Immigration, Naturalization, and Aliens* (New York: Charles Scribner's Sons, 1928), p. iv.

10. Jacques Steinberg, "Test Scores Rise, Surprising Critics of Bilingual Ban," *New York Times*, August 20, 2000, p. 1.

11. Ibid.

12. Ibid.

13. *The New Oxford Book of American Verse*, Richard Ellmann, ed. (New York: Oxford University Press, 1976), pp. 395–96.

14. American Humanist Association, *Humanist Manifesto II*, 1973. http://humanist.net/documents/manifesto2.html

15. Ibid.

16. Strobe Talbott, "America Abroad; The Birth of the Global Nation," *Time*, July 20, 1992, p. 70.

17. Ibid.

18. Michael Mann, "Prodi Urges Fundamental Debate on Future of EU," *Financial Times*, February 14, 2001, p. 1.

19. Samuel Francis, *Thinkers of Our Time* (London: The Claridge Press, 1999), p. 102.

20. Peter Capella, "Swiss Decide Against Joining EU," *Manchester Guardian Weekly*, March 14, 2001, p. 5.

21. Ibid.

22. Mann, p. 1.

23. Ibid.

24. James Kurth, "The American Way of Victory," *National Interest*, Summer 2000, p. 5.

25. Patrick J. Buchanan, "Nature's Retribution," *New York Post*, February 24, 1983.

26. Kenneth Minogue, "How Civilizations Fail," *New Criterion*, April 2001. http://www.newcriterion.com/archive/19/apr01/minogue.htm

27. Fulton J. Sheen, "A Plea for Intolerance," 1931.

28. Ibid.

29. Ibid.

30. *Gone With the Wind*, Metro-Goldwyn-Mayer, 1939.

31. Terry Teachout, "Republican Nation, Democratic Nation?" *Commentary*, January 2001, p. 25.

32. Matthew 22:21, *Holy Bible*, King James Version.

33. James K. Fitzpatrick, "More of Them," *Wanderer*, December 7, 2000.

34. "100 Greatest Movies," American Film Institute. http://www.afioline.org:82/100movies/100list.asp

35. Ibid.

36. Ibid.

37. "100 Best Novels," Modern Library Board. http://www.randomhouse.com/modernlibrary/100best/novels.html

38. "100 Best Nonfiction," Modern Library Board. http://www.randomhouse.com/modernlibrary/100best/

39. "President-elect Bush's Victory Speech," *Facts on File*, December 13, 2000, p. 951A1.

40. Ernest Hemingway, *The Sun Also Rises* (New York: Scribner and Sons, 1996), p. 222.

41. Chilton Williamson, Jr., "Democracy and the Art of Handloading," *Chronicles*, February 2001.

42. Ibid.

43. Ibid.

44. *The Wizard of Oz*, Metro-Goldwyn-Mayer, 1939.

45. James MacGregor Burns, *Roosevelt: The Lion and the Fox* (New York: Harcourt, Brace, and World, 1956), p. 151.

46. Richard John Neuhaus, *The End of Democracy?: The Celebrated First Things Debate with Arguments Pro and Con and "The Anatomy of a Controversy"* (Dallas: Spence Publishing, 1997), pp. 5, 3.

47. Ibid., p. 7.

48. Ibid., p. 16.

49. Ibid., p. 17.

50. Alan Wolfe, "Oh, Those Beltway Innocents," *New York Times*, August 30, 1998, p. 13.

51. Irving Kristol, "Family Values: Not a Political Issue," *Wall Street Journal*, December 7, 1992, p. A14.

52. Gertrude Himmelfarb, *One Nation, Two Cultures* (New York: Alfred A. Knopf, 1999), p. 146.

53. Hilton Kramer and Roger Kimball, eds., *The Future of the European Past* (Chicago: Ivan R. Dee, 1996), p. 7.

54. Norman Podhoretz, *My Love Affair with America: The Cautionary Tale of a Cheerful Conservative* (New York: The Free Press, 2000), pp. 215, 218.

55. Ibid., p. 218.

56. Ibid., p. 217.

57. Ibid.

58. T. S. Eliot, *Christianity and Culture* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1968), p. 100.

59. Podhoretz, p. 220.

60. Jonathan Alter, "Where PC Meets Free Speech," *Newsweek*, April 2, 2001, p. 31.

61. Don Feder, "Planned Parenthood Demands a Recount," *Jewish World Review*, December 28, 2000.

62. Ibid.

63. Anne Fremantle, *The Papal Encyclicals* (New York: G. P. Putnam's Sons, 1956), p. 241.

64. Emily Wagster, "Mississippi Flag Vote Falls Largely Along Racial Lines," Associated Press, April 21, 2001.

65. James Madison, "The Federalist 49: Method of Guarding Against the Encroachments of Any One Department of Government by Appealing to the People Through a Convention," February 2, 1788.

66. John Fonte, "Why There Is a Culture War," *Policy Review*, December 2000 and January 2001, p. 21.

67. Ibid.

68. "Yo Philistines," *Washington Times*, February 21, 2001, p. A16.

69. Roger Kimball, "Closing Time? Jacques Barzun on Western Culture," *New Criterion*, June 2000. http://www.newcriterion.com/archive/18/jun00/barzun.htm

70. Ibid.

71. Herbert Stein, "Herb Stein's Unfamiliar Quotations," *Slate Magazine*, May 15, 1997.

72. Richard John Neuhaus, "Lord Acton, Cardinal Newman, and How to Be Ahead of Your Time," *First Things: A Monthly Journal of Religion and Public Life*, August 1, 2000, p. 77.

73. Pat Donnelly, "Know Your Diderot," *Gazette*, August 13, 1991, p. E1.

74. George Walden, "Coasting on Dead Men's Ideas," *Evening Standard*, February 12, 2001, p. 54.

75. Tirdad Derakhshani, "At God's Funeral, Biographer Describes 'Killers' of the Deity," *Arizona Republic*, August 29, 1999, p. E12.

76. Jim Nelson Black, *When Nations Die* (Wheaton, Ill.: Tyndale House Publishers, 1994), p. 9.

77. John Senior, *The Death of Christian Culture* (New Rochelle, N.Y.: Arlington House Publishers, 1978), p. 7.

78. Abraham Lincoln, "First Inaugural Address," Washington, D.C., March 4, 1861. http://libertyonline.hypermall.com/Lincoln/lincoln-1.html

79. James K. Robinson and Walter B. Rideout, eds., *The College Book of Modern Verse* (Evanston, Ill.: Row, Peterson and Company, 1960), p. 65.

80. Eliot, p. 50.

81. Ibid.

82. Kimball. http://www.newcriterion.com/archive/18/jun00/barzun.htm

83. David Ramsey, "John Brown's Body Still Draws Americans to Ponder His Legacy," *Houston Chronicle*, September 27, 1998, p. A38.

موت الغرب، الكتاب الذي هز الأمة، وكان من أفضل الكتب مبيعاً على المستوى القومي؛ إنه نظرة ثاقبة لا تهاب، تتفرس في الانهيار المتزايد في الثقافة والقوة الغربية.

موت الغرب، يروي بالتفصيل كيف أن الحضارة، والثقافة، والنظام الأخلاقي يودي بها الموت، ويتنبأ بنظام جديد للعالم يحمل في ثناياه مضامين مرعبة.

موت الغرب، دراسة جاءت في حينها، وهي استفزازية تطرح السؤال الذي يزعج الملايين بهدوء، وهو: هل أمريكا التي ترعرعنا فيها قد ذهبت إلى الأبد؟

«أفضل كتبه حتى الآن». واشنطون تايمز

«حسن التدبر والحجة وجيد البحث والاستقصاء».

بالتيمور صن

باتريك جيه. بوكانن؛ كان مستشاراً كبيراً لثلاثة رؤساء أمريكيين، وخاض سباق تسمية المرشح لمنصب الرئيس عن الجمهوريين مرتين في العام ١٩٩٢ وفي العام ١٩٩٦، ثم كان مرشح انتخابات الرئاسة عن حزب الإصلاح في العام ٢٠٠٠، مؤلف لخمسة كتب أخرى، من جملتها كتابان من أفضل الكتب مبيعاً هما: «مُحِقّ من البداية» و«جمهورية لا إمبراطورية»، وهو كاتب لعمود صحافي ينشر في عدة صحف، وعضو مؤسس لثلاثة من أشهر برامج التلفزيون العامة في محطة إن بي سي، وفي محطة سي إن إن.

كاتب مثير في أفكاره ومواقفه، وتسبب مقالاته وكتبه جدلاً ثقافياً وسياسياً منذ أكثر من عشرين عاماً، وهذا الكتاب أنموذج لطريقة تفكيره ومعالجته لعدد من المشكلات.